التدبر والبيان

في

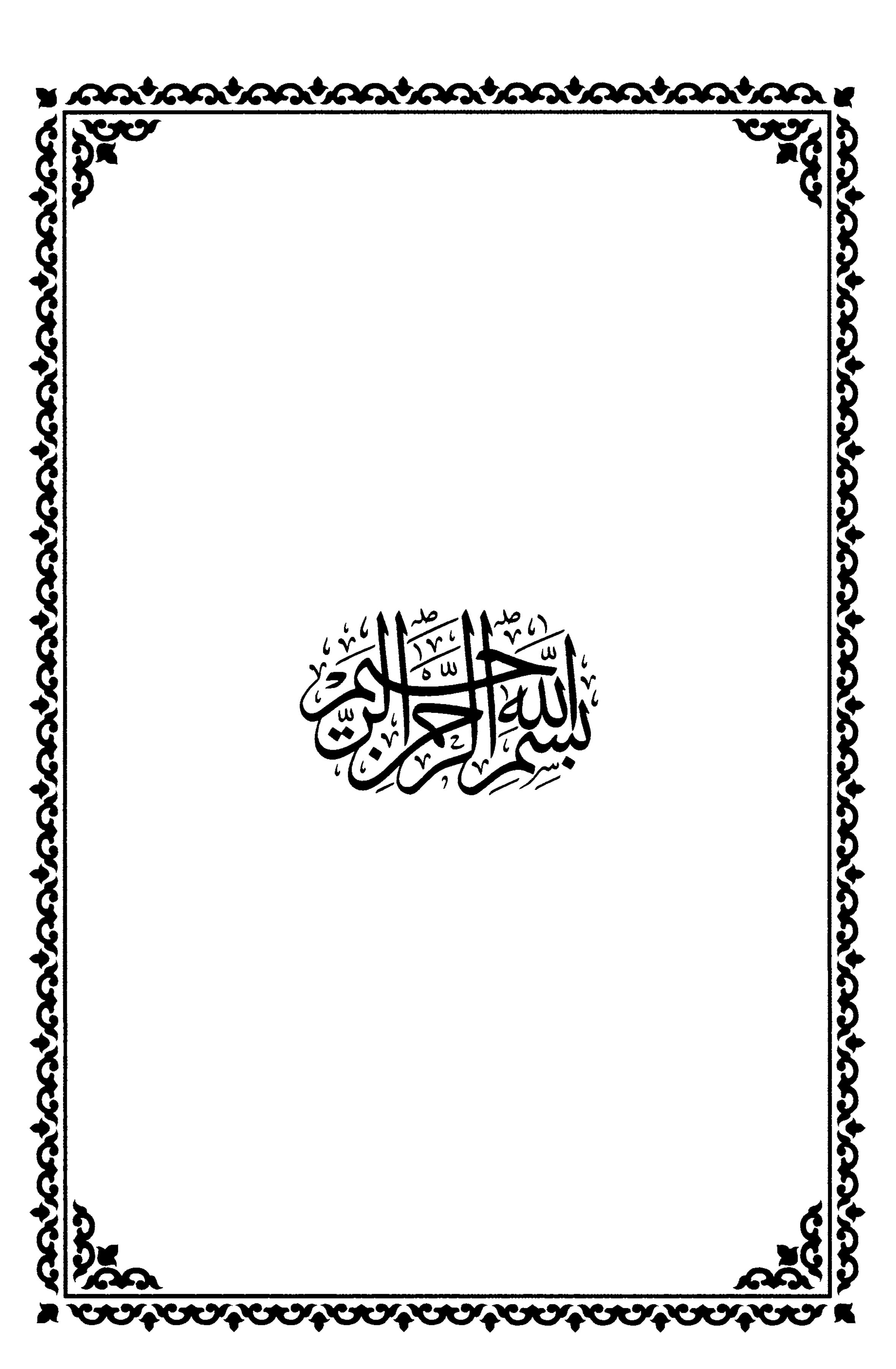
تفسير القرآن بصحيح السنن

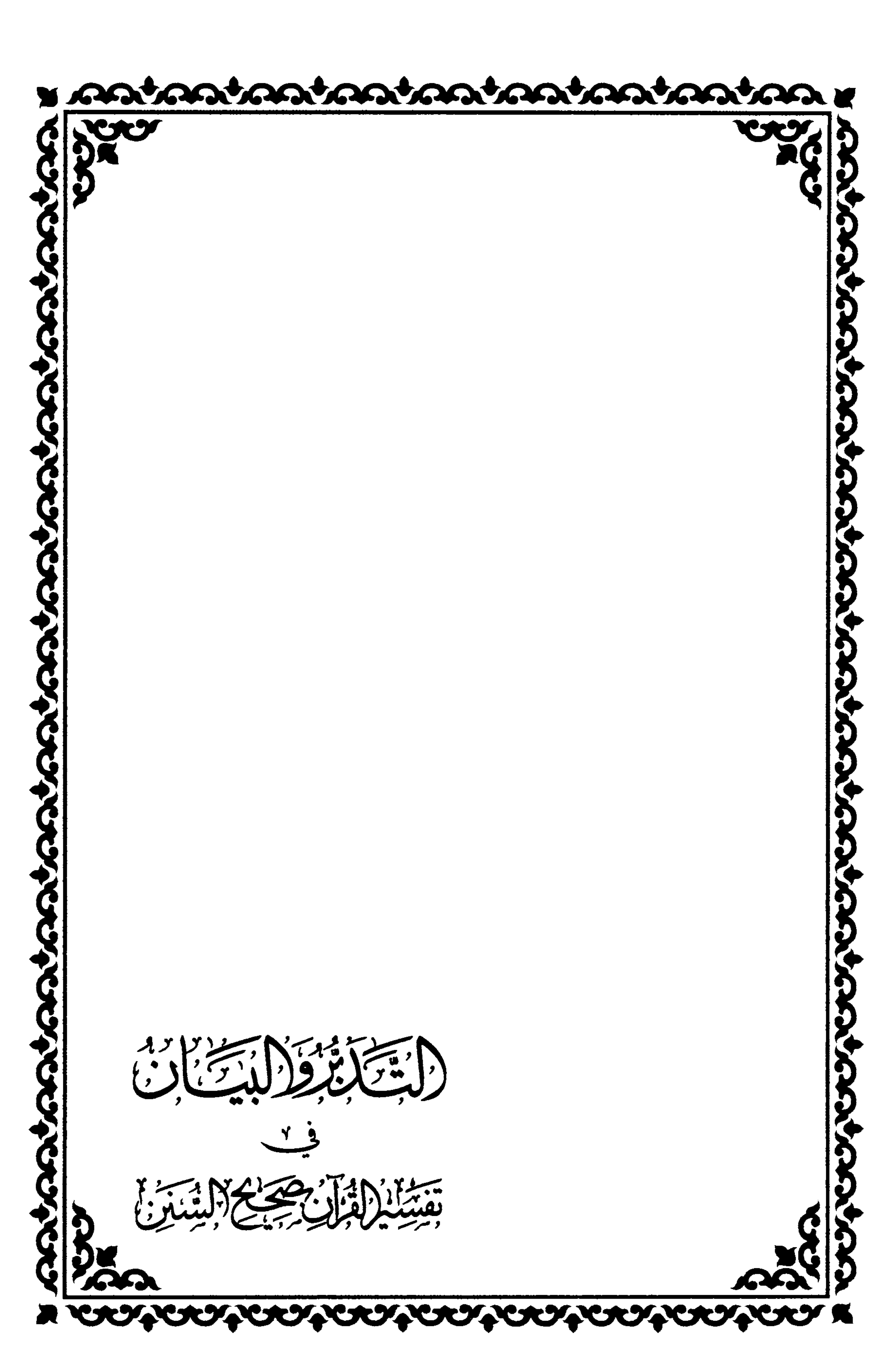
تأليف الأستاذ الدكتور

أبي سهل محمد بن عبد الرحمن المغراوي

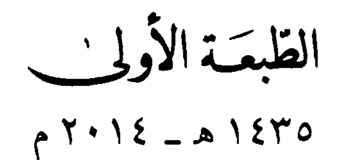
المجلد الحادي والعشرون

طه - الأنبياء


بسم الله الرحمن الرحيم


التدبر والبيان
في
تفسير القرآن بصحيح السنن





١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤ م

الكتاب : التدبر والبيان
في تفسير القرآن بصحيح السنن

Title : AT-TADABBUR WAL-BAYĀN
FĪ TAFSĪR AL-QUR'ĀN BI ṢAḤĪḤ AS-SUNAN

Classification: Exegesis — التصنيف : تفسير

المؤلف : أبو سهل محمد بن عبد الرحمن المغراوي

Author : Abu Sahl Muhammad ben Abdur-Rahman Al-Maghrawi.

Pages (40 Volumes) 22072 — عدد الصفحات (40 مجلداً)

Size 17 x 24 cm — قياس الصفحات

Year 2014 A.D - 1435 H. — سنة الطباعة

Printed in : Lebanon — بلد الطباعة : لبنــان

Edition : 1st — الطبعة : الأولى

رقم الإيداع القانوني : ٢٠١٤ MO ٠٤٢٨

ردمك : ٧ - ١٤٧ - ٣٣ - ٩٩٥٤ - ٩٧٨



سورة طه

أغراض السورة

قال ابن عاشور : «احتوت من الأغراض على :

التحدي بالقرآن بذكر الحروف المقطعة في مفتتحها ، والتنويه بأنه تنزيل من اللَّه لهدي القابلين للهداية ؛ فأكثرها في هذا الشأن، والتنويه بعظمة اللَّه تعالى .

وإثبات رسالة محمد ﷺ بأنها تماثل رسالة أعظم رسول قبله شاع ذكره في الناس . فضرب المثل لنزول القرآن على محمد ﷺ بكلام اللَّه موسى عليه السلام .

وبسط نشأة موسى ، وتأييد اللَّه إياه ، ونصره على فرعون بالحجة والمعجزات وبصرف كيد فرعون عنه وعن أتباعه .

وإنجاء اللَّه موسى وقومه وغرق فرعون ، وما أكرم اللَّه به بني إسرائيل في خروجهم من بلد القبط .

وقصة السامري وصنعه العجل الذي عبده بنو إسرائيل في مغيب موسى عليه السلام ، وكل ذلك تعويض بأن مآل بعثة محمد ﷺ صائر إلى ما صارت إليه بعثة موسى عليه السلام من النصر على معانديه . فلذلك انتقل من ذلك إلى وعيد من أعرضوا عن القرآن ، ولم تنفعهم أمثاله ومواعظه .

ورتب على ذلك سوء الجزاء في الآخرة لمن جعلوا مقادتهم بيد الشيطان ، وإنذارهم بسوء العقاب في الدنيا .

وتسلية النبي ﷺ على ما يقولونه، وتثبيته على الدين.

وتخلل ذلك إثبات البعث. وتهويل يوم القيامة، وما يتقدمه من الحوادث والأهوال»[1].

* * *

(١) التحرير والتنوير (١٦/ ١٨١-١٨٢).

قوله تعالى: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ۝٣﴾

★ غريب الآية:

لِتَشْقَى: الشِّقوة والشَّقَاوَة والشَّقاء: سُوء الحظ، وهو ضد السعادة، يقال منه: شَقِيَ يَشْقَى.

يخشى: الخشية: أشد الخوف.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿طه﴾؛ أظهر الأقوال فيه عندي أنه من الحروف المقطّعة في أوائل السُّوَر، ويدل لذلك أن الطاء والهاء المذكورتين في فاتحة هذه السورة، جاءتا في مواضع أخر لا نزاع فيها في أنهما من الحروف المقطّعة، أما الطاء ففي فاتحة الشعراء ﴿طسٓمٓ﴾ وفاتحة النمل ﴿طسٓ﴾ وفاتحة القصص، وأمَّا الهاء ففي فاتحة مريم في قوله تعالى: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾»[1].

ثم ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أقوالًا أخرى في معنى كلمة (طه) وقال: «وفي قوله ﴿طه﴾ أقوال أخر ضعيفة، كالقول بأنه من أسماء النَّبي ﷺ. والقول بأن الطاء من الطهارة، والهاء من الهداية، يقول لنبيه: يا طاهرًا مِن الذنوب، يا هادي الخلق إلى علام الغيوب، وغير ذلك من الأقوال الضعيفة. والصواب إن شاء اللَّه في الآية هو ما صدرنا به، ودل عليه القرآن في مواضع أخر»[2].

وقال: «في قوله تعالى: ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾ وجهان من التفسير، وكلاهما يشهد له قرآن:

الأول: أن المعنى: ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى. أي لتتعب التعب الشديد

(١) أضواء البيان (٤/ ٣).
(٢) أضواء البيان (٤/ ٤).

بفرط تأسفك عليهم وعلى كفرهم، وتحسرك على أن يؤمنوا.

وهذا الوجه جاءت بنحوه آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾(١)، وقوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾(٢)، وقوله: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾(٣).

والآيات بمثل ذلك كثيرة جدًّا، وقد قدمنا كثيرًا منها في مواضع من هذا الكتاب المبارك.

الوجه الثاني: أنه ﷺ صلى الليل حتى تورَّمتْ قدماه، فأنزل اللَّه ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾، أي: تنهك نفسك بالعبادة وتذيقها المشقة الفادحة. وما بعثناك إلا بالحنيفية السمحة. وهذا الوجه تدل له ظواهر آيات من كتاب اللَّه، كقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾(٤)، وقوله ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾(٥). والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

ويفهم من قوله: ﴿لِتَشْقَىٰٓ﴾ أنه أُنزل عليه ليسعد. كما يدل له الحديث الصحيح: «**مَن يُرد اللَّه به خيرًا يفقهه في الدين**»(٦). ويشبه معنى الآية على هذا القول الأخير قوله تعالى: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾(٧)»(٨).

وقال: «وقوله تعالى: ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾. أظهر الأقوال فيه: أنه مفعول لأجله، أي ما أنزلنا عليك القرآن إلا تذكرة، أي إلا لأجل التذكرة لمن يخشى اللَّه ويخاف عذابه. والتذكرة: الموعظة التي تلين لها القُلوب. فتمتثل أمر اللَّه، وتجتنب نهيه.

وخص بالتذكرة من يخشى دون غيرهم، لأنهم هم المنتفعون بها، كقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾(٩)، وقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾(١٠)، وقوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾(١١)، فالتخصيص المذكور في

---

(١) فاطر: الآية (٨).
(٢) الكهف: الآية (٦).
(٣) الشعراء: الآية (٣).
(٤) الحج: الآية (٧٨).
(٥) البقرة: الآية (١٨٥).
(٦) سيأتي تخريجه قريبًا.
(٧) المزمل: الآية (٢٠).
(٨) أضواء البيان (٤/ ٤).
(٩) ق: الآية (٤٥).
(١٠) يس: الآية (١١).
(١١) النازعات: الآية (٤٥).

الآيات بمن تنفع فيهم الذكرى؛ لأنهم هم المنتفعون بها دون غيرهم. وما ذكره هنا من أنه ما أنزل القرآن إلا للتذكرة بينه في غير هذا الموضع كقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ۝ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾[2]، إلى غير ذلك من الآيات»[3].

قال السعدي: «﴿طه﴾ من جملة الحروف المقطعة، المفتتح بها كثير من السور، وليست اسما للنبي ﷺ.

﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ﴾ أي: ليس المقصود بالوحي، وإنزال القرآن عليك، وشرع الشريعة، لتشقى بذلك، ويكون في الشريعة تكليف يشق على المكلفين، وتعجز عنه قوى العاملين.

وإنما الوحي والقرآن والشرع، شرعه الرحيم الرحمن، وجعله موصلا للسعادة والفلاح والفوز، وسهله غاية التسهيل، ويسر كل طرقه وأبوابه، وجعله غذاء للقلوب والأرواح، وراحة للأبدان، فتلقته الفطر السليمة والعقول المستقيمة بالقبول والإذعان، لعلمها بما احتوى عليه من الخير في الدنيا والآخرة، ولهذا قال:

﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ أي: إلا ليتذكر به من يخشى اللّه تعالى، فيتذكر ما فيه من الترغيب إلى أجلّ المطالب، فيعمل بذلك، ومن الترهيب عن الشقاء والخسران، فيرهب منه، ويتذكر به الأحكام الحسنة الشرعية المفصلة، التي كان مستقرا في عقله حسنها مجملا، فوافق التفصيل ما يجده في فطرته وعقله، ولهذا سماه اللّه ﴿تَذْكِرَةً﴾، والتذكرة لشيء كان موجودا، إلا أن صاحبه غافل عنه، أو غير مستحضر لتفصيله، وخص بالتذكرة مَن يَخْشَى، لأن غيره لا ينتفع به، وكيف ينتفع به من لم يؤمن بجنة ولا نار، ولا في قلبه من خشية اللّه مثقال ذرة؟ هذا ما لا يكون، ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ۝ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ﴾[4]»[5].

قال ابن عاشور: «افتتحت السورة بملاطفة النبي ﷺ بأنّ اللّه لم يرد من إرساله وإنزال القرآن عليه أن يشقى بذلك، أي تصيبه المشقّة ويشده التعب، ولكن أراد أن

---

(١) التكوير: الآيتان (٢٧-٢٨).

(٢) الأنعام: الآية (٩٠).

(٣) أضواء البيان (٤/ ٥).

(٤) الأعلى: الآيات (١٠-١٢).

(٥) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ١٤٢-١٤٣).

يذكر بالقرآن من يخاف وعيده.

وفي هذا تنويه أيضًا بشأن المؤمنين الذين آمنوا بأنهم كانوا من أهل الخشية ولولا ذلك لما ادّكروا بالقرآن»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل العلم والتفقه في الدين

* عن معاوية بن أبي سفيان ﷺ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**من يرد اللَّه به خيرًا يفقهه في الدين، وإنما أنا قاسم واللَّه يعطي، ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر اللَّه لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله**»[٢].

★ فوائد الحديث:

قال السندي: قوله: «**فقهه في الدين**»؛ أي جعله فقيهًا فيه، والفقه هو العلم الذي يترتب عليه الخشية، قال اللَّه تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾[٤]، واللَّه تعالى أعلم»[٥].

قال الحافظ: «ومفهوم الحديث أن من لم يتفقه في الدين -أي: يتعلم قواعد الإسلام وما يتصل بها من الفروع- فقد حرم الخير.. لأن من لم يعرف أمور دينه لا يكون فقيها ولا طالب فقه، فيصح أن يوصف بأنه ما أريد به الخير، وفي ذلك بيان ظاهر لفضل العلماء على سائر الناس، ولفضل التفقه في الدين على سائر العلوم»[٦].

قال ابن القيم: «وهذا يدل على أن من لم يفقهه في دينه لم يرد به خيرا، كما أن من أراد به خيرا فَقَّهَهُ في دينه، ومن فقهه في دينه فقد أراد به خيرا إذا أريد بالفقه العلم المستلزم للعمل، وأما إن أريد به مجرد العلم، فلا يدل على أن من فقه في

---

(١) التحرير والتنوير (١٦/ ١٨٤).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٩٢ و٩٣ و٩٥ و٩٧ و٩٨ و٩٩ و١٠١)، والبخاري (١/ ٢١٧/ ٧١)، ومسلم (٢/ ٧١٨/ ١٠٣٧)، وابن ماجه (١/ ٨٠/ ٢٢١).

(٣) فاطر: الآية (٢٨).

(٤) التوبة: الآية (١٢٢).

(٥) هامش المسند (٢٨/ ٤٩).

(٦) فتح الباري (١/ ٢١٨).

الدين فقد أريد به خيرا ، فإن الفقه حينئذ يكون شرطا لإرادة الخير ، وعلى الأول يكون موجبا ، والله أعلم»[1] .

قال ابن بطال : «وفيه فضل الفقه في الدين على سائر العلوم ، وإنما ثبت فضله ، لأنه يقود إلى خشية الله ، والتزام طاعته ، وتجنب معاصيه ، قال الله تعالى : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاؤُا﴾[2] ، وقال ابن عمر -للذى قال له : فقيه- : إنما الفقيه الزاهد في الدنيا ، الراغب في الآخرة .

ولمعرفة العلماء بما وعد الله به الطائعين ، وأوعد العاصين ، ولعظيم نعم الله على عباده اشتدت خشيتهم»[3] .

* * *

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٢٤٦) .

(٢) فاطر : الآية (٢٨) .

(٣) شرح صحيح البخاري (١/ ١٥٤) .

قوله تعالى: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾﴾

★ **غريب الآية:**

العُلَى: جمع عليا، تأنيث أعلى، أفعل تفضيل.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى﴾.. أي نزله اللَّه ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ﴾، أي فليس بشعر ولا كهانة، ولا سحر ولا أساطير الأولين، كما دل لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[١]، والآيات المصرحة بأن القرآن منزل من رب العالمين كثيرة جدًّا معروفة، كقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٢]، وقوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾[٣]، وقوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾[٤]، والآيات بمثل ذلك كثيرة جدًّا»[٥].

قال ابن كثير: «أي: هذا القرآن الذي جاءك يا محمد تنزيل من رب كل شيء ومليكه، القادر على ما يشاء، الذي خلق الأرض بانخفاضها وكثافتها، وخلق السموات العلى في ارتفاعها ولطافتها»[٦].

قال السعدي: «.. ثم ذكر جلالة هذا القرآن العظيم، وأنه تنزيل خالق الأرض والسماوات المدبر لجميع المخلوقات، أي فاقبلوا تنزيله بغاية الإذعان والمحبة والتسليم وعظموه نهاية التعظيم.

وكثيرا ما يقرن بين الخلق والأمر كما في هذه الآية، وكما في قوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾[٧]، وفي قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ

(١) الحاقة: الآيات (٤١-٤٣).
(٢) الشعراء: الآية (١٩٢).
(٣) الزمر: الآية (١).
(٤) فصلت: الآية (٢).
(٥) أضواء البيان (٤/ ٥-٦).
(٦) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٦٧).
(٧) الأعراف: الآية (٥٤).

﴿بَيْنَهُنَّ﴾[١]، وذلك أنه الخالق الآمر الناهي، فكما أنه لا خالق سواه، فليس على الخلق إلزام ولا أمر ولا نهي إلا من خالقهم، وأيضا فإن خلقه للخلق فيه من التدبير القدري الكوني، وأمره فيه التدبير الشرعي الديني، فكما أن الخلق لا يخرج عن الحكمة، فلم يخلق شيئًا عبثا، فكذلك لا يأمر ولا ينهى إلا بما هو عدل وحكمة وإحسان»[٢].

* * *

(١) الطلاق: الآية (١٢).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ١٤٣-١٤٤).

قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾

★ **غريب الآية:**

اسْتَوَى: علا وارتفع.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ يقول -تعالى ذكره-: الرحمن على عرشه ارتفع وعلا»[١].

قال ابن كثير: «وقوله ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾: تقدم الكلام على ذلك في سورة الأعراف، بما أغنى عن إعادته أيضًا، وأن المسلك الأسلم في ذلك طريقة السلف، إمرار ما جاء في ذلك من الكتاب والسنة من غير تكييف ولا تحريف، ولا تشبيه، ولا تعطيل، ولا تمثيل»[٢].

وانظر قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾[٣] من سورة الأعراف.

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفة الاستواء وأنها من الصفات الفعلية

* عن مالك بن أنس أن رجلًا سأله عن قول اللَّه ﷻ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ كيف استوى؟ قال: فأطرق مالك ثم قال: استواؤه غير مجهول، والفعل منه غير معقول، والمسألة عن هذا بدعة. قال بقي: وحدثنا أيوب بن صلاح المخزومي بالرملة، قال: كنا عند مالك إذ جاءه عراقي، فقال له: يا أبا عبداللَّه، مسألة أريد أن أسألك عنها؟ فطأطأ مالك رأسه، فقال له: يا أبا عبداللَّه، ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ كيف استوى؟ قال: سألت عن غير مجهول. وتكلمت في غير معقول، إنك

---

(١) جامع البيان (١٦/ ١٣٨).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٦٨).
(٣) الأعراف: الآية (٥٤).

امرؤ سوء، أخرجوه، فأخذوا بضبعيه فأخرجوه[١].

★ **غريب الحديث:**

فَأَطْرَقَ: أطرق رأسه: أي أماله وأسكنه.

فَطَأْطَأَ: خفض رأسه.

بِضَبْعَيْه: أي بعضديه.

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن تيمية: «القول في الاستواء والنزول، كالقول في سائر الصفات التي وصف اللَّه بها نفسه في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ؛ فإن اللَّه تعالى سمى نفسه بأسماء، ووصف نفسه بصفات، سَمّى نفسه: حيا، عليما، حكيما، قديرا، سميعا، بصيرا، غفورا، رحيما، إلى سائر أسمائه الحسنى.

قال اللَّه تعالى: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾[٢]، وقال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾[٣]، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾[٤]، وقال: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ﴾[٥]، أي بقوة، وقال: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[٦].

وقال عن ملائكته: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾[٧]، وقال: ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾[٨]، وقال: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾[٩]، وقال: ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ﴾[١٠]، وقال: ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[١١]، وقال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾[١٢]، وقال: ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ﴾[١٣]،

---

(١) أخرجه: ابن عبدالبر في التمهيد (فتح البر ٢/ ٢٨)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ٣٠٤-٣٠٦/ ٨٦٦-٨٦٧) وجود إسناد البيهقي الحافظ في الفتح (١٣/ ٥٠١).

(٢) طه: الآية (٧).

(٣) البقرة: الآية (٢٥٥).

(٤) الذاريات: الآية (٥٨).

(٥) الذاريات: الآية (٤٧).

(٦) الأعراف: الآية (١٥٦).

(٧) غافر: الآية (٧).

(٨) البينة: الآية (٨).

(٩) التوبة: الآية (٧٢).

(١٠) الفتح: الآية (٦).

(١١) الأعراف: الآية (١٥٢).

(١٢) النساء: الآية (١٦٤).

(١٣) البقرة: الآية (٢٥٣).

وقال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾[١]، وقال: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾[٢]، وقال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾[٣]، وقال: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾[٥]، وقال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ﴾[٦]، وقال تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾[٧]. وأمثال ذلك؛ فالقول في بعض هذه الصفات كالقول في بعض.

ومذهب سلف الأمة وأئمتها أن يوصف اللَّه بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله ﷺ، من غير تحريف، ولا تعطيل؛ ولا تكييف، ولا تمثيل.

فلا يجوز نفي صفات اللَّه تعالى التي وصف بها نفسه؛ ولا يجوز تمثيلها بصفات المخلوقين؛ بل هو سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[٨]، ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله.

وقال نعيم بن حماد الخزاعي: من شبه اللَّه بخلقه فقد كفر، ومن جحد ما وصف اللَّه به نفسه فقد كفر، وليس ما وصف اللَّه به نفسه ورسوله تشبيها.

ومذهب السلف بين مذهبين، وهدى بين ضلالتين: إثبات الصفات، ونفي مماثلة المخلوقات؛ فقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ رد على أهل التشبيه والتمثيل، وقوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ رد على أهل النفي والتعطيل، فالممثل أعشى، والمعطل أعمى: الممثل يعبد صنما، والمعطل يعبد عدما.

وقد اتفق جميع أهل الإثبات على أن اللَّه حي حقيقة، عليم حقيقة، قدير حقيقة، سميع حقيقة، بصير حقيقة، مريد حقيقة، متكلم حقيقة؛ حتى المعتزلة النفاة للصفات قالوا: إن اللَّه متكلم حقيقة؛ كما قالوا مع سائر المسلمين- إن اللَّه عليم حقيقة، قدير حقيقة؛ بل ذهب طائفة منهم كأبي العباس الناشي إلى أن هذه الأسماء حقيقة لله مجاز للخلق.

وأما جمهور المعتزلة مع المتكلمة الصفاتية -من الأشعرية الكلابية،

---

(١) الأنعام: الآية (١١٥).
(٢) طه: الآية (٤٦).
(٣) النساء: الآية (١٣٤).
(٤) ص: الآية (٧٥).
(٥) المائدة: الآية (٥٤).
(٦) البقرة: الآية (٢١٠).
(٧) الفجر: الآية (٢٢).
(٨) الشورى: الآية (١١).

والكرامية، والسالمية، وأتباع الأئمة الأربعة من الحنفية، والمالكية، والشافعية، والحنبلية، وأهل الحديث، والصوفية- فإنهم يقولون: إن هذه الأسماء حقيقة للخالق ﷻ؛ وإن كانت تطلق على خلقه حقيقة أيضا. ويقولون: إن له علما حقيقة، وقدرة حقيقة، وسمعا حقيقة، وبصرا حقيقة.

وإنما ينكر أن تكون هذه الأسماء حقيقة؛ النفاةُ من القرامطة الإسماعيلية الباطنية، ونحوهم من المتفلسفة الذين ينفون عن اللَّه الأسماء الحسنى، ويقولون: ليس بحي ولا عالم ولا جاهل، ولا قادر ولا عاجز، ولا موجود ولا معدوم؛ فهؤلاء ومن ضاهاهم ينفون أن تكون له حقيقة. ثم يقول بعضهم: إن هذه الأسماء لبعض المخلوقات، وأنها ليست له حقيقة ولا مجازا.

وهؤلاء الذين يسميهم المسلمون الملاحدة؛ لأنهم ألحدوا في أسماء اللَّه وآياته، وقد قال اللَّه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ﴾[2]، وهؤلاء شر من المشركين الذين أخبر اللَّه عنهم بقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾[3]، وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾[4].

فإن أولئك المشركين إنما أنكروا اسم الرحمن فقط، وهم لا ينكرون أسماء اللَّه وصفاته؛ ولهذا كانوا عند المسلمين أكفر من اليهود والنصارى.

ولو كانت أسماء اللَّه وصفاته مجازا يصح نفيها عند الإطلاق؛ لكان يجوز أن اللَّه ليس بحي، ولا عليم، ولا قدير، ولا سميع، ولا بصير، ولا يحبهم ولا يحبونه، ولا استوى على العرش؛ ونحو ذلك.

ومعلوم بالاضطرار من دين الإسلام أنه لا يجوز إطلاق النفي على ما أثبته اللَّه تعالى من الأسماء الحسنى والصفات؛ بل هذا جحد للخالق وتمثيل له بالمعدومات. وقد قال أبو عمر بن عبدالبر: أهل السنة مجمعون على الإقرار

---

(١) الأعراف: الآية (١٨٠). (٢) فصلت: الآية (٤٠).
(٣) الفرقان: الآية (٦٠). (٤) الرعد: الآية (٣٠).

بالصفات الواردة كلها في القرآن والسنة، والإيمان بها، وحملها على الحقيقة لا على المجاز؛ إلا أنهم لا يكيفون شيئًا من ذلك. ولا يحدون فيه صفة محصورة، وأما أهل البدع من الجهمية والمعتزلة والخوارج فينكرونها ولا يحملونها على الحقيقة، ويزعمون أن من أقر بها مشبه، وهم عند من أقر بها نافون للمعبود لا مثبتون. والحق فيما قاله القائلون بما نطق به الكتاب والسنة، وهم أئمة الجماعة.

وهذا الذي حكاه ابن عبد البر عن المعتزلة ونحوهم هو في بعض ما ينفونه من الصفات، وأما فيما يثبتونه من الأسماء والصفات، كالحي والعليم والقدير والمتكلم فهم يقولون: إن ذلك حقيقة، ومن أنكر أن يكون شيء من هذه الأسماء والصفات حقيقة إنما أنكره لجهله مسمى الحقيقة، أو لكفره وتعطيله لما يستحقه رب العالمين، وذلك أنه قد يظن أن إطلاق ذلك يقتضي أن يكون المخلوق مماثلا للخالق؛ فيقال له: هذا باطل؛ فإن اللَّه موجود حقيقة، والعبد موجود حقيقة؛ وليس هذا مثل هذا، واللَّه تعالى له ذات حقيقة، والعبد له ذات حقيقة، وليس ذاته كذوات المخلوقات.

وكذلك له علم وسمع وبصر حقيقة، وللعبد علم وسمع وبصر حقيقة؛ وليس علمه وسمعه وبصره مثل علم اللَّه وسمعه وبصره، ولله كلام حقيقة، وللعبد كلام حقيقة؛ وليس كلام الخالق مثل كلام المخلوقين.

ولله تعالى استواء على عرشه حقيقة، وللعبد استواء على الفلك حقيقة؛ وليس استواء الخالق كاستواء المخلوقين؛ فإن اللَّه لا يفتقر إلى شيء ولا يحتاج إلى شيء، بل هو الغني عن كل شيء.

واللَّه تعالى يحمل العرش وحملته بقدرته، ويمسك السموات والأرض أن تزولا. فمن ظن أن قول الأئمة: «**إن اللَّه مستو على عرشه حقيقة**» يقتضي أن يكون استواؤه مثل استواء العبد على الفلك والأنعام، لزمه أن يكون قولهم: إن اللَّه له علم حقيقة، وسمع حقيقة، وبصر حقيقة، وكلام حقيقة، يقتضي أن يكون علمه وسمعه وبصره وكلامه مثل المخلوقين وسمعهم وبصرهم وكلامهم»[١].

وقال: «وأما الآية: فقد استفاض أنه سئل عنها مالك بن أنس وقال له السائل:

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ١٩٤-١٩٩).

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ كيف استوى؟ فأطرق مالك برأسه حتى علاه الرُّحضاء؛ ثم قال: الاستواء معلوم؛ والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة؛ وما أراك إلا مبتدعا. ثم أمر به فأخرج.

وجميع أئمة الدين: كابن الماجشون، والأوزاعي، والليث بن سعد، وحماد بن زيد، والشافعي، وأحمد بن حنبل وغيرهم: كلامهم يدل على ما دل عليه كلام مالك؛ من أن العلم بكيفية الصفات ليس بحاصل لنا؛ لأن العلم بكيفية الصفة فرع على العلم بكيفية الموصوف، فإذا كان الموصوف لا تعلم كيفيته امتنع أن تعلم كيفية الصفة.

ومتى جنب المؤمن طريق التحريف والتعطيل، وطريق التمثيل، سلك سواء السبيل؛ فإنه قد علم بالكتاب والسنة والإجماع ما يعلم بالعقل أيضًا أن اللَّه تعالى ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ لا في ذاته، ولا في صفاته ولا في أفعاله، فلا يجوز أن يوصف بشيء من خصائص المخلوقين؛ لأنه متصف بغاية الكمال منزه عن جميع النقائص، فإنه سبحانه غني عن ما سواه، وكل ما سواه مفتقر إليه، ومن زعم أن القرآن دل على ذلك فقد كذب على القرآن؛ ليس في كلام اللَّه سبحانه ما يوجب وصفه بذلك؛ بل قد يؤتى الإنسان من سوء فهمه، فيفهم من كلام اللَّه ورسوله معاني يجب تنزيه اللَّه سبحانه عنها، ولكن حال المبطل مع كلام اللَّه ورسوله كما قيل:

وَكَمْ مِنْ عَائِبٍ قَوْلًا صَحِيحًا   وَآفَتُهُ مِنَ الفَهْمِ السَّقِيمِ

ويجب على أهل العلم أن يبينوا نفي ما يظنه الجهال من النقص في صفات اللَّه تعالى، وأن يبينوا صون كلام اللَّه ورسوله عن الدلالة على شيء من ذلك، وأن القرآن بيان وهدى وشفاء؛ وإن ضل به من ضل فإنه من جهة تفريطه، كما قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا﴾[١]، وقوله: ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًى﴾[٢]»[٣].

---

(١) الإسراء: الآية (٨٢).

(٢) فصلت: الآية (٤٤).

(٣) مجموع الفتاوى (٦/ ٣٩٨-٤٠٠).

قال أبو عمر: «قال يحيى بن إبراهيم بن مزين: إنما كره مالك أن يتحدث بتلك الأحاديث؛ لأن فيها حدا وصفة وتشبيها، والنجاة في هذا: الانتهاء إلى ما قال اللَّه ﷻ، ووصف به نفسه بوجه ويدين وبسط واستواء وكلام فقال: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾[1] وقال: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾[2] وقال: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾[3] وقال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ فليقل قائل بما قال اللَّه، ولينته إليه، ولا يعدوه، ولا يفسره، ولا يقل كيف؟ فإن في ذلك الهلاك، لأن اللَّه كلف عبيده الإيمان بالتنزيل، ولم يكلفهم الخوض في التأويل الذي لا يعلمه غيره. وقد بلغني عن ابن القاسم؛ أنه لم ير بأسا برواية الحديث: «**إن اللَّه ضحك**»، وذلك لأن الضحك من اللَّه والتنزل والملالة والتعجب منه، ليس على جهة ما يكون من عباده»[4].

وقال: «وأما ادعاؤهم المجاز في الاستواء، وقولهم في تأويل استوى استولى، فلا معنى له، لأنه غير ظاهر في اللغة. ومعنى الاستيلاء في اللغة المغالبة، واللَّه لا يغالبه ولا يعلوه أحد، وهو الواحد الصمد، ومن حق الكلام أن يحمل على حقيقته حتى تتفق الأمة أنه أريد به المجاز، إذ لا سبيل إلى اتباع ما أنزل إلينا من ربنا إلا على ذلك، وإنما يوجه كلام اللَّه ﷻ إلى الأشهر والأظهر من وجوهه ما لم يمنع من ذلك ما يجب له التسليم، ولو ساغ ادعاء المجاز لكل مدع ما ثبت شيء من العبارات، وجل اللَّه ﷻ عن أن يخاطب إلا بما تفهمه العرب في معهود مخاطباتها مما يصح معناه عند السامعين، والاستواء معلوم في اللغة ومفهوم، وهو العلو والارتفاع على الشيء والاستقرار والتمكن فيه؛ قال أبو عبيدة في قوله تعالى: ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ قال: علا، قال: وتقول العرب: استويت فوق الدابة واستويت فوق البيت، وقال غيره: استوى: أي انتهى شبابه واستقر فلم يكن في شبابه مزيد.

قال أبو عمر: الاستواء الاستقرار في العلو، وبهذا خاطبنا اللَّه ﷻ، وقال: ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾[5] وقال: ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى

---

(١) البقرة: الآية (١١٥). (٢) المائدة: الآية (٦٤).
(٣) الزمر: الآية (٦٧).
(٤) التمهيد (فتح البر ٢/ ٢٨-٢٩).
(٥) الزخرف: الآية (١٣).

﴿الْجُودِيِّ﴾[1] وقال: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ﴾[2]، وقال الشاعر:

فَأَوْرَدْتُهُمْ مَاءً بِفَيْفَاءَ قَفْرَةٍ وَقَدْ حَلَّقَ النَّجْمُ اليَمَانِيُّ فَاسْتَوَى

وهذا لا يجوز أن يتأول فيه أحد استولى، لأن النجم لا يستولي، وقد ذكر النضر بن شميل -وكان ثقة مأمونا جليلا في علم الديانة واللغة- قال: حدثني الخليل -وحسبك بالخليل- قال: أتيت أبا ربيعة الأعرابي، وكان من أعلم من رأيت، فإذا هو على سطح، فسلمنا فرد علينا السلام، وقال لنا: استووا، فبقينا متحيرين ولم ندر ما قال، قال: فقال لنا أعرابي إلى جنبه إنه أمركم أن ترتفعوا، قال الخليل: هو من قول اللّه ﷻ: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾[3]، فصعدنا إليه فقال: هل لكم في خبز فطير، ولبن هجير، وماء نمير، فقلنا: الساعة فارقناه، فقال: سلاما، فلم ندر ما قال: فقال الأعرابي إنه سالمكم متاركة لا خير فيها ولا شر، قال الخليل: هو من قول اللّه ﷻ: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾[4].

وأما نزع من نزع منهم بحديث يرويه عبداللّه بن داود الواسطي عن إبرهيم بن عبدالصمد عن عبدالوهاب بن مجاهد عن أبيه عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ على جميع بريته، فلا يخلو منه مكان، فالجواب عن هذا: أن هذا حديث منكر عن ابن عباس، ونَقَلَتُهُ مجهولون ضعفاء؛ فأما عبداللّه بن داود الواسطي وعبد الوهاب بن مجاهد فضعيفان، وإبرهيم بن عبد الصمد مجهول لا يعرف، وهم لا يقبلون أخبار الآحاد العدول، فكيف يسوغ لهم الاحتجاج بمثل هذا من الحديث لو عقلوا أو أنصفوا، أما سمعوا اللّه ﷻ حيث يقول: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ۝٣٦ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾[5]، فدل على أن موسى عليه السلام كان يقول: إلهي في السماء، وفرعون يظنه كاذبا،

فَسُبْحَانَ مَنْ لاَ يَقْدِرُ الخَلْقُ قَدْرَهُ وَمَنْ هُوَ فَوْقَ العَرْشِ فَرْدٌ مُوَحَّدُ
مَلِيكٌ عَلَى عَرْشِ السَّمَاءِ مُهَيْمِنٌ لِعِزَّتِهِ تَعْنُو الوُجُوهُ وَتَسْجُدُ

(١) هود: الآية (٤٤).
(٢) المؤمنون: الآية (٢٨).
(٣) فصلت: الآية (١١).
(٤) الفرقان: الآية (٦٣).
(٥) غافر: الآيتان (٣٦-٣٧).

وهذا الشعر لأمية بن أبي الصلت، وفيه يقول في وصف الملائكة:

فَمِنْ حَامِلٍ إِحْدَى قَوَائِمِ عَرْشِهِ ... وَلَولاَ إِلَهُ الخَلْقِ كَلُّوا وَأَبْلَدُوا

قِيَامٌ عَلَى الأَقْدَامِ عَانُونَ تَحْتَهُ ... فَرَائِصُهُمْ مِنْ شِدَّةِ الْخَوْفِ تَرْعَدُ

.. ومن الحجة أيضًا في أنه ﷻ على العرش فوق السموات السبع؛ أن الموحدين أجمعين من العرب والعجم إذا كربهم أمر، أو نزلت بهم شدة، رفعوا وجوههم إلى السماء يستغيثون ربهم -تبارك وتعالى-، وهذا أشهر وأعرف عند الخاصة والعامة من أن يحتاج فيه إلى أكثر من حكايته؛ لأنه اضطرار لم يؤنبهم عليه أحد، ولا أنكره عليهم مسلم»[1].

* * *

(١) فتح البر (٢/ ٩-١٢).

قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦﴾

⋆ غريب الآية:

الثَّرَى: هو التراب النَّدِي الذي تحت هذا التراب الظاهر.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: الجميع ملكه وفي قبضته، وتحت تصريفه ومشيئته وإرادته وحكمه، وهو خالق ذلك ومالكه وإلهه، لا إله سواه، ولا رب غيره»[1].

قال السعدي: «﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من ملك وإنسي وجني وحيوان وجماد ونبات ﴿وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ أي الأرض، فالجميع ملك لله تعالى، عبيد مدبرون مسخرون تحت قضائه وتدبيره ليس لهم من الملك شيء، ولا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا»[2].

* * *

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٦٨).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ١٤٤).

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «خاطب اللَّه نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة بأنه إن يجهر بالقول، أي يقله جهرة في غير خفاء، فإنه -جل وعلا- يعلم السر وما هو أخفى من السر. وهذا المعنى الذي أشار إليه هنا ذكره في مواضع أخر، كقوله: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾[1]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[4]، إلى غير ذلك من الآيات.

وفي المراد بقوله في هذه الآية: ﴿وَأَخْفَى﴾ أوجه معروفة كلها حق ويشهد لها قرآن. قال بعض أهل العلم ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ﴾: أي ما قاله العبد سرًّا ﴿وَأَخْفَى﴾ أي ويعلم ما هو أخفى من السر، وهو ما توسوس به نفسه. كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾[5]. وقال بعض أهل العلم: ﴿فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ أي ما توسوس به نفسه ﴿وَأَخْفَى﴾ من ذلك، وهو ما علم اللَّه أن الإنسان سيفعله قبل أن يعلم الإنسان أنه فاعله، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾[6]، وكما قال تعالى ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾[7]، فاللَّه يعلم ما يسره الإنسان اليوم. وما سيسره غدًا. والعبد لا يعلم ما في غد كما قال زهير في معلقته:

وَأَعْلَمُ عِلْمَ اليَوْمِ وَالأَمْسِ قَبْلَهُ ... وَلَكِنَّنِي عَنْ عِلْمِ مَا فِي غَدٍ عَمِ

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَأَخْفَى﴾ صيغة تفضيل كما بينا، أي ويعلم

---

(١) الملك: الآية (١٣).
(٢) النحل: الآية (١٩).
(٣) محمد: الآية (٢٦).
(٤) الفرقان: الآية (٦).
(٥) ق: الآية (١٦).
(٦) المؤمنون: الآية (٦٣).
(٧) النجم: الآية (٣٢).

ما هو أخفى من السر.

وقول من قال: إن «أخفى» فعل ماض بمعنى أنه يعلم سر الخلق، وأخفى عنهم ما يعلمه هو، كقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾[1] ظاهر السقوط كما لا يخفى.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ﴾ أي فلا حاجة لك إلى الجهر بالدعاء ونحوه، كما قال تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾[3]»[4].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ أي: أنزل هذا القرآن الذي خلق الأرض والسموات العلى، الذي يعلم السر وأخفى، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[5]»[6].

قال السعدي: «﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ﴾ الكلام الخفي، ﴿وَأَخْفَى﴾ من السر الذي في القلب ولم ينطق به، أو السر ما خطر على القلب، ﴿وَأَخْفَى﴾ ما لم يخطر، يعلم تعالى أنه يخطر في وقته وعلى صفته. المعنى: أن علمه تعالى محيط بجميع الأشياء دقيقها وجليلها خفيها وظاهرها، فسواء جهرت بقولك أو أسررته فالكل سواء بالنسبة لعلمه تعالى.

فلما قرر كماله المطلق بعموم خلقه، وعموم أمره ونهيه، وعموم رحمته، وسعة عظمته، وعلوه على عرشه، وعموم ملكه، وعموم علمه، نتج من ذلك أنه المستحق للعبادة، وأن عبادته هي الحق التي يوجبها الشرع والعقل والفطرة، وعبادة غيره باطلة»[7].

قال الرازي: «والمقصود منه زجر المكلف عن القبائح ظاهرة كانت أو باطنة، والترغيب في الطاعات ظاهرة كانت أو باطنة، فعلى هذا الوجه ينبغي أن يحمل

---

(١) طه: الآية (١١٠).
(٢) الأعراف: الآية (٥٥).
(٣) الأعراف: الآية (٢٠٥).
(٤) أضواء البيان (٤/ ٦-٧).
(٥) الفرقان: الآية (٦).
(٦) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٦٩).
(٧) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ١٤٤-١٤٥).

السر والأخفى على ما فيه ثواب أو عقاب، والسر هو الذي يسره المرء في نفسه من الأمور التي عزم عليها، والأخفى هو الذي لم يبلغ حد العزيمة، ويحتمل أن يفسر الأخفى بما عزم عليه وما وقع في وهمه الذي لم يعزم عليه، ويحتمل ما لم يقع في سره بعد فيكون أخفى من السر، ويحتمل أيضًا ما سيكون من قبل اللَّه تعالى من الأمور التي لم تظهر، وإن كان الأقرب ما قدمناه مما يدخل تحت الزجر والترغيب»[١].

* * *

(١) مفاتيح الغيب (٢٢/ ٩).

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٨﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة أنه المعبود وحده، وأن له الأسماء الحسنى. وبين أنه المعبود وحده في آيات لا يمكن حصرها لكثرتها، كقوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾[1]، وقوله: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[2].

وبين في مواضع أخر أن له الأسماء الحسنى، وزاد في بعض المواضع الأمر بدعائه بها، كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَا﴾[3]، وقوله: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾[4]، وزاد في موضع آخر تهديد من ألحد في أسمائه، وهو قوله: ﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[5]»[6].

قال ابن جرير: «وأما قوله -تعالى ذكره-: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فإنه يعني به: المعبود الذي لا تصلح العبادة إلا له، يقول: فإياه فاعبدوا أيها الناس دون ما سواه من الآلهة والأوثان، ﴿لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ يقول -جل ثناؤه-: لمعبودكم أيها الناس الأسماء الحسنى»[7].

قال السعدي: «﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا معبود بحق، ولا مألوه بالحب والذل والخوف والرجاء والمحبة والإنابة والدعاء إلا هو، ﴿لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ أي: له الأسماء الكثيرة الكاملة الحسنى، من حسنها أنها كلها أسماء دالة على المدح، فليس فيها اسم لا يدل على المدح والحمد، ومن حسنها أنها ليست أعلاما

---

(١) آل عمران: الآية (٢).
(٢) محمد: الآية (١٩).
(٣) الأعراف: الآية (١٨٠).
(٤) الإسراء: الآية (١١٠).
(٥) الأعراف: الآية (١٨٠).
(٦) أضواء البيان (٤/ ٧).
(٧) جامع البيان (١٦/ ١٤١).

محضة، وإنما هي أسماء وأوصاف، ومن حسنها أنها دالة على الصفات الكاملة، وأن له من كل صفة أكملها وأعمها وأجلها، ومن حسنها أنه أمر العباد أن يدعوه بها لأنها وسيلة مقربة إليه، يحبها ويحب من يحبها، ويحب من يحفظها، ويحب من يبحث عن معانيها ويتعبد له بها؛ قال تعالى ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾»[1].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ١٤٥).

قوله تعالى: ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذۡ رَءَا نَارٗا فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى ۝١٠﴾

★ **غريب الآية:**

آنَسْت: أي أبصرت، وقيل: آنست: أحسست ووجدت.

قَبَس: القبس: ما اقتبس من النار، وهو أن يأخذ نارا في طرف عود أو خشبة أو نحوها، يقال: اقتبس نارا يقتبسها اقتباسا، وتلك النار هي القبس وهي الجذوة أيضا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ مسليه عما يلقى من الشدّة من مشركي قومه، ومعرفه ما إليه صائر أمره وأمرهم، وأنه معليه عليهم، وموهن كيد الكافرين، ويحثه على الجدّ في أمره، والصبر على عبادته، وأن يتذكر فيما ينوبه فيه من أعدائه من مُشركي قومه وغيرهم، وفيما يزاول من الاجتهاد في طاعته ما ناب أخاه موسى صلوات اللّه عليه من عدّوه، ثم من قومه، ومن بني إسرائيل، وما لقي فيه من البلاء والشدة طفلا صغيرا، ثم يافعا مترعرعا، ثم رجلا كاملا ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ﴾ يا محمد ﴿حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ ابن عمران ﴿إِذۡ رَءَا نَارٗا﴾ ذكر أن ذلك كان في الشتاء ليلا، وأن موسى كان أضلّ الطريق؛ فلما رأى ضوء النار قَالَ لأهْلِهِ ما قال. .

وقوله: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ﴾ يقول: لعلي أجيئكم من النار التي آنست بشعلة. . وإنما أراد موسى بقوله لأهله: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ﴾ لعلي آتيكم بذلك لتصطلوا به. . وقوله: ﴿أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى﴾ دلالة تدلّ على الطريق الذي أضللناه، إما من خبر هاد يهدينا إليه، وإما من بيان وعلم نتبينه به ونعرفه»[1].

قال الشوكاني: «وفي سياق هذه القصة تسلية للنبيّ ﷺ لما يلاقيه من مشاق

---

(١) جامع البيان (١٦/ ١٤١-١٤٢).

أحكام النبوّة، وتحمل أثقالها ومقاساة خطوبها، وأن ذلك شأن الأنبياء قبله»[١].

قال ابن كثير: «من هاهنا شَرَعَ -تبارك وتعالى- في ذكر قصة موسى عليه السلام، وكيف كان ابتداء الوحي إليه وتكليمه إياه، وذلك بعد ما قضى موسى الأجَل الذي كان بينه وبين صهْره في رعاية الغنم، وسار بأهله، قيل: قاصدًا بلاد مصر بعدما طالت الغيبة عنها أكثر من عشر سنين، ومعه زوجته، فأضل الطريق، وكانت ليلة شاتية، ونزل منزلا بين شعاب وجبال، في برد وشتاء، وسحاب وظلام وضباب، وجعل يقدح بزند معه ليُوريَ نارًا، كما جرت له العادة به، فجعل لا يقدح شيئًا، ولا يخرج منه شرر ولا شيء. فبينا هو كذلك، إذ آنس من جانب الطور نارًا، أي: ظهرت له نار من جانب الجبل الذي هناك عن يمينه، فقال لأهله يبشرهم:

﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ﴾ أي: شهاب من نار. وفي الآية الأخرى: ﴿أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾[٢] وهي الجمر الذي معه لهب،

﴿لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾[٣] دلّ على وجود البرد، وقوله: ﴿بِقَبَسٍ﴾ دلّ على وجود الظلام. وقوله: ﴿أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى﴾ أي: من يهديني الطريق، دلّ على أنه قد تاه عن الطريق»[٤].

قال السعدي: «وكان مطلبه -أي: موسى عليه السلام-، النور الحسي والهداية الحسية، فوجد ثَم النور المعنوي، نور الوحي، الذي تستنير به الأرواح والقلوب، والهداية الحقيقية هداية الصراط المستقيم، الموصلة إلى جنات النعيم، فحصل له أمر لم يكن في حسابه، ولا خطر بباله»[٥].

* * *

(١) فتح القدير (٣/ ٥٠٦).
(٢) القصص: الآية (٢٩).
(٣) القصص: الآية (٢٩).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٧٠).
(٥) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ١٤٦).

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٢﴾

★ **غريب الآية:**

فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ: أي نَحِّهما، وأصل الخلع الإزالة والتنحية، والنعل: ما ينتعله الإنسان، أي يلبسه في رجله.

ٱلْمُقَدَّس: المطهر.

طُوًى: هو اسم للوادي.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾ أي: النار واقترب منها، ﴿نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ﴾، وفي الآية الأخرى ﴿نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾[1]، وقال هاهنا: ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ أي: الذي يكلمك ويخاطبك، ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾، قال علي بن أبي طالب، وأبو ذر، وأبو أيوب، وغير واحد من السلف: كانتا من جلد حمار غير ذكيّ.

وقيل: إنما أمره بخلع نعليه تعظيمًا للبقعة.

قال سعيد بن جبير: كما يؤمر الرجل أن يخلع نعليه إذا أراد أن يدخل الكعبة.

وقيل: ليطأ الأرض المقدسة بقدميه حافيًا غير منتعل. وقيل غير ذلك، والله أعلم.

وقوله: ﴿طُوًى﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هو اسم للوادي. وكذا قال غير واحد، فعلى هذا يكون عطف بيان. وقيل: عبارة عن الأمر بالوطء بقدميه. وقيل: لأنه قُدّس مرتين، وطوى له البركة وكررت، والأول أصح، كقوله: ﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾[2]»[3].

---

(١) القصص: الآية (٣٠).
(٢) النازعات: الآية (١٦).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٧٠-٢٧١).

قال السعدي: «﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾ أي: النار التي آنسها من بعيد، وكانت -في الحقيقة- نورًا، وهي نار تحرق وتشرق، ويدل على ذلك قوله ﷺ: «**حجابه النور أو النار، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره**»[١]، فلما وصل إليها نودي منها، أي: ناداه اللَّه، كما قال: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾[٢]

﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ أخبره أنه ربه، وأمره أن يستعد ويتهيأ لمناجاته، ويهتم لذلك، ويلقي نعليه؛ لأنه بالوادي المقدس المطهر المعظم، ولو لم يكن من تقديسه إلا أن اللَّه اختاره لمناجاته كليمه موسى لكفى، وقد قال كثير من المفسرين: «إن اللَّه أمره أن يلقي نعليه، لأنهما من جلد حمار»، فاللَّه أعلم بذلك»[٣].

قال الرازي: «ليس في الآية دلالة على كراهة الصلاة والطواف في النعل، والصحيح عدم الكراهة، وذلك لأنا إن عللنا الأمر بخلع النعلين بتعظيم الوادي وتعظيم كلام اللَّه، كان الأمر مقصورًا على تلك الصورة»[٤].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الصلاة في النعال

* عن علقمة أن عبد اللَّه بن مسعود أتى أبا موسى الأشعري في منزله، فحضرت الصلاة، فقال أبو موسى رضي الله عنه: تقدم يا أبا عبدالرحمن، فإنك أقدم سنا وأعلم. قال: لا، بل تقدم أنت، فإنما أتيناك في منزلك ومسجدك، فأنت أحق، قال: فتقدم أبو موسى رضي الله عنه فخلع نعليه، فلما سلم قال: ما أردت إلى خلعهما؟ أبالواد المقدس أنت؟! لقد رأيت رسول اللَّه ﷺ يصلي في الخفين والنعلين[٥].

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن حجر: «قوله: «**يصلي في نعليه**» قال ابن بطال: هو محمول على ما إذا

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٤٠٠-٤٠١) ومسلم (١/ ١٦١-١٦٢/ ١٧٩) وابن ماجه (١/ ٧٠/ ١٩٥) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٢) مريم: الآية (٥٢).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ١٤٦-١٤٧).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٢/ ١٩).

(٥) أخرجه: أحمد (١/ ٤٦٠-٤٦١) والطحاوي (١/ ٥١١) والطبراني في الكبير (٩/ ٢٥٥/ ٩٢٦٢). وأخرجه مختصرا ابن أبي شيبة (٢/ ٤١٧-٤١٨) وعبد الرزاق (١/ ٣٨٦/ ١٥٠٧) والطبراني (٩/ ٢٥٥/ ٩٢٦١) وابن ماجه (١/ ٣٣٠/ ١٠٣٩) والحديث صححه الشيخ الألباني.

لم يكن فيهما نجاسة، ثم هي من الرخص كما قال ابن دقيق العيد لا من المستحبات؛ لأن ذلك لا يدخل في المعنى المطلوب من الصلاة، وهو وإن كان من ملابس الزينة، إلا أن ملامسته الأرض التي تكثر فيها النجاسات قد تقصر عن هذه الرتبة، وإذا تعارضت مراعاة مصلحة التحسين ومراعاة إزالة النجاسة قدمت الثانية؛ لأنها من باب دفع المفاسد، والأخرى من باب جلب المصالح. قال: إلا أن يرد دليل بإلحاقه بما يتجمل به فيرجع إليه ويترك هذا النظر. قلت: قد روى أبو داود والحاكم من حديث شداد بن أوس مرفوعًا: «**خالفوا اليهود فإنهم لا يصلون في نعالهم ولا خفافهم**»[١] فيكون استحباب ذلك من جهة قصد المخالفة المذكورة»[٢].

قال ابن القيم: «فأمره سبحانه أن يعظم ذلك الوادي بالوطء فيه حافيًا كما يوطأ بساط الملك، وصار ذلك سنة في بني إسرائيل في مواضع صلواتهم وكنائسهم، وشريعتنا جاءت بخلاف ذلك، فصلى النبي ﷺ في النعلين، وأمر أصحابه أن يصلوا في نعالهم»[٣].

قال ابن تيمية: «أما الصلاة في النعل ونحوه مثل الجمجم والمداس والزربول وغير ذلك، فلا يكره؛ بل هو مستحب؛ لما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه كان يصلي في نعليه. وفي السنن عنه أنه قال: «**إن اليهود لا يصلون في نعالهم فخالفوهم**» فأمر بالصلاة في النعال مخالفة لليهود. وإذا علمت طهارتها لم تكره الصلاة فيها باتفاق المسلمين، وأما إذا تيقن نجاستها فلا يصلي فيها حتى تطهر. لكن الصحيح أنه إذا دلك النعل بالأرض طهر بذلك. كما جاءت به السنة، سواء كانت النجاسة عذرة أو غير عذرة. فإن أسفل النعل محل تكرر ملاقاة النجاسة له، فهو بمنزلة السبيلين، فلما كان إزالته عنها بالحجارة ثابتا بالسنة المتواترة فكذلك هذا»[٤].

* * *

(١) أخرجه أبو داود (١/ ٤٢٧/ ٦٥٢) وصححه ابن حبان (٥/ ٥٦١/ ٢١٨٦) والحاكم (١/ ٢٦٠) ووافقه الذهبي من حديث شداد بن أوس ﷺ.
(٢) فتح الباري (١/ ٦٥١).
(٣) مدارج السالكين (٣/ ٤١٩).
(٤) مجموع الفتاوى (٢٢/ ١٢١).

قوله تعالى: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ﴿١٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾ كقوله: ﴿إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾[1] أي: على جميع الناس من الموجودين في زمانه..

وقوله: ﴿فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ أي: اسمع الآن ما أقول لك وأوحيه إليك. ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾، هذا أول واجب على المكلفين أن يعلموا أنه لا إله إلا اللَّه، وحده لا شريك له.

وقوله: ﴿فَٱعْبُدْنِي﴾ أي: وحدّني وَقُم بعبادتي من غير شريك، ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾قيل معناه: صَلِّ لتذكرني. وقيل معناه: وأقم الصلاة عند ذكرك لي»[2].

قال السعدي: «﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾ أي: تخيرتك واصطفيتك من الناس، وهذه أكبر نعمة ومنة أنعم اللَّه بها عليه، تقتضي من الشكر ما يليق بها، ولهذا قال: ﴿فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ أي: ألق سمعك للذي أوحي إليك، فإنه حقيق بذلك، لأنه أصل الدين ومبدأه، وعماد الدعوة الإسلامية. ثم بين الذي يوحيه إليه بقوله: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ أي: اللَّه المستحق الألوهية المتصف بها؛ لأنه الكامل في أسمائه وصفاته، المنفرد بأفعاله، الذي لا شريك له ولا مثيل ولا كفؤ ولا سمي، ﴿فَٱعْبُدْنِي﴾ بجميع أنواع العبادة، ظاهرها وباطنها، أصولها وفروعها، ثم خص الصلاة بالذكر وإن كانت داخلة في العبادة، لفضلها وشرفها، وتضمنها عبودية القلب واللسان والجوارح.

وقوله: ﴿لِذِكْرِيٓ﴾ اللام للتعليل، أي: أقم الصلاة لأجل ذكرك إياي؛ لأن ذكره تعالى أجل المقاصد، وبه عبودية القلب، وبه سعادته، فالقلب المعطل عن

---

(١) الأعراف: الآية (١٤٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٧١).

ذكر اللَّه، معطل عن كل خير، وقد خرب كل الخراب، فشرع اللَّه للعباد أنواع العبادات، التي المقصود منها إقامة ذكره، وخصوصا الصلاة.

قال اللَّه تعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ﴾[1] أي: ما فيها من ذكر اللَّه أكبر من نهيها عن الفحشاء والمنكر، وهذا النوع يقال له توحيد الألوهية، وتوحيد العبادة، فالألوهية وصفه تعالى، والعبودية وصف عبده»[2].

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾، حسن الاستماع كما يجب قد مدح اللَّه عليه فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ﴾[3]، وذم على خلاف هذا الوصف فقال: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ﴾[4] الآية.

فمدح المنصت لاستماع كلامه مع حضور العقل، وأمر عباده بذلك أدبا لهم، فقال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[5]، وقال هاهنا: ﴿فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾؛ لأن بذلك ينال الفهم عن اللَّه تعالى.

روي عن وهب بن منبه أنه قال: من أدب الاستماع سكون الجوارح، وغض البصر، والإصغاء بالسمع، وحضور العقل، والعزم على العمل، وذلك هو الاستماع كما يحب اللَّه تعالى، وهو أن يكف العبد جوارحه، ولا يشغلها، فيشتغل قلبه عما يسمع، ويغض طرفه فلا يلهو قلبه بما يرى، ويحصر عقله فلا يحدث نفسه بشيء سوى ما يستمع إليه، ويعزم على أن يفهم فيعمل بما يفهم.

وقال سفيان بن عيينة: أول العلم الاستماع، ثم الفهم، ثم الحفظ، ثم العمل ثم النشر.

فإذا استمع العبد إلى كتاب اللَّه تعالى، وسنة نبيه -عليه الصلاة والسلام- بنية صادقة على ما يحب اللَّه أفهمه كما يحب، وجعل له في قلبه نورا»[6].

وقال: «اختلف في تأويل قوله: ﴿لِذِكْرِىٓ﴾ فقيل: يحتمل أن يريد لتذكرني

---

(١) العنكبوت: الآية (٤٥).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ١٤٧-١٤٨).
(٣) الزمر: الآية (١٨).
(٤) الإسراء: الآية (٤٧).
(٥) الأعراف: الآية (٢٠٤).
(٦) الجامع لأحكام القرآن (١١/ ١١٨).

فيها، أو يريد لأذكرك بالمدح في عليين بها، فالمصدر على هذا يحتمل الإضافة إلى الفاعل وإلى المفعول.

وقيل: المعنى: أي حافظ بعد التوحيد على الصلاة. وهذا تنبيه على عظم قدر الصلاة إذ هي تضرع إلى اللَّه تعالى، وقيام بين يديه، وعلى هذا فالصلاة هي الذكر. وقد سمى اللَّه تعالى الصلاة ذكرا في قوله: ﴿فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾[1]. وقيل: المراد إذا نسيت فتذكرت فصل كما في الخبر: «**فليصلها إذا ذكرها**»[2]؛ أي لا تسقط الصلاة بالنسيان»[3].

قال أبو السعود: «﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾، خُصت الصلاةُ بالذكر وأُفردت بالأمر مع اندراجها في الأمر بالعبادة- لفضلها وإنافتِها على سائر العبادات بما نيطت به من ذكر المعبودِ وشُغل القلبِ واللسانِ بذكره، وذلك قوله تعالى: ﴿لِذِكْرِي﴾ أي: لتذكُرني، فإن ذِكْري كما ينبغي لا يتحقق إلا في ضمن العبادةِ والصلاة، أو لتذكُرني فيها لاشتمالها على الأذكار، أو لذكري خاصةً لا تشوبُه بذكر غيري، أو لإخلاص ذكري وابتغاءِ وجهي لا تُرائي بها ولا تقصِدُ بها غرضًا آخرَ، أو لتكون ذاكرًا لي غيرَ ناس»[4].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن من نام عن صلاة أو نسيها أنه يصليها متى ذكرها

* عن أنس ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**من نسي صلاة فليصل إذا ذكرها، لا كفارة لها إلا ذلك** ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾»[5].

* عن أبي هريرة ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ حين قفل من غزوة خيبر سار ليله، حتى إذا أدركه الكرى عرَّس، و قال لبلال: «**اكلأ لنا الليل**»، فصلى بلال ما قدر له. ونام رسول اللَّه ﷺ وأصحابه. فلما تقارب الفجر، استند بلال إلى راحلته مُوَاجِه

(١) الجمعة: الآية (٩).
(٢) سيأتي تخريجه.
(٣) الجامع لأحكام القرآن (١١/ ١١٩).
(٤) تفسير أبي السعود (٦/ ٨).
(٥) أخرجه: أحمد (٣/ ٢٦٩)، والبخاري (٢/ ٨٩/ ٥٩٧)، ومسلم (١/ ٤٧٧/ ٦٨٤)، وأبو داود (١/ ٣٠٧-٣٠٨/ ٤٤٢)، والترمذي (١/ ٣٣٥-٣٣٦/ ١٧٨)، والنسائي (١/ ٣١٩/ ٦١٢)، وابن ماجه (١/ ٢٢٧/ ٦٩٦).

الفجر. فغلبت بلالا عيناه وهو مستند إلى راحلته، فلم يستيقظ رسول اللَّه ﷺ، ولا بلال، ولا أحد من أصحابه حتى ضربتهم الشمس. فكان رسول اللَّه ﷺ أولهم استيقاظا، ففزع رسول اللَّه ﷺ فقال: «أي بلال!» فقال بلال: أخذ بنفسي الذي أخذ -بأبي أنت وأمي يا رسول الله- بنفسك. قال: «اقتادوا» فاقتادوا رواحلهم شيئا. ثم توضأ رسول اللَّه ﷺ. وأمر بلالا فأقام الصلاة. فصلى بهم الصبح. فلما قضى الصلاة قال: «**من نسي الصلاة فليصلها إذا ذكرها، فإن اللَّه قال: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾**». قال يونس: وكان ابن شهاب يقرؤها للذكرى[1].

★ غريب الحديث:

قفل: أي: رجع، والقفول: الرجوع.

الكرى: النعاس وقيل: النوم.

عرس: التعريس: نزول المسافرين آخر الليل للنوم والاستراحة.

اكلأ لنا: اكلأ لنا الفجر: أي ارقبه واحفظه واحرسه.

مواجه الفجر: أي مستقبله.

اقتادوا: أي قودوا رواحلكم لأنفسكم آخذين بمقاودها.

★ فوائد الحديثين:

قال النووي: «فيه وجوب قضاء الفريضة الفائتة سواء تركها بعذر كنوم ونسيان، أم بغير عذر، وإنما قيد في الحديث بالنسيان لخروجه على سبب؛ لأنه إذا وجب القضاء على المعذور فغيره أولى بالوجوب، وهو من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى، وأما قوله ﷺ: «**فليصلها إذا ذكرها**» فمحمول على الاستحباب فإنه يجوز تأخير قضاء الفائتة بعذر على الصحيح... وشذ بعض أهل الظاهر فقال: لا يجب قضاء الفائتة بغير عذر، وزعم أنها أعظم من أن يخرج من وبال معصيتها بالقضاء، وهذا خطأ من قائله وجهالة، واللَّه أعلم»[2].

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٢٨-٤٢٩)، ومسلم (١/ ٤٧١/ ٦٨٠)، وأبو داود (١/ ٣٠٢-٣٠٣/ ٤٣٥-٤٣٦)، والترمذي (٥/ ٢٩٩/ ٣١٦٣)، والنسائي (١/ ٣٢٤/ ٦٢٢) مختصرا، وابن ماجه (١/ ٢٢٧-٢٢٨/ ٦٩٧).

(٢) شرح مسلم (٥/ ١٥٦).

وقال الحافظ: «والقائل بأن العامد لا يقضي لم يرد أنه أخف حالا من الناسي، بل يقول: إنه لو شرع له القضاء لكان هو والناسي سواء، والناسي غير مأثوم بخلاف العامد، فالعامد أسوأ حالًا من الناسي، فكيف يستويان؟ ويمكن أن يقال: إن إثم العامد بإخراجه الصلاة عن وقتها باق عليه ولو قضاها، بخلاف الناسي فإنه لا إثم عليه مطلقًا، ووجوب القضاء على العامد بالخطاب الأول؛ لأنه قد خوطب بالصلاة وترتبت في ذمته فصارت دينا عليه، والدين لا يسقط إلا بأدائه، فيأثم بإخراجه لها عن الوقت المحدود لها، ويسقط عنه الطلب بأدائها، فمن أفطر في رمضان عامدا، فإنه يجب عليه أن يقضيه مع بقاء إثم الإفطار عليه، والله أعلم»[(١)].

وقال: «واختلف في المراد بقوله: ﴿لِذِكۡرِيٓ﴾، فقيل: المعنى لتذكرني فيها. وقيل لأذكرك بالمدح، وقيل: إذا ذكرتها، أي لتذكيري لك إياها، وهذا يعضد قراءة من قرأ: لِلذِّكْرَى. وقال النخعي: اللام للظرف، أي: إذا ذكرتني، أي إذا ذكرت أمري بعدما نسيت، وقيل: لا تذكر فيها غيري، وقيل شكرا لذكري، وقيل المراد بقوله: ذكري، ذكر أمري، وقيل: المعنى إذا ذكرت الصلاة فقد ذكرتني، فإن الصلاة عبادة لله، فمتى ذكرها ذكر المعبود، فكأنه أراد لذكر الصلاة. وقال التوربشتي: الأولى أن يقصد إلى وجه يوافق الآية والحديث، وكأن المعنى: أقم الصلاة لذكرها، لأنه إذا ذكرها ذكر الله تعالى، أو يقدر مضاف، أي لذكر صلاتي، أو ذكر الضمير فيه موضع الصلاة لشرفها»[(٢)].

قال ابن رجب: «وأما تلاوته قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ وقد رواه قتادة مرة فقال: لِلذِّكْرَى، ومرة قال: ﴿لِذِكۡرِيٓ﴾ كما هي القراءة المتواترة. وكان الزهري أيضا- يقرأها: «للذِّكْرَى».

وهذه القراءة أظهر في الدلالة على الفور؛ لأن المعنى: أدِّ الصلاة حين الذكرى، والمعنى: أنه يصلي الصلاة إذا ذكرها. وبذلك فسرها أبو العالية والشعبي والنخعي. وقال مجاهد: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾: أي: تذكرني. قال: فإذا صلى عبد ذكر ربه.

ومعنى قوله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ أي: لأجل ذكري بها، والصلاة إنما

---

(١) الفتح (٢/ ٩١).
(٢) الفتح (٢/ ٩١).

فرضت ليذكر اللَّه بها . . فأوجب اللَّه على خلقه كل يوم وليلة أن يذكروه بخمس مرار بالصلاة المكتوبة، فمن ترك شيئًا من ذكر اللَّه الواجب عليه سهوا فليَعُد إليه إذا ذكره كما قال تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾[1]، فقد أمره إذا نسي ربه أن يذكره بعد ذلك، فمن نسي الصلاة فقد نسي ذكر ربه، فإذا ذكر أنه نسي فليعد إلى ذكر ربه بعد نسيانه»[2].

قال القرطبي: «قوله: «**فليصلها إذا ذكرها**» دليل على وجوب القضاء على النائم والغافل، كثرت الصلاة أو قلت، وهو مذهب عامة العلماء. وقد حكي خلاف شاذ لا يعتد به، لأنه مخالف لنص الحديث عن بعض الناس فيما زاد على خمس صلوات أنه لا يلزمه قضاء.

قلت: أمر اللَّه تعالى بإقامة الصلاة، ونص على أوقات معينة، فقال: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾[3] الآية وغيرها من الآي. ومن أقام بالليل ما أمر بإقامته بالنهار، أو بالعكس لم يكن فعله مطابقا لما أمر به، ولا ثواب له على فعله وهو عاص؛ وعلى هذا الحد كان لا يجب عليه قضاء ما فات وقته. ولولا قوله -عليه الصلاة والسلام-: «**من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها**» لم ينتفع أحد بصلاة وقعت في غير وقتها، وبهذا الاعتبار كان قضاء لا أداء؛ لأن القضاء بأمر متجدد وليس بالأمر الأول. . . فأما من ترك الصلاة متعمدا، فالجمهور أيضًا على وجوب القضاء عليه، وإن كان عاصيا إلا داود. ووافقه أبو عبد الرحمن الأشعري الشافعي، حكاه عنه ابن القصار. والفرق بين المتعمد والناسي والنائم، حط المأثم؛ فالمتعمد مأثوم وجميعهم قاضون. والحجة للجمهور قوله تعالى: ﴿أَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ﴾[4] ولم يفرق بين أن يكون في وقتها أو بعدها. وهو أمر يقتضي الوجوب. وأيضا فقد ثبت الأمر بقضاء النائم والناسي، مع أنهما غير مأثومين، فالعامد أولى»[5].

* * *

(١) الكهف: الآية (٢٤).
(٢) فتح الباري لابن رجب (٥/ ١٣٢-١٣٣).
(٣) الإسراء: الآية (٧٨).
(٤) البقرة: الآية (٤٣).
(٥) الجامع لأحكام القرآن (١١/ ١١٩).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ۝١٥ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ ۝١٦﴾

★ **غريب الآية:**

أخفيها: أسترها، والإخفاء: الستر والتغطية.

تسعى: تكسب.

فتردى: أي فتهلك، والردى: الهلاك.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: إن الساعة التي يبعث اللَّه فيها الخلائق من قبورهم لموقف القيامة جائية ﴿أَكَادُ أُخۡفِيهَا﴾، فعلى ضمّ الألف من أخفيها قراءة جميع قرّاء أمصار الإسلام، بمعنى: أكاد أخفيها من نفسي، لئلا يطلع عليها أحد، وبذلك جاء تأويل أكثر أهل العلم.. وقال آخرون: إنما هو: «أَكَادُ أَخْفِيهَا» بفتح الألف من أخفيها بمعنى: أظهرها.. قال أبو جعفر: والذي هو أولى بتأويل الآية من القول، قول من قال: معناه: أكاد أخفيها من نفسي، لأن تأويل أهل التأويل بذلك جاء، والذي ذُكر عن سعيد بن جبير من قراءة ذلك بفتح الألف قراءة لا أستجيز القراءة بها لخلافها قراءة الحجة التي لا يجوز خلافها فيما جاءت به نقلا مستفيضا.

فإن قال قائل: ولم وجهت تأويل قوله: ﴿أَكَادُ أُخۡفِيهَا﴾ بضم الألف إلى معنى: أكاد أخفيها من نفسي، دون توجيهه إلى معنى: أكاد أظهرها، وقد علمت أن للإخفاء في كلام العرب وجهين: أحدهما الإظهار، والآخر الكتمان، وأن الإظهار في هذا الموضع أشبه بمعنى الكلام، إذ كان الإخفاء من نفسه يكاد عند السامعين أن يستحيل معناه، إذ كان محالا أن يخفي أحد عن نفسه شيئًا هو به عالم، واللَّه -تعالى ذكره- لا يخفى عليه خافية؟ قيل: الأمر في ذلك بخلاف ما ظننت، وإنما

وجَّهنا معنى ﴿أُخْفِيهَا﴾ بضمّ الألف إلى معنى: أسترها من نفسي، لأن المعروف من معنى الإخفاء في كلام العرب: الستر. يقال: قد أخفيت الشيء: إذا سترته، وأن الذين وجَّهوا معناه إلى الإظهار، اعتمدوا على بيت لامرئ القيس ابن عابس الكندي؛ حُدثت عن معمر بن المثنى أنه قال: أنشدنيه أبو الخطاب، عن أهله في بلده:

فإنْ تُدْفِنُوا الدَّاءَ لا نُخْفِهِ وإنْ تَبْعَثُوا الحَرْبَ لا نَقْعُد

بضمّ النون من لا نخفه، ومعناه: لا نظهره، فكان اعتمادهم في توجيه الإخفاء في هذا الموضع إلى الإظهار على ما ذكروا من سماعهم هذا البيت، على ما وصفت من ضم النون من نخفه، وقد أنشدني الثقة عن الفرّاء: (فإنْ تَدْفِنُوا الدَّاءَ لا نَخْفِهِ) بفتح النون من نخفه، من خفيته أخفيه، وهو أولى بالصواب لأنه المعروف من كلام العرب.

فإذا كان ذلك كذلك، وكان الفتح في الألف من أخفيها غير جائز عندنا لما ذكرنا، ثبت وصحّ الوجه الآخر، وهو أن معنى ذلك. أكاد أسترها من نفسي.

وأما وجه صحة القول في ذلك، فهو أن اللَّه -تعالى ذكره- خاطب بالقرآن العرب على ما يعرفونه من كلامهم وجرى به خطابهم بينهم، فلما كان معروفا في كلامهم أن يقول أحدهم إذا أراد المبالغة في الخبر عن إخفائه شيئًا هو له مسرّ: قد كدت أن أخفي هذا الأمر عن نفسي من شدّة استسراري به، ولو قدرت أخفيه عن نفسي أخفيته، خاطبهم على حسب ما قد جرى به استعمالهم في ذلك من الكلام بينهم، وما قد عرفوه في منطقهم، وقد قيل في ذلك أقوال غير ما قلنا.

وإنما اخترنا هذا القول على غيره من الأقوال لموافقة أقوال أهل العلم من الصحابة والتابعين، إذ كنا لا نستجيز الخلاف عليهم، فيما استفاض القول به منهم، وجاء عنهم مجيئا يقطع العذر، فأما الذين قالوا في ذلك غير قولنا ممن قال فيه على وجه الانتزاع من كلام العرب، من غير أن يعزوه إلى إمام من الصحابة أو التابعين، وعلى وجه يحتمل الكلام غير وجهه المعروف، فإنهم اختلفوا في معناه بينهم، فقال بعضهم: يحتمل معناه: أريد أخفيها، قال: وذلك معروف في اللغة، وذُكر أنه حُكي عن العرب أنهم يقولون: أولئك أصحابي الذين أكاد أنزل عليهم،

وقال: معناه: لا أنزل إلا عليهم. قال: وحُكي: أكاد أبرح منزلي: أي ما أبرح منزلي، واحتجّ ببيت أنشده لبعض الشعراء:

كادَتْ وكِدْتُ وتِلْكَ خَيْرُ إرَادَةٍ لَوْ عادَ مِنْ عَهْد الصَّبابَةِ ما مَضَى

وقال: يريد: بكادت: أرادت، قال: فيكون المعنى: أريد أخفيها لتجزى كلّ نفس بما تسعى. قال: ومما يُشبه ذلك قول زيد الخيل:

سريع إلى الهَيْجاءِ شاكٍ سِلاحَهُ فَمَا أنْ تَكادُ قِرْنُهُ يَتَنَفَّسُ

وقال: كأنه قال: فما يتنفس قرنه، وإلا ضعف المعنى، قال: وقال ذو الرُّمَّة:

إذا غَيَّرَ النَّأْيُ المُحِبِّينَ لَمْ يَكَدْ رَسِيسُ الهَوَى مِنْ حُبّ مَيَّةَ يَبْرَحُ

قال: وليس المعنى: لم يكد يبرح: أي بعد يُسر، ويبرح بعد عُسر؛ وإنما المعنى: لم يبرح، أو لم يرد يبرح، وإلا ضعف المعنى؛ قال: وكذلك قول أبي النجم:

وإنْ أتاكَ نَعِيّ فانْدُبَنَّ أبا قَدْ كَادَ يَضطَلِعُ الأعْداءَ والخُطَبَا

وقال: يكون المعنى: قد اضطلع الأعداء، وإلا لم يكن مدحا إذا أراد كاد ولم يرد يفعل.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: إن الساعة آتية أكاد، قال: وانتهى الخبر عند قوله أكاد لأن معناه: أكاد أن آتي بها، قال: ثم ابتدأ فقال: ولكني أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى، قال: وذلك نظير قول ابن ضابي:

هَمَمَتُ وَلَمْ أفْعَلْ وكِدْتُ ولَيْتَنِي تَرَكْتُ على عثمانَ تَبْكِي أقارِبُهُ

فقال: كدت، ومعناه: كدت أفعل.

وقال آخرون: معنى ﴿أُخْفِيهَا﴾ أظهرها، وقالوا: الإخفاء والإسرار قد توجههما العرب إلى معنى الإظهار، واستشهد بعضهم لقيله ذلك ببيت الفرزدق:

فَلَمَّا رأى الحَجَّاجَ جَرَّدَ سَيْفَهُ أسَرَّ الحَرُورِيُّ الّذِي كانَ أضْمَرَا

وقال: عنى بقوله: أسرّ: أظهر. قال: وقد يجوز أن يكون معنى قوله: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ﴾[1] وأظهروها، قال: وذلك أنهم قالوا: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ

---

(١) يونس: الآية (٥٤).

رَبَّنَا﴾[1]. وقال جميع هؤلاء الذين حكينا قولهم: جائز أن يكون قول من قال: معنى ذلك: أكاد أخفيها من نفسي، أن يكون أراد: أخفيها من قبلي ومن عندي، وكلّ هذه الأقوال التي ذكرنا عمن ذكرنا توجيه منهم للكلام إلى غير وجهه المعروف، وغير جائز توجيه معاني كلام اللّه إلى غير الأغلب عليه من وجوهه عند المخاطبين به، ففي ذلك مع خلافهم تأويل أهل العلم فيه شاهد عدل على خطأ ما ذهبوا إليه فيه.

وقوله: ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾، يقول -تعالى ذكره-: إن الساعة آتية لتجزى كلّ نفس: يقول: لتثاب كل نفس امتحنها ربها بالعبادة في الدنيا بما تسعى، يقول: بما تعمل من خير وشرّ، وطاعة ومعصية، وقوله: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا﴾، يقول -تعالى ذكره-: فلا يردّنك يا موسى عن التأهُّب للساعة، ﴿مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا﴾، يعني: من لا يقرّ بقيام الساعة، ولا يصدّق بالبعث بعد الممات، ولا يرجو ثوابا، ولا يخاف عقابا. وقوله: ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ يقول: اتبع هوى نفسه، وخالف أمر اللّه ونهيه ﴿فَتَرْدَىٰ﴾، يقول: فتهلك إن أنت انصددت عن التأهب للساعة، وعن الإيمان بها، وبأن اللّه باعث الخلق لقيامها من قبورهم بعد فنائهم بصدّ من كفر بها، وكان بعضهم يزعم أن الهاء والألف من قوله: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا﴾ كناية عن ذكر الإيمان، قال: وإنما قيل عنها وهي كناية عن الإيمان كما قيل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[2] يذهب إلى الفعلة، ولم يجر للإيمان ذكر في هذا الموضع، فيجعل ذلك من ذكره، وإنما جرى ذكر الساعة، فهو بأن يكون من ذكرها أولى»[3].

قال السعدي: «﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ﴾ أي: لا بد من وقوعها، ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ أي: عن نفسي كما في بعض القراءات، كقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ﴾[4]، وقال: ﴿وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾[5]، فعلمها قد أخفاه عن الخلائق كلهم، فلا يعلمها ملك مقرب، ولا نبي مرسل، والحكمة في إتيان الساعة ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ من الخير والشر، فهي الباب لدار الجزاء ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾[6]، ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ﴾؛ أي: فلا يصدك ويشغلك عن الإيمان بالساعة، والجزاء، والعمل

---

(١) الأنعام: الآية (٢٧).
(٢) النحل: الآية (١١٠).
(٣) جامع البيان (١٦/ ١٤٩-١٥٣).
(٤) الأحزاب: الآية (٦٣).
(٥) الزخرف: الآية (٨٥).
(٦) النجم: الآية (٣١).

لذلك، من كان كافرا بها، غير معتقد لوقوعها، يسعى في الشك فيها والتشكيك، ويجادل فيها بالباطل، ويقيم من الشبه ما يقدر عليه، متبعا في ذلك هواه، ليس قصده الوصول إلى الحق، وإنما قصاراه اتباع هواه، فإياك أن تصغي إلى من هذه حاله، أو تقبل شيئًا من أقواله وأعماله الصادة عن الإيمان بها والسعي لها سعيها، وإنما حذر اللَّه تعالى عمن هذه حاله؛ لأنه من أخوف ما يكون على المؤمن بوسوسته وتدجيله وكون النفوس مجبولة على التشبه، والاقتداء بأبناء الجنس، وفي هذا تنبيه وإشارة إلى التحذير عن كل داع إلى باطل، يصد عن الإيمان الواجب، أو عن كماله، أو يوقع الشبهة في القلب، وعن النظر في الكتب المشتملة على ذلك. وذكر في هذا الإيمان به، وعبادته، والإيمان باليوم الآخر، لأن هذه الأمور الثلاثة أصول الإيمان، وركن الدين، وإذا تمت تم أمر الدين، ونقصه أو فقده بنقصها، أو نقص شيء منها. وهذه نظير قوله تعالى في الإخبار عن ميزان سعادة الفرق الذين أوتوا الكتاب وشقاوتهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1] وقوله: ﴿فَتَرْدَىٰ﴾ أي: تهلك وتشقى، إن اتبعت طريق من يصد عنها»[2].

قال الزمخشري: «يعني: أن من لا يؤمن بالآخرة هم الجمّ الغفير؛ إذ لا شيء أطمّ على الكفرة ولا هم أشد له نكيرًا من البعث، فلا يهولنك وفور دهمائهم ولا عظم سوادهم، ولا تجعل الكثرة مزلة قدمك، واعلم أنهم وإن كثروا تلك الكثرة فقدوتهم فيما هم فيه هو الهوى واتباعه، لا البرهان وتدبره. وفي هذا حثّ عظيم على العمل بالدليل، وزجر بليغ عن التقليد، وإنذار بأن الهلاك والردى مع التقليد وأهله»[3].

قلت: هذه كلمة ذهبية من إمام أهل اللغة الزمخشري المعتزلي، والحكمة ضالة المؤمن لا يميز فيها بين قائل وقائل، ومن وافق الحق يستفاد من كلامه وإن انتسب إلى ما انتسب إليه من فرقة أو مذهب، وربما ديانة، فقد ذكر اللَّه تعالى في القرآن أقوال كثير من الحكماء، ومواقف كثير من الرجال؛ فذكر إمام الحكماء لقمان،

---

(١) المائدة: الآية (٦٩).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ١٤٨-١٥٠).

(٣) الكشاف (٢/ ٥٣٣).

كما ذكر قصة الرجل الذي نصح للرسل الثلاثة، وبين لقومه سوء عقيدة الشرك، وفضيلة التوحيد، وكمؤمن آل فرعون الذي ملأت قصته أكثر سورة غافر، لما فيها من العبر والمواعظ والمناظرات الطيبة، فهذا تعليم لأمة محمد ﷺ أن تستفيد ممن قبلها من الأنبياء والرسل والصالحين والأخيار. والإمام ابن تيمية في كتابه الحموية ذكر كثيرًا من أقوال المخالفين في العقيدة، واحتج بها.

والشاهد أن العاقل لا يستنكف من الفائدة مهما عظم جرم المخالف، وما أفاده الزمخشري في هذه الكلمة هي خلاصة مفيدة للداعية إلى اللَّه في كل زمان ومكان، وأن الأمم على كثرتها وتعدد أجناسها ترفض الحق الواضح الذي قام الدليل العقلي والشرعي والفطري على إثباته. هذا أولًا.

الثاني: أن الإنسان دائمًا ما يكون عدو من يعارض شبهته أو شهوته، فيدافع بكل ما أوتي من أدلة ولو كانت باطلة.

الثالث: أن الهوى داء، فمهما حل بقلب إنسان فإنه يصرفه عن الحق، ولا يتركه يلتفت إلى غيره، وهو مزلة الرجال، ولهذا تجد الصدر الأول الذين تشرفوا بنور النبوة، يقل فيهم هذا الأمر، بل يكاد ينمحي، لكن لما يبعد المرء عن مصدري الوحي؛ الكتاب والسنة، ويطول الأمد، ويبعد الزمان؛ ينشط هذا الداء ويكثر.

الرابع: أن العناية بالدليل من الكتاب والسنة، ينور البصائر، ويزيل عنها الغشاوة، والزمخشري -غفر اللَّه له- وإن حث على الدليل في كلمته هذه، ما أوقعه في الاعتزال المقيت إلا بعده عنه، فمن قرأ تفسيره، وبقية كتبه، يجده لا يعرف قلامة ظفر من علم الحديث.

الخامس: أن التقليد داء وجرب مُرْدٍ، ومرض فتاك، يقتل الجماعة والأمم، فهو كمرض الطاعون، فلهذا هلكت به الأمم السابقة واللاحقة.

السادس: أن الكثرة لا ينبغي للداعية أن يغتر بها، فهي ميزان السفهاء والجهال، الذين يتسوقون بها للدنيا، وهي سلعة الأمم والدول المعاصرة والجماعات، فلا خير في كثرة لا تقوم على حق.

السابع: أن اللَّه تعالى أقام على البعث من الحجج والأدلة ما يفهم البكم والصم والعمي، ولكنه العناد والرد، كما قال الشاعر:

وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

فالبعث ثابت، وأدلته واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار، وليس عند المخالف ما يناقضها، فهو يعلم علم اليقين أنه لم يكن موجودا قبل وجود أمه وأبيه. فمن الذي جعل من ذرة المني هذا البشر السوي، الناطق المتكلم، الذي يقود الأرض بكل أنواع القيادات، ومن الذي سيفنيه، بعد نهاية أمده، أليست هذه أسئلة يطرحها كل عاقل؟! فمَن الذي يُعجِز من هذه قدرته أن يعيد الإنسان كما كان؟! ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[1].

* * *

(١) يس: الآيات (٨١-٨٣).

قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝١٧ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ۝١٨﴾

★ غريب الآية:

أَتَوَكَّأُ: أي أتكئ وأعتمد، وحقيقته من الوكاء وهو رباط الشيء، فمعنى: توكأ على العصا: تسدد بها وتقوى.

أَهُشُّ: أي أخبط الشجر ليتناثر ورقه فترعاه الغنم.

مَـَٔارِبُ: المئارب الحاجات والمنافع، جمع مأرُبة أو مأرَبة بالضم أو الفتح.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وما هذه التي في يمينك يا موسى؟.. ولعل قائلا أن يقول: وما وجه استخبار اللَّه موسى عما في يده؟ ألم يكن عالما بأن الذي في يده عصا؟ قيل له: إن ذلك على غير الذي ذهبت إليه، وإنما قال ذلك -عزّ ذكره- له إذ أراد أن يحوّلها حية تسعى، وهي خشبة، فنبهه عليها، وقرّره بأنها خشبة يتوكأ عليها، ويهشّ بها على غنمه، ليعرّفه قُدرته على ما يشاء، وعظم سلطانه، ونفاذ أمره فيما أحبّ بتحويله إياها حيَّة تسعى، إذا أراد ذلك به ليجعل ذلك لموسى آية مع سائر آياته إلى فرعون وقومه»[1].

وقال: «يقول -تعالى ذكره- مخبرا عن موسى: قال موسى مجيبا لربه: ﴿هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى﴾، يقول: أضرب بها الشجر اليابس فيسقط ورقها وترعاه غنمي.. وقوله: ﴿وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾، يقول: ولي في عصاي هذه حوائج أخرى»[2].

قال ابن كثير: «هذا برهان من اللَّه تعالى لموسى ﷺ، ومعجزة عظيمة، وخرق

---

(١) جامع البيان (١٦/ ١٥٣-١٥٤).

(٢) جامع البيان (١٦/ ١٥٤-١٥٥).

للعادة باهر، دال على أنه لا يقدر على مثل هذا إلا اللَّه ﷻ، وأنه لا يأتي به إلا نبي مرسل، وقوله: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾، قال بعض المفسرين: إنما قال له ذلك على سبيل الإيناس له. وقيل: إنما قال له ذلك على وجه التقرير، أي: أما هذه التي في يمينك عصاك التي تعرفها، فسترى ما نصنع بها الآن، ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ استفهام تقرير.

﴿قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا﴾ أي: أعتمد عليها في حال المشي ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى﴾ أي: أهز بها الشجرة ليسقط ورقها، لترعاه غنمي.

قال عبد الرحمن بن القاسم عن الإمام مالك: والهش: أن يضع الرجل المِحْجَن في الغصن، ثم يحركه حتى يسقط ورقه وثَمَره، ولا يكسر العود، فهذا الهش، ولا يخبط. وكذا قال ميمون بن مهران أيضًا.

وقوله: ﴿وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ أي: مصالح ومنافع وحاجات أخر غير ذلك. وقد تكلف بعضهم لذكر شيء من تلك المآرب التي أبهمت، فقيل: كانت تضيء له بالليل، وتحرس له الغنم إذا نام، ويغرسها فتصير شجرة تظله، وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة.

والظاهر أنها لم تكن كذلك، ولو كانت كذلك لما استنكر موسى صيرورتها ثعبانًا، فما كان يفر منها هاربًا، ولكن كل ذلك من الأخبار الإسرائيلية، وكذا قول بعضهم: إنها كانت لآدم ﵇. وقول الآخر: إنها هي الدابة التي تخرج قبل يوم القيامة.. واللَّه أعلم بالصواب»[1].

قال السعدي: «﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ هذا مع علمه تعالى، ولكن لزيادة الاهتمام في هذا الموضع، أخرج الكلام بطريق الاستفهام، فقال موسى: ﴿هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى﴾، ذكر فيها هاتين المنفعتين، منفعة لجنس الآدمي، وهو أنه يعتمد عليها في قيامه ومشيه، فيحصل فيها معونة. ومنفعة للبهائم، وهو أنه كان يرعى الغنم، فإذا رعاها في شجر الخبط ونحوه هش بها، أي: ضرب الشجر ليتساقط ورقه فيرعاه الغنم.

هذا الخلق الحسن من موسى ﵇، الذي من آثاره حسن رعاية الحيوان البهيم،

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٧٣).

والإحسان إليه دل على عناية من اللَّه له واصطفاء، وتخصيص تقتضيه رحمة اللَّه وحكمته.

﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ﴾ أي: مقاصد ﴿أُخْرَىٰ﴾ غير هذين الأمرين. ومن أدب موسى عليه السلام، أن اللَّه لما سأله عما في يمينه، وكان السؤال محتملا عن السؤال عن عينها أو منفعتها، أجابه بعينها ومنفعتها»[1].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ١٥٠-١٥١).

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ (١٩) فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ (٢٠) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ (٢١)﴾

★ غريب الآية:

تسعى: من السعي وهو المشي السريع.

سيرتها: حالتها، أي: الحالة التي كانت عليها من العُوديَّة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: قال اللَّه لموسى: ألق عصاك التي بيمينك يا موسى، يقول اللَّه ﷻ: فألقاها موسى، فجعلها اللَّه حية تسعى، وكانت قبل ذلك خشبة يابسة، وعصا يتوكأ عليها ويهشّ بها على غنمه، فصارت حية بأمر اللَّه. .

وقوله: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ يقول -تعالى ذكره-: قال اللَّه لموسى: خذ الحية. والهاء والألف من ذكر الحية، ﴿وَلَا تَخَفْ﴾، يقول: ولا تخف من هذه الحية، ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ يقول: فإنا سنعيدها لهيئتها الأولى التي كانت عليها قبل أن نصيرها حية، ونردّها عصا كما كانت.

يقال لكل من كان على أمر فتركه، وتحوّل عنه ثم راجعه: عاد فلان سيرته الأولى، وعاد لسيرته الأولى، وعاد إلى سيرته الأولى»(١).

قال ابن كثير: «وقوله تعالى: ﴿أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ﴾ أي: هذه العصا التي في يدك يا موسى ألقها، ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ أي: صارت في الحال حَيَّة عظيمة، ثعبانًا طويلا يتحرك بحركة سريعة، فإذا هي تهتز كأنها جان، وهو أسرع الحيات حركة، ولكنه صغير، فهذه في غاية الكبر، وفي غاية سرعة الحركة، ﴿تَسْعَىٰ﴾ أي: تمشي وتضطرب»(٢).

---

(١) جامع البيان (١٦/ ١٥٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٧٣).

قال السعدي: «قال الله: ﴿حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾، انقلبت بإذن اللّه ثعبانًا عظيمًا فولى موسى هاربًا خائفًا، ولم يعقب. وفي وصفها بأنها تسعى إزالة لوهم يمكن وجوده وهو أن يظن أنها تخييل لا حقيقة، فكونها تسعى يزيل هذا الوهم.

فقال اللّه لموسى: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ أي: ليس عليك منها بأس ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ أي: هيئتها وصفتها إذ كانت عصا فامتثل موسى أمر اللّه إيمانا به وتسليما، فأخذها فعادت عصاه التي كان يعرفها»[1].

قال الرازي: «واعلم أن موسى ﷺ لما ذكر هذه الجوابات أمره اللّه تعالى بإلقاء العصا فقال: ﴿أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ﴾، وفيه نكت، إحداها: أنه ﷺ لما قال: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾، أراد اللّه أن يعرفه أن فيها مآربة أخرى لا يفطن لها ولا يعرفها، وأنها أعظم من سائر مآربه، فقال: ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ (١٩) فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ »[2].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ١٥١).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٢/ ٢٨).

قوله تعالى: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾﴾

★ **غريب الآية:**

وَاضْمُمْ: الضم الجمع بين شيئين فصاعدا.

جَنَاحَكَ: أي ما بين إبطك وعضدك.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: واضمم يا موسى يدك، فضعها تحت عضدك؛ والجناحان هما اليدان، كذلك رُوي الخبر عن أبي هُريرة وكعب الأحبار، وأما أهل العربية، فإنهم يقولون: هما الجنبان، وكان بعضهم يستشهد لقوله ذلك بقول الراجز:

أضُمُّهُ للصَّدْرِ والجَنَاحِ

وقوله: ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾، ذكر أن موسى عليه السلام كان رجلا آدم، فأدخل يده في جيبه، ثم أخرجها بيضاء من غير سوء، من غير برص مثل الثلج ثم ردّها، فخرجت كما كانت على لونه.. وقوله: ﴿ءَايَةً أُخْرَىٰ﴾ يقول: وهذه علامة ودلالة أخرى غير الآية التي أريناك قبلها من تحويل العصا حية تسعى على حقيقة ما بعثناك به من الرسالة لمن بعثناك إليه، ونصب آية على اتصالها بالفعل، إذ لم يظهر لها ما يرفعها من هذه أو هي، وقوله: ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾، يقول -تعالى ذكره-: واضمم يدك يا موسى إلى جناحك، تخرج بيضاء من غير سوء، كي نريك من أدلتنا الكبرى على عظيم سلطاننا وقُدرتنا»[١].

قال ابن كثير: «وهذا بُرهان ثان لموسى عليه السلام، وهو أن اللَّه أمره أن يدخل يده في

---

(١) جامع البيان (١٦/ ١٥٧-١٥٨).

جيبه، كما صرح به في الآية الأخرى، وهاهنا عبر عن ذلك بقوله: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾، وقال في مكان آخر: ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ﴾[١].

وقال مجاهد: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ كفه تحت عضده.

وذلك أن موسى عليه السلام، كان إذا أدخل يده في جيبه ثم أخرجها، تخرج تتلألأ كأنها فلقة قمر.

وقوله: ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ أي: من غير بَرَص ولا أذى، ومن غير شين. قاله ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، والضحاك، والسدي، وغيرهم.

وقال الحسن البصري: أخرجها -والله- كأنها مصباح، فعلم موسى أنه قد لقي ربه عز وجل؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَـٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾»[٢].

قال السعدي: «ثم ذكر الآية الأخرى فقال: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ أي: أدخل يدك في جيبك وضم عليك عضدك الذي هو جناح الإنسان ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ أي بياضا ساطعا من غير عيب ولا برص، ﴿ءَايَةً أُخْرَىٰ﴾ قال الله: ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ﴾[٣]

﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَـٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾ أي فعلنا ما ذكرنا من انقلاب العصا حية تسعى ومن خروج اليد بيضاء للناظرين؛ لأجل أن نريك من آياتنا الكبرى الدالة على صحة رسالتك وحقيقة ما جئت به، فيطمئن قلبك ويزداد علمك، وتثق بوعد الله لك بالحفظ والنصرة، ولتكون حجة وبرهانا لمن أرسلت إليهم»[٤].

* * *

(١) القصص: الآية (٣٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٧٤-٢٧٥).

(٣) القصص: الآية (٣٢).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ١٥٢).

قوله تعالى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾

★ غريب الآية:

طَغَى: عصى وتكبر، وكفر وتجبر، وأصل الطغيان مجاوزة الحد في كل شيء، وغلب في تزايد العصيان.

اشْرَحْ لِي صَدْرِي: أي وَسِّعْهُ، وأصل الشرح: البسط والتوسعة.

عُقْدَةً: أي: حُبسة.

يَفْقَهُوا: يعلموا ويفهموا.

وَزِيرًا: أي معينا، سمي بذلك لمعاونته الملك، وقيل لأنه يحمل أثقال الملك وأعباءه، وقيل: لتحمله أوزار الملك.

اشْدُدْ: يقال: شددت الشيء: أي قويت عقده.

أَزْرِي: الأزر: القوة الشديدة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه موسى -صلوات اللَّه عليه-: ﴿ٱذْهَبْ﴾ يا موسى ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾. يقول: إنه تجاوز قدره، وتمرّد على ربه.. وفي الكلام محذوف استغني بفهم السامع بما ذكر منه، وهو قوله: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ فادعه إلى توحيد اللَّه وطاعته، وإرسال بني إسرائيل معك، ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾ يقول: ربّ اشرح لي صدري لأعيَ عنك ما تودعه من وحيك، وأجترئ به على خطاب فرعون، ﴿وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى﴾ يقول: وسهل عليّ القيام بما تكلفني من الرسالة، وتحملني من الطاعة..

وقوله: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾﴾ يقول: وأطلق لساني بالمنطق، وكانت فيه فيما ذكر عُجمة عن الكلام الذي كان من إلقائه الجمرة إلى فيه يوم همّ فرعون بقتله..

وقوله: ﴿يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾﴾ يقول: يفقهوا عني ما أخاطبهم وأراجعهم به من الكلام، ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾﴾ يقول: واجعل لي عونا من أهل بيتي ﴿هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾﴾..

قوله تعالى: ﴿اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾﴾ يقول -تعالى ذكره- مخبرا عن موسى أنه سأل ربه أن يشدد أزره بأخيه هارون. وإنما يعني بقوله ﴿اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾﴾ قوِّ ظهري، وأعني به.. وقوله: ﴿وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾﴾، يقول: واجعله نبيا مثل ما جعلتني نبيا، وأرسله معي إلى فرعون.

﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾﴾، يقول: كي نعظمك بالتسبيح لك كثيرا ﴿وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ فنحمدك، ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ يقول: إنك كنت ذا بصر بنا لا يخفى عليك من أفعالنا شيء»[1].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ أي: اذهب إلى فرعون ملك مصر، الذي خَرَجت فارًا منه وهاربًا، فادعه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ومره فَلْيُحْسِن إلى بني إسرائيل ولا يعذبهم، فإنه قد طغى وبَغَى، وآثر الحياة الدنيا، ونسي الرب الأعلى..

﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾﴾، هذا سؤال من موسى ﷺ، لربه ﷻ، أن يشرح له صدره فيما بعثه به، فإنه قد أمره بأمر عظيم، وخطب جسيم، بعثه إلى أعظم ملك على وجه الأرض إذ ذاك، وأجبرهم، وأشدهم كفرًا، وأكثرهم جنودًا، وأعمرهم ملكًا، وأطغاهم وأبلغهم تمردًا، بلغ من أمره أن ادعى أنه لا يعرف الله، ولا يعلم لرعاياه إلهًا غيره.

هذا وقد مكث موسى في داره مدة وليدًا عندهم، في حجر فرعون، على فراشه، ثم قتل منهم نفسا فخافهم أن يقتلوه، فهرب منهم هذه المدة بكمالها. ثم بعد هذا بعثه ربه ﷻ إليهم نذيرًا يدعوهم إلى الله ﷻ أن يعبدوه وحده لا شريك له؛ ولهذا قال:

---

(١) جامع البيان (١٦/١٥٨-١٦٠).

﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ۝ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ أي: إن لم تكن أنت عوني ونصيري، وعضدي وظهيري، وإلا فلا طاقة لي بذلك.

﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي ۝﴾، وذلك لما كان أصابه من اللثغ، حين عرض عليه التمرة والجمرة، فأخذ الجمرة فوضعها على لسانه، كما سيأتي بيانه، وما سأل أن يزول ذلك بالكلية، بل بحيث يزول العي، ويحصل لهم فهم ما يريد منه وهو قدر الحاجة. ولو سأل الجميع لزال، ولكن الأنبياء لا يسألون إلا بحسب الحاجة، ولهذا بقيت بقية، قال الله تعالى إخبارًا عن فرعون أنه قال: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ۝﴾[1]، أي: يفصح بالكلام.. وقوله: ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي ۝ هَارُونَ أَخِي ۝﴾ وهذا أيضًا سؤال من موسى في أمر خارجي عنه، وهو مساعدة أخيه هارون له.. وقوله: ﴿اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ۝﴾، قال مجاهد: ظهري. ﴿وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ۝﴾ أي: في مشاورتي.

﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۝ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ۝﴾، قال مجاهد: لا يكون العبد من الذاكرين الله كثيرًا، حتى يذكر الله قائما وقاعدًا ومضطجعًا. وقوله: ﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ۝﴾ أي: في اصطفائك لنا، وإعطائك إيانا النبوة، وبعثتك لنا إلى عدوك فرعون، فلك الحمد على ذلك»[2].

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ۝ يَفْقَهُوا قَوْلِي ۝﴾. قال بعض العلماء: دل قوله ﴿عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي﴾ بالتنكير والإفراد، وإتباعه لذلك بقوله ﴿يَفْقَهُوا قَوْلِي ۝﴾ على أنه لم يسأل إزالة جميع ما بلسانه من العقد، بل سأل إزالة بعضها الذي يحصل بإزالته فهم كلامه مع بقاء بعضها. وهذا المفهوم دلت عليه آيات أخر، كقوله تعالى عنه: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾[3]، وقوله تعالى عن فرعون: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ۝﴾، والاستدلال بقول فرعون عن موسى، فيه أن فرعون معروف بالكذب والبهتان. والعلم عند الله تعالى»[4].

---

(١) الزخرف: الآية (٥٢).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٧٥-٢٧٧).
(٣) القصص: الآية (٣٤).
(٤) أضواء البيان (٤/ ٨).

قال السعدي: «لما أوحى اللَّه إلى موسى، ونبأه، وأراه الآيات الباهرات، أرسله إلى فرعون ملك مصر، فقال: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ أي: تمرد وزاد على الحد في الكفر والفساد والعلو في الأرض، والقهر للضعفاء، حتى إنه ادعى الربوبية والألوهية -قبحه الله- أي: وطغيانه سبب لهلاكه، ولكن من رحمة اللَّه وحكمته وعدله أنه لا يعذب أحدًا، إلا بعد قيام الحجة بالرسل، فحينئذ علم موسى عليه السلام أنه تحمل حملًا عظيمًا، حيث أرسل إلى هذا الجبار العنيد، الذي ليس له منازع في مصر من الخلق، وموسى عليه السلام وحده، وقد جرى منه ما جرى من القتل، فامتثل أمر ربه، وتلقاه بالانشراح والقبول، وسأله المعونة وتيسير الأسباب التي هي من تمام الدعوة، فقال: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾ أي: وسعه وأفسحه، لأتحمل الأذى القولي والفعلي، ولا يتكدر قلبي بذلك، ولا يضيق صدري، فإن الصدر إذا ضاق، لم يصلح صاحبه لهداية الخلق ودعوتهم.

قال اللَّه لنبيه محمد ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ﴾[1]، وعسى الخلق يقبلون الحق مع اللين وسعة الصدر وانشراحه عليهم.

﴿وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾﴾ أي: سهل علي كل أمر أسلكه وكل طريق أقصده في سبيلك، وهون علي ما أمامي من الشدائد، ومن تيسير الأمر أن ييسر للداعي أن يأتي جميع الأمور من أبوابها، ويخاطب كل أحد بما يناسب له، ويدعوه بأقرب الطرق الموصلة إلى قبول قوله.

﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾﴾، وكان في لسانه ثقل لا يكاد يفهم عنه الكلام كما قال المفسرون، وكما قال اللَّه عنه أنه قال: ﴿وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا﴾[2] فسأل اللَّه أن يحل منه عقدة يفقهوا ما يقول فيحصل المقصود التام من المخاطبة والمراجعة والبيان عن المعاني.

﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾﴾ أي: معينًا يعاونني ويؤازرني ويساعدني على من أرسلت إليهم، وسأل أن يكون من أهله لأنه من باب البر، وأحق ببر الإنسان

---

(١) آل عمران: الآية (١٥٩).

(٢) القصص: الآية (٣٤).

قرابته. ثم عينه بسؤاله فقال: ﴿هَٰرُونَ أَخِي ۝٣٠ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ۝٣١﴾ أي: قوني به، وشد به ظهري، قال الله: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا﴾[١].

﴿وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ۝٣٢﴾ أي في النبوة بأن تجعله نبيا رسولا كما جعلتني.

ثم ذكر الفائدة في ذلك فقال: ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۝٣٣ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ۝٣٤﴾ علم -عليه الصلاة والسلام- أن مدار العبادات كلها والدين على ذكر الله، فسأل الله أن يجعل أخاه معه يتساعدان ويتعاونان على البر والتقوى، فيكثر منهما ذكر الله من التسبيح والتهليل وغيره من أنواع العبادات، ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ۝٣٥﴾ تعلم حالنا وضعفنا وعجزنا وافتقارنا إليك في كل الأمور، وأنت أبصر بنا من أنفسنا وأرحم، فمن علينا بما سألناك، وأجب لنا فيما دعوناك»[٢].

قال ابن عاشور: «لما أظهر اللّه لهُ الآيتين فعلم بذلك أنه مؤيّد من اللّه تعالى، أمره اللّه بالأمر العظيم الذي من شأنه أن يُدخل الرّوع في نفس المأمور به، وهو مواجهة أعظم ملوك الأرض يومئذ بالموعظة ومكاشفته بفساد حاله، وقد جاء في الآيات الآتية: ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ۝٤٥ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ۝٤٦﴾[٣].

والذهاب المأمور به ذهاب خاص، قد فهمه موسى من مقدمات الإخبار باختياره، وإظهار المعجزات له، أو صرح له به وطوي ذكره هنا على طريقة الإيجاز، على أنّ التّعليل الواقع بعده ينبيء به.

فجملة ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ تعليل للأمر بالذهاب إليه، وإنما صلحت للتعليل لأن المراد ذهاب خاص، وهو إبلاغ ما أمر اللّه بإبلاغه إليه من تغييره عما هو عليه من عبادة غير اللّه. ولما علم موسى ذلك لم يبادر بالمراجعة في الخوف من ظلم فرعون، بل تلقى الأمر وسأل اللّه الإعانة عليه، بما يؤول إلى رباطة جأشه وخلق الأسباب التي تعينه على تبليغه، وإعطائه فصاحة القول للإسراع بالإقناع بالحجة»[٤].

وقال: «وخصّ هارون لفرط ثقته به؛ ولأنه كان فصيح اللسان مقوالًا، فكونه من

---

(١) القصص: الآية (٣٥).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ١٥٢-١٥٤).

(٣) طه: الآيتان (٤٥-٤٦).

(٤) التحرير والتنوير (١٦/ ٢٠٩-٢١٠).

أهله مظنة النصح له، وكونه أخاه أقوى في المناصحة، وكونه الأخ الخاصّ لأنه معلوم عنده بأصالة الرأي»[١].

وقال: «وعلّل موسى ﷺ سؤاله تحصيل ما سأله لنفسه ولأخيه، بأن يسبّحا اللّه كثيرًا ويذكُرَا اللّه كثيرًا. ووجه ذلك أنّ فيما سأله لنفسه تسهيلًا لأداء الدعوة بتوفر آلاتها ووجود العون عليها، وذلك مظنة تكثيرها.

وأيضًا فيما سأله لأخيه تشريكه في الدعوة ولم يكن لأخيه من قبل، وذلك يجعل من أخيه مضاعفة لدعوته، وذلك يبعث أخاه أيضًا على الدعوة. ودعوةُ كلّ منهما تشتمل على التعريف بصفات اللّه وتنزيهه، فهي مشتملة على التسبيح، وفي الدعوة حثّ على العمل بوصايا اللّه تعالى عباده، وإدخال الأمة في حضرة الإيمان والتّقوى، وفي ذلك إكثار من ذكر اللّه بإبلاغ أمره ونهيه. ألا ترى إلى قوله تعالى بعد هذه الآيات ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى﴾[٢]، أي لا تضعفا في تبليغ الرسالة، فلا جرم كان في تحصيل ما دعا به إكثار من تسبيحهما وذكرهما اللّه.

وأيضًا في التعاون على أداء الرسالة تقليل من الاشتغال بضرورات الحياة، إذ يمكن أن يقتسما العملَ الضروري لحياتهما فيقلّ زَمن اشتغالهما بالضروريات؛ وتتوفّر الأوقات لأداء الرسالة. وتلك فائدة عظيمة لكليهما في التبليغ.

والذي ألجأ موسى إلى سؤال ذلك علمُه بشدّة فرعون وطغيانه ومنعه الأمة من مفارقة ضلالهم، فعلم أنّ في دعوته فتنة للداعي، فسأل الإعانة على الخلاص من تلك الفتنة ليتوفّرا للتسبيح والذكر كثيرًا»[٣].

قلت: خلاصة ما ذكره المفسرون في هذه الآية أن الداعي إلى اللّه، سواء كان نبيًا أو تابعًا لنبيّ، ينبغي دائمًا أن يكون لجوءه إلى من أرسله، أو إلى من خلقه وهداه، ولا سيما إذا فهم الداعية مهمته ورسالته التي يريد أن يؤديها، فلا شك أن البلاغ عن اللّه وعن رسوله فيه ثقل كبير، وهو أمر عظيم كما قال اللّه في الأمانة: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ

---

(١) التحرير والتنوير (١٦/ ٢١٢).

(٢) طه: الآية (٤٢).

(٣) التحرير والتنوير (١٦/ ٢١٣-٢١٤).

﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[١]، وحمل الأمانة يحتاج إلى الصبر وحسن الأداء، وهذا الأمر لا يمكن أن يستمد إلا من اللَّه، ولهذا لجأ موسى إليه سبحانه في سؤاله أن يشرح صدره، ولا شك أن صفة شرح الصدر لا يمكن أن تكون إلا بكامل الإخلاص، والاحتساب في العمل، الذي هو نتيجة الإخلاص، فبقدر ما ينقص إخلاصه ويضعف احتسابه بقدر ما يضيق صدره، ولهذا فالذي شرح اللَّه صدره للبلاغ عن اللَّه وعن رسوله؛ فإن الزمان مهما طال لا ينقصه من انشراح الصدر، فنوح دعا إلى اللَّه ألف سنة إلا خمسين عامًا وصدره منشرح، وكلماته التي ذكرها اللَّه تدل على ذلك كقوله: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾[٢]، وكما وصفه اللَّه بقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾[٣]، والذي يوصف بأنه كان عبدًا شكورًا لا مرية أنه كان معه تمام الرضا بما قسم اللَّه له، فمن كان هذا حاله فهو يقينًا ناجح في دعوته، ولهذا لا تجد للمنافقين المرائين دعوة نافعة مستمرة، فقد تجد لها لمعانًا لكن سرعان ما ينطفئ، فمن قرأ تاريخ الدعوات السابقة يرى ذلك ماثلًا لا ينكر، فهذا مسيلمة الكذاب عاصر الرسول ﷺ، فأين دعوته من دعوة من أطبقت دعوته الأرض كلها، واستغرقت الأزمنة إلى أن تقوم الساعة؟ وأين دعوة ابن أبي دؤاد من دعوة أحمد بن حنبل؟ وأين دعوة أعداء شيخي الإسلام ابن تيمية وابن عبد الوهاب من دعوتهما؟ وهذا يحتاج إلى بسط، ولكن ما لا يذكر كله لا يترك جله.

فمن يسَّر اللَّه أمره، وشرح صدره، وأعطاه فصاحة اللسان، والقلم والبيان، فقد توفرت فيه شروط الداعية، فهذه هي أصول الدعوة، ومن زاده اللَّه خيرًا فيسّر له الأعوان الذين يحملون معه همّ دعوته كما حصل لمحمد ﷺ فذاك كمال بعد كمال.

وأما ما يذكره المفسرون عن موسى عليه السلام أنه التقم جمرة، واعتل لسانه بها، فهذه خرافة يتناقلونها، وإسرائيلية غير صحيحة موجودة في كتب لم تعتمد الصحيح، فلا ينبغي أن تنقل إلا بعد صحتها، وهذا السؤال من موسى لا يدل على ما ألصقوه به، فأدعية الأنبياء فيها كثير من هذا، كأدعية رسولنا ﷺ وهو أفصح العرب، من

---

(١) الأحزاب: الآية (٧٢).

(٢) نوح: الآيات (١٠-١٢).

(٣) الإسراء: الآية (٣).

سؤاله العلم النافع، وسؤاله الهداية، وسؤاله التوفيق، وسؤاله النصر، وغيرها، فيا للَّه العجب من ابن جرير وغيره من المفسرين يحكون مثل هذه الخرافات، ويجعلونها في كتبهم!

فنرجو اللَّه أن يعصمنا من الخطأ والزلل، ومن أن نقول على اللَّه ما لم يقل، ولم يبلغنا خبره بواسطة الثقات الأثبات.

* * *

قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾

★ **غريب الآية:**

مَنَنَّا: أنعمنا، والمنة: النعمة الثقيلة.

التَّابُوت: هذه الآلة المعروفة تنحت من خشب وغيره.

اليَمّ: البحر، والمراد به ههنا نيل مصر في قول الجميع، واليم اسم يقع على البحر وعلى النهر العظيم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾. ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة أنه منَّ على موسى مرة أخرى قبل مَنِّه عليه بالرسالة ورسالة أخيه معه، وذلك بإنجائه من فرعون وهو صغير، إذ أوحى إلى أمه، أي ألهمها وقذف في قلبها، وقال بعضهم: هي رؤيا منام. وقال بعضهم: أوحى إليها ذلك بواسطة ملك كلمها بذلك. ولا يلزم من الإيحاء في أمر خاص أن يكون الموحى إليه نبيًا.. وما ذكره -جل وعلا- في هذه الآيات أوضحه في غير هذا الموضع، كقوله في القصص: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ﴾[1]، وقد بين تعالى شدة جزع أمه عليه لما ألقته في البحر، وألقاه اليم بالساحل، وأخذه عدوه فرعون في قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ

---

(١) القصص: الآيتان (٧-٨).

﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[١] . .

وما ذكره -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة من منّه المتابعة على موسى حيث قال: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾ أشار إلى ما يشبهه في قوله: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾﴾[٢].

قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾. من آثار هذه المحبة التي ألقاها الله على عبده ونبيه موسى -عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام-؛ ما ذكره -جل وعلا- في القصص في قوله: ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ﴾[٣]»[٤].

قال ابن كثير: «هذه إجابة من الله لرسوله موسى ﷺ فيما سأل من ربه ﷻ، وتذكير له بنعمه السالفة عليه، فيما كان ألهم أمه حين كانت ترضعه، وتحذر عليه من فرعون وملئه أن يقتلوه؛ لأنه كان قد ولد في السنة التي يقتلون فيها الغلمان. فاتخذت له تابوتا، فكانت ترضعه ثم تضعه فيه، وترسله في البحر وهو النيل- وتمسكه إلى منزلها بحبل، فذهبت مرة لتربطه فانفلت منها وذهب به البحر، فحصل لها من الغم والهم ما ذكره الله عنها في قوله: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾[٥]، فذهب به البحر إلى دار فرعون ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾[٦]، أي قدرًا مقدورًا من الله، حيث كانوا هم يقتلون الغلمان من بني إسرائيل، حذرًا من وجود موسى، فحكم الله وله السلطان العظيم، والقدرة التامة- ألا يربى إلا على فراش فرعون، ويغذى بطعامه وشرابه، مع محبته وزوجته له؛ ولهذا قال: ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾ أي: عند عدوك، جعلته يحبك. قال سلمة بن كُهَيْل: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾ قال: حببتك إلى عبادي»[٧].

قال السعدي: «فقال الله ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ أي أعطيت جميع ما طلبت، فسنشرح صدرك، ونيسر أمرك، ونحل عقدة من لسانك، يفقهوا قولك، ونشد

---

(١) القصص: الآية (١٠).
(٢) الصافات: الآية (١١٤).
(٣) القصص: الآية (٩).
(٤) أضواء البيان (٤/ ٨-١٠).
(٥) القصص: الآية (١٠).
(٦) القصص: الآية (٨).
(٧) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٧٧-٢٧٨).

عضدك بأخيك هارون، ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾[١]، وهذا السؤال من موسى عليه السلام يدل على كمال معرفته بالله، وكمال فطنته ومعرفته للأمور، وكمال نصحه. وذلك أن الداعي إلى الله المرشد للخلق -خصوصا إذا كان المدعو من أهل العناد والتكبر والطغيان- يحتاج إلى سعة صدر وحلم تام على ما يصيبه من الأذى، ولسان فصيح يتمكن من التعبير به عن ما يريده ويقصده، بل الفصاحة والبلاغة لصاحب هذا المقام من ألزم ما يكون لكثرة المراجعات والمراوضات، ولحاجته لتحسين الحق وتزيينه بما يقدر عليه ليحببه إلى النفوس، وإلى تقبيح الباطل وتهجينه لينفر عنه. ويحتاج مع ذلك أيضًا أن يتيسر له أمره فيأتي البيوت من أبوابها، ويدعو إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، يعامل الناس كلا بحسب حاله، وتمام ذلك أن يكون لمن هذه صفته أعوان ووزراء يساعدونه على مطلوبه؛ لأن الأصوات إذا كثرت لا بد أن تؤثر، فلذلك سأله -عليه الصلاة والسلام- هذه الأمور فأعطيها.

وإذا نظرت إلى حالة الأنبياء المرسلين إلى الخلق رأيتهم بهذه الحال بحسب أحوالهم، خصوصا خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ، فإنه في الذروة العليا من كل صفة كمال، وله من شرح الصدر، وتيسير الأمر، وفصاحة اللسان، وحسن التعبير والبيان، والأعوان على الحق من الصحابة فمن بعدهم ما ليس لغيره.

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴿٣٧﴾﴾ لما ذكر منته على عبده ورسوله موسى بن عمران، في الدين، والوحي، والرسالة، وإجابة سؤاله، ذكر نعمته عليه وقت التربية والتنقلات في أطواره فقال: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴿٣٧﴾﴾ حيث ألهمنا أمك أن تقذفك في التابوت وقت الرضاع، خوفا من فرعون، لأنه أمر بذبح أبناء بني إسرائيل، فأخفته أمه، وخافت عليه خوفا شديدا فقذفته في التابوت، ثم قذفته في اليم، أي: شط نيل مصر، فأمر الله اليم، أن يلقيه في الساحل، وقيض الله أن يأخذه أعدى الأعداء لله ولموسى، ويتربى في أولاده، ويكون قرة عين لمن رآه، ولهذا قال: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ فكل من رآه أحبه»[٢].

---

(١) القصص: الآية (٣٥).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ١٥٤-١٥٦).

قوله تعالى: ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾

★ **غريب الآية:**

تُصْنَع: أي لتُرَبّى وَيُحسن إليك.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

في هذه الآية إثبات صفة العين لله ﷻ.

قال القنوجي: «﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾ أي لتُرَبّى وتغذى بمرأى مني، ويحسن إليك وأنا مراعيك ومراقبك، كما يراعي الإنسان الشيء بعينه إذا اعتنى به..

وقيل: أي ولتصنع على عيني قدّرنا مشي أختك، والعين أيضًا من ألفاظ الصفات، فلا تؤول، وتجرى على ظاهرها وهو الأولى»[١].

قال السعدي: «﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾ أي: ولتتربى على نظري وفي حفظي وكلاءتي، وأي نظر وكفالة أجلّ وأكمل من ولاية البر الرحيم، القادر على إيصال مصالح عبده، ودفع المضار عنه؟! فلا ينتقل من حالة إلى حالة إلا والله تعالى هو الذي دبّر ذلك لمصلحة موسى»[٢].

قال السمعاني: «وقوله: ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾ أي تربى وتغذى على نظر مني، وهو مثل قوله تعالى: ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾[٣]، فإن قيل: ما من أحد في العالم إلا وهو يربى ويغذى بمرأى من الله ونظر منه، فأي معنى لتخصيص موسى؟ والجواب: أن الله تعالى فعل في اللطف في تربية موسى ما لم يفعل في تربية غيره، فالتخصيص إشارة إلى ذلك اللطف»[٤].

---

(١) فتح البيان (٨/ ٢٣٠-٢٣١).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ١٥٦-١٥٧).

(٣) هود: الآية (٣٧).

(٤) تفسير السمعاني (٣/ ٣٢٩-٣٣٠).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في إثبات صفة العين لله تعالى

* عن عبد اللَّه بن عمر قال: ذكر الدجال عند النبي ﷺ فقال: «**إن اللَّه لا يخفى عليكم، إن اللَّه ليس بأعور -وأشار بيده إلى عينه- وإن المسيح الدجال أعور عين اليمنى، كأن عينه عنبة طافية**»(١).

★ غريب الحديث:

طافية: ناتئة نُتُوَّ حبة العنب من بين أخواتها، وأريد به جحوظ العين الواحدة.

* عن أنس ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**ما بعث اللَّه من نبي إلا أنذر قومه الأعور الكذاب، إنه أعور وإن ربكم ليس بأعور، مكتوب بين عينيه كافر**»(٢).

★ فوائد الحديثين:

قال الحافظ: «قال ابن المنير: وجه الاستدلال على إثبات العين لله من حديث الدجال من قوله: «**إن اللَّه ليس بأعور**»؛ من جهة أن العور عرفا: عدم العين، وضد العور ثبوت العين، فلما نزعت هذه النقيصة لزم ثبوت الكمال بضدها، وهو وجود العين..

وقال الشيخ شهاب الدين السهروردي في كتاب العقيدة له: أخبر اللَّه في كتابه، وثبت عن رسوله ﷺ الاستواء والنزول والنفس واليد والعين، فلا يتصرف فيها بتشبيه ولا تعطيل، إذ لولا إخبار اللَّه ورسوله ما تجاسر عقل أن يحوم حول ذلك الحمى. قال الطيبي: هذا هو المذهب المعتمد وبه يقول السلف الصالح. وقال غيره: لم ينقل عن النبي ﷺ ولا عن أحد من أصحابه من طريق صحيح: التصريح بوجوب تأويل شيء من ذلك، ولا المنع من ذكره، ومن المحال أن يأمر اللَّه نبيه بتبليغ ما أنزل إليه من ربه وينزل عليه: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾(٣)، ثم يترك هذا الباب

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٧)، والبخاري (١٣/ ٤٨٠/ ٧٤٠٧)، ومسلم (١/ ١٥٤-١٥٥/ ١٦٩)، والترمذي (٤/ ٤٤٠-٤٤١/ ٢٢٣٥).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ١٧٣)، والبخاري (١٣/ ٤٨٠/ ٧٤٠٨)، ومسلم (٤/ ٢٢٤٨/ ٢٩٣٣)، وأبو داود (٤/ ٤٩٤/ ٤٣١٦)، الترمذي (٤/ ٤٤٧/ ٢٢٤٥).

(٣) المائدة: الآية (٣).

فلا يميز ما يجوز نسبته إليه مما لا يجوز، مع حضه على التبليغ عنه بقوله: «ليبلغ الشاهد الغائب»[1] حتى نقلوا أقواله وأفعاله وأحواله وصفاته وما فعل بحضرته، فدل على أنهم اتفقوا على الإيمان بها على الوجه الذي أراده اللَّه منها، ووجب تنزيهه عن مشابهة المخلوقات بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[2]، فمن أوجب خلاف ذلك بعدهم فقد خالف سبيلهم وباللَّه التوفيق»[3].

قال محمد أمان الجامي: «العين صفة لله تعالى بلا كيف، وهي من الصفات الخبرية الذاتية الثابتة بالكتاب والسنة، وقد جاء ذكر العين في القرآن الكريم على حالتين:

١- ذكرت العين مضافة إلى ضمير المفرد، مثل قوله تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾.

٢- ذكرت العين بصيغة الجمع، مضافة إلى ضمير الجمع، مثله قوله تعالى: ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾[4]. وذكر العين مفردة لا يدل على أنها عين واحدة فقط؛ لأن المفرد المضاف يراد به أكثر من واحد؛ مثل قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾[5]، فالمراد نعم اللَّه المتنوعة التي لا تدخل تحت الحصر والعدّ. وقوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾[6]، فالمراد بها جميع ليالي رمضان. ولو قال قائل: نظرت بعيني أو وضعت المنظار على عيني، لا يكاد يخطر ببال أحد ممن سمع هذا الكلام أن هذا القائل ليست له إلا عين واحدة، هذا ما لا يخطر ببال أحد أبدًا.

قال الإمام ابن القيم: إذا أضيفت العين إلى اسم الجمع ظاهرًا أو مضمرًا فالأحسن جمعها مشاكلة للفظ، كقوله تعالى: ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾، و ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾[7]، وهذا نظير المشاكلة في لفظ اليد المضافة إلى المفرد كقوله

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٣٧) والبخاري (١/ ٢٦٥/ ١٠٥) ومسلم (٣/ ١٣٠٥-١٣٠٦/ ١٦٧٩) والنسائي في الكبرى (٣/ ٤٣٢/ ٥٨٥٠) من حديث أبي بكرة ﷺ.

(٢) الشورى: الآية (١١).

(٣) فتح الباري (١٣/ ٤٨١).

(٤) القمر: الآية (١٤).

(٥) النحل: الآية (١٨).

(٦) البقرة: الآية (١٨٧).

(٧) المؤمنون: الآية (٢٧).

تعالى: ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾[١]، و ﴿بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾[٢]. وإن أضيفت إلى جمع جمعت كقوله تعالى: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾[٣]، وقد تقدم هذا البحث في صفة اليد مستوفى. وقد ذكرت العين في السنة في قصة المسيح الدجال في حديث عبد اللَّه بن عمر الذي يقول فيه رسول اللَّه -عليه الصلاة والسلام-: «**إن اللَّه لا يخفى عليكم، إن اللَّه ليس بأعور، وأشار بيده إلى عينيه، وأن المسيح الدجال أعور العين اليمنى، كأنها عنبة طافية**»، وللحديث سبب، وهو أن الدجال ذكر عند النبي -عليه الصلاة والسلام-، وأخبر أنه ما من نبي إلا وقد أمر أمته أو نصحهم بالاستعاذة منه، ثم ذكر أن من صفاته أنه أعور العين اليمنى. وأنه على الرغم من دعوى الألوهية وما يجري له من الأمور الخارقة للعادة امتحانًا واستدراجًا فيه عيوب ونقائص، وهو عاجز عن دفع ذلك عن نفسه، فلن يلتبس عليكم الأمر في شأنه، لأنه ناقص إذ به عَوَر، وربكم ليس بأعور، بل له سبحانه عينان يبصر بهما لأنه سميع بصير»[٤].

وقال: «وأما إشارته -عليه الصلاة والسلام- بيده إلى عينيه -وهو يخبر عن عور المسيح الدجال- فإنما تفيد تأكيد المعنى الحقيقي للعين على ما يليق باللَّه تعالى، ولا يفهم منها أن عين اللَّه جارحة كأعيننا، بل له ﷻ عين حقيقية تليق بعظمته وجلاله وقِدَمِه. وللمخلوق عين حقيقية تناسب حاله وحدوثه وضعفه، وليست الحقيقة كالحقيقة، وهذا شأن جميع الصفات التي فيها المشاركة اللفظية مع صفات المخلوق كما تقدم هذا البحث في غير موضع من الرسالة. روى عكرمة عن ابن عباس عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾[٥]، أنه قال ﷺ بعين اللَّه -تبارك وتعالى-، قال الإمام البيهقي -بعد رواية قول ابن عباس السالف الذكر: ومن أصحابنا من حمل العين المذكورة في الكتاب على الرؤية. وقال: قوله تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾، معناه بمرأى مني، وقوله: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾[٦]، أي بمرأى منا، وكذلك قوله: ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾[٧]، وقد يكون ذلك من صفات الذات. وتكون صفة واحدة، والجمع فيه للتعظيم. ومنهم من حملها على الحفظ والكلاءة. وقال: إنها

---

(١) آل عمران: الآية (٢٦).
(٢) الملك: الآية (١).
(٣) يس: الآية (٧١).
(٤) الصفات الإلهية (٣١٧-٣١٨).
(٥) هود: الآية (٣٧).
(٦) الطور: الآية (٤٨).
(٧) القمر: الآية (١٤).

من صفات الفعل والجمع فيها شائع، ومن قال بأحد هذين زعم أن المراد بالخبر نفي نقص العور عن الله ﷻ، وأنه لا يجوز عليه ما يجوز على المخلوقين من الآفات والنقائص. ثم قال البيهقي: «والذي يدل عليه ظاهر الكتاب والسنة من إثبات العين صفة، لا من حيث (الحدقة) أولى. وبالله التوفيق» ا.هـ

وهذا القول الذي اختاره الإمام البيهقي هو الذي عليه سلف الأمة، وأما محاولة بعض الناس حمل النصوص على خلاف ما يظهر من ألفاظها فمحاولة جهمية معروفة.

وأما تفسير من فسر الآيات السابقة بالرؤية مع إنكار صفة العين فشبيهٌ بقول الجهمية القائلين: إنه تعالى: سميع بلا سمع، بصير بلا بصر، عليم بلا علم. وهو قول مرفوض شرعًا وعقلًا، كما تقدم في غير موضع.

وأما عند أهل السنة فجميع هذه الصفات تساق سوقًا واحدًا خبرية أو عقلية، ذاتية أو فعلية، فتثبت بلا كيف، ولا يلزم من إثباتها تشبيه ولا تجسيم كما يظن النفاة، بل يلزم من تحريف القول فيها التعطيل. وينتج من ذلك تكذيب خبر الله وخبر رسوله -عليه الصلاة والسلام-. هذا ما يلزم النفاة -ولا محالة- وهم كل من ينفي صفة ثابتة بالكتاب والسنة، أو بالسنة الصحيحة فقط، أدركوا ذلك أو لم يدركوا. والله المستعان»[1].

وانظر قوله تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ من سورة القمر.

* * *

(١) الصفات الإلهية (٣١٩-٣٢٠).

قوله تعالى: ﴿إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «هذا الذي ذكره -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة من كون أخته مشت إليهم، وقالت لهم ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ﴾ أوضحه -جل وعلا- في سورة القصص فبين أن أخته المذكورة مرسلة من قبل أمها لتتعرف خبره بعد ذهابه في البحر، وأنها أبصرته عن بعدٍ وهم لا يشعرون بذلك. وأن اللَّه حرم عليه المراضع غير أمه تحريمًا كونيًا قدريًا. فقالت لهم أخته ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ﴾ أي: على مرضع يقبل هو ثديها وتكفله لكم بنصح وأمانة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١١ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ۝١٢ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٣﴾[1]. فقوله تعالى في آية القصص هذه: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ﴾ أي قالت أم موسى لأخته وهي ابنتها: ﴿قُصِّيهِ﴾ أي: اتبعي أثره، وتطلبي خبره حتى تطَّلعي على حقيقة أمره»[2].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ وذلك أنه لما استقر عند آل فرعون، عرضوا عليه المراضع فأباها، قال اللَّه ﷻ: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾، فجاءت أخته وقالت: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾[3]. تعني هل أدلكم على من ترضعه لكم بالأجرة؟ فذهبت به وهم معها إلى أمه، فعرضت عليه ثديها، فقبله،

---

(١) القصص: الآيات (١١-١٣).

(٢) أضواء البيان (٤/ ١٠-١١).

(٣) القصص: الآية (١٢).

ففرحوا بذلك فرحًا شديدًا، واستأجروها على إرضاعه، فنالها بسببه سعادة ورفعة وراحة في الدنيا، وفي الآخرة أغنم وأجزل..

وقال تعالى ههنا: ﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ أي عليك»[1].

قال السعدي: «ومن حسن تدبيره، أن موسى لما وقع في يد عدوه، قلقت أمه قلقا شديدا، وأصبح فؤادها فارغا، وكادت تخبر به لولا أن اللَّه ثبتها وربط على قلبها، ففي هذه الحالة حرم اللَّه على موسى المراضع، فلا يقبل ثدي امرأة قط، ليكون مآله إلى أمه فترضعه، ويكون عندها مطمئنة ساكنة قريرة العين، فجعلوا يعرضون عليه المراضع فلا يقبل ثديا.

فجاءت أخت موسى، فقالت لهم: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَاصِحُونَ﴾[2]، ﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾»[3].

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٧٨).
(٢) القصص: الآية (١٢).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ١٥٧).

قوله تعالى: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾

★ **غريب الآية:**

الغم: الحزن الذي يغم القلب، أي يستره ويغشيه.

فتناك فتونا: أي ابتليناك بضروب من الاختبارات.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «لم يبين هنا -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة سبب قتله لهذه النفس، ولا ممن هي، ولم يبين السبب الذي نجاه به من ذلك الغم، ولا الفتون الذي فتنه، ولكنه بين في سورة القصص خبر القتيل المذكور في قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ۝١٥ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[1]، وأشار إلى القتيل المذكور في قوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾[2]، وهو المراد بالذنب في قوله تعالى عن موسى: ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ ۝١٣ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾[3]، وهو مراد فرعون بقوله لموسى فيما ذكره اللَّه عنه: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ﴾[4]. وقد أشار تعالى في القصص أيضًا إلى غم موسى، وإلى السبب الذي أنجاه اللَّه به منه في قوله: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ۝٢٠ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۝٢١ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ۝٢٢﴾ إلى قوله: ﴿قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[5]»[6].

---

(١) القصص: الآيتان (١٥-١٦).

(٢) القصص: الآية (٣٣).

(٣) الشعراء: الآيتان (١٣-١٤).

(٤) الشعراء: الآية (١٩).

(٥) القصص: الآيات (٢٠-٢٥).

(٦) أضواء البيان (٤/ ١٢-١٣).

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا﴾ يعني -جلّ ثناؤه- بذلك: قتله القبطي الذي قتله حين استغاثه عليه الإسرائيلي، فوكزه موسى. وقوله: ﴿فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ يقول -تعالى ذكره-: فنجيناك من غمك بقتلك النفس التي قتلت، إذ أرادوا أن يقتلوك بها فخلصناك منهم، حتى هربت إلى أهل مدين، فلم يصلوا إلى قتلك وقودك. وكان قتله إياه فيما ذُكر خطأ»[1].

قال القرطبي: «﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ أي: اختبرناك اختبارًا حتى صلحت للرسالة. وقال قتادة: بلوناك بلاء. وقال مجاهد: أخلصناك إخلاصًا. وقال ابن عباس: اختبرناك بأشياء قبل الرسالة، أولها: حملته أمه في السنة التي كان فرعون يذبح فيها الأطفال، ثم إلقاؤه في اليم، ثم منعه من الرضاع إلا من ثدي أمه، ثم جره بلحية فرعون، ثم تناوله الجمرة بدل الدرة، فدرأ ذلك عنه قتل فرعون، ثم قتله القبطي وخروجه خائفًا يترقب، ثم رعايته الغنم ليتدرب بها على رعاية الخلق..»[2].

* * *

(١) جامع البيان (١٦/ ١٦٣-١٦٤).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١١/ ١٩٨).

قوله تعالى: ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «السنين التي لبثها في مدين هي المذكورة في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ﴾[1]، وقد قدمنا في سورة مريم أنه أتم العشر، وبينا دليل ذلك من السنة. . وأظهر الأقوال في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾ أي: جئت على القدر الذي قدرته وسبق في علمي أنك تجيء فيه، فلم تتأخر عنه ولم تتقدم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾[2]، وقال: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾[3]، وقال: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾[4]»[5].

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخاطبًا لموسى عليه السلام: إنه لبث مقيمًا في أهل «مدين» فارًّا من فرعون وملئه، يرعى على صهره، حتى انتهت المدة وانقضى الأجل، ثم جاء موافقًا لقدر اللَّه وإرادته من غير ميعاد، والأمر كله لله -تبارك وتعالى-، وهو المسير عباده وخلقه فيما يشاء؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ﴾، قال مجاهد: أي على موعد»[6].

قال السعدي: «﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ حين فر هاربا من فرعون وملئه حين أرادوا قتله، فتوجه إلى مدين ووصل إليها، وتزوج هناك ومكث عشر سنين أو ثمان سنين، ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾ أي: جئت مجيئا قد مضى به القدر، وعلمه اللَّه وأراده في هذا الوقت وهذا الزمان وهذا المكان، ليس مجيئك اتفاقا من غير قصد ولا تدبير منَّا، بل بقدر ولطف منا، وهذا يدل على كمال اعتناء اللَّه بكليمه موسى عليه السلام»[7].

---

(١) القصص: الآية (٢٧).
(٢) القمر: الآية (٤٩).
(٣) الرعد: الآية (٨).
(٤) الأحزاب: الآية (٣٨).
(٥) أضواء البيان (٤/ ١٣-١٤).
(٦) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٨٧).
(٧) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ١٥٨).

قوله تعالى: ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ۝٤١﴾

★ **غريب الآية:**

اصطنعتك: الاصطناع: المبالغة في إصلاح الشيء، ومعنى اصطنعتك: أي اجتبيتك واصطفيتك.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ۝٤١﴾ أنعمت عليك يا موسى هذه النعم، ومننت عليك هذه المنن، اجتباء مني لك، واختيارا لرسالتي والبلاغ عني، والقيام بأمري ونهيي»[1].

قال السعدي: «﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ۝٤١﴾ أي: أجريت عليك صنائعي ونعمي، وحسن عوائدي وتربيتي؛ لتكون لنفسي حبيبا مختصا، وتبلغ في ذلك مبلغا لا يناله أحد من الخلق، إلا النادر منهم، وإذا كان الحبيب إذا أراد اصطناع حبيبه من المخلوقين، وأراد أن يبلغ من الكمال المطلوب له ما يبلغ، يبذل غاية جهده، ويسعى نهاية ما يمكنه في إيصاله لذلك، فما ظنك بصنائع الرب القادر الكريم، وما تحسبه يفعل بمن أراده لنفسه، واصطفاه من خلقه؟»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفة النفس لله تعالى

* عن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: **«التقى آدم وموسى، فقال موسى لآدم: آنت الذي أشقيت الناس وأخرجتهم من الجنة؟ قال له آدم: آنت الذي اصطفاك الله برسالته، واصطفاك لنفسه، وأنزل عليك التوراة؟ قال: نعم. قال: فوجدتها كتب علي قبل أن يخلقني؟ قال: نعم. فحج آدم موسى»**[3].

---

(١) جامع البيان (١٦/ ١٦٨). (٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ١٥٨-١٥٩).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٤٨)، والبخاري (٨/ ٥٥٤-٥٥٥/ ٤٧٣٦)، ومسلم (٤/ ٢٠٤٢-٢٠٤٣/ ٢٦٥٢)، وأبو داود (٥/ ٧٦-٧٨/ ٤٧٠١)، والترمذي (٤/ ٣٨٦-٣٨٧/ ٢١٣٤)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٨٤-٢٨٥/ ١٠٩٨٥)، وابن ماجه (١/ ٣١-٣٢/ ٨٠).

★ **فوائد الحديث:**

فيه: «دليل على إثبات النفس لله تعالى وهي نفس حقيقية لائقة بجلاله».

وقد مضى الكلام على هذه الصفة عند قوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾[1] من سورة آل عمران.

* * *

(١) آل عمران: الآية (٢٨).

قوله تعالى: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾

★ **غريب الآية:**

لاَ تَنِيَا: أي لا تفترا ولا تضعفا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «وقوله تعالى: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾﴾. قال بعض أهل العلم: المراد بالآيات في قوله هنا: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى﴾ الآيات التسع المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾[1]، وقوله: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ﴾[2]. والآيات التسع المذكورة هي: العصا واليد البيضاء... إلى آخرها. وقد قدمنا الكلام عليها مستوفى في سورة بني إسرائيل. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾. أصل الطغيان: مجاوزة الحد، ومنه: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾﴾[3]، وقد بين تعالى شدة طغيان فرعون ومجاوزته الحد في قوله عنه: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[4]، وقوله عنه ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾[5]، وقوله عنه أيضًا: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾[6]..

وقوله: ﴿وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى﴾ أي لا تضعفا ولا تفترا في ذكري. وقد أثنى اللّه على من يذكره في جميع حالاته في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾[7]، وأمر بذكر اللّه عند لقاء العدو في قوله: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟

---

(١) الإسراء: الآية (١٠١).
(٢) النمل: الآية (١٢).
(٣) الحاقة: الآية (١١).
(٤) النازعات: الآية (٢٤).
(٥) القصص: الآية (٣٨).
(٦) الشعراء: الآية (٢٩).
(٧) آل عمران: الآية (١٩١).

﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾[(١)]»[(٢)].

وقال: «قوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ٤٤﴾، أمر اللَّه -جل وعلا- نبيه موسى وهارون -عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام-: أن يقولا لفرعون في حال تبليغ رسالة اللَّه إليه ﴿قَوۡلٗا لَّيِّنٗا﴾ أي: كلامًا لطيفًا سهلًا رقيقًا، ليس فيه ما يغضب وينفر. وقد بين -جل وعلا- المراد بالقول اللين في هذه الآية بقوله: ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ١٧ فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ١٨ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ ١٩﴾[(٣)]، وهذا واللَّه غاية لين الكلام ولطافته ورقته كما ترى. وما أمر به موسى وهارون في هذه الآية الكريمة، أشار له تعالى في غير هذا الموضع، كقوله: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾[(٤)]»[(٥)].

قال ابن جرير: «﴿ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ﴾ هارون ﴿بِـَٔايَٰتِي﴾ يقول: بأدلتي وحججي، اذهبا إلى فرعون بها إنه تمرّد في ضلاله وغيه، فأبلغاه رسالاتي ﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي﴾ يقول: ولا تضعفا في أن تذكراني فيما أمرتكما ونهيتكما، فإن ذكركما إياي يقوي عزائمكما، ويثبت أقدامكما، لأنكما إذا ذكرتماني، ذكرتما مَنِّي عليكما نِعَما جمَّة، ومننا لا تحصى كثرة»[(٦)].

وقال: «يقول -تعالى ذكره- لموسى وهارون: فقولا لفرعون قولا ليِّنا، ذُكر أن القول اللين الذي أمرهما اللَّه أن يقولاه له، هو أن يكنياه.. وقوله: ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾، اختلف في معنى قوله: ﴿لَّعَلَّهُۥ﴾ في هذا الموضع، فقال بعضهم معناها ها هنا الاستفهام، كأنهم وجهوا معنى الكلام إلى: فقولا له قولا لينا، فانظرا هل يتذكر ويراجع أو يخشى اللَّه فيرتدع عن طغيانه.. وقال آخرون: معنى لعلّ هاهنا كي، ووجَّهوا معنى الكلام إلى ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ٤٣﴾ فادعواه وعظاه ليتذكر أو يخشى.. ولكلا هذين القولين وجه حسن، ومذهب صحيح»[(٧)].

قال ابن كثير: «﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي﴾.. المراد أنهما لا يفتران في ذكر اللَّه، بل يذكران اللَّه في حال مواجهة فرعون، ليكون ذكرُ اللَّه عونًا لهما عليه، وقوّة لهما

(١) الأنفال: الآية (٤٥).
(٢) أضواء البيان (٤/ ١٤-١٥).
(٣) النازعات: الآيات (١٧-١٩).
(٤) النحل: الآية (١٢٥).
(٥) أضواء البيان (٤/ ١٥).
(٦) جامع البيان (١٦/ ١٦٨).
(٧) جامع البيان (١٦/ ١٦٩-١٧٠).

وسلطانًا كاسرًا له»[١].

وقال: «﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٤٣﴾ أي: تمرّد وعتا وتَجَهْرم على اللَّه وعصاه، ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ۝٤٤﴾، هذه الآية فيها عبرة عظيمة، وهو أن فرعون في غاية العتو والاستكبار، وموسى صفوة اللَّه من خلقه إذ ذاك، ومع هذا أمر ألا يخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين، كما قال يزيد الرقاشي عند قوله: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾: يا من يتحبب إلى من يعاديه، فكيف بمن يتولاه ويناديه؟

وقال وهب بن مُنَبه: قولا له: إني إلى العفو والمغفرة أقربُ مني إلى الغضب والعقوبة.

وعن عكرمة في قوله: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ قال: لا إله إلا اللَّه، وقال عمرو بن عبيد، عن الحسن البصري: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ أعْذرا إليه، قولا له: إن لك ربًا ولك معادًا، وإن بين يديك جنة ونارا.

وقال بقيَّة، عن علي بن هارون، عن رجل، عن الضحاك بن مُزَاحم، عن النزال بن سَبْرَة، عن علي في قوله: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ قال: كَنِّه. وكذا روي عن سفيان الثوري: كَنّه بأبي مُرَّة.

والحاصل من أقوالهم: أن دعوتهما له تكون بكلام رقيق لين قريب سهل، ليكون أوقع في النفوس وأبلغ وأنجع، كما قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾[٢]»[٣].

قال السعدي: «لما امتن اللَّه على موسى بما امتن به من النعم الدينية والدنيوية قال له: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ﴾ هارون ﴿بِـَٔايَٰتِى﴾ أي: الآيات التي مني، الدالة على الحق وحسنه، وقبح الباطل، كاليد، والعصا ونحوها، في تسع آيات إلى فرعون وملئه، ﴿وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى﴾ أي: لا تفترا ولا تكسلا عن مداومة ذكري بل استمرًّا عليه، والزماه كما وعدتما بذلك ﴿كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۝٣٣ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ۝٣٤﴾[٤]، فإن ذكر اللَّه فيه معونة على جميع الأمور، يسهلها ويخفف حملها.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٨٧).
(٢) النحل: الآية (١٢٥).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٨٨).
(٤) طه: الآيتان (٣٣-٣٤).

﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ أي: جاوز الحد في كفره وطغيانه، وظلمه وعدوانه.

﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ أي: سهلا لطيفا، برفق ولين وأدب في اللفظ من دون فحش ولا صلف، ولا غلظة في المقال، أو فظاظة في الأفعال، ﴿لَّعَلَّهُۥ﴾ بسبب القول اللين ﴿يَتَذَكَّرُ﴾ ما ينفعه فيأتيه، ﴿أَوْ يَخْشَىٰ﴾ ما يضره فيتركه، فإن القول اللين داع لذلك، والقول الغليظ منفر عن صاحبه، وقد فَسَّرَ القولَ اللين في قوله: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾[1]، فإن في هذا الكلام من لطف القول وسهولته وعدم بشاعته ما لا يخفى على المتأمل، فإنه أتى بـ ﴿هَل﴾ الدالة على العرض والمشاورة التي لا يشمئز منها أحد، ودعاه إلى التزكي والتطهر من الأدناس التي أصلها التطهر من الشرك الذي يقبله كل عقل سليم، ولم يقل «أزكيك» بل قال: ﴿تَزَكَّىٰ﴾ أنت بنفسك، ثم دعاه إلى سبيل ربه الذي رباه وأنعم عليه بالنعم الظاهرة والباطنة، التي ينبغي مقابلتها بشكرها وذكرها؛ فقال: ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾. فلما لم يقبل هذا الكلام اللين الذي يأخذ حسنه بالقلوب، علم أنه لا ينجع فيه تذكير، فأخذه اللّٰه أخذ عزيز مقتدر»[2].

قال ابن عطية: «والقول اللين قالت فرقة: معناه كنياه، وقالت فرقة بل أمرهما بتحسين الكلمة.

قال القاضي أبو محمد: وهذا هو الوجه، وذلك أن كل من يريد دعاء إنسان إلى أمر يكرهه، فإنما الوجه أن يحرر في عبارته بالمعنى الذي يريد حتى لا يخل به، ولا يحز منه، ثم يجتهد بعد ذلك في أن تكون عبارة لطيفة ومقابلته لينة، وذلك أجلب للمراد، فأمر اللّٰه تعالى موسى وهارون أن يسلكا مع فرعون إكمال الدعوة في لين من القول»[3].

قال ابن عاشور: «واللين من شعار الدعوة إلى الحق، قال تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[4]، وقال: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾[5]. ومن اللين في دعوة

---

(١) النازعات: الآيتان (١٨-١٩).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ١٥٩-١٦٠).
(٣) المحرر الوجيز (٤/ ٤٥-٤٦).
(٤) النحل: الآية (١٢٥).
(٥) آل عمران: الآية (١٥٩).

موسى لفرعون قوله تعالى: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾[1]، وقوله: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾[2]، إذ المقصود من دعوة الرسل حصول الاهتداء لا إظهار العظمة وغلظة القول بدون جدوى.

فإذا لم ينفع اللين مع المدعوّ وأعرض واستكبر جاز في موعظته الإغلاظ معه، قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾[3]، وقال تعالى عن موسى: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾[4]»[5].

* * *

(١) النازعات: الآيتان (١٨-١٩).
(٢) طه: الآية (٤٧).
(٣) العنكبوت: الآية (٤٦).
(٤) طه: الآية (٤٨).
(٥) التحرير والتنوير (١٦/ ٢٢٥).

قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾

★ غريب الآية:

يَفْرُط: أي يتجاوز، وقيل: يعاجلنا ويقدم لنا العقوبة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ﴾ يقول -تعالى ذكره-: قال موسى وهارون: ربنا إننا نخاف فرعون إن نحن دعوناه إلى ما أمرتنا أن ندعوه إليه، أن يعجل علينا بالعقوبة»[1].

وقال: «﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾. يقول اللَّه -تعالى ذكره-: قال اللَّه لموسى وهارون ﴿لَا تَخَافَآ﴾ فرعون ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ﴾ أعينكما عليه، وأبصركما ﴿أَسْمَعُ﴾ ما يجري بينكما وبينه، فأفهمكما ما تحاورانه به ﴿وَأَرَىٰ﴾ ما تفعلان ويفعل، لا يخفى عليّ من ذلك شيء»[2].

قال ابن كثير: «يقول تعالى إخبارًا عن موسى وهارون، عليهما السلام، إنهما قالا مستجيرين باللَّه تعالى شاكيَيْن إليه: ﴿إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ يعنيان أن يَبْدُر إليهما بعقوبة، أو يعتدي عليهما فيعاقبهما وهما لا يستحقان منه ذلك.

قال عبد الرحمن بن زيد: ﴿أَن يَفْرُطَ﴾ يعجل. وقال مجاهد: يبسط علينا. وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾: يعتدي. ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ أي: لا تخافا منه، فإنني معكما أسمع كلامكما وكلامه، وأرى مكانكما ومكانه، لا يخفى عليّ من أمركم شيء، واعلما أن ناصيته بيدي، فلا يتكلم ولا يتنفس ولا يبطش إلا بإذني وبعد أمري، وأنا معكما بحفظي ونصري وتأييدي»[3].

---

(١) جامع البيان (١٦/ ١٧٠).

(٢) جامع البيان (١٦/ ١٧٠).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٨٩).

قوله تعالى: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَاءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «العذاب الذي نهى الله فرعون أن يفعله ببني إسرائيل: هو المذكور في سورة البقرة في قوله: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾(١)، وفي سورة إبراهيم في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾(٢)، وفي سورة الأعراف في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾(٣). وفي سورة الدخان في قوله: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَاءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ۝ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ﴾(٤)، وفي سورة الشعراء في قوله: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَاءِيلَ﴾(٥)، وما أمر به الله موسى وهارون في آية طه هذه من أنهما يقولان لفرعون إنهما رسولا ربه إليه، وأنه يأمره بإرسال بني إسرائيل، ولا يعذبهم، أشار إليه تعالى في غير هذا الموضع؛ كقوله في سورة الشعراء: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَاءِيلَ﴾(٦)»(٧).

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ أرسلَنا إليك يأمرك أن ترسل معنا بني إسرائيل، فأرسلهم معنا ولا تعذّبهم بما تكلفهم من الأعمال الرديئة، ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ﴾ معجزة ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ على أنه أرسلنا إليك بذلك، إن أنت لم

(١) البقرة: الآية (٤٩).
(٢) إبراهيم: الآية (٦).
(٣) الأعراف: الآية (١٤١).
(٤) الدخان: الآيتان (٣٠-٣١).
(٥) الشعراء: الآية (٢٢).
(٦) الشعراء: الآيتان (١٦-١٧).
(٧) أضواء البيان (٤/ ١٦-١٧).

تصدّقنا فيما نقول لك أريناكها»[١].

قال السعدي: «أي: فأتياه بهذين الأمرين، دعوته إلى الإسلام، وتخليص هذا الشعب الشريف بني إسرائيل -من قيده وتعبيده لهم، ليتحرروا ويملكوا أمرهم، ويقيم فيهم موسى شرع اللَّه ودينه. ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ﴾ تدل على صدقنا، ﴿فَأَلْقَىٰ﴾ موسى ﴿عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾[٢] إلى آخر ما ذكر اللَّه عنهما»[٣].

* * *

(١) جامع البيان (١٦/ ١٧١).
(٢) الشعراء: الآيتان (٣٢-٣٣).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ١٦١).

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ يقول: والسلامة لمن اتبع هدى اللَّه، وهو بيانه، يقال: السلام على من اتبع الهدى، ولمن اتبع الهدى بمعنى واحد»[١].

قال ابن كثير: «﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ أي: والسلام عليك إن اتبعت الهدى»[٢].

قال السعدي: «﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ أي من اتبع الصراط المستقيم، واهتدى بالشرع المبين حصلت له السلامة في الدنيا والآخرة»[٣].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في قوله ﷺ لهرقل: سلام على من اتبع الهدى

* عن ابن عباس عن أبي سفيان بن حرب أن رسول اللَّه ﷺ كتب إلى هرقل: **«بسم اللَّه الرحمن الرحيم من محمد عبد اللَّه ورسوله، إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى»**[٤].

★ **فوائد الحديث:**

قوله: **«سلام على من اتبع الهدى»**. قال الحافظ: «وقد ذكرت في قصة موسى وهارون مع فرعون. وظاهر السياق يدل على أنه من جملة ما أمرا به أن يقولاه. فإن

---

(١) جامع البيان (١٦/ ١٧١). (٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٩٠).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ١٦١).

(٤) أخرجه: أحمد (١/ ٢٦٢-٢٦٣)، والبخاري (١/ ٤٢-٤٤/ ٧)، ومسلم (٣/ ١٣٩٣-١٣٩٧/ ١٧٧٣)، وأبو داود (٥/ ٣٤٨-٣٤٩/ ٥١٣٦)، والترمذي (٥/ ٦٥/ ٢٧١٧)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٠٩-٣١١/ ١١٠٦٤).

قيل: كيف يبدأ الكافر بالسلام؟ فالجواب أن المفسرين قالوا: ليس المراد من هذا التحية، إنما معناه سلم من عذاب اللَّه من أسلم. ولهذا جاء بعده أن العذاب على من كذب وتولى. وكذا جاء في بقية هذا الكتاب: «فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين». فمحصل الجواب أنه لم يبدأ الكافر بالسلام قصدا وإن كان اللفظ يشعر به، لكنه لم يدخل في المراد؛ لأنه ليس ممن اتبع الهدى فلم يسلم عليه»[(١)].

قال القاضي عياض: «وقوله «السلام على من اتبع الهدى»: حجة على منع السلام على غير المسلم. وقد اختلف الناس في ذلك، فأجازه كثير من السلف ومنعه آخرون، وأجازه بعضهم إذا كان للاستئلاف، أو لحاجة له إليه أو للإمام معه، وقد جاء في الحديث عنه ﷺ النهي عن ابتدائهم بالسلام[(٢)]. . وقال بعضهم: إنما يسلم عليهم كما فعل النبي ﷺ في هذا الحديث، وقد اتخذه الناس أصلا في صفة السلام على من كره السلام دينا أو دنيا، واضطر إلى مخاطبته»[(٣)].

قال ابن القيم: «والمقصود أن السلام اسمه ووصفه وفعله، والتلفظ به ذكر له، كما في (السنن) أن رجلا سلم على النبي ﷺ، فلم يرد عليه حتى تيمم ورد عليه وقال: «**إني كرهت أن أذكر اللَّه إلا على طهارة**»[(٤)].

فحقيق بتحية هذا شأنها أن تصان عن بذلها لغير أهل الإسلام، وألا يحيى بها أعداء القدوس السلام، ولهذا كانت كتب النبي ﷺ إلى ملوك الكفار: سلام على من اتبع الهدى، ولم يكتب لكافر سلام عليكم أصلًا، فلهذا قال في أهل الكتاب: «**ولا تبدأوهم بالسلام**»»[(٥)].

قلت: مما تقدم من الآيات ومن أقوال المفسرين في بيانها تتجلى مسائل:

الأولى: أن سنة اللَّه في عباده أنه كلما فسدت أمة وظهر فسادها، أرسل إليها نبيا يذكرها ويعظها، ويحيي فيها التوحيد والسنة ومكارم الأخلاق، ويأمرهم بكل

---

(١) الفتح (١/ ٥٢).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٢٦٣) ومسلم (٤/ ١٧٠٧/ ٢١٦٧) وأبو داود (٥/ ٣٨٣-٣٨٤/ ٥٢٠٥) والترمذي (٥/ ٥٧/ ٢٧٠٠) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) الإكمال (٦/ ١٢٣).

(٤) أخرجه أحمد (٤/ ٣٤٥) وأبو داود (١/ ٢٣/ ١٧) والنسائي (١/ ٤٠/ ٣٨) وابن ماجه (١/ ١٢٦/ ٣٥٠) وصححه ابن خزيمة (١/ ١٠٣/ ٢٠٦) وابن حبان (٣/ ٨٢/ ٨٠٣) والحاكم (١/ ١٦٧) ووافقه الذهبي. كلهم من حديث المهاجر بن قنفذ ﷺ.

(٥) أحكام أهل الذمة (١/ ٤٢٠-٤٢١).

معروف وينهاهم عن كل منكر.

الثانية: أن الدعوة تُوَجه إلى كبار القوم وأظهرهم في الانحراف والطغيان والعتو والاستكبار.

الثالثة: أن الدعوة ينبغي أن تكون برفق ولين، ومخاطبة بما يرقق قلب المخاطب.

الرابعة: أن يستعين الداعية بكثرة التضرع والتوجه إلى اللَّه حتى يجعل هذا الخير على يديه.

الخامسة: أن تكون الدعوة إلى اللَّه بإنقاذ المستضعفين الذين تسلط عليهم الطغاة والجبابرة بكل أنواع الطغيان كالقتل والذبح والتجويع والفقر وسلب الأموال.

السادسة: ينبغي للداعية أن تكون عنده قوة الحجة والبرهان، ولا يضعف أمام المدعو مهما كان طغيانه؛ فإن موسى ثبت وتجلد وصبر واستنفد قوته الحسية والمعنوية في دعوة فرعون عليه لعائن اللَّه.

السابعة: اختيار ألفاظ الخطاب التي تدل على الخير والبركة؛ لأن مخالفتها لا تجلب إلا العذاب والانتقام. فقوله ﷺ: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ كلمة مليئة بالخير والبركة، وأن السلام بكل مشتقاته ومعانيه يصاحب الذي يسلم للَّه وجهه، ويتبع هداه، فيسعد سعادة لا شقاء بعدها، ولهذا لما تنكب فرعون عن هذه الدعوة المباركة كانت نهايته الغرق في منتزهه، والشقاوة التي لا سعادة بعدها، وجعله اللَّه عبرة على مر الدهور والعصور ما تعاقب الملوان؛ فإن له ذكرًا في كل الكتب السماوية بالثلب والذم، والخزي والعار، وهكذا فراعنة كل الأمم التي تتنكب عن الهدي الصحيح، فمخازي الذين قتلوا ببدر من المشركين لا تمحى إلى أن تقوم الساعة، ويلحق بهؤلاء كلهم كل جبار عنيد محارب للإسلام، تبقى مخازيه قائمة وجرائمه ماثلة إلى أن تقوم الساعة.

فنرجو اللَّه أن يجعلنا ممن أسلم واتبع الهدى، وأن نكون من أتباع الأنبياء ونصرائهم ومحبيهم، ومحبي من يحبهم، ومن مبغضي الأشقياء الذين حاربوا دعوة الأنبياء الأولياء.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «ما ذكره -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة عن موسى وهارون. أن اللَّه أوحى إليهما أن العذاب على من كذب وتولى؛ أشير إلى نحوه في آيات كثيرة من كتاب اللَّه تعالى؛ كقوله: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ﴾[3]، إلى غير ذلك من الآيات»[4].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لرسوله موسى وهارون: قولا لفرعون إنا قد أوحى إلينا ربك أن عذابه الذي لا نفاد له، ولا انقطاع على من كذب بما ندعوه إليه من توحيد اللَّه وطاعته، وإجابة رسله، ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ يقول: وأدبر مُعرضا عما جئناه به من الحقّ»[5].

قال السعدي: «﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ﴾ أي: خبرنا من عند اللَّه لا من عند أنفسنا ﴿أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أي: كذب بأخبار اللَّه وأخبار رسله، وتولى عن الانقياد لهم، واتباعهم، وهذا فيه الترغيب لفرعون بالإيمان والتصديق، واتباعهما، والترهيب من ضد ذلك»[6].

قال الرازي: «فاعلم أن هذه الآية من أقوى الدلائل على أن عقاب المؤمن لا يدوم، وذلك لأن الألف واللام في قوله: ﴿ٱلْعَذَابَ﴾ تفيد الاستغراق، أو تفيد

---

(١) النازعات: الآيات (٣٧-٣٩).

(٢) الليل: الآيات (١٤-١٦).

(٣) القيامة: الآيات (٣١-٣٥).

(٤) أضواء البيان (٤/ ١٨).

(٥) جامع البيان (١٦/ ١٧١).

(٦) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ١٦١).

الماهية، وعلى التقديرين يقتضي انحصار هذا الجنس فيمن كذب وتولى، فوجب في غير المكذب المتولي أن لا يحصل هذا الجنس أصلًا، وظاهر هذه الآية يقتضي القطع بأنه لا يعاقب أحدًا من المؤمنين بترك العمل به في بعض الأوقات، فوجب أن يبقى على أصله في نفي الدوام، لأن العقاب المتناهي إذا حصل بعده السلامة مدة غير متناهية؛ صار ذلك العقاب كأنه لا عقاب، فلذلك يحسن مع حصول ذلك القدر أن يقال: إنه لا عقاب»[1].

* * *

(١) مفاتيح الغيب (٢٢/ ٦٣).

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة أن موسى وهارون لما بلَّغا فرعون ما أُمرا بتبليغه إياه قال لهما: من ربكما الذي تزعمان أنه أرسلكما إلي؟ زاعمًا أنه لا يعرفه. وأنه لا يعلم لهما إلهًا غير نفسه، كما قال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾[1]، وقال: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾[2]. وبين -جل وعلا- في غير هذا الموضع أن قوله ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا﴾ تجاهل عارف بأنه عبد مربوب لرب العالمين، وذلك في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾[3]، وقوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[4]، كما تقدم إيضاحه. وسؤال فرعون عن رب موسى، وجواب موسى له جاء موضحًا في سورة الشعراء بأبسط مما هنا، وذلك في قوله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾[5] إلى آخر القصة»[6].

قال ابن جرير: «قوله: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾﴾ في هذا الكلام متروك،

---

(١) القصص: الآية (٣٨).
(٢) الشعراء: الآية (٢٩).
(٣) الإسراء: الآية (١٠٢).
(٤) النمل: الآيتان (١٣-١٤).
(٥) الشعراء: الآيات (٢٣-٣٣).
(٦) أضواء البيان (٤/ ١٨).

ترك ذكره استغناء بدلالة ما ذكر عليه عنه، وهو قوله: ﴿فَأْتِيَاهُ﴾ فقالا له ما أمرهما به ربهما وأبلغاه رسالته، فقال فرعون لهما ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ فخاطب موسى وحده بقوله: يا موسى، وقد وجه الكلام قبل ذلك إلى موسى وأخيه. وإنما فعل ذلك كذلك، لأن المجاوبة إنما تكون من الواحد، وإن كان الخطاب بالجماعة لا من الجميع، وذلك نظير قوله: ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾[1]، وكان الذي يحمل الحوت واحد، وهو فتى موسى، يدل على ذلك قوله: ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾[2].

وقوله: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ يقول -تعالى ذكره-: قال موسى له مجيبا: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ﴾؛ يعني: نظير خلقه في الصورة والهيئة كالذكور من بني آدم. أعطاهم نظير خلقهم من الإناث أزواجا، وكالذكور من البهائم، أعطاها نظير خلقها وفي صورتها وهيئتها من الإناث أزواجا، فلم يعط الإنسان خلاف خلقه، فيزوجه بالإناث من البهائم، ولا البهائم بالإناث من الإنس، ثم هداهم للمأتي الذي منه النسل والنماء كيف يأتيه، ولسائر منافعه من المطاعم والمشارب، وغير ذلك.

وقد اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: بنحو الذي قلنا فيه.. وقال آخرون: معنى قوله: ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾، أنه هداهم إلى الألفة والاجتماع والمناكحة.. وقال آخرون: معنى ذلك: أعطى كلّ شيء صورته، وهي خلقه الذي خلقه به، ثم هداه لما يصلحه من الاحتيال للغذاء والمعاش..

وقال آخرون: بل معنى ذلك: أعطى كلّ شيء ما يُصلحه، ثم هداه له..

قال أبو جعفر: وإنما اخترنا القول الذي اخترنا في تأويل ذلك، لأنه -جلّ ثناؤه- أخبر أنه أعطى كلّ شيء خلقه، ولا يعطي المعطي نفسه، بل إنما يعطي ما هو غيره، لأن العطية تقتضي المعطي والمُعطَى والعطية، ولا تكون العطية هي المعْطَى، وإذا لم تكن هي هو، وكانت غيره، وكانت صورة كلّ خلق بعض أجزائه، كان معلوما أنه إذا قيل: أعطى الإنسان صورته، إنما يعني أنه أعطى بعض المعاني

---

(١) الكهف: الآية (٦١).

(٢) الكهف: الآية (٦٣).

التي به مع غيره دعي إنسانا، فكأن قائله قال: أعطى كلّ خلق نفسه، وليس ذلك إذا وجه إليه الكلام بالمعروف من معاني العطية، وإن كان قد يحتمله الكلام. فإذا كان ذلك كذلك، فالأصوب من معانيه أن يكون موجها إلى أن كلّ شيء أعطاه ربه مثل خلقه، فزوجه به، ثم هداه لما بيّنا، ثم ترك ذكر (مثل)، وقيل: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ كما يقال: عبد اللّه مثل الأسد، ثم يحذف مثل، فيقول: عبد اللّه الأسد»[1].

قال الشنقيطي: «ولا مانع من شمول الآية الكريمة لجميع الأقوال المذكورة؛ لأنه لا شكّ أن اللّه أعطى الخلائق كل شيء يحتاجون إليه في الدنيا، ثم هداهم إلى طريق الانتفاع به. ولا شكّ أنه أعطى كل صنف شكله وصورته المناسبة له، وأعطى كل ذكر وأنثى الشكل المناسب له من جنسه في المناكحة والألفة والاجتماع. وأعطى كل عضو شكله الملائم للمنفعة المنوطة به، فسبحانه -جل وعلا-، ما أعظم شأنه وأكمل قدرته، وفي هذه الأشياء المذكورة في معنى الآية الكريمة براهين قاطعة على أنه -جل وعلا- رب كل شيء، وهو المعبود وحده -جل وعلا-: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[2].

وقد حرر تقي الدين أبو العباس ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في رسالته في علوم القرآن: أن مثل هذا الاختلاف من اختلاف السلف في معاني الآيات ليس اختلافًا حقيقيًا متضادًا يكذب بعضه بعضًا، ولكنه اختلاف تنوعي لا يكذب بعضه بعضًا، والآيات تشمل جميعه، فينبغي حملها على شمول ذلك كله»[3].

قال السعدي: «قال فرعون لموسى على وجه الإنكار: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ فأجاب موسى بجواب شاف كاف واضح، فقال: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ أي: ربنا الذي خلق جميع المخلوقات، وأعطى كل مخلوق خلقه اللائق به، الدال على حسن صنعه من خلقه، من كبر الجسم وصغره وتوسطه، وجميع صفاته، ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ كل مخلوق إلى ما خلقه له، وهذه الهداية العامة المشاهدة في جميع المخلوقات، فكل مخلوق تجده يسعى لما خلق له من المنافع، وفي دفع

---

(١) جامع البيان (١٦/ ١٧١-١٧٣).

(٢) القصص: الآية (٨٨).

(٣) أضواء البيان (٤/ ٢٠).

المضار عنه، حتى إن اللّٰه تعالى أعطى الحيوان البهيم من العقل ما يتمكن به من ذلك.

وهذا كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾[1]، فالذي خلق المخلوقات، وأعطاها خلقها الحسن، الذي لا تقترح العقول فوق حسنه، وهداها لمصالحها، هو الرب على الحقيقة، فإنكاره إنكار لأعظم الأشياء وجودا، وهو مكابرة ومجاهرة بالكذب، فلو قدر أن الإنسان أنكر من الأمور المعلومة ما أنكر، كان إنكاره لرب العالمين أكبر من ذلك»[2].

قال الرازي: «دلت الآية على أن المحق يجب عليه استماع كلام المبطل والجواب عنه من غير إيذاء ولا إيحاش، كما فعل موسى عليه السلام بفرعون هاهنا، وكما أمر اللّٰه تعالى رسوله في قوله: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ﴾[3]، وقال: ﴿وَإِنۡ أَحَدٌ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾[4]»[5].

* * *

---

(١) السجدة: الآية (٧).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ١٦٢).

(٣) النحل: الآية (١٢٥).

(٤) التوبة: الآية (٦).

(٥) مفاتيح الغيب (٢٢/ ٦٤).

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾

★ غريب الآية:

القُرُون: جمع قرن، والقرن: الجماعة المقترنون في وقت واحد، وقيل: كل طبقة اقترنت في زمان، وقيل: كل طبقة بعث فيها نبي.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: قال فرعون لموسى، إذ وصف موسى ربه ﷻ بما وصفه به من عظيم السلطان، وكثرة الإنعام على خلقه والإفضال: فما شأن الأمم الخالية من قبلنا لم تقرّ بما تقول، ولم تصدّق بما تدعو إليه، ولم تخلص له العبادة، ولكنها عبدت الآلهة والأوثان من دونه، إن كان الأمر على ما تصف من أن الأشياء كلها خلقه، وأنها في نِعمه تتقلَّب، وفي مِنَنه تتصرف، فأجابه موسى فقال: عِلمُ هذه الأمم التي مضت من قبلنا فيما فعلت من ذلك، عند ربي في كتاب، يعني في أمّ الكتاب، لا علم لي بأمرها، وما كان سبب ضلال من ضل منهم فذهب عن دين اللَّه، ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّى﴾ يقول: لا يخطئ ربي في تدبيره وأفعاله، فإن كان عذّب تلك القرون في عاجل، وعجل هلاكها، فالصواب ما فعل، وإن كان أخر عقابها إلى القيامة، فالحقّ ما فعل، هو أعلم بما يفعل، لا يخطئ ربي ﴿وَلَا يَنسَى﴾ فيترك فعل ما فِعْله حكمة وصواب»[1].

قال ابن كثير: «﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾﴾، أصح الأقوال في معنى ذلك: أن فرعون لما أخبره موسى بأن ربه الذي أرسله هو الذي خلق ورزق وقدر فهدى، شرع يحتج بالقرون الأولى، أي: الذين لم يعبدوا اللَّه، أي: فما بالهم إذا كان الأمر كما تقول، لم يعبدوا ربك بل عبدوا غيره؟ فقال له موسى في جواب ذلك:

(١) جامع البيان (١٦/ ١٧٣).

هم وإن لم يعبدوه فإن عملهم عند اللَّه مضبوط عليهم، وسيجزيهم بعملهم في كتاب اللَّه، وهو اللوح المحفوظ وكتاب الأعمال، ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ أي: لا يشذ عنه شيء، ولا يفوته صغير ولا كبير، ولا ينسى شيئًا. يصف علمه تعالى بأنه بكل شيء محيط، وأنه لا ينسى شيئًا، -تبارك وتعالى- وتقدس، فإن علم المخلوق يعتريه نقصانان:

أحدهما: عدم الإحاطة بالشيء.

والآخر: نسيانه بعد علمه، فنزه نفسه عن ذلك»[1].

قال السعدي: «﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ﴿٥١﴾﴾ أي: ما شأنهم، وما خبرهم؟ وكيف وصلت بهم الحال، وقد سبقونا إلى الإنكار والكفر، والظلم، والعناد، ولنا فيهم أسوة؟ فقال موسى: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾؛ أي: قد أحصى أعمالهم من خير وشر، وكتبه في كتاب، وهو اللوح المحفوظ، وأحاط به علما وخبرا، فلا يضل عن شيء منها، ولا ينسى ما علمه منها.

ومضمون ذلك، أنهم قدموا إلى ما قدموا، ولاقوا أعمالهم، وسيجازون عليها، فلا معنى لسؤالك واستفهامك يا فرعون عنهم، فتلك أمة قد خلت، لها ما كسبت، ولكم ما كسبتم، فإن كان الدليل الذي أوردناه عليك، والآيات التي أريناكها قد تحققت؛ صدقها ويقينها، وهو الواقع، فانقد إلى الحق، ودع عنك الكفر والظلم، وكثرة الجدال بالباطل، وإن كنت قد شككت فيها أو رأيتها غير مستقيمة، فالطريق مفتوح وباب البحث غير مغلق، فرد الدليل بالدليل، والبرهان بالبرهان، ولن تجد لذلك سبيلا ما دام الملوان[2]. كيف وقد أخبر اللَّه عنه، أنه جحدها مع استيقانها، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[3]، وقال موسى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾[4] فعلم أنه ظالم في جداله، قصده العلو في الأرض»[5].

قال القاسمي: «﴿قَالَ﴾ أي فرعون ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى * قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٩١).
(٢) الليل والنهار.
(٣) النمل: الآية (١٤).
(٤) الإسراء: الآية (١٠٢).
(٥) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ١٦٣-١٦٤).

كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾ أي ما حال القرون السالفة وما جرى عليهم؟ وهذا السؤال إما لصرف موسى عليه السلام عما يدعوه إليه أمام ملئه، وإشغاله بما لا يعني ما أرسل به، وإما لتوهم أن الرسول يعلم الغيب، فأراد أن يقف على نبأ ما مضى، ويفتح بابا للتخطئة والتكذيب بالعناد واللجاج، فأجابه موسى عليه السلام بأن هذا سؤال عن الغيب وقد استأثر اللَّه به، فلا يعلمه إلا هو. وليس من وظيفة الرسالة. وإنما علمها مكتوب في اللوح المحفوظ، محصي غير منسي»[1].

قال القرطبي: «هذه الآية ونظائرها مما تقدم ويأتي تدل على تدوين العلوم وكتبها لئلا تنسى.

فإن الحفظ قد تعتريه الآفات من الغلط والنسيان. وقد لا يحفظ الإنسان ما يسمع فيقيده لئلا يذهب عنه.

وروينا بالإسناد المتصل عن قتادة أنه قيل له: أنكتب ما نسمع منك؟ قال: وما يمنعك أن تكتب وقد أخبرك اللطيف الخبير أنه يكتب، فقال: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾»[2].

* * *

(١) محاسن التأويل (١١/١٦٨).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١١/١٣٨).

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ۝٥٣ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ۝٥٤﴾

★ غريب الآية:

مَهْدًا: المهاد والمهد: المكان الموطأ، من مهدت الأرض ومهدتها، أي وطأتها، فالمهاد كالفراش، والمهد كالفرش وزنا ومعنى.

سُبُلًا: جمع سبيل وهو الطريق.

نَبَاتٍ شَتَّى: أي مختلفة الأنواع من لون وطعم وريح وطراوة وغير ذلك، وهو جمع شتيت، وقيل: اسم جمع لشتيت.

النُّهَى: النهى جمع نُهية وهو العقل؛ لأنه ينهى صاحبه عن ارتكاب القبيح، وقيل: لأنه ينتهي إلى رأيه واختياراته.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «قد بين -جل وعلا- في هاتين الآيتين أربع آيات من آياته الكبرى الدالة على أنه المعبود وحده. ومع كونها من آيات على كمال قدرته واستحقاقه العبادة وحده دون غيره، فهي من النعم العظمى على بني آدم.

الأولى: فرشه الأرض على هذا النمط العجيب.

الثانية: جعله فيها سُبلًا يمر معها بنو آدم ويتوصلون بها من قطر إلى قطر.

الثالثة: إنزاله الماء من السماء على هذا النمط العجيب.

الرابعة: إخراجه أنواع النبات من الأرض.

أما الأولى -التي هي جعله الأرض مهدًا- فقد ذكر الامتنان بها مع الاستدلال بها على أنه المعبود وحده في مواضع كثيرة من كتابه؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم

مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا﴾[4]. . والآيات بمثل ذلك كثيرة جدًّا.

وأما الثانية، التي هي جعله فيها سبلًا فقد جاء الامتنان والاستدلال بها في آيات كثيرة؛ كقوله في الزخرف: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾﴾[6]، وقد قدمنا الآيات الدالَّة على هذا في سورة النحل في الكلام على قوله: ﴿وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[7].

وأما الثالثة والرابعة، وهما إنزال الماء من السماء وإخراج النبات به من الأرض فقد تكرر ذكرهما في القرآن على سبيل الامتنان والاستدلال معًا؛ كقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ﴾[8]. وقد قدمنا الآيات الدالة على ذلك.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا﴾، فيه التفات من الغيبة إلى التكلم بصيغة التعظيم. ونظيره في القرآن قوله تعالى في الأنعام: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾[9]، وقوله في فاطر: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾[10]، وقوله في النمل: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾[11].

وهذا الالتفات من الغيبة إلى التكلم بصيغة التعظيم في هذه الآيات كلها في

(١) الزخرف: الآيتان (٩-١٠).
(٢) النبأ: الآيتان (٦-٧).
(٣) الذاريات: الآية (٤٨).
(٤) الرعد: الآية (٣).
(٥) الزخرف: الآيتان (٩-١٠).
(٦) الأنبياء: الآية (٣١).
(٧) النحل: الآية (١٥).
(٨) النحل: الآيتان (١٠-١١).
(٩) الأنعام: الآية (٩٩).
(١٠) فاطر: الآية (٢٧).
(١١) النمل: الآية (٦٠).

إنبات النبات يدل على تعظيم شأن إنبات النبات، لأنه لو لم ينزل الماء ولم ينبت شيئًا لهلك الناس جوعًا وعطشًا. فهو يدل على عظمته -جل وعلا-، وشدة احتياج الخلق إليه، ولزوم طاعتهم له -جل وعلا-.

وقوله في هذه الآية: ﴿أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ أي أصنافًا مختلفة من أنواع النبات. فالأزواج: جمع زوج، وهو هنا الصنف من النبات، كما قال تعالى في سورة الحج: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾[(١)]، أي من كل صنف حسن من أصناف النبات، وقال تعالى في سورة لقمان: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾[(٢)]، أي من كل نوع حسن من أنواع النبات، وقال تعالى في سورة يس: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾[(٣)]، إلى غير ذلك من الآيات..

وقوله: ﴿سَلَكَ﴾ هنا معناه أنه جعل في داخل الأرض بين أوديتها وجبالها سبلًا فجاجًا يمر الخلق معها. وعبر عن ذلك هنا بقوله: ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ وعبر في مواضع أخر عن ذلك بالجعل، كقوله في الأنبياء: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾[(٤)]، وقوله في الزخرف: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[(٥)]، وعبر في بعض المواضع عن ذلك بالإلقاء كقوله في النحل: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[(٦)]، لأن عطف السبل على الرواسي ظاهر في ذلك.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ﴾ أي: كلوا أيها الناس من الثمار والحبوب التي أخرجناها لكم من الأرض بالماء الذي أنزلنا من جميع ما هو غذاء لكم من الحبوب والفواكه ونحو ذلك.

﴿وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ﴾ أي: أسيموها وسَرحوها في المرعى الذي يصلح لأكلها. تقول: رعت الماشية الكلأ، ورعاها صاحبها: أي أسامها وسرَّحها. يلزم

---

(١) الحج: الآية (٥).
(٢) لقمان: الآية (١٠).
(٣) يس: الآية (٣٦).
(٤) الأنبياء: الآية (٣١).
(٥) الزخرف: الآية (١٠).
(٦) النحل: الآية (١٥).

ويتعدى. والأمر في قوله: ﴿كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ﴾ للإباحة. ولا يخفى ما تضمنه من الامتنان والاستدلال على استحقاق المنعم بذلك للعبادة وحده.

وما ذكره في هذه الآية الكريمة: من الامتنان على بني آدم بأرزاقهم وأرزاق أنعامهم جاء موضحًا في مواضع أخر. كقوله في سورة السجدة: ﴿فَنُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا تَأۡكُلُ مِنۡهُ أَنۡعَٰمُهُمۡ وَأَنفُسُهُمۡۚ أَفَلَا يُبۡصِرُونَ﴾(١)، وقوله في النازعات: ﴿أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا ۝٣١ وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا ۝٣٢ مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ۝٣٣﴾(٢)، وقوله في عبس: ﴿أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا ۝٢٥ ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا ۝٢٦ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ۝٢٧ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ۝٢٨ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ۝٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ۝٣٠ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ۝٣١ مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ۝٣٢﴾(٣)، وقوله في النحل: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠﴾(٤)، إلى غير ذلك من الآيات»(٥).

قال ابن كثير: «هذا من تمام كلام موسى فيما وصف به ربه ﷻ، حين سأله فرعون عنه، فقال: ﴿ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾(٦)، ثم اعترض الكلام بين ذلك، ثم قال: «الذي جعل لكم الأرض مهادا»، وفي قراءة بعضهم ﴿مَهۡدٗا﴾ أي: قرارا تستقرون عليها وتقومون وتنامون عليها، وتسافرون على ظهرها، ﴿وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا﴾ أي: جعل لكم طرقا تمشون في مناكبها، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا فِيهَا فِجَاجٗا سُبُلٗا لَّعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾(٧)»(٨).

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ يقول: وأنزل من السماء مطرا ﴿فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ﴾، وهذا خبر من الله -تعالى ذكره- عن إنعامه على خلقه بما يحدث لهم من الغيث الذي ينزله من سمائه إلى أرضه، بعد تناهي خبره عن جواب موسى فرعون عما سأله عنه، وثنائه على ربه بما هو أهله، يقول -جلّ ثناؤه-: فأخرجنا نحن أيها الناس بما ننزل من السماء من ماء أزواجا، يعني ألوانا من نبات شتى، يعني مختلفة الطعوم، والأراييح والمنظر.. ﴿كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَٰمَكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ۝٥٤﴾، يقول -تعالى ذكره-: كلوا أيها الناس من طيب ما

(١) السجدة: الآية (٢٧).
(٢) النازعات: الآيات (٣١-٣٣).
(٣) عبس: الآيات (٢٥-٣٢).
(٤) النحل: الآية (١٠).
(٥) أضواء البيان (٤/ ٢١-٢٤).
(٦) طه: الآية (٥٠).
(٧) الأنبياء: الآية (٣١).
(٨) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٩٢).

أخرجنا لكم بالغيث الذي أنزلناه من السماء إلى الأرض من ثمار ذلك وطعامه، وما هو من أقواتكم وغذائكم، وارعوا فيما هو أرزاق بهائمكم منه، وأقواتِها أنعامَكم، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ﴾ يقول: إن فيما وصفت في هذه الآية من قدرة ربكم، وعظيم سلطانه لآيات، يعني لدلالات وعلامات تدلّ على وحدانية ربكم، وأن لا إله لكم غيره، ﴿لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾ يعني: أهل الحجى والعقول»[١].

قال السعدي: «﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ أي: فراشا بحالة تتمكنون من السكون فيها، والقرار، والبناء، والغراس، وإثارتها للازدراع وغيره، وذللها لذلك، ولم يجعلها ممتنعة عن مصلحة من مصالحكم.

﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ أي: نفذ لكم الطرق الموصلة، من أرض إلى أرض، ومن قطر إلى قطر، حتى كان الآدميون يتمكنون من الوصول إلى جميع الأرض بأسهل ما يكون، وينتفعون بأسفارهم، أكثر مما ينتفعون بإقامتهم.

﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ أي: أنزل المطر ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾[٢]، وأنبت بذلك جميع أصناف النباتات على اختلاف أنواعها، وتشتت أشكالها، وتباين أحوالها، فساقه، وقدره، ويسره، رزقا لنا ولأنعامنا، ولولا ذلك لهلك من عليها من آدمي وحيوان، ولهذا قال: ﴿كُلُواْ وَٱرْعَوْاْ أَنْعَٰمَكُمْ﴾ وساقها على وجه الامتنان، ليدل ذلك على أن الأصل في جميع النباتات الإباحة، فلا يحرم منها إلا ما كان مضرًا، كالسموم ونحوه.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾ أي: لذوي العقول الرزينة، والأفكار المستقيمة على فضل الله وإحسانه، ورحمته، وسعة جوده، وتمام عنايته، وعلى أنه الرب المعبود، المالك المحمود، الذي لا يستحق العبادة سواه، ولا الحمد والمدح والثناء، إلا من امتن بهذه النعم، وعلى أنه على كل شيء قدير، فكما أحيا الأرض بعد موتها، ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰٓ﴾[٣].

وخص الله أولي النهى بذلك، لأنهم المنتفعون بها، الناظرون إليها نظر اعتبار،

---

(١) جامع البيان (١٦/ ١٧٤-١٧٥).

(٢) النحل: الآية (٦٥).

(٣) الروم: الآية (٥٠).

وأما من عداهم، فإنهم بمنزلة البهائم السارحة، والأنعام السائمة، لا ينظرون إليها نظر اعتبار، ولا تنفذ بصائرهم إلى المقصود منها، بل حظهم حظ البهائم، يأكلون ويشربون وقلوبهم لاهية، وأجسامهم معرضة. ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾[(١)]»[(٢)].

قال ابن عطية: «انظر إن هذه الأشياء التي ذكرها موسى عليه السلام هي مما تقضي بداية العقول أن فرعون وكل بشر بعيد منها، لأنه لو قال هو القادر الرازق المريد العالم ونحو هذا من العبارات لأمكن فرعون أن يغالط فيقول أنا أفعل هذا كله، فإنما أتاه موسى عليه السلام بصفات لا يمكنه أن يقول إن ذلك له»[(٣)].

* * *

(١) يوسف: الآية (١٠٥).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ١٦٤-١٦٥).

(٣) المحرر الوجيز (٤/ ٤٨).

قوله تعالى: ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ۝٥٥﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «الضمير في قوله ﴿مِنْهَا﴾ معًا، وقوله: ﴿وَفِيهَا﴾ راجع إلى (الأَرْضَ) المذكورة في قوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾.

وقد ذكر في هذه الآية الكريمة ثلاث مسائل:

الأولى: أنه خلق بني آدم مِن الأرض.

الثانية: أنه يعيدهم فيها.

الثالثة: أنه يخرجهم منها مرة أخرى. وهذه المسائل الثلاث المذكورة في هذه الآية جاءت مُوضَحة في غير هذه الموضع.

أما خلقه إياهم من الأرض، فقد ذكره في مواضع من كتابه. كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾[2]، وقوله في سورة المؤمن: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾[3]، إلى غير ذلك من الآيات. والتحقيق أن معنى خلقه الناس من تراب؛ أنه خلق أباهم آدم منها؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾[4]. ولما خلق أباهم من تراب وكانوا تبعًا له في الخلق صدق عليهم أنهم خُلقوا من تراب. وما يزعمه بعض أهل العلم من أن معنى خلقهم من تراب، أن النطفة إذا وقعت في الرحم، انطلق الملك الموكل بالرحم فأخذ من تراب المكان الذي يُدفن فيه فيذره على النطفة، فيخلق اللّه النسمة من النطفة والتراب معًا؛ فهو خلاف التحقيق؛ لأن القرآن يدل على أن مرحلة النطفة بعد مرحلة التراب بمهلة. فهي غير مقارنة لها بدليل الترتيب بينهما بـ(ثُم) في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ

---

(١) الحج: الآية (٥).
(٢) الروم: الآية (٢٠).
(٣) غافر: الآية (٦٧).
(٤) آل عمران: الآية (٥٩).

﴿مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ﴾(١)، وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ﴾(٢)، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ١٢ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ١٣﴾(٣)، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ٦ ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ٨﴾(٤)، وكذلك ما يزعمه بعض المفسِّرين من أن معنى خلقهم من تراب؛ أن المراد أنهم خلقوا من الأغذية التي تتولد من الأرض، فهو ظاهر السقوط كما ترى.

وأما المسألة الثانية: فقد ذكرها تعالى أيضًا في غير هذا الموضع، وذلك في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ كِفَاتًا ٢٥ أَحۡيَآءٗ وَأَمۡوَٰتٗا ٢٦﴾(٥)، فقوله: ﴿كِفَاتًا﴾ أي موضعهم الذي يكفتون فيه، أي: يضمون فيه، أحياء على ظهرها، وأمواتًا في بطنها. وهو معنى قوله: ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ﴾.

وأما المسألة الثالثة: وهي إخراجهم من الأرض أحياء يوم القيامة فقد جاءت موضحة في آيات كثيرة؛ كقوله: ﴿وَيُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ وَكَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ﴾(٦)، أي من قبوركم أحياء بعد الموت، وقوله تعالى: ﴿وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ﴾(٧)، أي من القبور بالبعث يوم القيامة، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمۡ دَعۡوَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ إِذَآ أَنتُمۡ تَخۡرُجُونَ﴾(٨)، وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾(٩)، وقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ ٤٣﴾(١٠)، وقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَسۡمَعُونَ ٱلصَّيۡحَةَ بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ ٤٢﴾(١١)، والآيات بمثل ذلك كثيرة جدًّا»(١٢).

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: من الأرض خلقناكم أيها الناس، فأنشأناكم أجسامًا ناطقة، ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ﴾ يقول: وفي الأرض نعيدكم بعد مماتكم،

---

(١) الحج: الآية (٥).
(٢) غافر: الآية (٦٧).
(٣) المؤمنون: الآيتان (١٢-١٣).
(٤) السجدة: الآيات (٦-٨).
(٥) المرسلات: الآيتان (٢٥-٢٦).
(٦) الروم: الآية (١٩).
(٧) ق: الآية (١١).
(٨) الروم: الآية (٢٥).
(٩) الأعراف: الآية (٥٧).
(١٠) المعارج: الآية (٤٣).
(١١) ق: الآية (٤٢).
(١٢) أضواء البيان (٤/ ٢٤-٢٥).

فنصيركم ترابا، كما كنتم قبل إنشائنا لكم بشرا سويا، ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ﴾ يقول: ومن الأرض نخرجكم كما كنتم قبل مماتكم أحياء، فننشئكم منها، كما أنشأناكم أول مرة.. وقوله: ﴿تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ يقول: مرّة أخرى»[١].

قال ابن كثير: «﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ أي: من الأرض مبدؤكم، فإن أباكم آدم مخلوق من تراب من أديم الأرض، ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ أي: وإليها تصيرون إذا متم وبليتم، ومنها نخرجكم تارة أخرى. ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾[٢]. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾[٣]»[٤].

قال ابن عاشور: «ودل قوله تعالى: ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ على أن دفن الأموات في الأرض هو الطريقة الشرعيّة لمواراة الموتى، سواء كان شَقًّا في الأرض أو لحْدًا، لأن كليهما إعادة في الأرض؛ فما يأتيه بعض الأمم غير المتدينة من إحراق الموتى بالنّار، أو إغراقهم في الماء، أو وضعهم في صناديق فوق الأرض، فذلك مخالف لسنّة اللَّه وفطرته. لأنّ الفطرة اقتضت أنّ الميت يسقط على الأرض فيجب أن يوارى فيها. وكذلك كانت أول مواراة في البشر حين قتَل أحدُ ابني آدم أخَاه. كما قال تعالى في سورة العقود: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾[٥]، فجاءت الشرائع الإلهيّة بوجوب الدفن في الأرض»[٦].

قلت: هذه الإشارة الطيبة من ابن عاشور إلى سنة الدفن، هي الفطرة السليمة، التي أطبق تاريخ البشرية جمعاء عليها، حتى إنهم كانوا إذا مات لهم رجل في سفينة تعبر البحر؛ فإنهم يغسلون الميت ويكفنونه ويضعونه في ساتر يستره ويجمعه، ويضعون معه حجرًا ثقيلًا ينزله إلى قعر البحر على طريقة سنة الدفن. لكن مع الأسف هذه الحضارات الفاسدة التي أرجو اللَّه أن تكون بائدة، ظهرت بمظاهر فاسدة فيها أذًى للحي والميت، يتأذى بها كل من رآها، ويستنكرها كل من سمعها، وهي تدل على أن حس الإحسان والرحمة للإنسان عندهم قد مات وانتهى، خلاف

(١) جامع البيان (١٦/ ١٧٥).
(٢) الإسراء: الآية (٥٢).
(٣) الأعراف: الآية (٢٥).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٩٢).
(٥) المائدة: الآية (٣١).
(٦) التحرير والتنوير (١٦/ ٢٤٠-٢٤١).

ما يزعمه المتبجحون من الدفاع عن حقوق الإنسان، فمن أعظم حقوق الإنسان في الإسلام العناية به في وفاته مهما كانت منزلته الاجتماعية؛ فإنه يذهب به إلى قبره على أحسن الأحوال من تكفين وتحنيط وصلاة ودعاء واستغفار له وعناية بقبره، وعدم أذاه بأي أنواع الأذى من ضرب أو تكسير أو كشف لجزء من بدنه ما أمكن، وعدم الكتابة على قبره، أو البناء عليه أو تجصيصه، أو شيء مما يخالف نصوص الكتاب والسنة، ويبقى ذكره على الألسن بالترحم عليه والاستغفار له، وسؤال اللَّه تعالى أن يبقى الأبناء حسنة له وامتدادًا لذكره، لكن مع الأسف قد جاءت هذه الحضارة الخاسرة، فظهرت بمظاهر سيئة، منها وضع الأموات في صناديق فوق الأرض، أو حرقهم، والعياذ باللَّه، فتصبح أجسادهم رمادًا توضع في علب ليحملها أهل الميت للذكرى بزعمهم! وفي هذا من الأذى للميت وللأحياء ما اللَّه به عليم. فلا شك في شناعة هذا الفعل، وأنه من أشر ما نتج عن هذه الحضارة الفاسدة. واللَّه المستعان.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «أظهر القولين أن الإضافة في قوله: ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ مضمنة معنى العهد كالألف واللام. والمراد بآياتنا المعهودة لموسى كلها وهي التسع المذكورة في قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ﴾[(١)]، وقوله تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ﴾[(٢)]. وقال بعضهم: الآيات التسع المذكورة هي: العصا، واليد البيضاء، وفلق البحر، والحجر الذي انفجرت منه اثنتا عشرة عينًا، والجراد، والقُمَّل، والضفادع، والدم، ونتق الجبل فوقهم كأنه ظلة. وقد قدمنا كلام أهل العلم في الآيات التسع في سورة الإسراء. وقال بعض أهل العلم: العموم على ظاهره، وإن اللَّه أرى فرعون جميع الآيات التي جاء بها موسى، والتي جاء بها غيره من الأنبياء، وذلك بأن عرفه موسى جميع معجزاته ومعجزات سائر الأنبياء. والأول هو الظاهر.

وقد بين -جل وعلا- في غير هذا الموضع أن الآيات التي أراها فرعون وقومه بعضها أعظم من بعض، كما قال تعالى في سورة الزخرف: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾[(٣)]، وقوله: ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾﴾[(٤)]، وقوله: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾[(٥)]، لأن الكبرى في الموضعين تأنيث الأكبر، وهي صيغة تفضيل تدل على أنها أكبر من غيرها.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾ يعني أنه مع ما أراه اللَّه من الآيات المعجزات الدالة على صدق نبيه موسى، كذب رسول ربه موسى، وأبى عن قبول الحق.

---

(١) الإسراء: الآية (١٠١).
(٢) النمل: الآية (١٢).
(٣) الزخرف: الآية (٤٨).
(٤) طه: الآية (٢٣).
(٥) النازعات: الآية (٢٠).

وقد أوضح -جل وعلا- في غير هذا الموضع شدة إبائه وعناده وتكبره على موسى في مواضع كثيرة من كتابه. كقوله: ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾(١)، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ﴾(٢)، وقوله: ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾(٣)، وقوله تعالى: ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢) فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (٥٣)﴾(٤).

ومقصوده بذلك كله تعظيم أمر نفسه وتحقير أمر موسى، وأنه لا يمكن أن يتبع الفاضل المفضول.

وقد بين -جل وعلا- أن فرعون كذَّب وأبى، وهو عالم بأن ما جاء به موسى حق. وأن الآيات التي كذب بها وأبى عن قبولها ما أنزلها إلا اللَّه، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾(٥). وقوله: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا (١٠٢)﴾(٦)، إلى غير ذلك من الآيات»(٧).

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى (٥٦)﴾، يعني: فرعون، أنه قامت عليه الحجج والآيات والدلالات، وعاين ذلك وأبصره، فكذب بها وأباها كفرا وعنادا وبغيا، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٤)﴾(٨)»(٩).

* * *

(١) الأعراف: الآية (١٣٢).
(٢) الزخرف: الآية (٤٧).
(٣) الشعراء: الآية (٢٩).
(٤) الزخرف: الآيات (٥١-٥٣).
(٥) النمل: الآية (١٤).
(٦) الإسراء: الآية (١٠٢).
(٧) أضواء البيان (٤/ ٢٦-٢٧).
(٨) النمل: الآية (١٤).
(٩) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٩٢).

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾﴾

★ غريب الآية:

سُوى: عدل ونَصَفة ووسط.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾﴾. ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة أنه لما أرى فرعون آياته على يد نبيه موسى -عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام- قال: إن الآيات التي جاء بها موسى سحر، وأنه يريد بها إخراج فرعون وقومه من أرضهم.

أما دعواه هو وقومه أن موسى ساحر، فقد ذكره اللَّه -جل وعلا- في مواضع كثيرة من كتابه؛ كقوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾﴾[1]، وقوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾﴾[2]، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾[3]، وقوله: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾[4]، إلى غير ذلك من الآيات.

وأما ادعاؤهم أنه يريد إخراجهم من أرضهم بالسحر فقد ذكره اللَّه -جل وعلا- أيضًا في مواضع من كتابه؛ كقوله تعالى في هذه السورة: ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾، وقوله في الأعراف: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾[5]، وقوله في الشعراء: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ

(١) النمل: الآية (١٣).
(٢) يونس: الآية (٧٦).
(٣) طه: الآية (٧١).
(٤) الزخرف: الآية (٤٩).
(٥) الأعراف: الآيتان (١٠٩-١١٠).

حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾[١]، وقوله في يونس: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[٢]، وقال سحرة فرعون: ﴿إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾[٣].

قوله تعالى: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ﴾؛ ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة أن فرعون لعنه اللَّه، لما رأى آيات اللَّه ومعجزاته الباهرة، وادعى أنها سحر، أقسم ليأتين موسى بسحر مثل آيات اللَّه التي يزعم هو أنها سحر. وقد بين في غير هذا الموضع أن إتيانهم بالسحر وجمعهم السحرة كان عن اتفاق ملئهم على ذلك؛ كقوله في الأعراف: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾[٤]. وقوله في الشعراء: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾[٥]، لأن قوله: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ في الموضعين يدل على أن قول فرعون: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ وقع بعد مشاورة واتفاق الملأ منهم على ذلك.

قوله تعالى: ﴿فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾﴾.. ما ذكره -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: من كون المناظرة بين موسى والسحرة عين لوقتها يوم معلوم يجتمع الناس فيه، ليعرفوا الغالب من المغلوب، أشير له في غير هذا الموضع، كقوله تعالى في الشعراء: ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾﴾[٦]. فقوله تعالى: ﴿لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾. اليوم المعلوم: هو يوم الزينة المذكور هنا. وميقاته وقت الضحى منه المذكور في قوله: ﴿وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾»[٧].

---

(١) الشعراء: الآيتان (٣٤-٣٥).
(٢) يونس: الآية (٧٨).
(٣) طه: الآية (٦٣).
(٤) الأعراف: الآيات (١٠٩-١١٢).
(٥) الشعراء: الآيات (٣٤-٣٧).
(٦) الشعراء: الآيات (٣٨-٤٠).
(٧) أضواء البيان (٤/ ٢٧-٢٩).

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرًا عن فرعون أنه قال لموسى حين أراه الآية الكبرى، وهي إلقاء عصاه فصارت ثعبانًا عظيما، ونزع يده من تحت جناحه فخرجت بيضاء من غير سوء، فقال: هذا سحر، جئت به لتسحرنا وتستولي به على الناس، فيتبعونك وتكاثرنا بهم، ولا يتم هذا معك، فإن عندنا سحرًا مثل سحرك، فلا يغرنك ما أنت فيه ﴿فَٱجۡعَلۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكَ مَوۡعِدٗا﴾ أي: يومًا نجتمع نحن وأنت فيه، فنعارض ما جئت به بما عندنا من السحر في مكان معين ووقت معين، فعند ذلك ﴿قَالَ﴾ لَهُمْ مُوسَى ﴿مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ﴾ وهو يوم عيدهم، ونَوروزهم، وتفرغهم من أعمالهم، واجتماعهم جميعهم؛ ليشاهد الناس قدرة اللّٰه على ما يشاء، ومعجزات الأنبياء، وبطلان معارضة السحر لخوارق العادات النبوية، ولهذا قال: ﴿وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ﴾ أي: جميعهم ﴿ضُحٗى﴾ أي: ضحوة من النهار ليكون أظهر وأجلى وأبين وأوضح، وهكذا شأن الأنبياء، كل أمرهم واضح بيّن، ليس فيه خفاء ولا ترويج؛ ولهذا لم يقل «ليلا» ولكن نهارًا ضحى»[1].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: قال فرعون لما أريناه آياتنا كلها لرسولنا موسى: أجئتنا يا موسى لتخرجنا من منازلنا ودورنا بسحرك هذا الذي جئتنا به، ﴿فَلَنَأۡتِيَنَّكَ بِسِحۡرٖ مِّثۡلِهِۦ فَٱجۡعَلۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكَ مَوۡعِدٗا﴾ لا نتعدّاه، لنجيء بسحر مثل الذي جئت به، فننظر أينا يغلب صاحبه، لا نخلف ذلك الموعد ﴿نَحۡنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانٗا سُوٗى﴾ يقول: بمكان عدل بيننا وبينك، ونَصَف»[2].

وقال: «قوله تعالى: ﴿قَالَ مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحٗى ٥٩﴾.. يقول -تعالى ذكره-: قال موسى لفرعون، حين سأله أن يجعل بينه وبينه موعدا للاجتماع: ﴿مَوۡعِدُكُمۡ﴾ للاجتماع ﴿يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ﴾ يعني يوم عيد كان لهم، أو سوق كانوا يتزينون فيه، ﴿وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ﴾ يقول: وأن يُساق الناس من كلّ فجّ وناحية ﴿ضُحٗى﴾ فذلك موعد ما بيني وبينك للاجتماع»[3].

قال ابن عطية: «هذه المقاولة من فرعون تدل على أن أمر موسى قد كان قوي

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٩٣).
(٢) جامع البيان (١٦/ ١٧٦).
(٣) جامع البيان (١٦/ ١٧٧).

وكثر متبعوه من بني إسرائيل، ووقع أمره في نفوس الناس، وذلك أنها مقاولة من يحتاج إلى الحجة، لا من يصدع بأمر نفسه»[١].

قال الرازي: «حكى اللَّه تعالى شبهة فرعون وهي قوله: ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾، وتركيب هذه الشبهة عجيب، وذلك لأنه ألقى في مسامعهم ما يصيرون به مبغضين له جدًّا وهو قوله: ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا﴾، وذلك لأن هذا مما يشق على الإنسان في النهاية، ولذلك جعله اللَّه تعالى مساويًا للقتل في قوله: ﴿أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم﴾[٢].

ثم لما صاروا في نهاية البغض له أورد الشبهة الطاعنة في نبوته عليه السلام، وهي أن ما جئتنا به سحر لا معجز، ولما علم أن المعجز إنما يتميز عن السحر لكون المعجز مما يتعذر معارضته، والسحر مما يمكن معارضته قال: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ﴾»[٣].

قلت: هذه الواقعة وهذا الاقتراح من فرعون عليه لعائن اللَّه لمواجهة موسى، ودفع ما معه من الحق والنبوة، له أشباه ونظائر، فهذا غلام ذكر اللَّه قصته في سورة البروج، وهي قصة أصحاب الأخدود، والذي أعطاه اللَّه تعالى ما أعطاه من شفاء الأمراض، فوحد اللَّه تعالى في ألوهيته وربوبيته، وأبى أن يتخذ ملك البلاد إلهًا من دون اللَّه، فأراد الملك قتله وإبادته، ففعل به ما فعل من أنواع الابتلاءات والامتحانات؛ من محاولة إلقائه من أعلى جبل، وإغراقه في البحر، فاقترح عليه الغلام أن يجمع الناس في صعيد واحد، وأن يأخذ سهمًا ويذكر عليه اسم اللَّه فيرميه فيموت، وكان كذلك، فقال الناس: آمنا بربّ الغلام، فانتشر التوحيد بسبب ذلك الحدث، وتبين أهل الحق، وهزم أهل الباطل، وقال اللَّه فيهم: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾[٤] أي الذين حفروه.

وكذلك عيسى عليه السلام لما اجتمعوا على قتله رفعه اللَّه إليه، فنصر اللَّه به التوحيد، وهزم أهل الكفر والعناد.

وكذلك قصة الرسول ﷺ مع كفار قريش الذين بادروه بمواجهته في بدر فكان

---

(١) المحرر الوجيز (٤/ ٤٨).
(٢) النساء: الآية (٦٦).
(٣) مفاتيح الغيب (٢٢/ ٧٢).
(٤) البروج: الآية (٤).

لهم يوم الزينة فانهزم الشرك وانتصر التوحيد، وكان لهذا اللقاء ما له من أثر في تاريخ الإسلام إلى أن تقوم الساعة.

وهكذا لو تتبعت جميع المناظرات لأهل السنة والتوحيد تجدها دائما مثل قصة موسى مع فرعون، ينصر الله فيها التوحيد والسنة، ويهزم فيها الشرك والبدعة. مثل ما وقع لإمام أهل السنة أحمد، وأبي العباس ابن تيمية -رحمة الله عليهما-، فيوم الزينة وما اجتمع فيه لفرعون وموسى كان نصرة للتوحيد، والحمد لله رب العالمين.

* * *

قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ۝٦٠﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «قوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ﴾، قال بعض العلماء: معناه: انصرف مدبرًا من ذلك المقام ليهيئ ما يحتاج إليه مما تواعد عليه هو وموسى. ويدل لهذا الوجه قوله تعالى في سورة النازعات في القصة بعينها: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ۝٢٢ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ﴾[1]، وقوله: ﴿فَحَشَرَ﴾ أي جمع السحرة. وقال بعض العلماء: معنى قوله: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ﴾ أي: أعرض عن الحق الذي جاء به موسى. ومن معنى هذا الوجه قوله تعالى: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ﴾، الظاهر أن المراد بـ﴿كَيْدَهُۥ﴾ ما جمعه من السحر ليغلب به موسى في زعمه. وعليه فالمراد بقوله: ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ﴾ هو جمعه للسحرة من أطراف مملكته، ويدل على هذا أمران:

أحدهما: تسمية السحر في القرآن كيدًا؛ كقوله: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ﴾[3]، وقوله تعالى عن السحرة: ﴿فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ﴾[4]، وكيدهم سحرهم.

الثاني: أن الذي جمعه فرعون هو السحرة كما دلت عليه آيات من كتاب الله؛ كقوله تعالى في الأعراف: ﴿وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝١١١ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾[5]. وقوله: ﴿حَٰشِرِينَ﴾، أي: جامعين يجمعون السحرة من أطراف مملكته، وقوله في الشعراء: ﴿وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝٣٦ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ۝٣٧ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾[6]، وقوله في يونس: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾[7]»[8].

---

(١) النازعات: الآيتان (٢٢-٢٣).
(٢) طه: الآية (٤٨).
(٣) طه: الآية (٦٩).
(٤) طه: الآية (٦٤).
(٥) الأعراف: الآيتان (١١١-١١٢).
(٦) الشعراء: الآيات (٣٦-٣٨).
(٧) يونس: الآية (٧٩).
(٨) أضواء البيان (٤/ ٣٢).

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ﴾ يقول -تعالى ذكره-: فأدبر فرعون معرضا عما أتاه به من الحقّ ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ﴾ يقول: فجمع مكره، وذلك جمعه سحرته بعد أخذه إياهم بتعلمه ﴿ثُمَّ أَتَىٰ﴾ يقول: ثم جاء للموعد الذي وعده موسى، وجاء بسحرته»[1].

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرًا عن فرعون أنه لما تواعد هو بموسى ﷺ، إلى وقت ومكان معلومين، تولى، أي: شرع في جمع السحرة من مدائن مملكته، كل من ينسب إلى سحر في ذلك الزمان. وقد كان السحر فيهم كثيرًا نافقًا جدًّا، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾[2]. ﴿ثُمَّ أَتَىٰ﴾ أي: اجتمع الناس لميقات يوم معلوم وهو يوم الزينة»[3].

* * *

(١) جامع البيان (١٦/ ١٧٨).
(٢) يونس: الآية (٧٩).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٩٤).

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾﴾

★ **غريب الآية:**

تَفْتَرُوا: من الافتراء، وهو أقبح الكذب، أو الكذب مع التعمد عند من يرى أن الكذب مخالفة ما في الواقع مطلقا.

فَيُسْحِتَكُم: قُرئ بضم التاء من أسْحَته، وبفتحها من سَحَته، أي يهلككم هلاك استئصال.

النَّجْوَى: يقال: ناجيت فلانا: أي ساررته.

فَتَنَازَعُوا: المنازعة: المجادلة.

المُثْلَى: أي القربى إلى الخير والفضل.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «وجلس فرعون على سرير مملكته، واصطف له أكابر دولته، ووقفت الرعايا يمنة ويسرة، وأقبل موسى عليه السلام، يتوكأ على عصاه، ومعه أخوه هارون، ووقف السحرة بين يدي فرعون صفوفًا، وهو يحرضهم ويحثهم، ويرغبهم في إجادة عملهم في ذلك اليوم، ويتمنون عليه، وهو يعدهم ويمنيهم، فيقولون: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾[1].

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: لا تخيلوا للناس

(١) الشعراء: الآيتان (٤١-٤٢).

بأعمالكم إيجاد أشياء لا حقائق لها، وأنها مخلوقة وليست مخلوقة، فتكونون قد كذبتم على اللَّه، ﴿فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾ أي: يهلككم بعقوبة هلاكًا لا بقية له، ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ۝ فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ قيل: معناه: أنهم تشاجروا فيما بينهم فقائل يقول: ليس هذا بكلام ساحر، إنما هذا كلام نبي. وقائل يقول: بل هو ساحر. وقيل غير ذلك، واللَّه أعلم.

وقوله: ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ﴾ أي: تناجوا فيما بينهم، «قَالُوا إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ»، هذه لغة لبعض العرب، جاءت هذه القراءة على إعرابها، ومنهم من قرأ: «إِنَّ هَذَيْنِ لَسَاحِرَانِ»، وهذه اللغة المشهورة، وقد توسع النحاة في الجواب عن القراءة الأولى بما ليس هذا موضعه.

والغرض أن السحرة قالوا فيما بينهم: تعلمون أن هذا الرجل وأخاه -يعنون: موسى وهارون- ساحران عالمان خبيران بصناعة السحر، يريدان في هذا اليوم أن يغلباكم وقومكم ويستوليا على الناس، وتتبعهما العامة ويقاتلا فرعون وجنوده، فينتصرا عليه ويخرجاكم من أرضكم.

وقوله: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ﴾ أي: ويستبدا بهذه الطريقة، وهي السحر، فإنهم كانوا معظَّمين بسببها، لهم أموال وأرزاق عليها، يقولون: إذا غلب هذان أهلكاكم وأخرجاكم من الأرض، وتفردا بذلك، وتمحضت لهما الرياسة بها دونكم.

وقد تقدم في حديث الفتون عن ابن عباس في قوله: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ﴾ يعني: ملكهم الذي هم فيه والعيش.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا نعيم بن حماد، حدثنا هُشَيْم، عن عبد الرحمن بن إسحاق، سمع الشعبي يحدث عن علي في قوله: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ﴾ قال: يصرفا وجوه الناس إليهما.

وقال مجاهد: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ﴾ قال: أولي الشرف والعقل والأسنان.

وقال أبو صالح: ﴿بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ﴾ أشرافكم وسرواتكم. وقال عكرمة: بخيركم. وقال قتادة: وطريقتهم المثلى يومئذ بنو إسرائيل، كانوا أكثر القوم عددا وأموالا، فقال عدو الله: يريدان أن يذهبا بها لأنفسهما.

وقال عبد الرحمن بن زيد: ﴿بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ﴾ بالذي أنتم عليه.

وقوله: ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا﴾ أي اجتمعوا كلكم صفًّا واحدًا، وألقوا ما في أيديكم مرة واحدة، لتبهروا الأبصار، وتغلبوا هذا وأخاه، ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ﴾ أي: منا ومنه، أما نحن فقد وعدنا هذا الملك العطاء الجزيل، وأما هو فينال الرياسة العظيمة»[1].

قال السعدي: «واجتمع الناس للموعد، فكان الجمع حافلًا حضره الرجال والنساء، والملأ والأشراف والعوام والصغار والكبار، وحضوا الناس على الاجتماع، وقالوا للناس: ﴿هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ۝٣٩ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾[2]، فحين اجتمعوا من جميع البلدان، وعظهم موسى ﷺ، وأقام الحجة عليهم، وقال لهم: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾ أي: لا تنصروا ما أنتم عليه من الباطل بسحركم وتغالبون الحق، وتفترون على اللّه الكذب، فيستأصلكم بعذاب من عنده، ويخيب سعيكم وافتراؤكم، فلا تدركون ما تطلبون من النصر والجاه عند فرعون وملائه، ولا تسلمون من عذاب اللّه. وكلام الحق لا بد أن يؤثر في القلوب.

لا جرم ارتفع الخصام والنزاع بين السحرة لما سمعوا كلام موسى، وارتبكوا، ولعل من جملة نزاعهم، الاشتباه في موسى، هل هو على الحق أم لا؟ ولكن هم إلى الآن، ما تم أمرهم، ﴿لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ﴾[3]، فحينئذ أسروا فيما بينهم النجوى، وأنهم يتفقون على مقالة واحدة، لينجحوا في مقالهم وفعالهم، وليتمسك الناس بدينهم، والنجوى التي أسروها فسرها بقوله: ﴿قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا﴾ كمقالة فرعون السابقة، فإما أن يكون ذلك توافقا من فرعون والسحرة على هذه المقالة من غير قصد، وإما أن يكون تلقينا منه لهم مقالته، التي صمم عليها وأظهرها للناس، وزادوا على قول فرعون أن قالوا: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ﴾ أي:

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٩٤-٢٩٥).

(٢) الشعراء: الآيتان (٣٩-٤٠).

(٣) الأنفال: الآية (٤٢).

طريقة السحر حسدكم عليها، وأراد أن يظهر عليكم، ليكون له الفخر والصيت والشهرة، ويكون هو المقصود بهذا العلم، الذي أشغلتم زمانكم فيه، ويذهب عنكم ما كنتم تأكلون بسببه، وما يتبع ذلك من الرياسة، وهذا حض من بعضهم على بعض على الاجتهاد في مغالبته، ولهذا قالوا:

﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ﴾ أي: أظهروه دفعة واحدة متظاهرين متساعدين فيه، متناصرين، متفقا رأيكم وكلمتكم، ﴿ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا﴾ ليكون أمكن لعملكم، وأهيب لكم في القلوب، ولئلا يترك بعضكم بعض مقدوره من العمل، واعلموا أن من أفلح اليوم ونجح وغلب غيره، فإنه المفلح الفائز، فهذا يوم له ما بعده من الأيام، فما أصلبهم في باطلهم، وأشدهم فيه، حيث أتوا بكل سبب، ووسيلة وممكن، ومكيدة يكيدون بها الحق، ويأبى اللَّه إلا أن يتم نوره، ويظهر الحق على الباطل»[1].

قال ابن عاشور: «واعلم أنّ جميع القراء المعتبرين قرأوا بإثبات الألف في اسم الإشارة من قوله (هاذان) ما عدا أبا عمرو من العشرة، وما عدا الحسن البصري من الأربعة عشر. وذلك يوجب اليقين بأن إثبات الألف في لفظ (هذانِ) أكثر تواترًا بقطع النظر عن كيفيّة النطق بكلمة (إن) مشدّدة أو مخفّفة، وأن أكثر مشهور القراءات المتواترة قرأوا بتشديد نون (إنّ) ما عدا ابنَ كثير وحفصًا عن عاصم، فهما قرءَا (إنْ) بسكون النون على أنها مخففة من الثقيلة.

وإن المصحف الإمام ما رسمُوه إلاّ اتّباعًا لأشهر القراءات المسموعة المروية من زمن النبي ﷺ وقرّاء أصحابه، فإن حفظ القرآن في صدور القرّاء أقدم من كتابته في المصاحف، وما كتب في أصول المصاحف إلاّ من حفظ الكاتِبين، وما كُتب المصحف الإمام إلا من مجموع محفوظ الحُفاظ وما كتبه كتاب الوحي في مدة نزول الوحي.

فأما قراءة الجمهور «إنّ هذان لساحران» بتشديد نون (إنّ) وبالألف في هذان وكذلك في لساحران، فللمفسرين في توجيهها آراء بلغت الستّة. وأظهرها أن تكون (إنّ) حرف جواب مثل: نعم وأجَل، وهو استعمال من استعمالات (إنّ)، أي اتبعوا لما استقر عليه أمرهم بعد النّجوى كقول عبداللَّه بن قيس الرقيّات:

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ١٦٧-١٦٩).

ويــقــلْــن شــيــب قــد عَــلا ... كَ وقــد كــبِــرت فــقــلــت إنّــه

أي أجل أو نعم، والهاء في البيت هاءُ السّكت، وقول عبد اللّه بن الزُبير لأعرابي استجداه فلم يعطه، فقال الأعرابي: لعَن اللّه ناقة حملتني إليك. قال ابن الزّبير: إنّ وراكِبَها. وهذا التوجيه من مبتكرات أبي إسحاق الزجاج ذكره في تفسيره. وقال: عرضته على عالمينا وشيْخينا وأستاذيْنا محمد بن يزيد (يعني المبرد)، وإسماعيل بن إسحاق بن حمّاد (يعني القاضي الشهير) فقبلاه وذكرا أنه أجود ما سمعاه في هذا.

وقلت: لقد صدقا وحقّقا، وما أورده ابن جنّي عليه من الرد فيه نظر.

وفي «التفسير الوجيز» للواحدي سأل إسماعيل القاضي (هو ابن إسحاق بن حمّاد) ابنَ كيسان عن هذه المسألة، فقال ابنُ كيسان: لما لم يظهر في المبهم إعرابٌ في الواحد ولا في الجمع (أي في قولهم هذا وهؤلاء إذ هما مبنيان) جرت التثنية مجرى الواحد إذ التثنية يجب أن لا تغيّر. فقال له إسماعيل: ما أحسن هذا لو تقدمك أحد بالقول فيه حتى يُؤنس به، فقال له ابنُ كيسان: فليقل به القاضي حتى يؤنس به، فتبسم.

وعلى هذا التوجيه يكون قوله تعالى: «إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ» حكايةً لمقال فريق من المتنازعين، وهو الفريق الذي قبِل هذا الرأي؛ لأنّ حرف الجواب يقتضي كلامًا سبقه.

ودخلت اللاّم على الخبر: إما على تقدير كون الخبر جملة حذف مبتدأها وهو مدخول اللام في التقدير، ووجودُ اللاّم ينبىء بأن الجملة التي وقعت خبرًا عن اسم الإشارة جملة قسميّة؛ وإما على رأي من يجيز دخول اللام على خبر المبتدأ في غير الضرورة.

ووجهت هذه القراءة أيضًا بجعل (إنّ) حرف توكيد وإعراب اسمها المثنّى جَرى على لغة كنانة وبِلحارث بن كعب الذين يجعلون علامة إعراب المثنى الألفَ في أحوال الإعراب كلها، وهي لغة مشهورة في الأدب العربي، ولها شواهد كثيرة منها قول المتلمّس:

فأطرقَ إطراقَ الشُجاع ولو درى ... مساغًا لِنَابَاهُ الشجاعُ لصمّما

وقرأه حفص بكسر الهمزة وتخفيف نون (إنْ) مسكنة على أنها مخففة (إنّ) المشددة. ووجه ذلك أن يكون اسم (إنْ) المخففة ضمير شأن محذوفًا على المشهور. وتكون اللاّم في (لساحران) اللاّم الفارقة بين (إنْ) المخففة وبين (إن) النافية.

وقرأ ابن كثير بسكون نون (إنْ) على أنها مخففة من الثقيلة وبإثبات الألف في (هذان) وبتشديد نون (هاذانّ).

وأما قراءة أبي عمرو وحده (إنَّ هذَيْن) بتشديد نون (إنّ) وبالياء بعد ذال هذين. فقال القرطبي: هي مخالفة للمصحف. وأقول: ذلك لا يطعن فيها لأنّها رواية صحيحة ووافقت وجهًا مقبولًا في العربيّة.

ونزول القرآن بهذه الوجوه الفصيحة في الاستعمال ضرب من ضروب إعجازه لتجري تراكيبه على أفانين مختلفة المعاني متحدة المقصود. فلا التفات إلى ما روي من ادعاء أن كتابة (إنَّ هَذَيْنِ) خطأ من كاتب المصحف، وروايتِهم ذلك عن أبانَ بن عثمان بن عفّان عن أبيه، وعن عروة بن الزبير عن عائشة، وليس في ذلك سند صحيح.

حسبوا أنّ المسلمين أخذوا قراءة القرآن من المصاحف وهذا تغفّل، فإن المصحف ما كتب إلاّ بعد أن قرأ المسلمون القرآن نيّفًا وعشرين سنة في أقطار الإسلام، وما كتبت المصاحف إلاّ من حفظ الحفّاظ، وما أخذ المسلمون القرآن إلاّ من أفواه حُفّاظه قبل أن تكتب المصاحف، وبعد ذلك إلى اليوم فلو كان في بعضها خطأ في الخطّ لما تبعه القراء، ولكان بمنزلة ما تُرِك من الألفات في كلمات كثيرة وبمنزلة كتابة ألف الصلاة، والزكاة، والحياة، والرّبا بالواو في موضع الألف وما قرأوها إلاّ بألِفاتها»[1].

قال الرازي: «وأما الطعن في القراءة المشهورة فهو أسوأ مما تقدم من وجوه:

أحدها: أنه لما كان نقل هذه القراءة في الشهرة كنقل جميع القرآن، فلو حكمنا ببطلانها جاز مثله في جميع القرآن، وذلك يفضي إلى القدح في التواتر، وإلى القدح في كل القرآن وأنه باطل، وإذا ثبت ذلك امتنع صيرورته معارضًا بخبر الواحد

(١) التحرير والتنوير (١٦/ ٢٥١-٢٥٤).

المنقول عن بعض الصحابة.

وثانيها: أن المسلمين أجمعوا على أن ما بين الدفتين كلام اللَّه تعالى، وكلام اللَّه تعالى لا يجوز أن يكون لحنًا وغلطًا، فثبت فساد ما نقل عن عثمان وعائشة رضي الله عنهما أن فيه لحنًا وغلطًا.

وثالثها: قال ابن الأنباري: إن الصحابة هم الأئمة والقدوة، فلو وجدوا في المصحف لحنًا لما فوضوا إصلاحه إلى غيرهم من بعدهم مع تحذيرهم من الابتداع وترغيبهم في الاتباع، حتى قال بعضهم: اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم. فثبت أنه لا بد من تصحيح القراءة المشهورة»[1].

* * *

(١) مفاتيح الغيب (٢٢/ ٧٦).

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ۝٦٥ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ۝٦٦ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ۝٦٧ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٦٨ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَـٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ۝٦٩ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ ۝٧٠﴾

★ غريب الآية:

يُخَيَّلُ: يشبه، والتخييل هو إبداء أمر لا حقيقة له.

فَأَوْجَسَ: أوجس أي أحسَّ، وقيل: معناه: أضمر.

تَلْقَفُ: أي تأخذ بقوة وسرعة من الهواء، والمعنى: تلتقم وتبتلع.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾؛ ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أن السحرة لما جمعهم فرعون واجتمعوا مع موسى للمغالبة، قالوا له متأدبين معه: ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ وقد بيّن تعالى مقالتهم هذه في غير هذا الموضع؛ كقوله في الأعراف: ﴿قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾[(١)]. وقد قدّمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك: أن من أنواع البيان التي تضمنها أن يحذف مفعول فعل في موضع، ثم يبين في موضع آخر، فإنا نبين ذلك، وقد حذف هنا في هذه الآية مفعول: ﴿تُلْقِىَ﴾، ومفعول ﴿أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾، وقد بيّن تعالى في مواضع أخر أن مفعول إلقاء موسى هو عصاه، وذلك في قوله في الأعراف: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾[(٢)]، وقوله في الشعراء: ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ

(١) الأعراف: الآية (١١٥). (٢) الأعراف: الآية (١١٧).

﴿٤٥﴾﴾[١]، وقوله هنا: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟﴾. وما في يمينه هو عصاه. كما قال تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ﴾[٢]. وقد بيّن تعالى أيضًا في موضع آخر: أن مفعول إلقائهم هو حبالهم وعصيهم، وذلك في قوله في الشعراء: ﴿فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾[٣]. وقد أشار تعالى إلى ذلك أيضًا بقوله هنا: ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾﴾»[٤].

وقال: «قوله تعالى: ﴿بَلْ أَلْقُوا۟﴾؛ ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أن نبيه موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام لما خيَّره سحرة فرعون أن يلقي قبلهم أو يلقوا قبله قال لهم: ﴿أَلْقُوا۟﴾، يعني: ألقوا ما أنتم ملقون، كما صرح به في الشعراء في قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾[٥]، وذلك هو المراد أيضًا بقوله في الأعراف: ﴿قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾[٦]»[٧].

وقال: «وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ يدل على أن السحر الذي جاء به سحرة فرعون تخييل لا حقيقة له في نفس الأمر. وهذا الذي دلت عليه آية طه هذه، دلت عليه آية الأعراف، وهي قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾، لأنّ قوله: ﴿سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ يدل على أنهم خيلوا لأعين الناظرين أمرًا لا حقيقة له.

وبهاتين الآيتين احتج المعتزلة ومن قال بقولهم على أن السحر خيال لا حقيقة له. والتحقيق الذي عليه جماهير العلماء من المسلمين: أن السحر منه ما هو أمر له حقيقة، لا مطلق تخييل لا حقيقة له، ومما يدل على أن منه ما له حقيقة قوله تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾[٨]، فهذه الآية تدل على أنه شيء موجود، له حقيقة تكون سببًا للتفريق بين الرجل وامرأته، وقد عبّر اللَّه عنه بما الموصولة، وهي تدل على أنه شيء له وجود حقيقي. ومما يدل على ذلك أيضًا قوله

---

(١) الشعراء: الآية (٤٥).
(٢) طه: الآيتان (١٧-١٨).
(٣) الشعراء: الآية (٤٤).
(٤) أضواء البيان (٤/ ٣٣).
(٥) الشعراء: الآية (٤٣).
(٦) الأعراف: الآية (١١٦).
(٧) أضواء البيان (٤/ ٣٣-٣٤).
(٨) البقرة: الآية (١٠٢).

تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤﴾[(١)]..

وبذلك يتضح عدم التعارض بين الآيات الدالة على أن له حقيقة، والآيات الدالة على أنه خيال. فإن قيل: قوله في طه: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ﴾، وقوله في الأعراف: ﴿سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾، الدالآن على أن سحر سحرة فرعون خيال لا حقيقة له، يعارضهما قوله في الأعراف: ﴿وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾[(٢)]، لأن وصف سحرهم بالعظم يدّل على أنه غير خيال.

فالذي يظهر في الجواب -واللَّه أعلم-: أنهم أخذوا كثيرًا من الحبال والعصي، وخيلوا بسحرهم لأعين الناس أن الحبال والعصي تسعى وهي كثيرة. فظن الناظرون أن الأرض ملئت حيات تسعى، لكثرة ما ألقوا من الحبال والعصي فخافوا من كثرتها، وبتخييل سعي ذلك العدد الكثير وصف سحرهم بالعظم. وهذا ظاهر لا إشكال فيه»[(٣)].

وقال: «قوله تعالى: ﴿وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ﴾.. وهذا المعنى الذي ذكره -جل وعلا- هنا في هذه الآية الكريمة: من كونه أمر نبيه موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام أن يلقي ما في يمينه أي يده اليمنى، وهو عصاه فإذا هي تبتلع ما يأفكون من الحبال والعصي التي خيلوا إليه أنها تسعى: أوضحه في غير هذا الموضع، كقوله في الأعراف:

﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ۝١١٧ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١١٨ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ۝١١٩﴾[(٤)]، وقوله تعالى في الشعراء: ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ۝٤٥﴾[(٥)] فذكر العصا في الأعراف، والشعراء يوضح أن المراد بما في يمينه في طه أنه عصاه كما لا يخفى»[(٦)].

وقال: «اعلم أن قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾، يعم نفي جميع أنواع الفلاح عن الساحر، وأكد ذلك بالتعميم في الأمكنة بقوله: ﴿حَيْثُ أَتَىٰ﴾، وذلك دليل على كفره. لأن الفلاح لا يُنفى بالكلية نفيًا عامًا إلا عمن

---

(١) الفلق: الآية (٤).
(٢) الأعراف: الآية (١١٦).
(٣) أضواء البيان (٤/ ٣٥-٣٦).
(٤) الأعراف: الآيات (١١٧-١١٩).
(٥) الشعراء: الآية (٤٥).
(٦) أضواء البيان (٤/ ٣٧).

لا خير فيه وهو الكافر.

ويدل على ما ذكرنا أمران:

الأول: هو ما جاء من الآيات الدالة على أن الساحر كافر. كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ ٱلشَّيَطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾[١]. فقوله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ﴾، يدّل على أنه لو كان ساحرًا -وحاشاه من ذلك- لكان كافرًا. وقوله ﴿وَلَكِنَّ ٱلشَّيَطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾[٢] صريح في كفر معلِّم السّحر، وقوله تعالى عن هاروت وماروت مقررًا له: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾[٣]، وقوله: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ﴾[٤] أي: من نصيب، ونفي النصيب في الآخرة بالكلية لا يكون إلا للكافر عياذًا باللّه تعالى. وهذه الآيات أدلة واضحة على أن من السحر ما هو كفر بواح، وذلك مما لا شك فيه.

الأمر الثاني: أنه عرف باستقراء القرآن أن الغالب فيه أن لفظة ﴿لَا يُفْلِحُ﴾ يراد بها الكافر، كقوله تعالى في سورة يونس: ﴿قَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي ٱلسَّمَوَتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَنٍ بِهَٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَعٌ فِي ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾[٥]، وقوله في يونس أيضًا: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَتِهِۦٓ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾[٦]، وقوله في الأنعام: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَتِهِۦٓ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّلِمُونَ ﴿٢١﴾﴾[٧]، إلى غير ذلك من الآيات. ويفهم من مفهوم مخالفة الآيات المذكورة: أن من جانب تلك الصفات التي استوجبت نفي الفلاح عن السحرة والكفرة وغيرهم أنه ينال الفلاح، وهو كذلك، كما بيّنه -جل وعلا- في آيات كثيرة؛ كقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾[٨]،

---

(١) البقرة: الآية (١٠٢).
(٢) البقرة: الآية (١٠٢).
(٣) البقرة: الآية (١٠٢).
(٤) البقرة: الآية (١٠٢).
(٥) يونس: الآيات (٦٨-٧٠).
(٦) يونس: الآية (١٧).
(٧) الأنعام: الآية (٢١).
(٨) البقرة: الآية (٥).

وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾[1]، والآيات بمثل ذلك كثيرة»[2].

وقال: «قوله تعالى: ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ۝٧٠﴾. ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أن سحرة فرعون لما عاينوا عصا موسى تبتلع جميع حبالهم وعصيهم خروا سجدًا لله تعالى قائلين: آمنا بالله الذي هو رب هارون وموسى. فهداهم الله بذلك البرهان الإلهي، هذه الهداية العظيمة. وقد أوضح تعالى هذا المعنى في مواضع أخر. كقوله في الأعراف: ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ۝١١٧ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١١٨ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ۝١١٩ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ۝١٢٠ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٢١ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝١٢٢﴾[3]، وقوله في الشعراء: ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ۝٤٥ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ۝٤٦ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٧ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝٤٨﴾[4]»[5].

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرًا عن السحرة حين توافقوا هم وموسى عليه السلام أنهم قالوا لموسى: ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِىَ﴾ أي: أنت أولا ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ۝٦٥ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟﴾ أي: أنتم أولا ليُرى ماذا تصنعون من السحر، وليظهر للناس جلية أمرهم، ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾، وفي الآية الأخرى أنهم لما ألقوا ﴿وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾[6]، وقال تعالى: ﴿سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾[7] وقال هاهنا: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾.

وذلك أنهم أودعوها من الزئبق ما كانت تتحرك بسببه وتضطرب وتميد، بحيث يخيل للناظر أنها تسعى باختيارها، وإنما كانت حيلة، وكانوا جمًّا غفيرًا، وجمعًا كبيرًا، فألقى كل منهم عصا وحبلا حتى صار الوادي ملآن حيات يركب بعضها بعضًا.

وقوله: ﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ۝٦٧﴾ أي: خاف على الناس أن يَفْتَتِنوا

(١) المؤمنون: الآية (١).
(٢) أضواء البيان (٤/ ٣٩-٤٠).
(٣) الأعراف: الآيات (١١٧-١٢٢).
(٤) الشعراء: الآيات (٤٥-٤٨).
(٥) أضواء البيان (٤/ ٦٢-٦٣).
(٦) الشعراء: الآية (٤٤).
(٧) االأعراف: الآية (١١٦).

بسحرهم ويغتروا بهم قبل أن يلقي ما في يمينه، فأوحى اللَّه تعالى إليه في الساعة الراهنة أن ﴿ أَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾ يعني: عصاه، فإذا هي ﴿تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ۖ﴾، وذلك أنها صارت تِنِّينًا عظيمًا هائلًا ذا عيون وقوائم وعنق ورأس وأضراس، فجعلت تتبع تلك الحبال والعصي حتى لم تبق منها شيئًا إلا تلقفته وابتلعته، والسحرة والناس ينظرون إلى ذلك عيانًا جَهْرة، نهارًا ضحوة. فقامت المعجزة، واتضح البرهان، وبطل ما كانوا يعملون؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾.. فلما عاين السحرة ذلك وشاهدوه، ولهم خبرة بفنون السحر وطرقه ووجوهه، علموا علم اليقين أن هذا الذي فعله موسى ليس من قبيل السحر والحيل، وأنه حق لا مرية فيه، ولا يقدر على هذا إلا الذي يقول للشيء كن فيكون، فعند ذلك وقعوا سُجَّدًا لله وقالوا: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾[1].

ولهذا قال ابن عباس، وعُبَيد بن عُمَير: كانوا أول النهار سحرة، وفي آخر النهار شهداء بررة»[2].

قال السعدي: «فلما تمت مكيدتهم، وانحصر قصدهم، ولم يبق إلا العمل ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ﴾ عصاك، ﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾ خيروه موهمين أنهم على جزم من ظهورهم عليه بأي حالة كانت، فقال لهم موسى: ﴿بَلْ أَلْقُوا۟ۖ﴾ فألقوا حبالهم وعصيهم، ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ﴾ أي: إلى موسى ﴿مِن سِحْرِهِمْ﴾ البليغ ﴿أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ أي: أنها حيات تسعى، فلما خيل إلى موسى ذلك، ﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾﴾ كما هو مقتضى الطبيعة البشرية، وإلا فهو جازم بوعد اللَّه ونصره.

﴿قُلْنَا﴾ له تثبيتًا وتطمينًا: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ عليهم، أي: ستعلو عليهم وتقهرهم، ويذلوا لك ويخضعوا.

﴿وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ﴾ أي: عصاك ﴿تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾ أي: كيدهم ومكرهم، ليس بمثمر لهم ولا ناجح، فإنه من كيد السحرة، الذين يموهون على الناس، ويلبسون الباطل، ويخيلون أنهم على

---

(١) الشعراء: الآيتان (٤٧-٤٨).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٩٥-٢٩٦).

الحق، فألقى موسى عصاه، فتلقفت ما صنعوا كله وأكلته، والناس ينظرون لذلك الصنيع، فعلم السحرة علما يقينا أن هذا ليس بسحر، وأنه من اللَّه، فبادروا للإيمان. ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾﴾[1]، فوقع الحق وظهر وسطع، وبطل السحر والمكر والكيد في ذلك المجمع العظيم، فصارت بينة ورحمة للمؤمنين، وحجة على المعاندين»[2].

قال الشنقيطي: «وقوله: ﴿فَأُلْقِيَ﴾ يدّل على قوة البرهان الذي عاينوه. كأنهم أمسكهم إنسان وألقاهم ساجدين بالقوة لعظم المعجزة التي عاينوها. .

واعلم أن علم السحر مع خسته، وأن اللَّه صرح بأنه لا يضر ولا ينفع، قد كان سببًا لإيمان سحرة فرعون، لأنهم لمعرفتهم بالسحر عرفوا معجزة العصا خارجة عن طور السحر، وأنها أمر إلهي فلم يداخلهم شك في ذلك. فكان ذلك سببًا لإيمانهم الراسخ الذي لا يزعزعه الوعيد والتهديد. ولو كانوا غير عالمين بالسحر جدًّا، لأمكن أن يظنوا أن مسألة العصا من جنس الشعوذة. والعلم عند اللَّه تعالى»[3].

وانظر قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ من سورة البقرة[4].

وانظر أيضًا أضواء البيان للشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٤/ ٤١-٦٢).

* * *

---

(١) الشعراء: الآيات (٤٦-٤٨).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ١٦٩-١٧١).

(٣) أضواء البيان (٤/ ٦٣).

(٤) الآية (١٠٢).

قوله تعالى: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أن سحرة فرعون لما آمنوا برب هارون وموسى قال لهم فرعون منكرًا عليهم: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾، أي: صدقتموه في أنه نبي مرسل من اللَّه، وآمنتم باللَّه قبل أن آذن لكم. يعني أنهم لم يكفوا عن الإيمان حتى يأذن لهم، لأنه يزعم أنهم لا يحق لهم أن يفعلوا شيئًا إلا بعد إذنه هو لهم. وقال لهم أيضًا: إن موسى هو كبيرهم. أي كبير السحرة وأستاذهم الذي علمهم السحر. ثم هددهم مقسمًا على أنه يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف: يعني اليد اليمنى والرجل اليسرى مثلًا. لأنه أشد على الإنسان من قطعهما من جهة واحدة. لأنه إن كان قطعهما من جهة واحدة يبقى عنده شق كامل صحيح، بخلاف قطعهما من خلاف. فالجنب الأيمن يضعف بقطع اليد، والأيسر يضعف بقطع الرجل كما هو معلوم. وأنه يصلبهم في جذوع النخل، وجذع النخلة هو أخشن جذع من جذوع الشجر، والتصليب عليه أشدّ من التصليب على غيره من الجذوع كما هو معروف. وما ذكره -جل وعلا- عنه هنا أوضحه في غير هذا الموضع أيضًا. كقوله في سورة الشعراء: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾﴾[1] وذكر هذا أيضًا في سورة الأعراف وزاد فيها التصريح بفاعل قال، وادعاء فرعون أن موسى والسحرة تمالؤوا على أن يظهروا أنه غلبهم مكرًا ليتعاونوا على إخراج فرعون وقومه من مصر، وذلك في قوله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا

---

(١) الشعراء: الآية (٤٩).

﴿لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾﴾[1] «وقوله في طه: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ يبين أن التصليب في جذوع النخل هو مراده بقوله في «الأعراف، والشعراء»: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾. أي: في جذوع النخل»[2].

وقال: «وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ قال بعض أهل العلم: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ﴾: يعني أنا، أم رب موسى أشد عذابًا وأبقى. واقتصر على هذا القرطبي. وعليه ففرعون يدّعي أن عذابه أشدّ وأبقى من عذاب اللَّه. وهذا كقوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[3]، وقوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾[4]، وقوله: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾[5]. وقال بعضهم: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ﴾ أنا، أم موسى أشد عذابًا وأبقى. وعلى هذا فهو كالتهكم بموسى لاستضعافه له، وأنه لا يقدر على أن يعذب من لم يطعه. كقوله: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾[6]. واللَّه -جل وعلا- أعلم»[7].

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرًا عن كفر فرعون وعناده وبغيه ومكابرته الحق بالباطل، حين رأى ما رأى من المعجزة الباهرة والآية العظيمة، ورأى الذين قد استنصر بهم قد آمنوا بحضرة الناس كلهم وغُلِب كل الغلب شرع في المكابرة والبهت، وعدل إلى استعمال جاهه وسلطانه في السحرة، فتهددهم وأوعدهم وقال: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾ أي: صدقتموه ﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ أي: وما أمرتكم بذلك، وافتَتُّم[8] عليّ في ذلك. وقال قولا يعلم هو والسحرة والخلق كلهم أنه بَهْت وكذب: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ أي أنتم إنما أخذتم السحر عن موسى، واتفقتم أنتم وإياه عليّ وعلى رعيتي لتظهروه، كما قال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾[9].

---

(١) الأعراف: الآيتان (١٢٣-١٢٤).
(٢) أضواء البيان (٤/ ٦٣-٦٤).
(٣) النازعات: الآية (٢٤).
(٤) القصص: الآية (٣٨).
(٥) الشعراء: الآية (٢٩).
(٦) الزخرف: الآية (٥٢).
(٧) أضواء البيان (٤/ ٦٤).
(٨) أي عملتم دون أمري.
(٩) الأعراف: الآية (١٢٣).

ثم أخذ يتهددهم فقال: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ أي: لأجعلنكم مثلة ولأقتلنكم ولأشهرنكم. قال ابن عباس: فكان أول من فعل ذلك. رواه ابن أبي حاتم.

وقوله: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ أي أنتم تقولون: إني وقومي على ضلالة، وأنتم مع موسى وقومه على الهدى. فسوف تعلمون من يكون له العذاب ويبقى فيه»[1].

قال السعدي: «قَالَ فرعون للسحرة: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ أي كيف أقدمتم على الإيمان من دون مراجعة مني ولا إذن؟ استغرب ذلك منهم لأدبهم معه، وذلهم وانقيادهم له في كل أمر من أمورهم، وجعل هذا من ذاك. ثم استلج فرعون في كفره وطغيانه بعد هذا البرهان واستخف عقول قومه، وأظهر لهم أن هذه الغلبة من موسى للسحرة ليس لأن الذي معه الحق، بل لأنه تمالأ هو والسحرة ومكروا ودبروا أن يخرجوا فرعون وقومه من بلادهم، فقبل قومه هذا المكر منه وظنوه صدقا ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾[2]، مع أن هذه المقالة التي قالها لا تدخل عقل من له أدنى مسكة من عقل ومعرفة بالواقع، فإن موسى أتى من مدين وحيدا، وحين أتى لم يجتمع بأحد من السحرة ولا غيرهم، بل بادر إلى دعوة فرعون وقومه وأراهم الآيات، فأراد فرعون أن يعارض ما جاء به موسى فسعى ما أمكنه، وأرسل في مدائنه من يجمع له كل ساحر عليم، فجاءوا إليه ووعدهم الأجر والمنزلة عند الغلبة، وهم حرصوا غاية الحرص، وكادوا أشد الكيد على غلبتهم لموسى، وكان منهم ما كان، فهل يمكن أن يتصور مع هذا أن يكونوا دبروا هم وموسى واتفقوا على ما صدر؟ هذا من أمحل المحال. ثم توعد فرعون السحرة فقال ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ كما يفعل بالمحارب الساعي بالفساد، يقطع يده اليمنى ورجله اليسرى. ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ أي لأجل أن تشهروا وتختزوا، ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ يعني بزعمه هو أو الله، وأنه أشد عذابًا من الله وأبقى، قلبا للحقائق وترهيبا لمن لا عقل له»[3].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٩٧).

(٢) الزخرف: الآية (٥٤).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ١٧١-١٧٢).

قال ابن عاشور: «ولما رأى فرعون إيمان السحرة تغيّظ ورام عقابهم، ولكنه علم أنّ العقاب على الإيمان بموسى بعد أن فتح باب المناظرة معه نكث لأصول المناظرة، فاختلق للتشفّي من الذين آمنوا علّة إعلانهم الإيمان قبل استئذانِ فرعون، فعدّ ذلك جرأة عليه، وأوهم أنّهم لو استأذنوه لأذن لهم، واستخلص من تسرعهم بذلك أنهم تواطؤوا مع موسى من قبلُ، فأظهروا العجز عند مناظرته. ومقصد فرعون من هذا إقناع الحاضرين بأنّ موسى لم يأت بما يعجز السحرة إدخالًا للشكّ على نفوس الذين شاهدوا الآيات. وهذه شِنْشِنة من قديم الزمان، اختلاق المغلوب بارد العذر»[1].

قلت: التاريخ يعيد نفسه، ومهما تسلسل الزمن؛ فإن الباطل تتشابه شبهه، ويتبع بعضها بعضًا، ففرعون لعنه بعدما خطط المخطط، وأنفق عليه من الأموال، وجند له كل جنوده وإمكاناته، ووعد سحرته الذين يريدون أن يتقدموا للمناظرة إن هم غلبوا ليكونن عنده من المقربين وأن لهم من المميزات والإتاوات ما يفوقون به غيرهم، ولكن ليقضي اللَّه أمرًا كان مفعولًا، ولتظهر قدرة اللَّه الغالبة، وأن الإنسان مهما أوتي من العدة والعدد، فإذا لم يكن له من اللَّه التوفيق فإن ذلك ينقلب حسرة ونـدامـة، ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾[2]، فانقلب تدبير فرعون من المؤامرة السابقة، والخطط التي دبرها دهرا من الزمن، إلى ذلة لجنوده وممثليه، الذين سودوا وجهه، وصيروه ضحكة ومهزلة أمام الجموع الغفيرة التي كان ينتظر أن ينتصر فيها وأن يكون سيد الحلبة، وأن تنتهي دعوة موسى وأخيه، وتصبح نسيًا منسيًّا كما قال عن نفسه: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾[3]، وقال: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾[4]، وقال: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ﴾[5]. فكذلك أهل كل زمان مع أهل الحق يثيرون حولهم الشبه ويهددونهم بكل أنواع التهديدات، فالآن تثار حول الكتاب والسنة شبه كثيرة، وتوصف السنة بأوصاف هي بريئة منها، فهي دعوة التوحيد وفصل الأمة عن عبادة الأوثان، وعن البدع، وعن ترديد الأحاديث الموضوعة والضعيفة التي ما أنزل اللَّه بها من

---

(١) التحرير والتنوير (١٦/ ٢٦٣-٢٦٤).
(٢) الأنفال: الآية (٣٦).
(٣) النازعات: الآية (٢٤).
(٤) الزخرف: الآية (٥٢).
(٥) غافر: الآية (٢٩).

سلطان، وفصلها عن كل رذيلة، وكل حرام يفسد ذاتها وشؤونها من ربًا وخمر وتجارة محرمة، وهذا كله لا يعجب المنافقين الذين لا يريدون للأمة إلا السوء، فيُرْدونها في كل مصيبة، ويوقعونها في البدع، وفي حمأة الرذائل؛ من الزنا والشذوذ والسحاق، وكل ما فيه هلاك الأمة إذا استمرت على ذلك، بسبب ذنوبها، فعلى مثيري الشبه أن يرفقوا بأنفسهم، فإن الوبال لا شك نازل بهم.

كناطح صخرة يوما ليوهنها فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

* * *

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾

★ **غريب الآية:**

نُؤْثِرَكَ: نفضّلك ونختارك.

فَطَرنا: أي: أبدعَنا وأوجدنا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾﴾..

ما ذكره -جل وعلا- عنهم في هذا الموضع: من ثباتهم على الإيمان، وعدم مبالاتهم بتهديد فرعون ووعيده رغبة فيما عند الله، قد ذكره في غير هذا الموضع. كقوله في الشعراء عنهم في القصة بعينها: ﴿قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾﴾[1]. وقوله في الأعراف: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾[2]»[3].

وقال: «قوله تعالى: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾؛ ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أن فرعون لعنه الله لما قال للسحرة ما قال لما آمنوا، قالوا له: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا﴾ يعنون ذنوبهم السالفة كالكفر وغيره من المعاصي، ﴿وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ﴾ أي: ويغفر لنا ما أكرهتنا عليه من السحر. وهذا الذي ذكره عنهم هنا أشار له في غير هذا

---

(١) الشعراء: الآية (٥٠).

(٢) الأعراف: الآيتان (١٢٥-١٢٦).

(٣) أضواء البيان (٤/ ٦٥).

الموضع؛ كقوله تعالى في الشعراء عنهم: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ۝ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[١]، وقوله عنهم في الأعراف: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾[٢]. وفي آية طه هذه سؤال معروف، وهو أن يقال: قولهم ﴿وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ﴾، يدّل على أنه أكرههم عليه، مع أنه دلّت آيات أخر على أنهم فعلوه طائعين غير مكرهين، كقوله في طه: ﴿فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ۝ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ۝ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ۝﴾[٣]. فقولهم: ﴿فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ﴾ صريح في أنهم غير مكرهين. وكذلك قوله عنهم في الشعراء: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ۝ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾[٤]، وقوله في الأعراف: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ۝ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾[٥]، فتلك الآيات تدّل على أنهم غير مكرهين.

وللعلماء عن هذا السؤال أجوبة معروفة: منها: أنه أكرههم على الشخوص من أماكنهم ليعارضوا موسى بسحرهم، فلما أكرهوا على القدوم وأمروا بالسحر أتوه طائعين، فإكراههم بالنسبة إلى أول الأمر، وطوعهم بالنسبة إلى آخر الأمر، فانفكت الجهة وبذلك ينتفي التعارض، ويدّل لهذا قوله: ﴿وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾[٦]، وقوله: ﴿وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾[٧]. .

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ ظاهره المتبادر منه: أن المعنى خير من فرعون وأبقى منه. لأنه باق لا يزول ملكه، ولا يذل ولا يموت، ولا يعزل. كما أوضحنا هذا المعنى في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ﴾[٨]. أي بخلاف فرعون وغيره من ملوك الدنيا فإنه لا يبقى، بل يموت أو يعزل، أو يذل بعد العز. وأكثر المفسرين على أن المعنى: أن ثوابه خير مما وعدهم فرعون في قوله: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ۝ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ

---

(١) الشعراء: الآيتان (٥٠-٥١).
(٢) الأعراف: الآية (١٢٦).
(٣) طه: الآيات (٦٢-٦٤).
(٤) الشعراء: الآيتان (٤١-٤٢).
(٥) الأعراف: الآيتان (١١٣-١١٤).
(٦) الشعراء: الآية (٣٦).
(٧) الأعراف: الآية (١١١).
(٨) النحل: الآية (٥٢).

﴿ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾﴾[١]. وأبقى: أي أدوم. لأن ما وعدهم به فرعون زائل، وثواب اللَّه باق؛ كما قال تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾[٣]. وقال بعض العلماء: ﴿وَأَبْقَىٰٓ﴾ أي: أبقى عذابًا من عذابك، وأدوم منه. وعليه فهو ردّ لقول فرعون ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ ومعنى ﴿وَأَبْقَىٰٓ﴾ أكثر بقاء»[٤].

قال ابن كثير: «فلما صال عليهم بذلك وتوعدهم، هانت عليهم أنفسهم في اللَّه ﷻ، و ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: لن نختارك على ما حصل لنا من الهدى واليقين. ﴿وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾ يحتمل أن يكون قسمًا، ويحتمل أن يكون معطوفًا على البينات.

يعنون: لا نختارك على فاطرنا وخالقنا الذي أنشأنا من العدم، المبتدئ خلقنا من الطين، فهو المستحق العبادة والخضوع لا أنت.

﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ أي: فافعل ما شئت وما وَصَلَت إليه يدك، ﴿إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ أي: إنما لك تَسَلُّط في هذه الدار، وهي دار الزَّوال، ونحن قد رغبنا في دار القرار. ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا﴾ أي: ما كان منا من الآثام، خصوصًا ما أكرهتنا عليه من السحر لنعارض به آية اللَّه تعالى ومعجزة نبيه. .

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ﴾ أي: خير لنا منك ﴿وَأَبْقَىٰٓ﴾ أي: أدوم ثوابًا مما كنت وعدتنا ومنيتنا. وهو رواية عن ابن إسحاق، رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقال محمد بن كعب القُرَظِي: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ﴾ أي: لنا منك إن أطيع، ﴿وَأَبْقَىٰٓ﴾ أي: منك عذابًا إن عُصِيَ. وروي نحوه عن ابن إسحاق أيضًا. والظاهر أن فرعون -لعنه الله- صمم على ذلك وفعله بهم، رحمهم الله؛ ولهذا قال ابن عباس وغيره من السلف: أصبحوا سحرة، وأمسَوْا شهداء»[٥].

قال السعدي: «لما عرف السحرة الحق ورزقهم اللَّه من العقل ما يدركون به الحقائق أجابوه بقولهم: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي لن نختارك وما

---

(١) الأعراف: الآيتان (١١٣-١١٤).
(٢) النحل: الآية (٩٦).
(٣) الأعلى: الآيتان (١٦-١٧).
(٤) أضواء البيان (٤/ ٦٦-٦٨).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٩٧-٢٩٨).

وعدتنا به من الأجر والتقريب على ما أرانا اللَّه من الآيات البينات الدالات على أن اللَّه هو الرب المعبود وحده، المعظم المبجل وحده، وأن ما سواه باطل، ونؤثرك على الذي فطرنا وخلقنا، هذا لا يكون ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ مما أوعدتنا به من القطع والصلب والعذاب ﴿إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ أي إنما توعدنا به غاية ما يكون في هذه الحياة الدنيا ينقضي ويزول ولا يضرنا، بخلاف عذاب اللَّه لمن استمر على كفره فإنه دائم عظيم.

وهذا كأنه جواب منهم لقوله ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ وفي هذا الكلام من السحرة دليل على أنه ينبغي للعاقل أن يوازن بين لذات الدنيا ولذات الآخرة وبين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة.

﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا﴾ أي كفرنا ومعاصينا فإن الإيمان مكفر للسيئات، والتوبة تجب ما قبلها، وقولهم ﴿وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ﴾ الذي عارضنا به الحق، هذا دليل على أنهم غير مختارين في عملهم المتقدم، وإنما أكرههم فرعون إكراها.

والظاهر -واللَّه أعلم- أن موسى لما وعظهم كما تقدم في قوله ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾[1] أثر معهم ووقع منهم موقعا كبيرا، ولهذا تنازعوا بعد هذا الكلام والموعظة، ثم إن فرعون ألزمهم ذلك وأكرههم على المكر الذي أجروه، ولهذا تكلموا بكلامه السابق قبل إتيانهم حيث قالوا: ﴿إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا﴾[2] فجروا على ما سنه لهم، وأكرههم عليه، ولعل هذه النكتة التي قامت بقلوبهم من كراهتهم لمعارضة الحق بالباطل، وفعلهم ما فعلوا على وجه الإغماض هي التي أثرت معهم، ورحمهم اللَّه بسببها، ووفقهم للإيمان والتوبة، ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ﴾ مما وعدتنا من الأجر والمنزلة والجاه، ﴿وَأَبْقَىٰٓ﴾ ثوابا وإحسانا، لا ما يقول فرعون: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾، يريد أنه أشد عذابا وأبقى، وجميع ما أتى من قصص موسى مع فرعون يذكر اللَّه فيه إذا أتى على قصة السحرة أن فرعون توعدهم بالقطع والصلب، ولم يذكر أنه فعل ذلك ولم يأت في ذلك حديث صحيح، والجزم بوقوعه أو عدمه يتوقف على الدليل، واللَّه أعلم

---

(١) طه: الآية (٦١).

(٢) طه: الآية (٦٣).

بذلك وغيره»[1].

قال ابن عاشور: «أظهروا استخفافهم بوعيده وبتعذيبه، إذ أصبحوا أهل إيمان ويقين، وكذلك شأن المؤمنين بالرسل إذا أشرقت عليهم أنوار الرسالة، فسرعان ما يكون انقلابهم عن جهالة الكفر وقساوته إلى حكمة الإيمان وثباته. ولنا في عمر بن الخطّاب ونحوه ممن آمنوا بمحمد ﷺ مَثَلُ صدق»[2].

قلت: ومثله حمزة بن عبد المطلب وخباب وبلال وكل من أسلم بمكة، فتاريخ الإسلام مليء بالمجاهدين والثابتين على هذه الملة، فآثروا السنة وما يأتي بسببها من ابتلاء، على البدعة وما يأتي بسببها من رفاهية مزعومة. فنرجو اللَّه أن يحشرنا مع أنبيائه ورسله وأوليائه وسلفنا الصالح الذين كانوا على منهاجه، ولا حول ولا قوة إلا باللَّه.

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ١٧٢-١٧٤).

(٢) التحرير والتنوير (١٦/ ٢٦٦).

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «ذكر اللّه -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: الأمر والشأن ﴿مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ﴾، يوم القيامة في حال كونه ﴿مُجْرِمًا﴾ أي: مرتكبًا الجريمة في الدنيا حتى مات على ذلك كالكافر عياذًا باللّه تعالى، ﴿فَإِنَّ لَهُۥ﴾ عند اللّه ﴿جَهَنَّمَ﴾ يعذب فيها فـ﴿لَا يَمُوتُ﴾ فيستريح ﴿وَلَا يَحْيَىٰ﴾ حياة فيها راحة.

وهذا الذي ذكره هنا أوضحه في غير هذا الموضع: كقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾﴾[(١)]، وقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾[(٢)]، وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ﴾[(٣)]، وقوله تعالى: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾﴾[(٤)]، وقوله تعالى: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾[(٥)]، إلى غير ذلك من الآيات»[(٦)].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- مخبرا عن قيل السحرة لفرعون ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ﴾ من خلقه ﴿مُجْرِمًا﴾ يقول: مكتسبا الكفر به، ﴿فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ﴾ يقول: فإن له جهنم مأوى ومسكنا، جزاء له على كفره، ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ فتخرج نفسه، ﴿وَلَا يَحْيَىٰ﴾ فتستقر نفسه في مقرها فتطمئن، ولكنها تتعلق بالحناجر منهم»[(٧)].

قال السعدي: «يخبر تعالى أن من أتاه، وقدم عليه مجرما -أي: وصفه الجرم

---

(١) فاطر: الآية (٣٦).
(٢) إبراهيم: الآيات (١٥-١٧).
(٣) النساء: الآية (٥٦).
(٤) الأعلى: الآيات (١١-١٣).
(٥) الزخرف: الآية (٧٧).
(٦) أضواء البيان (٤/ ٦٨).
(٧) جامع البيان (١٦/ ١٩٠).

من كل وجه، وذلك يستلزم الكفر- واستمر على ذلك حتى مات، فإن له نار جهنم، الشديد نكالها، العظيمة أغلالها، البعيد قعرها، الأليم حرها وقرها، التي فيها من العقاب ما يذيب الأكباد والقلوب، ومن شدة ذلك أن المعذب فيها لا يموت ولا يحيا، لا يموت فيستريح، ولا يحيا حياة يتلذذ بها، وإنما حياته محشوة بعذاب القلب والروح والبدن، الذي لا يقدر قدره، ولا يفتر عنه ساعة، يستغيث فلا يغاث، ويدعو فلا يستجاب له.

نعم إذا استغاث، أغيث بماء كالمهل يشوي الوجوه، وإذا دعا، أجيب بـ ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾[1]»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة
في تفسير قوله تعالى: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ﴾

* عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم، (أو قال: بخطاياهم) فأماتهم إماتة، حتى إذا كانوا فحما أذن بالشفاعة، فجيء بهم ضبائر ضبائر، فبثوا على أنهار الجنة، ثم قيل: يا أهل الجنة أفيضوا عليهم، فينبتون نبات الحبة تكون في حميل السيل»**. فقال رجل من القوم: كأنّ رسول الله ﷺ قد كان بالبادية[3].

★ غريب الحديث:

ضبائر: جمع ضِبَارة بكسر الضاد، وهي الجماعة من الناس.

فبُثُّوا: فُرِّقوا.

★ فوائد الحديث:

قال ابن تيمية: «لكن النفس كما تقدم: الإرادة والحركة من لوازمها فإنها حية

---

(١) المؤمنون: الآية (١٠٨).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ١٧٥).
(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ٢٥-٢٦)، ومسلم (١/ ١٧٢-١٧٣/ ١٨٥)، وابن ماجه (٢/ ١٤٤١/ ٤٣٠٩)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٠٦/ ١١٣٢٧).

حياة طبيعية؛ لكن سعادتها ونجاتها إنما تتحقق بأن تحيا الحياة النافعة الكاملة. وكان ما لها من الحياة الطبيعية موجبا لعذابها. فلا هي حية متنعمة بالحياة. ولا هي ميتة مستريحة من العذاب. قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ⑨ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ⑩ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ⑪ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ ⑫ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾[1]، فالجزاء من جنس العمل. لما كان في الدنيا: ليس بحي الحياة النافعة التي خلق لأجلها. بل كانت حياته من جنس حياة البهائم. ولم يكن ميتا عديم الإحساس: كان في الآخرة كذلك. فإن مقصود الحياة: هو حصول ما ينتفع به الحي ويستلذ به، والحي لا بد له من لذة أو ألم. فإذا لم تحصل له اللذة: لم يحصل له مقصود الحياة، فإن الألم ليس مقصودا. كمن هو حي في الدنيا وبه أمراض عظيمة لا تدعه يتنعم بشيء مما يتنعم به الأحياء. فهذا يبقى طول حياته يختار الموت ولا يحصل له»[2].

* * *

(١) الأعلى: الآيات (٩-١٣).

(٢) مجموع الفتاوى (١٤/ ٢٩٧-٢٩٨).

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾

★ غريب الآية:

عَدْن: العدن: الإقامة والثبوت، وقيل: عدن عَلَم لمكان بعينه في الجنة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: «أن» ﴿مَن يَأْتِهِۦ﴾ يوم القيامة في حال كونه ﴿مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: في الدنيا حتى مات على ذلك، ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ﴾ عند الله ﴿ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾ والعلى: جمع عليًا وهي تأنيث الأعلى. وقد أشار إلى هذا المعنى في غير هذا الموضع؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾[1]، وقوله: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾[2]، ونحو ذلك من الآيات»[3].

قال ابن جرير: «﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا﴾ موحدا لا يُشرك به ﴿قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يقول: قد عمل ما أمره به ربه، وانتهى عما نهاه عنه، ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾ يقول: فأولئك الذين لهم درجات الجنة العلى..

ثم بين تلك الدرجات العلى ما هي، فقال: هن ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ يعني: جنات إقامة لا ظعن عنها ولا نفاد لها ولا فناء، ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ يقول: تجري من تحت أشجارها الأنهار ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ يقول: ماكثين فيها إلى غير غاية محدودة.. وقوله: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ يقول: وهذه الدرجات العُلى التي هي جنات عدن على ما وصف ﷻ ثواب من تزكى، يعني: من تطهر من الذنوب، فأطاع الله فيما

(١) الإسراء: الآية (٢١).
(٢) الأحقاف: الآية (١٩).
(٣) أضواء البيان (٤/ ٦٨).

أمره، ولم يدنس نفسه بمعصيته فيما نهاه عنه»[١].

قال السعدي: «ومن يأت ربه مؤمنا به مصدقا لرسله، متبعا لكتبه ﴿قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الواجبة والمستحبة، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾ أي: المنازل العاليات، في الغرف المزخرفات، واللذات المتواصلات، والأنهار السارحات، والخلود الدائم، والسرور العظيم، فيما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿وَذَٰلِكَ﴾ الثواب، ﴿جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ أي: تطهر من الشرك والكفر والفسوق والعصيان، إما أن لا يفعلها بالكلية، أو يتوب مما فعله منها، وزكى أيضًا نفسه، ونماها بالإيمان والعمل الصالح، فإن للتزكية معنيين، التنقية وإزالة الخبث، والزيادة بحصول الخير، وسميت الزكاة زكاة، لهذين الأمرين»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفة الجنة

* عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إن أهل الجنة يتراؤون أهل الغرف من فوقهم، كما يتراؤون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم**» قالوا: يا رسول اللّه تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم. قال: «**بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا باللّه وصدقوا المرسلين**»[٣].

★ **غريب الحديث:**

الدُّرِّي: هو النجم الشديد الإضاءة، وقيل هو النجم العظيم المقدار.

الغَابِر: الذاهب.

* عن عبادة بن الصامت أن رسول اللّه ﷺ قال: «**في الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، والفردوس أعلاها درجة، ومنها تفجر أنهار الجنة الأربعة، ومن فوقها يكون العرش، فإذا سألتم اللّه فسلوه الفردوس**»[٤].

---

(١) جامع البيان (١٦/ ١٩٠-١٩١). (٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ١٧٥).

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ٢٧)، والبخاري (٦/ ٣٩٤/ ٣٢٥٦)، ومسلم (٤/ ٢١٧٧/ ٢٨٣١)، وأخرجه بنحوه: أبو داود (٤/ ٢٨٧-٢٨٨/ ٣٩٨٧) والترمذي (٥/ ٥٦٧/ ٣٦٥٨) وابن ماجه (١/ ٣٧/ ٩٦).

(٤) أخرجه: أحمد (٥/ ٣١٦)، والترمذي (٤/ ٥٨٣/ ٢٥٣١)، وصححه الحاكم (١/ ٨٠).

★ **فوائد الحديثين:**

انظر قوله تعالى من سورة النساء: ﴿دَرَجَٰتٖ مِّنۡهُ وَمَغۡفِرَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا﴾[1].

* * *

(١) النساء: الآية (٩٦).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾

★ غريب الآية:

يَبَسًا: اليبس: المكان الذي يكون فيه ماء فيذهب.

دَرَكًا: من الإدراك، أي: لا يدركك فرعون وجنوده.

فَغَشِيَهُمْ: أي: أحاط بهم وشملهم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾:

ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة. أنه أوحى إلى نبيه موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام: أن يسري بعباده، وهم بنو إسرائيل فيخرجهم من قبضة فرعون ليلًا، وأن يضرب لهم طريقًا في البحر يبسًا، أي يابسًا لا ماء فيه ولا بلل، وأنه لا يخاف دركًا من فرعون وراءه أن يناله بسوء. ولا يخشى من البحر أمامه أن يغرق قومه. وقد أوضح هذه القصة في غير هذا الموضع، كقوله في سورة الشعراء: ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾[1]. فقوله في الشعراء: ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ﴾ أي: فضربه فانفلق، يوضح معنى قوله:

(١) الشعراء: الآيات (٥٢-٦٣).

﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي ٱلْبَحْرِ يَبَسًا﴾، وقوله: ﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾[1]، يوضح معنى قوله: ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾، وقد أشار تعالى إلى ذلك في قوله في الدخان: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾﴾[2]، إلى غير ذلك من الآيات»[3].

وقال: «قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾﴾. التحقيق: أن أتبع واتبع بمعنى واحد. فقوله: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ﴾ أي: اتبعهم، ونظيره قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾[4]، وقوله: ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾[5]. والمعنى: أن موسى لما أسرى ببني إسرائيل ليلًا أتبعهم فرعون وجنوده ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ﴾، أي البحر ﴿مَا غَشِيَهُمْ﴾ أي: أغرق اللَّه فرعون وجنوده في البحر فهلكوا عن آخرهم. وما ذكره -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة من أن فرعون أتبع بني إسرائيل هو وجنوده، وأن اللَّه أغرقهم في البحر، أوضحه في غير هذا الموضع. وقد بيّن تعالى أنهم اتبعوهم في أول النهار عند إشراق الشمس، فمن الآيات الدالة على اتباعه لهم قوله تعالى في الشعراء: ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾﴾، يعني سيتبعكم فرعون وجنوده. ثم بين كيفية اتباعه لهم فقال: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾[6].

وقوله في هذه الآية: ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾﴾ أي: أول النهار عند إشراق الشمس. ومن الآيات الدالة على ذلك أيضًا قوله تعالى في يونس: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا﴾[7]، وقوله في الدخان: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾[8]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على إتباعه لهم. وأما

---

(١) الشعراء: الآيتان (٦١-٦٢).
(٢) الدخان: الآيات (٢٢-٢٤).
(٣) أضواء البيان (٤/ ٦٨-٦٩).
(٤) الصافات: الآية (١٠).
(٥) الأعراف: الآية (١٧٥).
(٦) الشعراء: الآيات (٥٢-٦٢).
(٧) يونس: الآية (٩٠).
(٨) الدخان: الآية (٢٣).

غرقه هو وجميع قومه المشار إليه بقوله هنا: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾، فقد أوضحه تعالى في مواضع متعددة من كتابه العزيز. كقوله في الشعراء: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾﴾[1]، وقوله في الأعراف: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾[2]، وقوله في الزخرف: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾﴾[3]، وقوله في البقرة: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾[4]، وقوله في يونس: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[5]، وقوله في الدخان: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾﴾[6]، إلى غير ذلك من الآيات»[7].

وقال: «قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾، يعني: أن فرعون أضل قومه عن طريق الحق وما هداهم إليها. وهذه الآية الكريمة بيّن اللّه فيها كذب فرعون في قوله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾[8]، ومن الآيات الموضحة لذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾﴾[9]»[10].

قال ابن عطية: «هذا استئناف إخبار عن موسى من أمر موسى، وبينه وبين مقال السحرة المتقدم مدة من الزمان حدثت فيها لموسى وفرعون حوادث، وذلك أن فرعون لما انقضى أمر السحرة وغلب موسى وقوي أمره، وعده فرعون أن يرسل معه بني إسرائيل، فأقام موسى على وعده حتى غدره فرعون ونكث وأعلمه أنه لا يرسلهم معه، فبعث اللّه حينئذ الآيات المذكورة في غير هذه الآيات الجراد والقمل إلى آخرها، كلما جاءت آية وعد فرعون أن يرسل بني إسرائيل عند انكشاف

---

(١) الشعراء: الآيات (٦٣-٦٧).
(٢) الأعراف: الآية (١٣٦).
(٣) الزخرف: الآية (٥٥).
(٤) البقرة: الآية (٥٠).
(٥) يونس: الآية (٩٠).
(٦) الدخان: الآية (٢٤).
(٧) أضواء البيان (٤/ ٧١-٧٢).
(٨) غافر: الآية (٢٩).
(٩) هود: الآيات (٩٦-٩٨).
(١٠) أضواء البيان (٤/ ٧٣).

القول، فإذا انكشف نكث حتى تأتي أخرى، فلما كانت الآيات أوحى اللَّه تعالى إلى موسى أن يخرج بني إسرائيل من مصر في الليل هاربًا»[١].

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرًا أنه أمر موسى ﷺ، حين أبى فرعون أن يرسل معه بني إسرائيل، أن يسري بهم في الليل، ويذهب بهم من قبضة فرعون. وقد بسط اللَّه هذا المقام في غير هذه السورة الكريمة. وذلك أن موسى لما خرج ببني إسرائيل أصبحوا وليس منهم بمصر لا داع ولا مجيب، فغضب فرعون غضبًا شديدًا وأرسل في المدائن حاشرين، أي من يجمعون له الجند من بلدانه ورَسَاتيقه[٢]، يقول: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ ۝٥٤ وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ ۝٥٥﴾[٣] ثم لما جمع جنده واستوثق له جيشه، ساق في طلبهم ﴿فَأَتۡبَعُوهُم مُّشۡرِقِينَ ۝٦٠﴾[٤] أي: عند طلوع الشمس، ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ﴾ أي: نظر كل من الفريقين إلى الآخر ﴿قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ * قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ۝٦٢﴾[٥]، ووقف موسى ببني إسرائيل، البحر أمامهم، وفرعون وراءهم، فعند ذلك أوحى اللَّه إليه أن اضْرِبْ ﴿لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا﴾، فضرب البحر بعصاه، وقال: «انفلق بإذن الله» ﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ﴾[٦]، أي: الجبل العظيم. وأرسل اللَّه الريح على أرض البحر فلفحته حتى صار يابسا كوجه الأرض؛ ولهذا قال: ﴿فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا﴾ أي: من فرعون، ﴿وَلَا تَخۡشَىٰ﴾ يعني: من البحر أن يغرق قومك.

ثم قال تعالى: ﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلۡيَمِّ﴾ أي: البحر ﴿مَا غَشِيَهُمۡ﴾ أي: الذي هو معروف ومشهور. وهذا يقال عند الأمر المعروف المشهور، كما قال تعالى: ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ ۝٥٣ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ۝٥٤﴾[٧]، وكما قال الشاعر:

أنا أبو النَّجْم وشِعْري شِعْري

أي: الذي يعرف، وهو مشهور.

وكما تقدمهم فرعون فسلك بهم في اليم فأضلهم وما هداهم إلى سبيل الرشاد،

---

(١) المحرر الوجيز (٤/ ٥٤).
(٢) الرساتيق: القُرى.
(٣) الشعراء: الآيتان (٥٤-٥٥).
(٤) الشعراء: الآية (٦٠).
(٥) الشعراء: الآيتان (٦١-٦٢).
(٦) الشعراء: الآية (٦٣).
(٧) النجم: الآيتان (٥٣-٥٤).

كذلك ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾﴾[1]»[2].

قال السعدي: «لما ظهر موسى بالبراهين على فرعون وقومه، مكث في مصر يدعوهم إلى الإسلام، ويسعى في تخليص بني إسرائيل من فرعون وعذابه، وفرعون في عتو ونفور، وأمره شديد على بني إسرائيل ويريه اللَّه من الآيات والعبر، ما قصه اللَّه علينا في القرآن، وبنو إسرائيل لا يقدرون أن يظهروا إيمانهم ويعلنوه، قد اتخذوا بيوتهم مساجد، وصبروا على فرعون وأذاه، فأراد اللَّه تعالى أن ينجيهم من عدوهم، ويمكن لهم في الأرض ليعبدوه جهرا، ويقيموا أمره، فأوحى إلى نبيه موسى أن يواعد بني إسرائيل سرا ويسيروا أول الليل، ليتمادوا في الأرض، وأخبره أن فرعون وقومه سيتبعونه، فخرجوا أول الليل، جميع بني إسرائيل هم ونساؤهم وذريتهم، فلما أصبح أهل مصر إذا ليس فيها منهم داع ولا مجيب، فحنق عليهم عدوهم فرعون، وأرسل في المدائن، من يجمع له الناس ويحضهم على الخروج في أثر بني إسرائيل ليوقع بهم وينفذ غيظه، واللَّه غالب على أمره. فتكاملت جنود فرعون فسار بهم يتبع بني إسرائيل، ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾[3] وقلقوا وخافوا، البحر أمامهم، وفرعون من ورائهم قد امتلأ عليهم غيظا وحنقا، وموسى مطمئن القلب ساكن البال، قد وثق بوعد ربه، فقال: ﴿كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾[4] فأوحى اللَّه إليه أن يضرب البحر بعصاه، فضربه فانفرق اثني عشر طريقا، وصار الماء كالجبال العالية، عن يمين الطرق ويسارها، وأيبس اللَّه طرقهم التي انفرق عنها الماء، وأمرهم اللَّه أن لا يخافوا من إدراك فرعون، ولا يخشوا من الغرق في البحر، فسلكوا في تلك الطرق.

فجاء فرعون وجنوده فسلكوا وراءهم، حتى إذا تكامل قوم موسى خارجين وقوم فرعون داخلين، أمر اللَّه البحر فالتطم عليهم، وغشيهم من اليم ما غشيهم، وغرقوا كلهم، ولم ينجح منهم أحد، وبنو إسرائيل ينظرون إلى عدوهم، قد أقر اللَّه أعينهم بهلاكه.

---

(١) هود: الآية (٩٨).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣٠٠-٣٠١).

(٣) الشعراء: الآيتان (٦٠و٦١).

(٤) الشعراء: الآية (٦٢).

وهذه عاقبة الكفر والضلال، وعدم الاهتداء بهدي اللَّه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ﴾ بما زين لهم من الكفر، وتهجين ما أتى به موسى، واستخفافه إياهم، وما هداهم في وقت من الأوقات، فأوردهم موارد الغي والضلال، ثم أوردهم مورد العذاب والنكال»[١].

قلت: سبحان اللَّه، هذه عاقبة الطغيان والظلم والشرك والكفر والبدعة تابعًا ومتبوعًا، فنهايتهم هو الهلاك، وقد يتنوع الهلاك من إنسان إلى آخر، ومن جماعة إلى أخرى، فالكائدون والمتآمرون على الأنبياء والرسل وعلى أهل الاستقامة، فمآلهم البوار والخسران، واللَّه يفعل ما يشاء، وهو الذي يختار صفة وكيفية الهلاك لمن أراد إهلاكه، كما قال: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾[٢] وما هي من الظالمين ببعيد، فكل من كاد للسنة وأهلها فسينتهي إلى ما انتهى إليه فرعون وجنوده، ولا شك أن في كل زمان فرعون وجنوده، يجنَّدون لنصرة الباطل وردّ الحق؛ فإن اللَّه يستدرجهم بنعمه حتى يأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

فاللهم من كاد للسنة وأهلها فعليك به وأذقه بأسك، وأغرقه في وحله، وأهلكه بما يتمتع به، وأبدل نعمه نقمًا؛ لحقده على السنة وأهلها، إنك القادر على ما تريد.

* * *

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ١٧٦-١٧٨).

(٢) العنكبوت: الآية (٤٠).

قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾

★ غريب الآية:

هَوَى: أي شَقِي، وقيل: وقع في الهاوية، يقال: هوى يهوي هويا إذا سقط من علو إلى سفل.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: امتنانه على بني إسرائيل بإنجائه إياهم من عدوهم فرعون، وأنه واعدهم جانب الطور الأيمن، وأنه نزل عليهم المن والسلوى، وقال لهم: كلوا من طيبات ما رزقناكم. ولا تطغوا فيغضب عليكم ربكم. وما ذكره هنا أوضحه في غير هذا الموضع؛ كقوله في امتنانه عليهم بإنجائهم من عدوهم فرعون في سورة البقرة: ﴿وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴿٤٩﴾﴾[1]، وقوله في الأعراف: ﴿وَإِذۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴿١٤١﴾﴾[2]، وقوله في الدخان: ﴿وَلَقَدۡ نَجَّيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرۡعَوۡنَۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيٗا مِّنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾[3]، وقوله في سورة إبراهيم: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ أَنجَىٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ

---

(١) البقرة: الآية (٤٩).

(٢) الأعراف: الآية (١٤١).

(٣) الدخان: الآية (٣٠-٣١).

نِسَآءَكُمْۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝﴾[1]، وقوله في الشعراء: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝﴾[2]، وقوله في الدخان: ﴿كَذَٰلِكَۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ۝﴾[3]، وقوله في الأعراف: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾[4]، وقوله في القصص: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾، إلى قوله: ﴿يَحْذَرُونَ﴾[5] إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله هنا: ﴿وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ﴾ الأظهر أن ذلك الوعد هو المذكور في قوله: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ﴾[6]، وقوله: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾[7]، وقوله: ﴿أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًاۚ﴾[8]، وهو الوعد بإنزال التوراة. وقيل فيه غير ذلك.

وقوله هنا: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ قد أوضح امتنانه عليهم بذلك في غير هذا الموضع. كقوله في البقرة: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰۖ﴾[9]، وقوله في الأعراف: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰۖ﴾[10]»[11].

وقال: «وقوله في آية طه هذه: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ أي: من المنّ والسلوى، والأمر فيه للإباحة والامتنان.

وقد ذكر ذلك أيضًا في غير هذا الموضع، كقوله في البقرة: ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[12]، وقوله في الأعراف: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[13]»[14].

وقال: «قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ۝﴾؛ ذكر

---

(١) إبراهيم: الآية (٦).
(٢) الشعراء: الآية (٥٩).
(٣) الدخان: الآية (٢٨).
(٤) الأعراف: الآية (١٣٧).
(٥) القصص: الآيتان (٥و٦).
(٦) الأعراف: الآية (١٤٢).
(٧) البقرة: الآية (٥١).
(٨) طه: الآية (٨٦).
(٩) البقرة: الآية (٥٧).
(١٠) الأعراف: الآية (١٦٠).
(١١) أضواء البيان (٤/ ٧٣-٧٤).
(١٢) البقرة: الآية (٥٧).
(١٣) الأعراف: الآية (١٦٠).
(١٤) أضواء البيان (٤/ ٧٥).

اللَّه -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أنه غفّار أي: كثير المغفرة لمن تاب إليه من معاصيه وكفره، وآمن به وعمل صالحًا ثم اهتدى. وقد أوضح هذا المعنى في مواضع متعددة من كتابه، كقوله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾[١]. وقوله في الذين قالوا إن اللَّه ثالث ثلاثة: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾[٣]، إلى غير ذلك من الآيات»[٤].

قال ابن كثير: «يذكر تعالى نعمه على بني إسرائيل العظام، ومننه الجسام، حيث نَجَّاهم من عدوهم فرعون، وأقر أعينهم منه، وهم ينظرون إليه وإلى جنده قد غرقوا في صبيحة واحدة، لم ينج منهم أحد، كما قال تعالى: ﴿وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾[٥].

ثم إنه تعالى واعد موسى وبني إسرائيل بعد هلاك فرعون إلى جانب الطور الأيمن، وهو الذي كلمه تعالى عليه، وسأل فيه الرؤية، وأعطاه التوراة هناك. وفي غُضُون ذلك عَبَدَ بنو إسرائيل العجل، كما يقصه تعالى قريبا.

وأما المن والسلوى، فقد تقدم الكلام على ذلك في سورة البقرة وغيرها. فالمن: حلوى كانت تنزل عليهم من السماء. والسّلوى: طائر يسقط عليهم، فيأخذون من كلٍّ قدر الحاجة إلى الغد، لطفًا من اللَّه ورحمة بهم، وإحسانًا إليهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى﴾ أي: كلوا من هذا الذي رزقتكم، ولا تطغوا في رزقي، فتأخذوه من غير حاجة، وتخالفوا ما آمركم به، ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى﴾ أي: أغضب عليكم، ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: أي: فقد شقي.

وقوله: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي: كل من تاب إليّ تبتُ عليه من أي ذنب كان، حتى إنه تعالى تاب على من عبد العجل من بني إسرائيل. وقوله:

---

(١) الأنفال: الآية (٣٨).

(٢) المائدة: الآية (٧٤).

(٣) الزمر: الآيتان (٥٣-٥٤).

(٤) أضواء البيان (٤/ ٧٦-٧٧).

(٥) البقرة: الآية (٥٠).

﴿تَابَ﴾ أي: رجع عما كان فيه من كفر أو شرك أو نفاق أو معصية.

وقوله: ﴿وَءَامَنَ﴾ أي: بقلبه ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي: بجوارحه.

وقوله: ﴿ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: أي ثم لم يشكك. وقال سعيد بن جبير: ﴿ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ أي: استقام على السنة والجماعة. ورُوي نحوه عن مجاهد، والضحاك، وغير واحد من السلف. وقال قتادة: ﴿ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ أي: لزم الإسلام حتى يموت.

وقال سفيان الثوري: ﴿ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ أي: علم أن لهذا ثوابًا.

و(ثم) هاهنا لترتيب الخبر على الخبر، كقوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾﴾[1]»[2].

قال السعدي: «يُذَكِّر تعالى بني إسرائيل منته العظيمة عليهم بإهلاك عدوهم، ومواعدته لموسى ﷺ بجانب الطور الأيمن، لينزل عليه الكتاب الذي فيه الأحكام الجليلة، والأخبار الجميلة، فتتم عليهم النعمة الدينية بعد النعمة الدنيوية، ويذكر منته أيضًا عليهم في التيه بإنزال المن والسلوى، والرزق الرغد الهني الذي يحصل لهم بلا مشقة، وأنه قال لهم:

﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ أي: واشكروه على ما أسدى إليكم من النعم ﴿وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ﴾ أي: في رزقه فتستعملوه في معاصيه، وتبطروا النعمة، فإنكم إن فعلتم ذلك حل عليكم غضبي أي: غضبت عليكم ثم عذبتكم، ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ﴾ أي: ردى وهلك، وخاب وخسر، لأنه عُدِمَ الرضا والإحسان، وحل عليه الغضب والخسران.

ومع هذا، فالتوبة معروضة ولو عمل العبد ما عمل من المعاصي، فلهذا قال: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ﴾ أي: كثير المغفرة والرحمة، لمن تاب من الكفر والبدعة والفسوق، وآمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وعمل صالحا من أعمال القلب والبدن، وأقوال اللسان.

---

(١) البلد: الآية (١٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣٠١-٣٠٢).

﴿ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ أي: سلك الصراط المستقيم، وتابع الرسول الكريم، واقتدى بالدين القويم، فهذا يغفر اللَّه أوزاره، ويعفو عما تقدم من ذنبه وإصراره، لأنه أتى بالسبب الأكبر للمغفرة والرحمة، بل الأسباب كلها منحصرة في هذه الأشياء، فإن التوبة تجب ما قبلها، والإيمان والإسلام يهدم ما قبله، والعمل الصالح الذي هو الحسنات يذهب السيئات، وسلوك طرق الهداية بجميع أنواعها، من تعلم علم، وتدبر آية أو حديث، حتى يتبين له معنى من المعاني يهتدي به، ودعوة إلى دين الحق، ورد بدعة أو كفر أو ضلالة، وجهاد، وهجرة، وغير ذلك من جزئيات الهداية، كلها مكفرات للذنوب محصلات لغاية المطلوب»[١].

قال الشنقيطي: «واعلم أن الغضب صفة وصف اللَّه بها نفسه إذا انتهكت حرماته، تظهر آثارها في المغضوب عليهم. نعوذ باللَّه من غضبه -جل وعلا-. ونحن معاشر المسلمين نمرها كما جاءت فنصدق ربنا في كل ما وصف به نفسه، ولا نكذّب بشيء من ذلك. مع تنزيهنا التام له -جل وعلا- عن مشابهة المخلوقين ﷻ عن ذلك علوًا كبيرًا»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن يوم عاشوراء يوم نجى اللَّه فيه موسى، وقد أمر النبي ﷺ بصيامه

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قدم النبي ﷺ المدينة، فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء، فقال: ما هذا؟ قالوا: هذا يوم صالح، هذا يوم نجى اللَّه بني إسرائيل من عدوهم فصامه موسى، قال: «**فأنا أحق بموسى منكم**»، فصامه، وأمر بصيامه[٣].

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ ابن حجر: «استشكل ظاهر الخبر لاقتضائه أنه ﷺ حين قدومه المدينة وجد اليهود صياما يوم عاشوراء، وإنما قدم المدينة في ربيع الأول،

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ١٧٨-١٧٩).

(٢) أضواء البيان (٥/ ٧٦).

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ٢٩١ و ٣١٠)، والبخاري (٤/ ٣٠٦/ ٢٠٠٤)، ومسلم (٢/ ٧٩٥/ ١١٣٠)، وأبو داود (٢/ ٨١٨/ ٢٤٤٤)، والنسائي في الكبرى (٢/ ١٥٦/ ٢٨٣٤)، وابن ماجه (١/ ٥٥٢/ ١٧٣٤).

والجواب عن ذلك أن المراد أن أول علمه بذلك وسؤاله عنه كان بعد أن قدم المدينة لا أنه قبل أن يقدمها علم ذلك. وغايته أن في الكلام حذفا تقديره: قدم النبي ﷺ المدينة فأقام عاشوراء فوجد اليهود فيه صياما، ويحتمل أن يكون أولئك اليهود كانوا يحسبون يوم عاشوراء بحساب السنين الشمسية، فصادف يوم عاشوراء بحسابهم اليوم الذي قدم فيه ﷺ المدينة. وهذا التأويل مما يترجح به أولوية المسلمين وأحقيتهم بموسى -عليه الصلاة والسلام- لإضلالهم اليوم المذكور وهداية اللَّه للمسلمين له»[1].

وقال: «وصوم رسول اللَّه ﷺ يحتمل أن يكون بحكم الموافقة لهم كما في الحج، أو أذن اللَّه له في صيامه على أنه فعل خير، فلما هاجر ووجد اليهود يصومونه وسألهم وصامه، وأمر بصيامه، احتمل ذلك أن يكون ذلك استئلافًا لليهود كما استألفهم باستقبال قبلتهم، ويحتمل غير ذلك. وعلى كل حال فلم يصمه اقتداء بهم، فإنه كان يصومه قبل ذلك، وكان ذلك في الوقت الذي يحب فيه موافقة أهل الكتاب فيما لم ينه عنه.. واستشكل بأن التعليل بنجاة موسى وغرق فرعون يختص بموسى واليهود، وأجيب باحتمال أن يكون عيسى كان يصومه، وهو مما لم ينسخ من شريعة موسى، لأن كثيرا منها ما نسخ بشريعة عيسى، لقوله تعالى: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾[2]، ويقال: إن أكثر الأحكام الفرعية إنما تتلقاها النصارى من التوراة»[3].

* * *

(١) الفتح (٤/ ٣١٠).
(٢) آل عمران: الآية (٥٠).
(٣) فتح الباري (٤/ ٣١١).

قوله تعالى: ﴿۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴿٨٤﴾﴾

★ غريب الآية:

أَعْجَلَكَ: من العجلة وهي طلب الشيء وتَحرّيه قبل أوانه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «أشار -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة إلى قصة مواعدته موسى أربعين ليلة وذهابه إلى الميقات، واستعجاله إليه قبل قومه. وذلك أنه لما واعده ربه وجعل له الميقات المذكور، وأوصى أخاه هارون أن يخلفه في قومه، استعجل إلى الميقات فقال له ربه ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ﴾. وهذه القصة التي أجملها هنا أشار لها في غير هذا الموضع؛ كقوله في الأعراف: ﴿۞ وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾[1]»[2].

قال ابن كثير: «لما سار موسى عليه السلام ببني إسرائيل بعد هلاك فرعون، وافوا ﴿عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ * إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٣٩﴾﴾[3]، وواعده ربه ثلاثين ليلة ثم أتبعها له عشرًا، فتمت له أربعين ليلة، أي: يصومها ليلا ونهارًا. وقد تقدم في حديث الفتون بيان ذلك. فسارع موسى عليه السلام مبادرًا إلى الطور، واستخلف على بني إسرائيل أخاه هارون؛ ولهذا قال تعالى: ﴿۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ

---

(١) الأعراف: الآيتان (١٤٢-١٤٣).

(٢) أضواء البيان (٤/ ٧٧).

(٣) الأعراف: الآيتان (١٣٨-١٣٩).

هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى﴾ أي: قادمون ينزلون قريبًا من الطور، ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ أي: لتزداد عني رضا»[١].

قال ابن عاشور: «والذي يؤخذ من كلام المفسرين وتشير إليه الآية: أنّ موسى تعجّل مفارقة قَومه ليحضر إلى المناجاة قبل الإبّان الذي عيّنه اللّه له، اجتهادًا منه ورغبة في تلقي الشريعة حسبما وعده اللّه قبل أن يحيط بنو إسرائيل بجبل الطور، ولم يراع في ذلك إلا السبق إلى ما فيه خير لنفسه ولقومه، فلامه اللّه على أن غفل عن مراعاة ما يحفّ بذلك من ابتعاده عن قومه قبل أن يوصيهم اللّه بالمحافظة على العهد ويحذّرهم مكر من يتوسّم فيه مكرًا»[٢].

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣٠٢).
(٢) التحرير والتنوير (١٦/ ٢٧٧).

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾

★ **غريب الآية:**

أَسِفا: أي شديد الغضب.

بِمَلْكِنَا: قرئت بتثليث الميم، والمعنى على جميع القراءات: ما أخلفنا موعدك بأن ملكنا أمرنا.

أَوْزَارًا: أي أثقالا، سموها أوزارا لأنها أحمال ثقال.

خُوَار: أي صوت، واختص ذلك بالبقر.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾: الظاهر أن الفتنة المذكورة هي عبادتهم العجل. فهي فتنة إضلال. كقوله: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ﴾[١]. وهذه الفتنة بعبادة العجل جاءت مبيّنة في آيات متعددة؛ كقوله: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾[٢] ونحو ذلك من الآيات.

(١) الأعراف: الآية (١٥٥). (٢) البقرة: الآية (٥١).

قوله هنا: ﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾ أوضح كيفية إضلاله لهم في غير هذا الموضع؛ كقوله: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ إلى قوله: ﴿ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ﴾(١) أي: اتخذوه إلهًا وقد صنعه السامري لهم من حليّ القبط فأضلهم بعبادته. وقوله هنا: ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَـٰذَآ إِلَـٰهُكُمْ وَإِلَـٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ﴾»(٢).

وقال: «قوله تعالى: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَـٰنَ أَسِفًا﴾.. وما ذكره -جل وعلا- في آية «طه» هذه من كون موسى رجع إلى قومه ﴿غَضْبَـٰنَ أَسِفًا﴾ ذكره في غير هذا الموضع، وذكر أشياء من آثار غضبه المذكور، كقوله في الأعراف: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَـٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ﴾(٣). وقد بيّن تعالى أن من آثار غضب موسى إلقاءه الألواح التي فيها التوراة، وأخذه برأس أخيه يجره إليه، كما قال في الأعراف: ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾(٤). وقال في طه مشيرًا لأخذه برأس أخيه: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ﴾(٥). وهذه الآيات فيها الدلالة على أن الخبر ليس كالعيان، لأن اللَّه لما أخبر موسى بكفر قومه بعبادتهم العجل كما بيّنه في قوله: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾، وهذا خبر من اللَّه يقين لا شك فيه لم يلق الألواح، ولكنه لما عاين قومه حول العجل يعبدونه أثرت فيه معاينة ذلك أثرًا لم يؤثره فيه الخبر اليقين بذلك، فألقى الألواح حتى تكسرت، وأخذ برأس أخيه يجرّه إليه لما أصابه من شدة الغضب من انتهاك حرمات اللَّه تعالى»(٦).

وقال: «قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾.

بيّن اللَّه -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة سخافة عقول الذين عبدوا العجل، وكيف عبدوا ما لا يقدر على رد الجواب لمن سأله، ولا يملك نفعًا لمن عبده، ولا ضرًا لمن عصاه. وهذا يدّل على أن المعبود لا يمكن أن يكون عاجزًا عن النفع

---

(١) الأعراف: الآية (١٤٨).
(٢) أضواء البيان (٤/ ٧٨).
(٣) الأعراف: الآية (١٥٠).
(٤) الأعراف: الآية (١٥٠).
(٥) طه: الآية (٩٤).
(٦) أضواء البيان (٤/ ٨٠).

والضر ورد الجواب. وقد بيّن هذا المعنى في غير هذا الموضع. كقوله في الأعراف في القصة بعينها: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾[١] ولا شكّ أن من اتخذ من لا يكلمه ولا يهديه سبيلًا إلهًا أنه من أظلم الظالمين. ونظير ذلك قوله تعالى عن إبراهيم: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾[٢]، وقوله تعالى عنه أيضًا: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾﴾[٥]، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۚ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾[٦]»[٧].

قال ابن جرير: «يقول اللَّه -تعالى ذكره-: قال اللَّه لموسى: فإنا يا موسى قد ابتلينا قومك من بعدك بعبادة العجل، وذلك كان فتنتهم من بعد موسى.

ويعني بقوله ﴿مِن بَعْدِكَ﴾ من بعد فراقك إياهم، يقول اللَّه -تبارك وتعالى-: ﴿وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾، وكان إضلال السامريّ إياهم دعاءه إياهم إلى عبادة العجل.

وقوله ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ يقول: فانصرف موسى إلى قومه من بني إسرائيل بعد انقضاء الأربعين ليلة ﴿غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ متغيظًا على قومه، حزينا لما أحدثوه بعده من الكفر باللَّه. .

وقوله: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا﴾ يقول: ألم يعدكم ربكم أنه غفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى، ويعدكم جانب الطور الأيمن، وينزل عليكم

(١) الأعراف: الآية (١٤٨).
(٢) مريم: الآية (٤٢).
(٣) الشعراء: الآيتان (٧٢-٧٣).
(٤) الأعراف: الآية (١٩٥).
(٥) الأحقاف: الآيتان (٥-٦).
(٦) فاطر: الآيتان (١٣-١٤).
(٧) أضواء البيان (٤/ ٨٤).

المنّ والسلوى، فذلك وعد اللّه الحسن بني إسرائيل الذي قال لهم موسى: ألم يعدكموه ربكم، وقوله: ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يقول: أفطال عليكم العهد بي، وبجميل نعم اللّه عندكم، وأياديه لديكم، أم أردتم أن يحلّ عليكم غضب من ربكم: يقول: أم أردتم أن يجب عليكم غضب من ربكم فتستحقوه بعبادتكم العجل، وكفركم باللّه، فأخلفتم موعدي. وكان إخلافهم موعده عكوفهم على العجل، وتركهم السير على أثر موسى للموعد الذي كان اللّه وعدهم، وقولهم لهارون إذ نهاهم عن عبادة العجل، ودعاهم إلى السير معه في أثر موسى: ﴿لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾[1].. ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾﴾.. يقول -تعالى ذكره-: قال قوم موسى لموسى: ما أخلفنا موعدك، يعنون بموعده: عهده الذي كان عهده إليهم.

وقوله ﴿بِمَلْكِنَا﴾ يخبر جلّ ذكره عنهم أنهم أقروا على أنفسهم بالخطأ، وقالوا: إنا لم نطق حمل أنفسنا على الصواب، ولم نملك أمرنا حتى وقعنا في الذي وقعنا فيه من الفتنة.. واختلف أيضًا أهل التأويل في تأويله، فقال بعضهم: معناه: ما أخلفنا موعدك بأمرنا.. وقال آخرون: معناه: بطاقتنا.. وقال آخرون: معناه: ما أخلفنا موعدك بهوانا، ولكنا لم نملك أنفسنا.. وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ﴾ يقول: ولكنا حملنا أثقالا وأحمالا من زينة القوم، يعنون من حلي آل فرعون..

وقوله: ﴿فَقَذَفْنَاهَا﴾ يقول: فألقينا تلك الأوزار من زينة القوم في الحفرة ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾ يقول: فكما قذفنا نحن تلك الأثقال، فكذلك ألقى السامري ما كان معه من تربة حافر فرس جبريل..

وقوله: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ﴾ يقول: فأخرج لهم السامريّ مما قذفوه ومما ألقاه عجلا جسدا له خوار، ويعني بالخوار: الصوت، وهو صوت البقر..

وقوله: ﴿فَنَسِيَ﴾ يقول: فضلّ وترك. ثم اختلف أهل التأويل في قوله ﴿فَنَسِيَ﴾

---

(١) طه: الآية (٩١).

من قائله ومن الذي وصف به وما معناه، فقال بعضهم: هذا من اللَّه خبر عن السامريّ، والسامريّ هو الموصوف به، وقالوا: معناه: أنه ترك الدين الذي بعث اللَّه به موسى وهو الإسلام.. وقال آخرون: بل هذا خبر من اللَّه عن السامريّ، أنه قال لبني إسرائيل، وأنه وصف موسى بأنه ذهب يطلب ربه، فأضلّ موضعه، وهو هذا العجل..

قال أبو جعفر: والذي هو أولى بتأويل ذلك القول الذي ذكرناه عن هؤلاء، وهو أن ذلك خبر من اللَّه عزّ ذكره عن السامريّ أنه وصف موسى بأنه نسي ربه، وأن ربه الذي ذهب يريده هو العجل الذي أخرجه السامري، لإجماع الحجة من أهل التأويل عليه، وأنه عقيب ذكر موسى، وهو أن يكون خبرًا من السامري عنه بذلك أشبه من غيره..

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾.. يقول -تعالى ذكره- موبخا عبدة العجل، والقائلين له ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ وعابهم بذلك، وسفه أحلامهم بما فعلوا ونالوا منه: أفلا يرون أن العجل الذي زعموا أنه إلههم وإله موسى لا يكلمهم، وإن كلّموه لم يرد عليهم جوابا، ولا يقدر على ضرّ ولا نفع، فكيف يكون ما كانت هذه صفته إلها؟»[١].

قال ابن كثير: «أخبر تعالى نبيه موسى بما كان بعده من الحدث في بني إسرائيل، وعبادتهم العجل الذي عمله لهم ذلك السامري.. وكتب اللَّه تعالى له في هذه المدة الألواح المتضمنة للتوراة، كما قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾[٢] أي: عاقبة الخارجين عن طاعتي المخالفين لأمري.

وقوله: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ أي: بعد ما أخبره تعالى بذلك، في غاية الغضب والحَنَق عليهم، هو فيما هو فيه من الاعتناء بأمرهم، وتَسَلّم التوراة التي فيها شريعتهم، وفيها شرف لهم. وهم قوم قد عبدوا غير اللَّه ما يَعْلَمُ كل عاقل له لب وحزم بطلان ما هم فيه وسخافة عقولهم وأذهانهم؛ ولهذا رجع إليهم غضبان أسفًا، والأسف: شدة الغضب.

(١) جامع البيان (١٦/ ١٩٦-٢٠٢).
(٢) الأعراف: الآية (١٤٥).

وقال مجاهد: ﴿غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾ أي: جزعًا. وقال قتادة، والسدي: ﴿أَسِفًا﴾ أي: حزينًا على ما صنع قومه من بعده.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا﴾ أي: أما وعدكم على لساني كل خير في الدنيا والآخرة، وحسن العاقبة كما قد شاهدتم من نصرته إياكم على عدوكم، وإظهاركم عليه، وغير ذلك من أياديه عندكم؟ ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ﴾ أي: في انتظار ما وعدكم الله. ونسيان ما سلف من نعمه، وما بالعهد من قدم. ﴿أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ «أم» هاهنا بمعنى «بل» وهي للإضراب عن الكلام الأول، وعدول إلى الثاني، كأنه يقول: بل أردتم بصنيعكم هذا أن يحل عليكم غضب من ربكم ﴿فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ۝٨٦ قَالُوا۟﴾ أي: بنو إسرائيل في جواب ما أنبهم موسى وقرعهم: ﴿مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾ أي: عن قدرتنا واختيارنا.

ثم شرعوا يعتذرون بالعذر البارد، يخبرون عن تورعهم عما كان بأيديهم من حُلي القبط الذي كانوا قد استعاروه منهم، حين خرجوا من مصر، ﴿فَقَذَفْنَٰهَا﴾ أي: ألقيناها عنا. فقالوا -أي: الضُّلال منهم، الذين افتتنوا بالعجل وعبدوه-: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ﴾ أي: نسيه هاهنا، وذهب يتطلبه. كذا تقدم في حديث «الفتون» عن ابن عباس. وبه قال مجاهد.

وقال سِماك عن عكرمة عن ابن عباس: ﴿فَنَسِىَ﴾ أي: نسي أن يذكركم أن هذا إلهكم.

وقال محمد بن إسحاق، عن حكيم بن جبير، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس ﴿فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ﴾ قال: فعكفوا عليه وأحبوه حبًّا لم يحبوا شيئًا قط يعني مثله، يقول الله: ﴿فَنَسِىَ﴾ أي: ترك ما كان عليه من الإسلام يعني: السامري.

قال الله تعالى ردًّا عليهم، وتقريعًا لهم، وبيانًا لفضيحتهم وسخافة عقولهم فيما ذهبوا إليه: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۝٨٩﴾ أي: العجل ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ﴾ أنه لا يجيبهم إذا سألوه، ولا إذا خاطبوه، ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أي: في دنياهم ولا في أخراهم.

قال ابن عباس ﷺ: لا والله ما كان خواره إلا أن يدخل الريح في دبره فيخرج

من فيه، فيسمع له صوت. .

وحاصل ما اعتذر به هؤلاء الجهلة أنهم تورعوا عن زينة القبط، فألقوها عنهم، وعبدوا العجل. فتورعوا عن الحقير وفعلوا الأمر الكبير، كما جاء في الحديث الصحيح عن ابن عمر: أنه سأله رجل من أهل العراق عن دم البعوض إذا أصاب الثوب -يعني: هل يصلي فيه أم لا؟ فقال ابن عمر، رضي الله عنه: انظروا إلى أهل العراق، قتلوا ابن بنت رسول الله ﷺ يعني: الحسين- وهم يسألون عن دم البعوض؟[1]»[2].

قال الرازي: «هذه الآية تدل على وجوب النظر في معرفة الله تعالى، وقال في آية أخرى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾[3]، وهو قريب في المعنى من قوله في ذم عبدة الأصنام: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ﴾[4]»[5].

قلت: هكذا حال بني إسرائيل، وحال من شابههم من الأمم؛ فارقهم نبيهم في مدة وجيزة، وأنقذهم من قبضة فرعون، وأراهم من الآيات ما أراهم، وخلّف عليهم أخاه هارون حتى لا تنقضي دعوته ولا تموت، وذهب لأمر عظيم أتاهم فيه بخيري الدنيا والآخرة، وكلمه خالق الكون والسموات والأرض. فذهابه وإيابه كان كله خير وبركة، ومع ذلك أوقعهم السامري في موبقة الشرك، وعبادة حيوان واضح من ظاهره أنه من الحيوانات التي معها نوع من العبثية والهمجية، ومع ذلك اختاروه إلها معبودًا!!

وكذلك من هذه الأمة الإسلامية من يرون شخصًا أحمق جمع جميع أوصاف الذم؛ من قذارة، وهذيان لا ينضبط، وأشياء لا تليق حتى بالحيوانات، ومع ذلك يسمونه وليًا لله!! ويعتبرون هذه المثالب كلها مناقب!! كما ذكر الشعراني في طبقاته لكثير من هؤلاء، وكتاب الإبريز من جلده إلى جلده من هذا النوع، كله حماقات تذكر باسم الولاية، وهي ارتكاسات ووقوع في الشرك الأكبر، الذي ما أنزل الله به من سلطان، ويبنى على هؤلاء الأضرحة باسم الولي والصالح والسيد

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٨٥)، والبخاري (١٠/ ٥٢٢/ ٥٩٩٤)، والترمذي (٥/ ٦١٥/ ٣٧٧٠) وقال: «صحيح»، والنسائي في الكبرى (٥/ ١٥٠/ ٨٥٣٠).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣٠٣-٣٠٤).

(٣) الأعراف: الآية (١٤٨).

(٤) الأعراف: الآية (١٩٥).

(٥) مفاتيح الغيب (٢٢/ ١٠٥-١٠٦).

وغيرها من الألقاب والأسماء، التي أملاها عليهم إبليس، فما أشبه عبادة العجل بعبادة الحمقى الذين لا يدرى حالهم هل هم في الجنة أو في النار، ولو كانوا في الجنة لما جاز الدعاء عندهم، ولا الصلاة لهم، ولا تخصيص حَرَم لهم، ولا إقامة موسم أسبوعي أو شهري أو سنوي، كل هذه من أفعال الجاهلية، وهي مشابهة لأفعال السامري، فعلى الداعية إلى اللَّه أن يراقب دعوته وألا يتخلف عنها حتى لا تنقلب دعوة التوحيد إلى دعوة الشرك، وحتى لا يتلاعب بها المتلاعبون. فرضي اللَّه عن أبي بكر الصديق الذي قاتل المرتدّين والمتنبّئين ومانعي الزكاة، لتبقى دعوة الرسول ﷺ مصونة من عبث العابثين، ومن مخططات الماكرين، ورحم اللَّه أبا حنيفة ومالكًا والشافعي وأحمد، وابن تيمية وابن القيم وابن عبد الوهاب، وكل من قام بإحياء التوحيد والسنة وصانها من أن تدخلها أيادي المرتزقة والمتسولين، وكفى اللَّه المؤمنين شرهم بما شاء وكيف شاء.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾﴾

★ غريب الآية:

لَنْ نَبْرَحَ: أي لا نزال.

عَاكِفِينَ: العكوف: اللبث والإقامة، وقيل: هو الإقبال على الشيء وملازمته على سبيل التعظيم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «بيّن -جل وعلا- في هاتين الآيتين الكريمتين: أن بني إسرائيل لما فتنهم السامري وأضلهم بعبادة العجل، نصحهم نبي اللَّه هارون عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، وبيّن لهم أن عبادتهم العجل فتنة فتنوا بها. أي كفر وضلال ارتكبوه بذلك، وبيّن لهم أن ربهم الرحمن خالق كل شيء -جل وعلا-، وأن عجلًا مصطنعًا من حليّ لا يعبده إلا مفتون ضال كافر. وأمرهم باتباعه في توحيد اللَّه تعالى، والوفاء بموعد موسى عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام وأن يطيعوه في ذلك. فصارحوه بالتمرد والعصيان والديمومة على الكفر حتى يرجع موسى. وهذا يدّل على أنه بلغ معهم غاية جهده وطاقته، وأنهم استضعفوه وتمردوا عليه ولم يطيعوه.

وقد أوضح هذا المعنى في غير هذا الموضع، كقوله في الأعراف: ﴿قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[١]. فقوله عنهم في خطابهم له ﴿لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ﴾ يدّل على استضعافهم له وتمردهم عليه المصرح به في الأعراف كما بيّنا»[٢].

---

(١) الأعراف: الآية (١٥٠).

(٢) أضواء البيان (٤/ ٨٧).

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ﴾ يقول: لقد قال لعبدة العجل من بني إسرائيل هارون، من قبل رجوع موسى إليهم، وقيله لهم ما قال مما أخبر اللّه عنه ﴿إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ﴾ يقول: إنما اختبر اللّه إيمانكم ومحافظتكم على دينكم بهذا العجل الذي أحدث فيه الخوار، ليعلم به الصحيح الإيمان منكم من المريض القلب، الشاكّ في دينه.. وقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى﴾ يقول: وإن ربكم الرحمن الذي يعم جميع الخلق نعمه، فاتّبعوني على ما آمركم به من عبادة اللّه، وترك عبادة العجل، وأطيعوا أمري فيما آمركم به من طاعة اللّه، وإخلاص العبادة له، وقوله: ﴿قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ﴾ يقول: قال عبدة العجل من قوم موسى: لن نزال على العجل مقيمين نعبده، حتى يرجع إلينا موسى»[1].

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عما كان من نَهْي هارون عليه السلام، لهم عن عبادة العجل، وإخباره إياهم: إنما هذا فتنة لكم ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ الذي خلق كل شيء فقدره تقديرًا، ذو العرش المجيد، الفعال لما يريد ﴿فَٱتَّبِعُونِى﴾ أي: فيما آمركم به، واتركوا ما أنهاكم عنه.

﴿قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾﴾ أي: لا نترك عبادته حتى نسمع كلام موسى فيه. وخالفوا هارون في ذلك وحاربوه وكادوا أن يقتلوه»[2].

قال القرطبي: «وسئل الإمام أبو بكر الطرطوشي رحمه الله: ما يقول سيدنا الفقيه في مذهب الصوفية؟ وأُعْلِم -حرس اللّه مدته- أنه اجتمع جماعة من رجال، فيكثرون من ذكر اللّه تعالى، وذكر محمد ﷺ، ثم إنهم يوقعون بالقضيب على شيء من الأديم، ويقوم بعضهم يرقص ويتواجد حتى يقع مغشيا عليه، ويحضرون شيئًا يأكلونه.

هل الحضور معهم جائز أم لا؟ أفتونا مأجورين، يرحمكم اللّه، وهذا القول الذي يذكرونه:

يَا شَيْخُ كُفَّ عَنِ الذُّنُوب قَبْلَ التَّفَرُّقِ وَالزَّلَلْ
وَاعْمَلْ لِنَفْسِكَ صَالِحًا مَا دَامَ يَنْفَعُكَ العَمَلْ

---

(١) جامع البيان (١٦/ ٢٠٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣٠٤-٣٠٥).

أَمَّـا الـشَّـبَـابُ فَـقَـدْ مَـضَـى   وَمَـشِـيـبُ رَأْسِـكَ قَـدْ نَـزَلْ

في مثل هذا ونحوه.

الجواب: -يرحمك الله- مذهب الصوفية بطالة وجهالة وضلالة، وما الإسلام إلا كتاب اللَّه وسنة رسوله، وأما الرقص والتواجد فأول من أحدثه أصحاب السامري، لما اتخذ لهم عجلا جسدا له خوار قاموا يرقصون حواليه ويتواجدون، فهو دين الكفار وعباد العجل، وأما القضيب فأول من اتخذه الزنادقة ليشغلوا به المسلمين عن كتاب اللَّه تعالى، وإنما كان يجلس النبي ﷺ مع أصحابه كأنما على رؤوسهم الطير من الوقار، فينبغي للسلطان ونوابه أن يمنعهم من الحضور في المساجد وغيرها، ولا يحل لأحد يؤمن باللَّه واليوم الآخر أن يحضر معهم، ولا يعينهم على باطلهم، هذا مذهب مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل وغيرهم من أئمة المسلمين، وباللَّه التوفيق»[(١)].

قلت: هذا إمام المالكية، وسيد من ساداتهم، يفسر لنا مذهب الصوفية، ويبين ما هم عليه من ضلال، وأفعالهم التي يظنونها قربة إلى اللَّه وهي أفعال السامري التي ذم اللَّه صنيعه في القرآن في غير ما آية، فرقصهم وسقوطهم وغيبوبتهم ووجدهم، وكل ما يزعمون أنهم في اتصال مع اللَّه بهذه الأفعال والأقوال المشينة فهي أفعال شيطانية، يدعوهم إليها إبليس، ويؤزهم إليها أزًّا، ويذكي فيهم هذه الحماسات الفاسدة، فيظهرون للناس أنهم أولياء وصالحون، يخدعونهم ويأكلون أموالهم بالباطل، ويستحوذون عليهم بكل أنواع الاستحواذ.

فأصحاب رسول اللَّه ﷺ لم يكونوا على هذا الباطل، وإنما كان عندهم الاقتداء بالنبي ﷺ، وإذا اجتمعوا تذاكروا كتاب ربهم وسنة نبيهم، ولم يكن اجتماعهم على غير هذا، وكان الوقار سمتهم، والحياء جلبابهم، والقناعة أخلاقهم، وقطع الطمع في البشر شيمتهم، فلله درهم ما أحسن صنعهم، وبئس ما أحدثه المحدثون من صوفية مقيتة أفسدت الأمة وما تزال، فلا حول ولا قوة إلا باللَّه.

قال الرازي: «اعلم أن الأمر بالمعروف والشفقة على المسلمين واجب. ثم إن

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١١/ ١٥٨).

هارون عليه السلام رأى القوم متهافتين على النار، ولم يبال بكثرتهم ولا بقوتهم، بل صرح بالحق فقال: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ﴾ الآية، وههنا دقيقة وهي أن الرافضة تمسكوا بقوله ﷺ لعلي: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى»[1] ثم إن هارون ما منعته التقية في مثل هذا الجمع بل صعد المنبر وصرح بالحق ودعا الناس إلى متابعة نفسه والمنع من متابعة غيره، فلو كانت أمة محمد ﷺ على الخطأ لكان يجب على علي عليه السلام أن يفعل ما فعله هارون عليه السلام، وأن يصعد على المنبر من غير تقية وخوف وأن يقول: ﴿فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِي﴾ فلما لم يفعل ذلك علمنا أن الأمة كانوا على الصواب، واعلم أن هارون عليه السلام سلك في هذا الوعظ أحسن الوجوه لأنه زجرهم عن الباطل أولًا بقوله: ﴿إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ﴾ ثم دعاهم إلى معرفة اللَّه تعالى ثانيًا بقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ ثم دعاها ثالثًا إلى معرفة النبوة بقوله: ﴿فَٱتَّبِعُونِي﴾، ثم دعاهم إلى الشرائع رابعًا بقوله: ﴿وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِي﴾ وهذا هو الترتيب الجيد لأنه لا بد قبل كل شيء من إماطة الأذى عن الطريق وهو إزالة الشبهات، ثم معرفة اللَّه تعالى هي الأصل، ثم النبوة، ثم الشريعة. فثبت أن هذا الترتيب على أحسن الوجوه، وإنما قال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ فخص هذا الموضع باسم الرحمن لأنه كان ينبئهم بأنهم متى تابوا قبل اللَّه توبتهم لأنه هو الرحمن الرحيم، ومن رحمته أن خلصهم من آفات فرعون، ثم إنهم لجهلهم قابلوا هذا الترتيب الحسن في الاستدلال بالتقليد والجحود فقالوا: ﴿لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ كأنهم قالوا: لا نقبل حجتك، ولكن نقبل قول موسى، وعادة المقلد ليس إلا ذاك»[2].

قلت: ما أحسن ما قاله الرازي، وما فصله في الآية، وما أفاده من فوائد، فالفائدة الأولى نعتبرها موقفًا للرازي من الروافض الأخباث، الذين يفترون على اللَّه الكذب فهم لا يفلحون، حيث وصفوا أصحاب رسول اللَّه ﷺ بما لا يجوز في حقهم، وألصقوا بعلي من الغلو ما لا يليق به، ومن ذلك ما حاولوا بثه من شبه حول حديث: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى». ورحم اللَّه الرازي إذ قرر أن عليًّا لو كان مشابهًا لهارون لكان عليه أن يقوم كما قام هارون، ويبين للناس أنه وصي

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ١٧٠) والبخاري (٧/ ٨٩/ ٣٧٠٦) ومسلم (٤/ ١٨٧٠/ ٢٤٠٤) والترمذي (٥/ ٥٩٩/ ٣٧٣١) والنسائي في الكبرى (٥/ ٤٤/ ٨١٣٨) من حديث سعد بن أبي وقاص.

(٢) مفاتيح الغيب (٢٢/ ١٠٧-١٠٨).

رسول اللَّه ﷺ، وأن الصحابة ظلموه وأخذوا حقه الموصى له به، فلما لم يفعل رضي الله عنه تبين كذب الرافضة، وأن عليًّا مهما علت منزلته عند رسول اللَّه ﷺ؛ فإنه يبقى تابعًا للأئمة قبله: أبي بكر وعمر وعثمان -رضي اللَّه عنهم أجمعين-، وأنه أحد رعاياهم تجب عليه طاعتهم في المعروف، وما سوى هذا فهو هذيان وبهتان.

الثانية: التسلسل والتدرج في الدعوة إلى اللَّه، وأن التخلية يجب أن تكون قبل التحلية، ولهذا كانت دعوة الرسول ﷺ مؤسسة على اجتثاث الشرك، وقلعه من جذوره، وإزالته من صدور أصحابه، ثم غرس التوحيد والنبوة والقرآن. واستمرت دعوته ودعوة أصحابه على هذا المنوال وهذا المنهاج. فهنيئًا لمن وُفق في دعوته إلى هذا الترتيب المبارك الطيب الذي استنتجه الرازي من هذه الآية.

* * *

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾﴾

★ **غريب الآية:**

لَمْ تَرْقُبْ: لم تراع ولم تحفظ.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى﴾. الظاهر أن أمره المذكور في هذه الآية هو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[1].

وهذه الآية الكريمة تدل على اقتضاء الأمر للوجوب. لأنه أطلق اسم المعصية على عدم امتثال الأمر، والنصوص الدالة على ذلك كثيرة: كقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[2]، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[3]، فجعل أمره وأمر رسوله ﷺ مانعًا من الاختيار، موجبًا للامتثال»[4].

وقال: «قوله تعالى: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾﴾: ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أن هارون قال لأخيه موسى ﴿يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ﴾ وذلك يدل على أنه لشدة غضبه أراد أن يمسك برأسه ولحيته. وقد بيّن تعالى في الأعراف أنه أخذ برأسه يجره إليه. وذلك في قوله: ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾[5]، وقوله: ﴿وَلَمْ

(١) الأعراف: الآية (١٤٢).
(٢) النور: الآية (٦٣).
(٣) الأحزاب: الآية (٣٦).
(٤) أضواء البيان (٤/ ٩١).
(٥) الأعراف: الآية (١٥٠).

﴿تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ من بقية كلام هارون. أي خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل، وأن تقول لي لم ترقب قولي أي لم تعمل بوصيتي وتمتثل أمري»[1].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: قال موسى لأخيه هارون لما فرغ من خطاب قومه ومراجعته إياهم على ما كان من خطأ فعلهم: يا هارون أي شيء منعك إذ رأيتهم ضلوا عن دينهم، فكفروا بالله وعبدوا العجل ألا تتبعني.

واختلف أهل التأويل في المعنى الذي عذل موسى عليه أخاه من تركه اتباعه، فقال بعضهم: عذله على تركه السير بمن أطاعه في أثره على ما كان عهد إليه..

وقال آخرون: بل عذله على تركه أن يصلح ما كان من فساد القوم..

وقوله: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ﴾، وفي هذا الكلام متروك، ترك ذكره استغناء بدلالة الكلام عليه، وهو: ثم أخذ موسى بلحية أخيه هارون ورأسه يجرّه إليه، فقال هارون: ﴿يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ﴾.

وقوله: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ فاختلف أهل العلم في صفة التفريق بينهم، الذي خشيه هارون، فقال بعضهم: كان هارون خاف أن يسير بمن أطاعه، وأقام على دينه في أثر موسى، ويخلف عبدة العجل، وقد ﴿قَالُوا۟﴾ له: ﴿لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ فيقول له موسى: ﴿فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ بسيرك بطائفة، وتركك منهم طائفة وراءك..

وقال آخرون: بل معنى ذلك: خشيت أن نقتتل فيقتل بعضنا بعضا..

قال أبو جعفر: وأولى القولين في ذلك بالصواب، القول الذي قاله ابن عباس من أن موسى عذل أخاه هارون على تركه اتباع أمره بمن اتبعه من أهل الإيمان، فقال له هارون: إني خشيت أن تقول، فرّقت بين جماعتهم، فتركت بعضهم وراءك، وجئت ببعضهم، وذلك بين في قول هارون للقوم ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِي﴾[2]، وفي جواب القوم له وقيلهم: ﴿لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾[3].

---

(١) أضواء البيان (٤/ ٩١).

(٢) طه: الآية (٩٠).

(٣) طه: الآية (٩١).

وقوله ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ يقول: ولم تنظر قولي وتحفظه، من مراقبة الرجل الشيء، وهي مناظرته بحفظه»[1].

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرًا عن موسى ﷺ، حين رجع إلى قومه، فرأى ما قد حدث فيهم من الأمر العظيم، فامتلأ عند ذلك غيظًا، وألقى ما كان في يده من الألواح الإلهية، وأخذ برأس أخيه يجره إليه.. وشرع يلوم أخاه هارون فقال: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ۝٩٢ أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ أي: فتخبرني بهذا الأمر أول ما وقع، ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى﴾ أي: فيما كنت تقدمت إليك، وهو قوله: ﴿ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[2]. قال: ﴿يَبْنَؤُمَّ﴾ ترقق له بذكر الأم مع أنه شقيقه لأبويه؛ لأن ذكر الأم هاهنا أرق وأبلغ، أي: في الحنو والعطف؛ ولهذا قال: ﴿يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى﴾.

هذا اعتذار من هارون عند موسى في سبب تأخره عنه، حيث لم يلحقه فيخبره بما كان من هذا الخطب الجسيم قال ﴿إِنِّى خَشِيتُ﴾ أن أتبعك فأخبرك بهذا، فتقول لي: لم تركتهم وحدهم وفرقت بينهم ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى﴾ أي: وما راعيت ما أمرتك به حيث استخلفتك فيهم. قال ابن عباس: وكان هارون هائبًا له مطيعًا»[3].

قلت: نستنتج من هذه الآية الكريمة وتفسير المفسرين لها؛ عظمة التوحيد وهيبته، وأن وصية الأولين والآخرين كانت به، وأن الشرك من أعظم المناكير التي تتغير لها القلوب وتتغيظ، وأن الغضب في حقه واجب، مهما كانت مكانة الفاعل.

وأن هارون ﷺ توقف في هذا الأمر الذي أوصاه به موسى لما خاف من المفاسد التي تترتب على قوله أو فعله لو قال أو فعل، كما فعل رسول اللَّه ﷺ في قضية الكعبة لحداثة عهد الناس بالكفر والشرك.

فالداعية إلى اللَّه يجب أن يراعي في دعوته المصالح والمفاسد، وأن لا يحدث قولًا أو فعلًا يكون ضرره أضعاف خيره. فاللهم صلّ على الأنبياء والرسل جميعًا.

قال الشنقيطي: «هذه الآية الكريمة بضميمة آية الأنعام إليها تدل على لزوم إعفاء

---

(١) جامع البيان (١٦/ ٢٠٣-٢٠٤).
(٢) الأعراف: الآية (١٤٢).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣٠٥).

اللحية، فهي دليل قرآني على إعفاء اللحية وعدم حلقها. وآية الأنعام المذكورة هي قوله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ﴾[١]. ثم إنه تعالى قال بعد أن عدّ الأنبياء الكرام المذكورين ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾[٢] فدلّ ذلك على أن هارون من الأنبياء الذين أمر نبينا ﷺ بالاقتداء بهم، وأمره ﷺ بذلك أمر لنا. لأن أمر القدوة أمر لأتباعه كما بيّنا إيضاحه بالأدلة القرآنية في هذا الكتاب المبارك في سورة المائدة.

وقد قدّمنا هناك: أنه ثبت في صحيح البخاري[٣]: أن مجاهدًا سأل ابن عباس: من أين أخذت السجدة في (ص) قال: أو ما تقرأ في ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ﴾[٤]، ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ فسجدها داود فسجدها رسول اللّه ﷺ، فإذا علمت بذلك أن هارون من الأنبياء الذين أمر نبينا ﷺ بالاقتداء بهم في سورة الأنعام، وعلمت أن أمره أمر لنا؛ لأن لنا فيه الأسوة الحسنة، وعلمت أن هارون كان موفرًا شعر لحيته بدليل قوله لأخيه: ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى﴾؛ لأنه لو كان حالقًا لما أراد أخوه الأخذ بلحيته، تبيّن لك من ذلك بإيضاح: أن إعفاء اللحية من السمت الذي أمرنا به في القرآن العظيم، وأنه كان سمت الرسل الكرام صلوات اللّه وسلامه عليهم. والعجب من الذين مسخت ضمائرهم، واضمحل ذوقهم، حتى صاروا يفرون من صفات الذكورية، وشرف الرجولة، إلى خنوثة الأنوثة، ويمثلون بوجوههم بحلق أذقانهم، ويتشبهون بالنساء حيث يحاولون القضاء على أعظم الفوارق الحسية بين الذكر والأنثى وهو اللحية. وقد كان ﷺ كث اللحية، وهو أجمل الخلق وأحسنهم صورة. والرجال الذين أخذوا كنوز كسرى وقيصر، ودانت لهم مشارق الأرض ومغاربها: ليس فيهم حالق، نرجو اللّه أن يرينا وإخواننا المؤمنين الحق حقًا، ويرزقنا اتباعه، والباطل باطلًا ويرزقنا اجتنابه.

أما الأحاديث النبوية الدالة على إعفاء اللحية، فلسنا بحاجة إلى ذكرها لشهرتها بين الناس، وكثرة الرسائل المؤلفة في ذلك. وقصدنا هنا أن نبيّن دليل ذلك من القرآن»[٥].

---

(١) الأنعام: الآية (٨٤).

(٢) الأنعام: الآية (٩٠).

(٣) أخرجه البخاري (٨/ ٦٩٨/ ٤٨٠٧).

(٤) الأنعام: الآية (٨٤).

(٥) أضواء البيان (٤/ ٩٢).

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾

★ غريب الآية:

بَصُرْتُ: يقال: بصر بالشيء، أي علمه.

قَبْضَةً: القبضة: ملء الكف.

فَنَبَذْتُهَا: أي: فرميتها وطرحتها.

سَوَّلَتْ: أي: زينت وحسَّنت.

مِسَاسَ: أي مماسَّة.

لَنَنْسِفَنَّهُ: أي: لنذرينه تذرية كما تذرو الرياح الغبار.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «أي: ما شأنك يا سامري، حيث فعلت ما فعلت؟، فقال: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ﴾ وهو جبريل عليه السلام على فرس رآه وقت خروجهم من البحر، وغرق فرعون وجنوده على ما قاله المفسرون، ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ﴾ حافر فرسه، ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ على العجل، ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾ أن أقبضها، ثم أنبذها، فكان ما كان، فقال له موسى: ﴿فَٱذْهَبْ﴾ أي: تباعد عني واستأخر مني ﴿فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ أي: تعاقب في الحياة عقوبة، لا يدنو منك أحد، ولا يمسك أحد، حتى إن من أراد القرب منك، قلت له: لا تمسني،

ولا تقرب مني، عقوبة على ذلك، حيث مس ما لم يمسه غيره، وأجرى ما لم يجره أحد، ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾ فتجازى بعملك، من خير وشر، ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ أي: العجل ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾ ففعل موسى ذلك، فلو كان إلها، لامتنع ممن يريده بأذى ويسعى له بالإتلاف، وكان قد أشرب العجل في قلوب بني إسرائيل، فأراد موسى ﷺ إتلافه وهم ينظرون، على وجه لا تمكن إعادته بالإحراق والسحق وذريه في اليم ونسفه، ليزول ما في قلوبهم من حبه، كما زال شخصه، ولأن في إبقائه محنة، لأن في النفوس أقوى داع إلى الباطل، فلما تبين لهم بطلانه، أخبرهم بمن يستحق العبادة وحده لا شريك له، فقال: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾.

أي: لا معبود إلا وجهه الكريم، فلا يؤله، ولا يحب، ولا يرجى ولا يخاف، ولا يدعى إلا هو، لأنه الكامل الذي له الأسماء الحسنى، والصفات العلى، المحيط علمه بجميع الأشياء، الذي ما من نعمة بالعباد إلا منه، ولا يدفع السوء إلا هو، فلا إله إلا هو، ولا معبود سواه»[١].

قال ابن عاشور: «أما قوله: ﴿قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾ فهو إخبار بما عاقبه اللَّه به في الدنيا والآخرة، فجعل حَظه في حياته أن يقول لا مِساس، أي سلبه اللَّه الأُنس الذي في طبع الإنسان فعوضه به هوسًا ووسواسًا وتوحشًا، فأصبح متباعدًا عن مخالطة الناس، عائشًا وحده لا يترك أحدًا يقترب منه، فإذا لقيه إنسان قال له: لا مساس، يخشى أن يمسه، أي لا تمسني ولا أمسك، أو أراد لا اقتراب مني، فإن المس يطلق على الاقتراب كقوله: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾[٢]، وهذا أنسب بصيغة المفاعلة، أي مقاربة بيننا، فكان يقول ذلك، وهذه حالة فظيعة أصبح بها سخرية»[٣].

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾.

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ١٨٤-١٨٥).
(٢) هود: الآية (٦٤).
(٣) التحرير والتنوير (١٦/ ٢٩٨).

بيّن -جل وعلا- في هذه الآية: أن العجل الذي صنعه السامري من حلي القبط لا يمكن أن يكون إلهًا؟ وذلك لأنه حصر الإله أي المعبود بحق بـ ﴿إِنَّمَا﴾ التي هي أداة حصر على التحقيق في خالق السموات والأرض، الذي لا إله إلا هو، أي لا معبود بالحق إلا هو وحده -جل وعلا-، وهو الذي وسع كل شيء علمًا. وقوله ﴿عِلْمًا﴾ تمييز محول عن الفاعل، أي وسع علمه كل شيء.

وما ذكره تعالى في هذه الآية الكريمة: من أنه تعالى هو الإله المعبود بحق دون غيره، وأنه وسع كل شيء علمًا، ذكره في آيات كثيرة من كتابه تعالى؛ كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾[1]، وقوله: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[2]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله في إحاطة علمه بكل شيء: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾[4]، والآيات بمثل ذلك كثيرة جدًا»[5].

قال ابن عاشور: «﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ هذه الجملة من حكاية كلام موسى ﷺ فموقعها موقع التذييل لوعظه، وقد التفت من خطاب السامري إلى خطاب الأمّة إعراضًا عن خطابه تحقيرًا له، وقصدًا لتنبيههم على خطئهم، وتعليمهم صفات الإله الحق، واقتصر منها على الوحدانية وعموم العلم؛ لأن الوحدانية تجمع جميع الصفات. . .

وأما عموم العلم فهو إشارة إلى علم اللّه تعالى بجميع الكائنات الشاملة لأعمالهم ليرقبوه في خاصتهم»[6].

* * *

(١) البقرة: الآية (٢٥٥).
(٢) محمد: الآية (١٩).
(٣) يونس: الآية (٦١).
(٤) الأنعام: الآية (٥٩).
(٥) أضواء البيان (٤/ ٩٣).
(٦) التحرير والتنوير (١٦/ ٣٠٠-٣٠١).

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ الظاهر أن «من» في قوله ﴿مِنْ أَنبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ للتبعيض، ويفهم من ذلك أن بعضهم لم يقصص عليه خبره، ويدّل لهذا المفهوم قوله تعالى في سورة النساء: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾[1]، وقوله في سورة المؤمن: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾[2]، وقوله في سورة إبراهيم: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾[3]. والأنباء: جمع نبأ وهو الخبر الذي له شأن.

وما ذكره -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: من أنه قصّ على نبيه ﷺ أخبار الماضين. أي ليبين بذلك صدق نبوته، لأنه أميّ لا يكتب ولا يقرأ الكتب، ولم يتعلم أخبار الأمم وقصصهم. فلولا أن اللّه أوحى إليه ذلك لما علمه، بينه أيضًا في غير هذا الموضع، كقوله في آل عمران: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾[4] أي: فلولا أن اللّه أوحى إليك ذلك لما كان لك علم به. وقوله تعالى في سورة هود: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[5]، وقوله في هود أيضًا: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ

(١) النساء: الآية (١٦٤).
(٢) غافر: الآية (٧٨).
(٣) إبراهيم: الآية (٩).
(٤) آل عمران: الآية (٤٤).
(٥) هود: الآية (٤٩).

بِهِۦ فُؤَادَكَۚ﴾[١]. وقوله تعالى في سورة يوسف: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾[٢]، وقوله في يوسف أيضًا: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾﴾[٣]، وقوله في القصص: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾[٤]، وقوله فيها: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾[٥]، وقوله: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾[٦]، إلى غير ذلك من الآيات. يعني لم تكن حاضرًا يا نبي الله لتلك الوقائع، فلولا أن الله أوحى إليك ذلك لما علمته. وقوله ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَۚ﴾ أي: أخبار ما مضى من أحوال الأمم والرسل.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾؛ أي: أعطيناك من عندنا ذكرًا وهو هذا القرآن العظيم، وقد دلّت على ذلك آيات من كتاب الله؛ كقوله: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾[٧]، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾﴾[٨]، وقوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾[٩]، وقوله: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾[١٠]، وقوله تعالى: ﴿صٓۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾﴾[١١]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَۖ﴾[١٢]، وقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾[١٣]، إلى غير ذلك من الآيات»[١٤].

وقال: «قوله تعالى: ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾﴾: ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أن من أعرض عن هذا الذكر الذي هو القرآن العظيم، أي صدّ وأدبر عنه، ولم يعمل بما فيه من الحلال والحرام، والآداب والمكارم، ولم يعتقد ما فيه من العقائد ويعتبر بما فيه

---

(١) هود: الآية (١٢٠).
(٢) يوسف: الآية (١٠٢).
(٣) يوسف: الآية (٣).
(٤) القصص: الآية (٤٤).
(٥) القصص: الآية (٤٦).
(٦) القصص: الآية (٤٥).
(٧) الأنبياء: الآية (٥٠).
(٨) آل عمران: الآية (٥٨).
(٩) الأنبياء: الآية (٢).
(١٠) الحجر: الآية (٦).
(١١) ص: الآية (١).
(١٢) الزخرف: الآية (٤٤).
(١٣) الحجر: الآية (٩).
(١٤) أضواء البيان (٤/ ٩٣-٩٥).

من القصص والأمثال، ونحو ذلك فإنه يحمل يوم القيامة وزرًا، قال الزمخشري في تفسير هذه الآية الكريمة: يريد بالوزر العقوبة الثقيلة الباهظة. سمّاها وزرًا تشبيهًا في ثقلها على المعاقب وصعوبة احتمالها، بالحمل الذي يفدح الحامل وينقض ظهره، ويلقي عليه بهره. أو لأنها جزاء الوزر وهو الإثم.

قال مقيده -عفا اللَّه عنه وغفر له-: قد دلّت آيات كثيرة من كتاب الله: على أن المجرمين يأتون يوم القيامة يحملون أوزارهم. أي: أثقال ذنوبهم على ظهورهم. كقوله في سورة الأنعام: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾﴾[1]، وقوله في النحل: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾[2]، وقوله في العنكبوت: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾[3]، وقوله في فاطر: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓۗ﴾[4].

وبهذه الآيات التي ذكرنا وأمثالها في القرآن، تعلم أن معنى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا﴾، وقوله: ﴿وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا﴾ أن المراد بذلك الوزر المحمول أثقال ذنوبهم وكفرهم، يأتون يوم القيامة يحملونها»[5].

قال ابن كثير: «يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: كما قَصَصْنَا عليك خبر موسى، وما جرى له مع فرعون وجنوده على الجلية وبالأمر الواقع، كذلك نقص عليك الأخبار الماضية كما وقعت من غير زيادة ولا نقص، هذا ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا﴾ أي: عندنا ﴿ذِكْرًا﴾ وهو القرآن العظيم، الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾[6]، الذي لم يعط نبي من الأنبياء منذ بعثوا إلى أن ختموا بمحمد -صلى اللَّه عليه وسلم تسليمًا-، كتابًا مثله ولا أكمل منه، ولا أجمع لخبر ما سبق وخبر ما هو كائن، وحكم الفصل بين الناس منه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ أي: كذب به وأعرض عن اتباعه أمرًا وطلبًا، وابتغى الهدى في غيره،

(١) الأنعام: الآية (٣١).
(٢) النحل: الآية (٢٥).
(٣) العنكبوت: الآية (١٣).
(٤) فاطر: الآية (١٨).
(٥) أضواء البيان (٤/ ٩٥-٩٦).
(٦) فصلت: الآية (٤٢).

فإن اللَّه يضله ويهديه إلى سواء الجحيم؛ ولهذا قال: ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾﴾ أي: إثمًا، كما قال اللَّه تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾[1].

وهذا عام في كل من بلغه القرآن من العرب والعجم، أهل الكتاب وغيرهم، كما قال تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾[2]. فكل من بلغه القرآن فهو نذير له وداع، فمن اتبعه هدي، ومن خالفه وأعرض عنه ضَلَّ وشقي في الدنيا، والنار موعده يوم القيامة؛ ولهذا قال: ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهِ﴾ أي: لا مَحِيد لهم عنه ولا انفكاك، ﴿وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ حِمْلًا﴾ أي: وبئس الحمل حملهم»[3].

قال السعدي: «يمتن اللَّه تعالى على نبيه ﷺ بما قصه عليه من أنباء السابقين، وأخبار السالفين، كهذه القصة العظيمة، وما فيها من الأحكام وغيرها، التي لا ينكرها أحد من أهل الكتاب، فأنت لم تدرس أخبار الأولين، ولم تتعلم ممن دراها، فإخبارك بالحق اليقين من أخبارهم، دليل على أنك رسول اللَّه حقا، وما جئت به صدق، ولهذا قال: ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ مِن لَّدُنَّا﴾ أي: عطية نفيسة، ومنحة جزيلة من عندنا. ﴿ذِكْرًا﴾ وهو هذا القرآن الكريم، ذكر للأخبار السابقة واللاحقة، وذكر يتذكر به ما لله تعالى من الأسماء والصفات الكاملة، ويتذكر به أحكام الأمر والنهي، وأحكام الجزاء، وهذا مما يدل على أن القرآن مشتمل على أحسن ما يكون من الأحكام، التي تشهد العقول والفطر بحسنها وكمالها، ويذكر هذا القرآن ما أودع اللَّه فيها، وإذا كان القرآن ذكرا للرسول ولأمته، فيجب تلقيه بالقبول والتسليم والانقياد والتعظيم، وأن يهتدى بنوره إلى الصراط المستقيم، وأن يقبلوا عليه بالتعلم والتعليم.

وأما مقابلته بالإعراض، أو ما هو أعظم منه من الإنكار، فإنه كفر لهذه النعمة، ومن فعل ذلك، فهو مستحق للعقوبة، ولهذا قال: ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ فلم يؤمن به، أو

---

(١) هود: الآية (١٧).

(٢) الأنعام: الآية (١٩).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣٠٨).

تهاون بأوامره ونواهيه، أو بتعلم معانيه الواجبة ﴿فَإِنَّهُۥ يَحۡمِلُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وِزۡرًا﴾ وهو ذنبه، الذي بسببه أعرض عن القرآن، وأولاه الكفر والهجران، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهِۖ﴾ أي: في وزرهم، لأن العذاب هو نفس الأعمال، تنقلب عذابا على أصحابها، بحسب صغرها وكبرها.

﴿وَسَآءَ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ حِمۡلٗا﴾ أي: بئس الحمل الذي يحملونه، والعذاب الذي يعذبونه يوم القيامة»[١].

قال ابن عاشور: «وقوله: ﴿وَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكۡرٗا﴾ إيماء إلى أن ما يقص من أخبار الأمم ليس المقصود به قطْع حصة الزمان، ولا إيناس السامعين بالحديث، إنما المقصود منه العبرة والتذكرة وإيقاظ لبصائر المشركين من العرب إلى موضع الاعتبار من هذه القصة، وهو إعراض الأمة عن هدي رسولها وانصياعها إلى تضليل المضللين من بينها. فللإيماء إلى هذا قال تعالى: ﴿وَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكۡرٗا ﴿٩٩﴾ مَّنۡ أَعۡرَضَ عَنۡهُ فَإِنَّهُۥ يَحۡمِلُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وِزۡرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِۖ﴾»[٢].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ١٨٥-١٨٧).
(٢) التحرير والتنوير (١٦/ ٣٠٢).

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾

★ غريب الآية:

يَتَخَافَتُونَ: يتسارُّون.

أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً: أي أقربهم إلى الصواب، وأرشدهم مذهبا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ قيل: معناه زُرْق العيون من شدة ما هم فيه من الأهوال.

﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾ قال ابن عباس: يتسارّون بينهم، أي: يقول بعضهم لبعض: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ أي: في الدار الدنيا، لقد كان لبثكم فيها قليلا عشرة أيام أو نحوها.

قال اللّه تعالى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ أي: في حال تناجيهم بينهم ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾ أي: العاقل الكامل فيهم، ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ أي لقصر مدة الدنيا في أنفسهم يوم المعاد؛ لأن الدنيا كُلَّها وإن تكررت أوقاتها وتعاقبت لياليها وأيامها وساعاتها كأنها يوم واحد؛ ولهذا تستقصر مدة الحياة الدنيا يوم القيامة، وكان غرضهم في ذلك درء قيام الحجة عليهم لقصر المدة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟

(١) الروم: الآيتان (٥٥-٥٦).

فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾﴾[٢]، أي: إنما كان لُبثكم فيها قليلا لو كنتم تعلمون لآثرتم الباقي على الفاني، ولكن تصرفتم فأسأتم التصرف، قَدَّمتُم الحاضر الفاني على الدائم الباقي»[٣].

قال السعدي: «﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾﴾.. أي: إذا نفخ في الصور وخرج الناس من قبورهم، كل على حسب حاله، فالمتقون يحشرون إلى الرحمن وفدا، والمجرمون يحشرون زرقا ألوانهم من الخوف والقلق والعطش، يتناجون بينهم، ويتخافتون في قصر مدة الدنيا، وسرعة الآخرة، فيقول بعضهم: ما لبثتم إلا عشرة أيام، ويقول بعضهم غير ذلك، والله يعلم تخافتهم، ويسمع ما يقولون ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾ أي: أعدلهم وأقربهم إلى التقدير ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ والمقصود من هذا، الندم العظيم، كيف ضيعوا الأوقات القصيرة، وقطعوها ساهين لاهين، معرضين عما ينفعهم، مقبلين على ما يضرهم، فها قد حضر الجزاء، وحق الوعيد، فلم يبق إلا الندم، والدعاء بالويل والثبور.

كما قال تعالى: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾﴾»[٤].

* * *

(١) فاطر: الآية (٣٧).

(٢) المؤمنون: الآيات (١١٢-١١٤).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣٠٩).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ١٨٧-١٨٨).

قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ ۖ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾﴾

★ **غريب الآية:**

قَاعًا: القاع: المستوي من الأرض.

صَفْصَفًا: هو المستوي من الأرض، وقيل: كأنه على صف واحد، وقيل: هو الخالي المستوي من الأرض.

أَمْتًا: الأمت في الأصل المكان المرتفع، ومعنى: ولا أمتا، أي لا ارتفاع فيها ولا انخفاض.

هَمْسًا: أصل الهمس: الصوت الخفي.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾﴾.

ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة أنهم يسألونه عن الجبال، وأمره أن يقول لهم: إن ربه ينسفها نسفًا، وذلك بأن يقلعها من أصولها، ثم يجعلها كالرمل المتهايل الذي يسيل، وكالصوف المنفوش تطيّرها الرياح هكذا وهكذا.

واعلم أنه -جل وعلا- بين الأحوال التي تصير إليها الجبال يوم القيامة في آيات من كتابه. فبيّن أنه ينزعها من أماكنها. ويحملها فيدكّها دكًا. وذلك في قوله: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴿١٤﴾﴾[1].

ثم بيّن أنه يسيّرها في الهواء بين السماء والأرض. وذلك في قوله: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى الْجِبَالَ

(١) الحاقة: الآيات (١٣-١٤).

﴿تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾(١)، وقوله: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾(٢)، وقوله: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾﴾(٣)، وقوله تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾﴾(٤)، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾﴾(٥).

ثم بيّن أنه يفتتها ويدقها كقوله: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾﴾(٦)، أي: فتت حتى صارت كالبسيسة، وهي دقيق ملتوت بسمن أو نحوه على القول بذلك، وقوله: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾﴾(٧).

ثم بيّن أنه يصيّرها كالرمل المتهايل، وكالعهن المنفوش، وذلك في قوله: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾﴾(٨)، وقوله تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾﴾(٩)، في المعارج، والقارعة. والعهن: الصوف المصبوغ. ومنه قول زهير بن أبي سلمى في معلقته:

كَأَنَّ فُتَاتَ العِهْنِ فِي كُلِّ مَنْزِلٍ   نَزَلْنَ بِهِ حَبُّ الفَنَا لَمْ يُحَطَّمِ

ثم بيّن أنها تصيّر كالهباء المنبث في قوله: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾﴾(١٠)، ثم بيّن أنها تصيّر سرابًا، وذلك في قوله: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾﴾(١١) وقد بيّن في موضع آخر أن السراب لا شيء. وذلك قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾(١٢)، وبيّن أنه ينسفها نسفًا في قوله هنا: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾﴾»(١٣).

وقال: «قوله ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم إذ نسفت الجبال يتبعون الداعي. والداعي: هو الملك الذي يدعوهم إلى الحضور للحساب. قال بعض أهل العلم: يناديهم أيتها العظام النخرة، والأوصال المتفرقة، واللحوم المتمزقة، قومي إلى ربك

(١) النمل: الآيتان (٨٧-٨٨).
(٢) الكهف: الآية (٤٧).
(٣) التكوير: الآية (٣).
(٤) النبأ: الآية (٢٠).
(٥) الطور: الآيتان (٩-١٠).
(٦) الواقعة: الآية (٥).
(٧) الحاقة: الآية (١٤).
(٨) المزمل: الآية (١٤).
(٩) المعارج: الآية (٩).
(١٠) الواقعة: الآيتان (٥-٦).
(١١) النبأ: الآية (٢٠).
(١٢) النور: الآية (٣٩).
(١٣) أضواء البيان (٤/ ٩٦-٩٧).

للحساب والجزاء، فيسمعون الصوت ويتبعونه. ومعنى ﴿لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾: أي: لا يحيدون عنه، ولا يميلون يمينًا ولا شمالًا. وقيل: لا عوج لدعاء الملك عن أحد، أي لا يعدل بدعائه عن أحد، بل يدعوهم جميعًا. وما ذكره -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة من اتباعهم للداعي للحساب، وعدم عدولهم عنه بيّنه في غير هذا الموضع، وزاد أنهم يسرعون إليه كقوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ۝ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ ۖ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝﴾[1]، والإهطاع: الإسراع: وقوله تعالى: ﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ۝﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾[3]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ أي: خفضت وخفتت، وسكنت هيبة لله، وإجلالًا وخوفًا ﴿فَلَا تَسْمَعُ﴾ في ذلك اليوم صوتًا عاليًا، بل لا تسمع ﴿إِلَّا هَمْسًا﴾ أي: صوتًا خفيًا خافتًا من شدة الخوف. أو ﴿إِلَّا هَمْسًا﴾ أي: إلا صوت خفق الأقدام ونقلها إلى المحشر، والهمس يطلق في اللغة على الخفاء، فيشمل خفض الصوت وصوت الأقدام. كصوت أخفاف الإبل في الأرض التي فيها يابس النبات، ومنه قول الراجز:

وَهُنَّ يَمْشِينَ بِنَا هَمِيسَا

وما ذكره -جل وعلا- هنا أشار له في غير هذا الموضع، كقوله: ﴿رَّبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَٰنِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ۝ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ۝﴾[4]»[5].

قال ابن كثير: «يقول تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ﴾ أي: هل تبقى يوم القيامة أو تزول؟ ﴿فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ أي: يذهبها عن أماكنها ويمحقها ويسيرها تسييرًا.

﴿فَيَذَرُهَا﴾ أي: الأرض ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾ أي: بساطًا واحدًا.

والقاع: هو المستوي من الأرض. والصفصف تأكيد لمعنى ذلك، وقيل: الذي

---

(١) القمر: الآيات (٦-٨).
(٢) ق: الآيتان (٤١-٤٢).
(٣) الإسراء: الآية (٥٢).
(٤) النبأ: الآيتان (٣٧-٣٨).
(٥) أضواء البيان (٤/ ١٠٠).

لا نبات فيه. والأول أولى، وإن كان الآخر مرادًا أيضًا باللازم؛ ولهذا قال: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ۝١٠٧﴾ أي: لا ترى في الأرض يومئذ واديًا ولا رابية، ولا مكانًا منخفضًا ولا مرتفعًا، كذلك قال ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، والحسن البصري، والضحاك، وقتادة، وغير واحد من السلف.

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾ أي: يوم يرون هذه الأحوال والأهوال، يستجيبون مسارعين إلى الداعي، حيثما أمروا بادروا إليه، ولو كان هذا في الدنيا لكان أنفع لهم، ولكن حيث لا ينفعهم، كما قال تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾[١]، وقال: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨﴾[٢].

قال محمد بن كعب القُرَظي: يحشر اللَّه الناس يوم القيامة في ظلمة، وتطوى السماء، وتتناثر النجوم، وتذهب الشمس والقمر، وينادي مناد، فيتبع الناس الصوت يؤُمّونه، فذلك قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾. وقال قتادة: ﴿لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾ لا يميلون عنه.

وقال أبو صالح: ﴿لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾ لا عوج عنه.

وقوله: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾: قال ابن عباس: سكنت: وكذا قال السدي.

﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ قال سعيد بن جبير، عن ابن عباس: يعني: وطء الأقدام. وكذا قال عكرمة، ومجاهد، والضحاك، والربيع بن أنس، وقتادة، وابن زيد، وغيرهم.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾: الصوت الخفي. وهو رواية عن عكرمة، والضحاك.

وقال سعيد بن جبير: ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾: الحديث، وسره، ووطء الأقدام. فقد جمع سعيد كلا القولين وهو محتمل، أما وطء الأقدام فالمراد سعي الناس إلى المحشر، وهو مشيهم في سكون وخضوع. وأما الكلام الخفي فقد يكون في حال دون حال، فقد قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ

(١) مريم: الآية (٣٨).
(٢) القمر: الآية (٨).

وَسَعِيدٌ﴾(١)»(٢).

قال السعدي: «يخبر تعالى عن أهوال القيامة، وما فيها من الزلازل والقلاقل، فقال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ﴾ أي: ماذا يصنع بها يوم القيامة، وهل تبقى بحالها أم لا؟ ﴿فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ أي: يزيلها ويقلعها من أماكنها فتكون كالعهن وكالرمل، ثم يدكها فيجعلها هباء منبثا، فتضمحل وتتلاشى، ويسويها بالأرض، ويجعل الأرض قاعا صفصفا، مستويا لا يرى فيها الناظر عِوَجًا، هذا من تمام استوائها ﴿وَلَآ أَمْتًا﴾ أي: أودية وأماكن منخفضة، أو مرتفعة فتبرز الأرض، وتتسع للخلائق، ويمدها اللَّه مد الأديم، فيكونون في موقف واحد، يسمعهم الداعي، وينفذهم البصر، ولهذا قال: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ﴾ وذلك حين يبعثون من قبورهم ويقومون منها، يدعوهم الداعي إلى الحضور والاجتماع للموقف، فيتبعونه مهطعين إليه، لا يلتفتون عنه، ولا يعرجون يمنة ولا يسرة، وقوله: ﴿لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾ أي: لا عوج لدعوة الداعي، بل تكون دعوته حقا وصدقا، لجميع الخلق، يسمعهم جميعهم، ويصيح بهم أجمعين، فيحضرون لموقف القيامة، خاشعة أصواتهم للرحمن، ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ أي: إلا وطء الأقدام، أو المخافتة سرا بتحريك الشفتين فقط، يملكهم الخشوع والسكون والإنصات انتظارًا لحكم الرحمن فيهم، وتعنو وجوههم، أي: تذل وتخضع، فترى في ذلك الموقف العظيم، الأغنياء والفقراء، والرجال والنساء، والأحرار والأرقاء، والملوك والسوقة، ساكتين منصتين، خاشعة أبصارهم، خاضعة رقابهم، جاثين على ركبهم، عانية وجوههم، لا يدرون ماذا ينفصل كل منهم به، ولا ماذا يفعل به، قد اشتغل كل بنفسه وشأنه، عن أبيه وأخيه، وصديقه وحبيبه، ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾(٣)، فحينئذ يحكم فيهم الحاكم العدل الديان، ويجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بالحرمان.

والأمل بالرب الكريم، الرحمن الرحيم، أن يرى الخلائق منه، من الفضل والإحسان، والعفو والصفح والغفران ما لا تعبر عنه الألسنة، ولا تتصوره الأفكار، ويتطلع لرحمته إذ ذاك جميع الخلق لما يشاهدونه فيختص المؤمنون به

---

(١) هود: الآية (١٠٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣٠٩-٣١٠).

(٣) عبس: الآية (٣٧).

وبرسله بالرحمة، فإن قيل: من أين لكم هذا الأمل؟ وإن شئت قلت: من أين لكم هذا العلم بما ذكر؟

قلنا: لما نعلمه من غلبة رحمته لغضبه، ومن سعة جوده، الذي عم جميع البرايا، ومما نشاهده في أنفسنا وفي غيرنا، من النعم المتواترة في هذه الدار، وخصوصا في فصل القيامة، فإن قوله: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ مع قوله: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾[1] مع قوله ﷺ: «**إن لله مائة رحمة أنزل لعباده رحمة، بها يتراحمون ويتعاطفون، حتى إن البهيمة ترفع حافرها عن ولدها خشية أن تطأه أي: - من الرحمة المودعة في قلبها، فإذا كان يوم القيامة، ضم هذه الرحمة إلى تسع وتسعين رحمة، فرحم بها العباد**»[2]. مع قوله ﷺ: «**لله أرحم بعباده من الوالدة بولدها**»[3] فقل ما شئت عن رحمته، فإنها فوق ما تقول، وتصور ما شئت، فإنها فوق ذلك، فسبحان من رحم في عدله وعقوبته، كما رحم في فضله وإحسانه ومثوبته، وتعالى من وسعت رحمته كل شيء، وعم كرمه كل حي، وجل من غني عن عباده، رحيم بهم، وهم مفتقرون إليه على الدوام في جميع أحوالهم، فلا غنى لهم عنه طرفة عين»[4].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الصور

* عن عبد اللّٰه بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «**الصور قرن ينفخ فيه**»[5].

⋆ فوائد الحديث:

انظر فوائد هذا الحديث والكلام على النفخ في الصور في سورة الأنعام الآية (٧٣) والنمل الآية (٨٧) والزمر الآية (٦٨).

---

(١) الفرقان: الآية (٢٦).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٤٣٤) ومسلم (٤/ ٢١٠٨/ ٢٧٥٢) وابن ماجه (٢/ ١٤٣٥/ ٤٢٩٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (١٠/ ٥٢٣/ ٥٩٩٩) ومسلم (٤/ ٢١٠٩/ ٢٧٥٤) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٤) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ١٨٨-١٩١).

(٥) أخرجه: أحمد (٢/ ١٦٢)، وأبو داود (٥/ ١٠٧/ ٤٧٤٢)، والترمذي (٥/ ٣٤٨/ ٣٢٤٤)، وحسنه، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٩٢/ ١١٣١٢)، وصححه ابن حبان (الإحسان-١٦/ ٣٠٣/ ٧٣١٢)، والحاكم (٤/ ٥٦٠) ووافقه الذهبي.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ۝١٠٩ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ۝١١٠﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم القيامة ﴿لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ﴾ أي: عنده ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ كقوله: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾[1]، وقوله: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ۝٢٦﴾[2]، وقال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾[3]، وقال: ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾[4]، وقال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ۝٣٨﴾[5]. وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾[6] أي: يحيط علما بالخلائق كلهم، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ كقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾[7]»[8].

قال السعدي: «وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ۝١٠٩﴾ أي: لا يشفع أحد عنده من الخلق، إلا من أذن له في الشفاعة، ولا يأذن إلا لمن رضي قوله، أي: شفاعته، من الأنبياء والمرسلين، وعباده المقربين، فيمن ارتضى قوله وعمله، وهو المؤمن المخلص، فإذا اختل واحد من هذه الأمور، فلا سبيل لأحد إلى شفاعة من أحد»[9].

---

(١) البقرة: الآية (٢٥٥).
(٢) النجم: الآية (٢٦).
(٣) الأنبياء: الآية (٢٨).
(٤) سبأ: الآية (٢٣).
(٥) النبأ: الآية (٣٨).
(٦) البقرة: الآية (٢٥٥).
(٧) البقرة: الآية (٢٥٥).
(٨) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣١٠-٣١١).
(٩) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ١٩١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الشفاعة

* عن أنس ﷺ عن النبي ﷺ قال -في حديث الشفاعة الطويل-: « . . . **فأنطلق حتى أستأذن على ربي فيؤذن، فإذا رأيت ربي وقعت ساجدا، فيدعني ما شاء اللَّه، ثم يقال: ارفع رأسك، وسل تعطه، وقل يسمع، واشفع تشفع. فأَرْفَع رأسي فأحمده بتحميد يعلمنيه، ثم أشفع، فيحد لي حدًّا، فأدخلهم الجنة، ثم أعود الثالثة، ثم أعود الرابعة فأقول: ما بقي في النار إلا من حبسه القرآن، ووجب عليه الخلود**»[1].

* عن أنس ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**يخرج من النار من قال: لا إله إلا اللَّه وفي قلبه وزن شعيرة من خير، ويخرج من النار من قال لا إله إلا اللَّه وفي قلبه وزن برة من خير، ويخرج من النار من قال لا إله إلا اللَّه وفي قلبه وزن ذرة من خير**»[2].

★ **فوائد الحديثين:**

قال سليمان بن عبد الله: «يحصل للعبد بالتوحيد والإخلاص من شفاعة الرسول ﷺ وغيرها ما لا يحصل بغيره من الأعمال، وإن كان صالحا لسؤال الوسيلة للرسول ﷺ، فكيف بما لم يأمر به من الأعمال، بل نهى عنه، فذلك لا ينال به خير لا في الدنيا ولا في الآخرة، مثل غلو النصارى في المسيح، فإنه يضرهم ولا ينفعهم، ونظير هذا في الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «**لكل نبي دعوة مستجابة، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة، فهي نائلة إن شاء اللَّه من مات لا يشرك باللَّه شيئا**»[3]، وكذلك في أحاديث الشفاعة كلها إنما يشفع في أهل التوحيد، فبحسب توحيد العبد لربه، وإخلاصه دينه لله تعالى يستحق كرامة اللَّه بالشفاعة وغيرها.

وقال ابن القيم ما معناه: تأمل هذا الحديث كيف جعل أعظم الأسباب التي تنال

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٢٤٤)، والبخاري (٨/ ٢٠٢-٢٠٣/ ٤٤٧٦)، و مسلم (١/ ١٨٠-١٨١/ ١٩٣)، وابن ماجه (٢/ ١٤٤٢-١٤٤٣/ ٤٣١٢).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ١١٦)، والبخاري (١/ ١٣٨-١٣٩/ ٤٤)، ومسلم (١/ ١٨٢/ ١٩٣[٣٢٥])، والترمذي (٤/ ٦١٣/ ٢٥٩٣)، وابن ماجه (٢/ ١٤٤٣/ ٤٣١٢).

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٤٢٦) ومسلم (١/ ١٨٩/ ١٩٩) والترمذي (٥/ ٥٤١-٥٤٢/ ٣٦٠٢) وابن ماجه (٢/ ١٤٤٠/ ٤٣٠٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

بها شفاعته تجريد التوحيد؛ عكس ما عند المشركين من أن الشفاعة تنال باتخاذهم شفعاء، وعبادتهم وموالاتهم من دون اللَّه، فقلب النبي ﷺ ما في زعمهم الكاذب، وأخبر أن سبب الشفاعة تجريد التوحيد، فحينئذ يأذن اللَّه للشافع أن يشفع. ومن جهل المشرك اعتقاده أن من اتخذه وليًا أو شفيعًا أنه يشفع له، وينفعه عند اللَّه، كما يكون خواص الملوك والولاة تنفع من والاهم، ولم يعلموا أن اللَّه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، ولا يأذن في الشفاعة إلا من رضي قوله وعمله، كما قال تعالى في الفصل الأول: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾[1] وفي الفصل الثاني ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾[2]، وبقي فصل ثالث وهو أنه لا يرضى من القول والعمل إلا توحيده، واتباع رسوله ﷺ. فهذه ثلاثة فصول تقطع شجرة الشرك من قلب من وعاها وعقلها. انتهى ملخصًا.

وقال الحافظ: المراد بهذه الشفاعة، المسؤول عنها هنا بعض أنواع الشفاعة، وهي التي يقول ﷺ: «أمتي أمتي» فيقال له: أخرج من النار من كان في قلبه وزن كذا من الإيمان[3]. فأسعد الناس بهذه الشفاعة من يكون إيمانه أكمل ممن دونه، وأما الشفاعة العظمى، فالإراحة من كرب الموقف. فأسعد الناس بها من يسبق إلى الجنة، وهم الذين يدخلونها بغير حساب، ثم الذين يلونهم، وهو من يدخلها بغير عذاب بعد أن يحاسب ويستحق العذاب، ثم من يصيبه لفح من النار ولا يسقط»[4].

* * *

(١) البقرة: الآية (٢٥٥).

(٢) الأنبياء: الآية (٢٨).

(٣) أخرجه البخاري (١٣/ ٥٧٩-٥٨٠/ ٧٥١٠) ومسلم (١/ ١٨٢-١٨٤/ ١٩٣[٣٢٦]).

(٤) تيسير العزيز الحميد (٢٥٣-٢٥٤).

قوله تعالى: ﴿۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾﴾

★ **غريب الآية:**

عَنَت: أي خضعت مستأسرة بعناء.

خَابَ: الخيبة: فوت الطلب، وعدم الظفر بالبغية.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «واعلم أن العلماء اختلفوا في هذه الآية الكريمة، فقال بعضهم: المراد بالوجوه التي ذلّت وخشعت للحي القيوم: وجوه العصاة خاصة وذلك يوم القيامة: وأسند الذّل والخشوع لوجوههم، لأن الوجه تظهر فيه آثار الذل والخشوع. ومما يدّل على هذا المعنى من الآيات القرآنية قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾[1]، وقوله: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾﴾[3]..

وقال بعض العلماء: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ﴾: أي: ذلّت وخضعت وجوه المؤمنين لله في دار الدنيا، وذلك بالسجود والركوع. وظاهر القرآن يدّل على أن المراد الذل والخضوع لله يوم القيامة، لأن السياق في يوم القيامة، وكل الخلائق تظهر عليهم في ذلك اليوم علامات الذّل والخضوع لله -جل وعلا-.

وقوله في هذه الآية: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾، قال بعض العلماء: أي: خسر من حمل شركًا. وتدّل لهذا القول الآيات القرآنية الدالة على تسمية الشرك

---

(١) الملك: الآية (٢٧).

(٢) القيامة: الآيتان (٢٤-٢٥).

(٣) الغاشية: الآيات (٢-٤).

ظلمًا؛ كقوله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[(١)]، وقوله: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[(٢)]، وقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[(٣)]، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾[(٤)]، إلى غير ذلك من الآيات، والأظهر أن الظلم في قوله: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾، يعمّ الشرك وغيره من المعاصي. وخيبة كل ظالم بقدر ما حمل من الظلم، والعلم عند اللّه تعالى»[(٥)].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: استسرّت وجوه الخلق، واستسلمت للحيّ القيوم الذي لا يموت، القيوم على خلقه بتدبيره إياهم، وتصريفهم لما شاءوا..

وقوله: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ يقول -تعالى ذكره-: ولم يظفر بحاجته وطلبته من حمل إلى موقف القيامة شركًا باللّه، وكفرًا به، وعملًا بمعصيته»[(٦)].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ قال ابن عباس وغير واحد: خضعت وذلت واستسلمت الخلائق لجبارها الحي الذي لا يموت، القيوم: الذي لا ينام، وهو قيم على كل شيء، يدبره ويحفظه، فهو الكامل في نفسه، الذي كل شيء فقير إليه، لا قوام له إلا به.

وقوله: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ أي: يوم القيامة، فإن اللّه سيؤدي كل حق إلى صاحبه»[(٧)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن الظلم ظلمات يوم القيامة، وأظلم الظلم الشرك بالله

* عن جابر بن عبد اللّه رضي الله عنه أن رسول اللّه ﷺ قال: **«اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم»**[(٨)].

---

(١) لقمان: الآية (١٣).
(٢) البقرة: الآية (٢٥٤).
(٣) يونس: الآية (١٠٦).
(٤) الأنعام: الآية (٨٢).
(٥) أضواء البيان (٤/ ١٠١).
(٦) جامع البيان (١٤/ ٢١٥-٢١٧).
(٧) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣١١).
(٨) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٢٣)، ومسلم (٤/ ١٩٩٦/ ٢٥٧٨) والبخاري في الأدب المفرد (٤٨٣).

★ غريب الحديث:

الشُّح: هو البخل مع الحرص.

★ فوائد الحديث:

قال الشيخ العثيمين: «واعلم أن الظلم هو النقص. قال اللَّه تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾[1] يعني لم تنقص منه شيئا. والنقص إما أن يكون بالتجرؤ على ما لا يجوز للإنسان، وإما بالتفريط فيما يجب عليه. وبذلك يدور الظلم على هذين الأمرين، إما ترك واجب، وإما فعل محرم.

والظلم نوعان: ظلم يتعلق بحقوق اللَّه ﷻ، وظلم يتعلق بحقوق العباد، وأعظمهما المتعلق بحقوق اللَّه والإشراك به، فإن النبي ﷺ سئل: أي الذنب أعظم؟ فقال: «**أن تجعل لله ندا وهو خلقك**»[2] ويليه الظلم في الكبائر، ثم الظلم في الصغائر.

أما في حقوق اللَّه فالظلم يدور على ثلاثة أشياء، بينها النبي ﷺ في خطبة حجة الوداع، فقال: «**إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا**»[3] الظلم في النفس هو الظلم في الدماء، يكون بأن يعتدي الإنسان على حق غيره، بسفك الدماء أو الجروح أو ما أشبه ذلك، الظلم في الأموال بأن يعتدي الإنسان ويظلم غيره في الأموال، إما بعدم بذل الواجب، وإما بإتيان محرم، وإما بأن يمتنع من واجب عليه، وإما بأن يفعل شيئًا محرما في مال غيره. وأما الظلم في الأعراض، فيشمل الاعتداء على الغير بالزنا، واللواط، والقذف، وما أشبه ذلك.

وكل الظلم بأنواعه محرم، ولن يجد الظالم من ينصره أمام اللَّه تعالى، قال اللَّه تعالى: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾[4]، أي أنه يوم القيامة، لا يجد الظالم

---

(١) الكهف: الآية (٣٣).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٨٠) والبخاري (١٢/ ٢٢٩/ ٦٨٦١) ومسلم (١/ ٩١/ ١٤٢) وأبو داود (٢/ ٧٣٢-٧٣٣/ ٢٣١٠) والترمذي (٥/ ٣١٥/ ٣١٨٣) والنسائي (٧/ ١٠٤/ ٤٠٢٦) من حديث عبداللَّه بن مسعود ﷺ.

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٢٣٠) والبخاري (٣/ ٧٣١/ ١٧٣٩). وأخرجه الترمذي (١/ ٤٢١/ ٢١٩٣) مختصرا دون ذكر موضع الشاهد من حديث عبداللَّه بن عباس ﷺ.

(٤) غافر: الآية (١٨).

حميما أي صديقا ينجيه من عذاب اللَّه، ولا يجد شفيعا يشفع له فيطاع، لأنه منبوذ بظلمه وغشمه وعدوانه، وقال تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾[1]، يعني لا يجدون أنصارا ينصرونهم ويخرجونهم من عذاب اللَّه ﷻ في ذلك اليوم.. فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، ويوم القيامة ليس هناك نور إلا من أنار اللَّه تعالى له، وأما من لم يجعل اللَّه له نورا فما له من نور. والإنسان إن كان مسلما فله نور بقدر إسلامه، ولكن إن كان ظالما فقد من هذا النور بمقدار ما حصل من الظلم، لقوله ﷺ: «**اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة**»[2].

قوله: «**اتقوا الظلم**»؛ قال القرطبي: «ظاهره: أن الظالم يعاقب يوم القيامة؛ بأن يكون في ظلمات متوالية يوم يكون المؤمنون في نور يسعى بين أيديهم، وبأيمانهم حين: ﴿يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ فيقال لهم: ﴿ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾[3]»[4].

* * *

(١) البقرة: الآية (٢٧٠).
(٢) شرح رياض الصالحين (٤/ ٥٩٥-٥٩٧).
(٣) الحديد: الآية (١٣).
(٤) المفهم (٦/ ٥٥٦).

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾

★ **غريب الآية:**

هَضْمًا: أي نقصًا، يقال: هضمته واهتضمته وتهضمته، أي نقصته حقه، وقيل: الظلم والهضم متقاربان، وفرّق بعضهم بينهما فقال: الظلم منع جميع الحق، والهضم منع بعضه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره وتقدّست أسماؤه-: ومن يعمل من صالحات الأعمال، وذلك فيما قيل أداء فرائض اللَّه التي فرضها على عباده ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ يقول: وهو مصدّق باللَّه، وأنه مجاز أهل طاعته وأهل معاصيه على معاصيهم ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا﴾ يقول: فلا يخاف من اللَّه أن يظلمه، فيحمل عليه سيئات غيره، فيعاقبه عليها، ﴿وَلَا هَضْمًا﴾ يقول: لا يخاف أن يهضمه حسناته، فينقصه ثوابها»[(١)].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾، لما ذكر الظالمين ووعيدهم، ثنى بالمتقين وحكمهم، وهو أنهم لا يُظْلَمُون ولا يُهضَمون، أي: لا يزاد في سيئاتهم ولا ينقص من حسناتهم. قاله ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، والحسن، وقتادة، وغير واحد. فالظلم: الزيادة بأن يحمل عليه ذنب غيره، والهضم: النقص»[(٢)].

* * *

(١) جامع البيان (١٦/ ٢١٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣١٢).

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: كما رغبنا أهل الإيمان في صالحات الأعمال، بوعدناهم ما وعدناهم، كذلك حذرنا بالوعيد أهل الكفر بالمقام على معاصينا، وكفرهم بآياتنا فأنزلنا هذا القرآن عربيا، إذ كانوا عَرَبا، ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ﴾ فبيناه: يقول: وخوّفناهم فيه بضروب من الوعيد ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ يقول: كي يتقونا، بتصريفنا ما صرّفنا فيه من الوعيد، ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ يقول: أو يحدث لهم هذا القرآن تذكرة، فيعتبرون ويتعظون بفعلنا بالأمم التي كذبت الرسل قبلها، وينزجرون عما هم عليه مقيمون من الكفر بالله»[1].

قال ابن كثير: «يقول: ولما كان يوم المعاد والجزاء بالخير والشر واقعا لا محالة، أنزلنا القرآن بشيرًا ونذيرًا، بلسان عربي مبين فصيح لا لبس فيه ولا عيّ، ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: يتركون المآثم والمحارم والفواحش، ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ وهو إيجاد الطاعة وفعل القربات»[2].

قال السعدي: «﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾﴾؛ أي: وكذلك أنزلنا هذا الكتاب، باللسان الفاضل العربي، الذي تفهمونه وتفقهونه، ولا يخفى عليكم لفظه، ولا معناه.

﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ﴾ أي: نوعناها أنواعا كثيرة، تارة بذكر أسمائه الدالة على العدل والانتقام، وتارة بذكر المثلات التي أحلها بالأمم السابقة، وأمر أن تعتبر بها الأمم اللاحقة، وتارة بذكر آثار الذنوب، وما تكسبه من العيوب، وتارة بذكر أهوال

---

(١) جامع البيان (١٦/ ٢١٩).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣١٢).

القيامة، وما فيها من المزعجات والمقلقات، وتارة بذكر جهنم وما فيها من أنوع العقاب وأصناف العذاب، كل هذا رحمة بالعباد، لعلهم يتقون اللَّه فيتركون من الشر والمعاصي ما يضرهم، ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ فيعملون من الطاعات والخير ما ينفعهم، فكونه عربيًا، وكونه مصرفًا فيه من الوعيد، أكبر سبب، وأعظم داع للتقوى والعمل الصالح، فلو كان غير عربي، أو غير مصرف فيه، لم يكن له هذا الأثر»[1].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ١٩٢).

قوله تعالى: ﴿فَتَعَالَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾.

كان النَّبي ﷺ إذا جاءه جبريل بالوحي كلما قال جبريل آية قالها معه ﷺ من شدة حرصه على حفظ القرآن. فأرشده اللَّه في هذه الآية إلى ما ينبغي. فنهاه عن العجلة بقراءة القرآن مع جبريل، بل أمره أن ينصت لقراءة جبريل حتى ينتهي، ثم يقرؤه هو بعد ذلك، فإن اللَّه ييسر له حفظه. وهذا المعنى المشار إليه في هذه الآية أوضحه اللَّه في غير هذا الموضع؛ كقوله في القيامة: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾[(١)]»[(٢)].

قال ابن كثير: «﴿فَتَعَالَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: تنزه وتقدس الملك الحق، الذي هو حق، ووعده حق، ووعيده حق، ورسله حق، والجنة حق، والنار حق، وكل شيء منه حق. وعدله تعالى ألا يعذب أحدًا قبل الإنذار وبعثة الرسل والإعذار إلى خلقه؛ لئلا يبقى لأحد حجة ولا شبهة.

وقوله: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ كقوله تعالى في سورة «لا أقسم بيوم القيامة» ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾، أي: بل أنصت، فإذا فرغ الملك من قراءته عليك فاقرأه بعده، ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ أي: زدني منك علمًا.

قال ابن عُيَيْنَة رَحِمَهُ اللَّهُ: ولم يزل ﷺ في زيادة من العلم حتى توفاه اللَّه عز وجل. ولهذا

(١) القيامة: الآيات (١٦-١٩).

(٢) أضواء البيان (٤/ ١٠٢-١٠٣).

جاء في الحديث: «إن اللَّه تابع الوحي على رسوله، حتى كان الوحي أكثر ما كان يوم تُوُفِّيَ رسول اللَّه ﷺ»[(١)](٢).

قال السعدي: «لما ذكر تعالى حكمه الجزائي في عباده، وحكمه الأمري الديني، الذي أنزله في كتابه، وكان هذا من آثار ملكه قال: ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ﴾ أي: جل وارتفع وتقدس عن كل نقص وآفة، ﴿ٱلْمَلِكُ﴾ الذي الملك وصفه، والخلق كلهم مماليك له، وأحكام الملك القدرية والشرعية، نافذة فيهم.

﴿ٱلْحَقُّ﴾ أي: وجوده وملكه وكماله حق، فصفات الكمال لا تكون حقيقة إلا لذي الجلال، ومن ذلك: الملك، فإن غيره من الخلق، وإن كان له ملك في بعض الأوقات على بعض الأشياء، فإنه ملك قاصر باطل يزول، وأما الرب، فلا يزال ولا يزول ملكا حيا قيوما جليلا.

﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ أي: لا تبادر بتلقف القرآن حين يتلوه عليك جبريل، واصبر حتى يفرغ منه، فإذا فرغ منه فاقرأه، فإن اللَّه قد ضمن لك جمعه في صدرك وقراءتك إياه، كما قال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾[(٣)]، ولما كانت عجلته ﷺ على تلقف الوحي ومبادرته إليه تدل على محبته التامة للعلم، وحرصه عليه، أمره اللَّه تعالى أن يسأله زيادة العلم، فإن العلم خير، وكثرة الخير مطلوبة، وهي من اللَّه، والطريق إليها الاجتهاد، والشوق للعلم، وسؤال اللَّه، والاستعانة به، والافتقار إليه في كل وقت.

ويؤخذ من هذه الآية الكريمة الأدب في تلقي العلم، وأن المستمع للعلم ينبغي له أن يتأنى ويصبر حتى يفرغ المملي والمعلم من كلامه المتصل بعضه ببعض، فإذا فرغ منه سأل إن كان عنده سؤال، ولا يبادر بالسؤال وقطع كلام ملقي العلم، فإنه سبب للحرمان، وكذلك المسئول ينبغي له أن يستملي سؤال السائل، ويعرف

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٢٣٦)، والبخاري (٩/ ٣-٤/ ٤٩٨٢)، ومسلم (٤/ ٢٣١٢/ ٣٠١٦)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٤/ ٧٩٨٣) من حديث أنس بن مالك ﷺ.

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣١٢).

(٣) القيامة: الآيات (١٦-١٩).

المقصود منه قبل الجواب، فإن ذلك سبب لإصابة الصواب»[١].

وانظر قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾﴾ من سورة القيامة.

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ١٩٣-١٩٤).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾

★ **غريب الآية:**

عَزْمًا: أي تصميما على ما هَمَّ به.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «قوله: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ﴾ أي: أوصيناه ألا يقرب تلك الشجرة. وهذا العهد إلى آدم الذي أجمله هنا بيّنه في غير هذا الموضع، كقوله في سورة البقرة: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾[1]، فقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ هو عهده إلى آدم المذكور هنا. وقوله في الأعراف: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾[2]»[3].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وإن يضيع يا محمد هؤلاء الذين نصرّف لهم في هذا القرآن من الوعيد عهدي، ويخالفوا أمري، ويتركوا طاعتي، ويتبعوا أمر عدّوهم إبليس، ويطيعوه في خلاف أمري، فقديما ما فعل ذلك أبوهم آدم ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ﴾ يقول: ولقد وصينا آدم وقلنا له ﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ﴾[4]، فوسوس إليه الشيطان فأطاعه، وخالف أمري، فحلّ به من عقوبتي ما حلّ.

وعنى -جلّ ثناؤه- بقوله: ﴿مِن قَبْلُ﴾ هؤلاء الذين أخبر أنه صرَّف لهم الوعيد في هذا القرآن، وقوله ﴿فَنَسِىَ﴾ يقول: فترك عهدي..

وقوله: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ اختلف أهل التأويل في معنى العزم هاهنا، فقال بعضهم: معناه الصبر.. وقال آخرون: بل معناه: الحفظ، قالوا: ومعناه: ولم نجد له حفظا لما عهدنا إليه.

---

(١) البقرة: الآية (٣٥).
(٢) الأعراف: الآية (١٩).
(٣) أضواء البيان (٤/ ١٠٣).
(٤) طه: الآية (١١٧).

قال أبو جعفر: وأصل العزم اعتقاد القلب على الشيء، يقال منه: عزم فلان على كذا: إذا اعتقد عليه ونواه، ومن اعتقاد القلب: حفظ الشيء، ومنه الصبر على الشيء، لأنه لا يجزع جازع إلا من خور قلبه وضعفه، فإذا كان ذلك كذلك، فلا معنى لذلك أبلغ مما بينه اللّه -تبارك وتعالى-، وهو قوله ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ فيكون تأويله: ولم نجد له عزم قلب، على الوفاء لله بعهده، ولا على حفظ ما عهد إليه»[1].

قال السعدي: «أي: ولقد وصينا آدم وأمرناه، وعهدنا إليه عهدا ليقوم به، فالتزمه، وأذعن له وانقاد، وعزم على القيام به، ومع ذلك نسي ما أمر به، وانتقضت عزيمته المحكمة، فجرى عليه ما جرى، فصار عبرة لذريته، وصارت طبائعهم مثل طبيعته، نسي آدم فنسيت ذريته، وخطئ فخطئوا، ولم يثبت على العزم المؤكد، وهم كذلك، وبادر بالتوبة من خطيئته، وأقر بها واعترف، فغفرت له»[2].

قال ابن عطية: «قال الطبري: المعنى وإن يعرض يا محمد هؤلاء الكفرة عن آياتي ويخالفوا رسلي ويطيعوا إبليس، فقديما[3] فعل ذلك أبوهم آدم ﷺ. وهذا التأويل ضعيف، وذلك أن يكون ﴿ءَادَمَ﴾ مثالًا للكفار الجاحدين باللّه ليس بشيء، و ﴿ءَادَمَ﴾ إنما عصى بتأويل ففي هذا غضاضة عليه ﷺ»[4].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في سبب تسمية الإنسان إنسانًا

* عن ابن عباس رضي الله عنهما: «إنما سمي الإنسان: لأنه عهد إليه فنسي»[5].

★ **فوائد الحديث:**

دل الحديث على سر تسمية الإنسان بالإنسان، وأن ذلك من نسيانه ما عهد إليه. إشارة إلى آدم أصل الإنسانية. والعهد الذي عهد إليه هو عدم الأكل من الشجرة.

* * *

(١) جامع البيان (١٦/ ٢٢٠-٢٢١).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ١٩٤).
(٣) في الأصل: فقدما، والصواب ما أثبتناه وانظر كلام الطبري المتقدم.
(٤) المحرر الوجيز (٤/ ٦٦).
(٥) أخرجه: ابن جرير (١٦/ ٢٢١) وابن أبي حاتم (٧/ ٢٤٣٧/ ١٣٥٤٦)وصححه الحاكم (٢/ ٣٨١) ووافقه الذهبي.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة أنه أمر الملائكة بالسجود لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى. أي: أبى أن يسجد. فذكر عنه هنا الإباء ولم يذكر عنه هنا الاستكبار. وذكر عنه الإباء أيضًا في الحجر في قوله: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾﴾[1]. وقوله في آية الحجر هذه ﴿أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ يبيّن معمول (أبى) المحذوف في آية (طه) هذه التي هي قوله ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾ أي: أبى أن يكون مع الساجدين، كما صرّح به في الحجر، وكما أشار إلى ذلك في الأعراف في قوله: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾[2]، وذكر عنه في سورة ص الاستكبار وحده في قوله: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾[3]، وذكر عنه الإباء والاستكبار معًا في سورة البقرة في قوله: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[4]»[5].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- معلما نبيه محمدا ﷺ، ما كان من تضييع آدم عهده، ومعرّفه بذلك أن ولده لن يعدوا أن يكونوا في ذلك على منهاجه، إلا من عصمه اللَّه منهم ﴿و﴾ اذكر يا محمد ﴿إِذ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾ أن يسجد له ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ ولذلك من شنآنه لم يسجد لك، وخالف أمري في ذلك وعصاني، فلا تطيعاه فيما يأمركما به، فيخرجكما بمعصيتكما ربكما، وطاعتكما له ﴿مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ يقول: فيكون عيشك من كدّ

(١) الحجر: الآية (٣١).
(٢) الأعراف: الآية (١١).
(٣) ص: الآية (٧٤).
(٤) البقرة: الآية (٣٤).
(٥) أضواء البيان (٤/ ١٠٦).

يدك، فذلك شقاؤه الذي حذّره ربه»[١].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟﴾ يذكر تعالى تشريف آدم وتكريمه، وما فضله به على كثير ممن خلق تفضيلًا.. يذكر فيها تعالى خَلْقَ آدم وأَمْرَه الملائكة بالسجود له تشريفًا وتكريمًا، ويبين عداوة إبليس لبني آدم ولأبيهم قديمًا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾ أي: امتنع واستكبر. ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ يعني: حواء، ﷺ ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ أي: إياك أن يسعى في إخراجك منها، فتتعب وتعنى وتشقى في طلب رزقك، فإنك هاهنا في عيش رغيد هنيء، لا كلفة ولا مشقة»[٢].

قال السعدي: «لما أكمل خلق آدم بيده، وعلمه الأسماء، وفضله، وكرمه، أمر الملائكة بالسجود له، إكراما وتعظيما وإجلالا فبادروا بالسجود ممتثلين، وكان بينهم إبليس، فاستكبر عن أمر ربه، وامتنع من السجود لآدم وقال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾[٣] فتبينت حينئذ عداوته البليغة لآدم وزوجه، لما كان عدوا لله، وظهر من حسده ما كان سبب العداوة، فحذر الله آدم وزوجه منه، وقال: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ إذا أخرجت منها، فإن لك فيها الرزق الهني، والراحة التامة»[٤].

قال القرطبي: «﴿فَتَشْقَىٰٓ﴾ يعني أنت وزوجك لأنهما في استواء العلة واحد، ولم يقل: فتشقيا لأن المعنى معروف، وآدم عليه السلام هو المخاطب، وهو المقصود.

وأيضا لما كان الكادَّ عليها والكاسب لها كان بالشقاء أخص.

وقيل: الإخراج واقع عليهما والشقاوة على آدم وحده، وهو شقاوة البدن، ألا ترى أنه عقبه بقوله: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾﴾[٥] أي في الجنة، ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾[٦] فأعلمه أن له في الجنة هذا كله: الكسوة والطعام والشراب والمسكن، وأنك إن ضيعت الوصية، وأطعت العدو أخرجكما من الجنة

---

(١) جامع البيان (١٦/ ٢٢٢).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣١٣-٣١٤).
(٣) الأعراف: الآية (١٢).
(٤) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ١٩٥).
(٥) طه: الآية (١١٨).
(٦) طه: الآية (١١٩).

فشقيت تعبا ونصبا، أي جعت وعريت وظمئت وأصابتك الشمس، لأنك ترد إلى الأرض إذا أخرجت من الجنة.

وإنما خصه بذكر الشقاء ولم يقل فتشقيان: يعلمنا أن نفقة الزوجة على الزوج، فمن يومئذ جرت نفقة النساء على الأزواج، فلما كانت نفقة حواء على آدم؛ كذلك نفقات بناتها على بني آدم بحق الزوجية.

وأعلمنا في هذه الآية أن النفقة التي تجب للمرأة على زوجها هذه الأربعة: الطعام والشراب والكسوة والمسكن، فإذا أعطاها هذه الأربعة فقد خرج إليها من نفقتها، فإن تفضل بعد ذلك فهو مأجور، فأما هذه الأربعة فلا بد لها منها، لأن بها إقامة المهجة»[1].

* * *

(١) الجامع لأحكام القرآن (١١/ ١٦٨).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾

★ غريب الآية:

لَا تَضْحَىٰ: أي لا تبرز للضحى، وحقيقته أنه مصون من الشمس.

سَوْآتِهِمَا: عوراتهما.

طَفِقَا: أي شرعا.

يَخْصِفَانِ: الخصف: تطبيق بعض جلود النعل على بعض، ثم عبر به عن ضم الورق على بونهما لما زال عنهما لباسهما.

اجْتَبَاهُ: الاجتباء: الاصطفاء والاختيار.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال الشنقيطي: «اعلم أن قوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾ أي: كلمه كلامًا خفيًّا فسمعه منه آدم وفهمه. والدليل على أن الوسوسة المذكورة في هذه الآية الكريمة كلام من إبليس سمعه آدم وفهمه أنه فسّر الوسوسة في هذه الآية بأنها قول، وذلك في قوله ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ﴾. فالقول المذكور هو الوسوسة المذكورة. وقد أوضح هذا في سورة الأعراف وبيّن أنه وسوس إلى حواء أيضًا مع آدم، وذلك في قوله: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾ إلى قوله ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾[1]»[2].

(١) الأعراف: الآيتان (٢١-٢٢).

(٢) أضواء البيان (٤/ ١١٠).

وقال: «قوله تعالى: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ . . ما ذكره -جل وعلا- في آية (طه) هذه من ترتب بدو سوءاتهما على أكلهما من تلك الشجرة أوضحه في غير هذا الموضع، كقوله في الأعراف: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾[1]، وقوله فيها أيضًا: ﴿كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ﴾[2].

وقد دلّت الآيات المذكورة على أن آدم وحواء كانا في ستر من اللَّه يستر به سوءاتهما، وأنهما لما أكلا من الشجرة التي نهاهما ربهما عنها انكشف ذلك الستر بسبب تلك الزلة. فبدت سوءاتهما أي عوراتهما. وسميت العورة سوءة لأن انكشافها يسوء صاحبها، وصارا يحاولان ستر العورة بورق شجر الجنة، كما قال هنا: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾، وقال في الأعراف: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾[3]»[4].

وقال: «قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾؛ الاجتباء: الاصْطِفاء والاختيار. أي: ثم بعد ما صدر مِن آدم بمهلة اصطفاه ربه واختاره فتاب عليه وهداه إلى ما يُرضيه. ولم يبيِّن هنا السبب لذلك، ولكنه بيّن في غير هذا الموضع أنه تَلَقى مِن ربّه كلمات فكانت سبب توبة ربه عليه، وذلك في قوله: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾[5]، أي: بسبب تلك الكلمات كما تدّل عليه الفاء. وقد قدّمنا في سورة البقرة: أن الكلمات المذكورة هي المذكورة في سورة الأعراف في قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾[6]، وخير ما يفسّر به القرآن القرآن»[7].

قال السعدي: «﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾ أي: تصيبك الشمس بحرها، فضمن له استمرار الطعام والشراب، والكسوة، والماء، وعدم التعب والنصب، ولكنه نهاه عن أكل شجرة معينة فقال: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[8] فلم يزل الشيطان يوسوس لهما، ويزين

---

(١) الأعراف: الآية (٢٢).
(٢) الأعراف: الآية (٢٧).
(٣) الأعراف: الآية (٢٢).
(٤) أضواء البيان (٤/ ١١٣).
(٥) البقرة: الآية (٣٧).
(٦) الأعراف: الآية (٢٣).
(٧) أضواء البيان (٤/ ١١٩-١٢٠).
(٨) الأعراف: الآية (١٩).

أكل الشجرة، ويقول: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ﴾ أي: الشجرة التي من أكل منها خلد في الجنة. ﴿وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ أي: لا ينقطع إذا أكلت منها، فأتاه بصورة ناصح، وتلطف له في الكلام، فاغتر به آدم، فأكلا من الشجرة فسقط في أيديهما، وسقطت كسوتهما، واتضحت معصيتهما، وبدا لكل منهما سوأة الآخر، بعد أن كانا مستورين، وجعلا يخصفان على أنفسهما من ورق أشجار الجنة ليستترا بذلك، وأصابهما من الخجل ما الله به عليم.

﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ فبادرا إلى التوبة والإنابة، وقالا ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[1]، فاجتباه ربه، واختاره، ويسر له التوبة ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ فكان بعد التوبة أحسن منه قبلها، ورجع كيد العدو عليه، وبطل مكره، فتمت النعمة عليه وعلى ذريته، ووجب عليهم القيام بها والاعتراف، وأن يكونوا على حذر من هذا العدو المرابط الملازم لهم ليلا ونهارا، ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا ۗ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾[2]»[3].

قال ابن كثير: «﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾﴾ إنما قرن بين الجوع والعُرْي؛ لأن الجوع ذُلّ الباطن، والعري ذُلّ الظاهر.

﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾ وهذان أيضًا متقابلان، فالظمأ: حر الباطن، وهو العطش. والضحى: حر الظاهر.

وقوله: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾، قد تقدم أنه ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾[4]؛ ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾[5]. وقد تقدم أن الله تعالى أوحى إلى آدم وزوجته أن يأكلا من كل الثمار، ولا يقربا هذه الشجرة المعينة في الجنة. فلم يزل بهما إبليس حتى أكلا منها، وكانت شجرةَ الخلد يعني: التي من أكل منها خلد ودام مكثه»[6].

---

(١) الأعراف: الآية (٢٣).
(٢) الأعراف: الآية (٢٧).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ١٩٥-١٩٧).
(٤) الأعراف: الآية (٢٢).
(٥) الأعراف: الآية (٢١).
(٦) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣١٤).

قال الشوكاني: «﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾﴾ أي في الجنة. والمعنى: إن لك فيها تمتعًا بأنواع المعايش وتنعمًا بأصناف النعم من المآكل الشهية والملابس البهية، فإنه لما نفى عنه الجوع والعري أفاد ثبوت الشبع والاكتساء له، وهكذا قوله: ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾ فإن نفي الظمأ يستلزم حصول الريّ ووجود المسكن الذي يدفع عنه مشقة الضحو، يقال: ضحي الرجل يضحى ضحوًا: إذا برز للشمس فأصابه حرّها، فذكر سبحانه ها هنا أنه قد كفاه الاشتغال بأمر المعاش وتعب الكدّ في تحصيله، ولا ريب أن أصول المتاعب في الدنيا هي تحصيل الشبع والريّ والكسوة والكنّ، وما عدا هذه ففضلات يمكن البقاء بدونها، وهو إعلام من اللَّه سبحانه لآدم أنه إن أطاعه فله في الجنة هذا كله، وإن ضيع وصيته ولم يحفظ عهده أخرجه من الجنة إلى الدنيا فيحلّ به التعب والنصب بما يدفع الجوع والعري والظمأ والضحو. فالمراد بالشقاء شقاء الدنيا، كما قاله كثير من المفسرين، لا شقاء الأخرى»[١].

قال الرازي: «واعلم أن واقعة آدم عجيبة؛ وذلك لأن اللَّه تعالى رغبه في دوام الراحة وانتظام المعيشة بقوله: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ ورغبه إبليس أيضًا في دوام الراحة بقوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ﴾، وفي انتظام المعيشة بقوله: ﴿وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ فكان الشيء الذي رغب اللَّه آدم فيه هو الذي رغبه إبليس فيه، إلا أن اللَّه تعالى وقف ذلك على الاحتراس عن تلك الشجرة، وإبليس وقفه على الإقدام عليها.

ثم إن آدم ﷺ مع كمال عقله وعلمه بأن اللَّه تعالى مولاه وناصره ومربيه أعلمه بأن إبليس عدوه حيث امتنع من السجود له وعرض نفسه للعنة بسبب عداوته، كيف قبل في الواقعة الواحدة -والمقصود الواحد- قول إبليس مع علمه بكمال عداوته له، وأعرض عن قول اللَّه تعالى مع علمه بأنه هو الناصر والمربي. ومن تأمل في هذا الباب طال تعجبه، وعرف آخر الأمر أن هذه القصة كالتنبيه على أنه لا دافع لقضاء اللَّه ولا مانع منه، وأن الدليل وإن كان في غاية الظهور ونهاية القوة، فإنه لا يحصل النفع به إلا إذا قضى اللَّه تعالى ذلك وقدره»[٢].

---

(١) فتح القدير (٣/ ٥٥٠-٥٥١).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٢/ ١٢٧).

قال القرطبي في معرض كلامه على ذنوب الأنبياء: «وقال بعض المتأخرين من علمائنا والذي ينبغي أن يقال: إن اللَّه تعالى قد أخبر بوقوع ذنوب من بعضهم، ونسبها إليهم، وعاتبهم عليها، وأخبروا بذلك عن نفوسهم وتنصلوا منها، واستغفروا منها وتابوا، وكل ذلك ورد في مواضع كثيرة لا يقبل التأويل جملتها، وإن قبل ذلك آحادها، وكل ذلك مما لا يزري بمناصبهم، وإنما تلك الأمور التي وقعت منهم على جهة الندور، وعلى جهة الخطأ والنسيان، أو تأويل دعا إلى ذلك، فهي بالنسبة إلى غيرهم حسنات، وفي حقهم سيئات بالنسبة إلى مناصبهم، وعلو أقدارهم، إذ قد يؤاخذ الوزير بما يثاب عليه السائس، فأشفقوا من ذلك في موقف القيامة، مع علمهم بالأمن والأمان والسلامة.

قال: وهذا هو الحق. ولقد أحسن الجنيد حيث قال: حسنات الأبرار سيئات المقربين، فهم -صلوات اللَّه وسلامه عليهم- وإن كانوا قد شهدت النصوص بوقوع ذنوب منهم، فلم يخل ذلك بمناصبهم، ولا قدح في رتبتهم، بل قد تلافاهم، واجتباهم وهداهم، ومدحهم وزكاهم واختارهم واصطفاهم، صلوات اللَّه عليهم وسلامه»[1].

قال الشنقيطي: «الذي يظهر لنا أنه الصواب في هذه المسألة: أن الأنبياء صلوات اللَّه وسلامه عليهم لم يَقع منهم ما يزري بمراتبهم العَلِيّة، ومناصبهم الساميَة. ولا يستوجب خطأ منهم ولا نقصًا فيهم صَلوات اللَّه وسلامه عليهم، ولو فَرَضْنا أنه وقع منهم بعض الذنوب؛ لأنهم يتداركون ما وقع منهم بالتوبة، والإخلاص، وصِدق الإنابة إلى اللَّه حتى ينالوا بذلك أعلى درجاتهم، فتكون بذلك درجاتهم أعلى من درجة من لم يرتكب شيئًا من ذلك. ومِما يوضح هذا قوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۞ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾. فانظر أي أثر يبقى لِلعِصْيان والغي بعد توبة اللَّه عليه، واجتبائه أي اصطفائه إياه، وهِدايته له، ولا شكّ أن بعض الزلات ينال صاحبها بالتوبة منها درجة أعلى من درجته قبل ارتكاب تلك الزلة. والعلم عند اللَّه تعالى»[2].

* * *

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١١/ ١٦٩).

(٢) أضواء البيان (٤/ ١١٩).

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًاۢ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾

★ غريب الآية:

ضَنكًا: الضنك: الضيق والشدة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾.

الظاهر أن الخطاب لبني آدم. أي: فإن يأتكم مني هُدَى أي: رسول أرسله إليكم، وكتاب يأتي به رسول، فمن اتّبع منكم هداي أي: من آمن برسلي وصدق بكتبي، وامتثل ما أمرت به، واجتنب ما نهيت عنه على ألسنة رسلي. فإنه لا يضل في الدنيا، أي لا يزيغ عن طريق الحق لاستمساكه بالعُروة الوثقى، ولا يشقى في الآخرة لأنه كان في الدنيا عاملًا بما يستوجب السعادة من طاعة اللَّه تعالى وطاعة رسله. وهذا المعنى المذكور هنا ذُكر في غير هذا الموضع. كقوله في البقرة ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1] ونحو ذلك من الآيات. وفي هذه الآيات دليل على أن اللَّه بعد أن أخرج أبوينا من الجنة لا يرد إليها أحدًا منا إلا بعد الابتلاء والامتحان بالتكاليف من الأوامر والنواهي، ثم يطيع اللَّه فيما ابتلاه به»[2].

---

(١) البقرة: الآية (٣٨).
(٢) أضواء البيان (٤/ ١٢٥).

وقال: «قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾. . واختلف العلماء في المراد بهذا العيش الضيق على أقوال متقاربة، لا يكذب بعضها بعضًا. وقد قدّمنا مرارًا: أن الأولى في مثل ذلك شمول الآية لجميع الأقوال المذكورة. ومن الأقوال في ذلك: أن معنى ذلك أن اللَّه ﷻ جعل مع الدين التسليم والقناعة، والتوكّل على اللَّه، والرضا بقسمته فصاحبه ينفق مما رزقه اللَّه بسماح وسهولة، فيعيش عيشًا هنيئًا. ومما يدّل على هذا المعنى من القرآن قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾[2]، كما تقدم إيضاح ذلك كله.

وأما المعرض عن الدين فإنه يستولي عليه الحرص الذي لا يزال يطمح به إلى الازدياد من الدنيا مسلط عليه الشحّ الذي يقبض يده عن الإنفاق، فعيشه ضنك، وحاله مظلمة. ومن الكفرة من ضرب اللَّه عليه الذلة والمسكنة بسبب كفره، كما قال تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾[3]. وذلك من العيش الضنك بسبب الإعراض عن ذكر اللَّه.

وبيّن في مواضع أخر أنهم لو تركوا الإعراض عن ذكر اللَّه فأطاعوه تعالى: أن عيشهم يصير واسعًا رغدًا لا ضنكًا، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾[5]، وكقوله تعالى عن نوح: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾﴾[6]، وقوله تعالى عن هود: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾[7]، وقوله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ﴾[8]، إلى غير ذلك من الآيات.

---

(١) النحل: الآية (٩٧).
(٢) هود: الآية (٣).
(٣) البقرة: الآية (٦١).
(٤) المائدة: الآية (٦٦).
(٥) الأعراف: الآية (٩٦).
(٦) نوح: الآيات (١٠-١٢).
(٧) هود: الآية (٥٢).
(٨) الجن: الآيتان (١٦-١٧).

وعن الحسن أن المعيشة الضنك: هي طعام الضريع والزَّقُّوم يوم القيامة وذلك مذكور في آيات من كتاب اللَّه تعالى، كقوله: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝﴾[1]، وقوله: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ۝ طَعَامُ الْأَثِيمِ ۝﴾[2]، الآية ونحو ذلك من الآيات. وعن عكرمة والضحاك ومالك بن دينار: المعيشة الضنك: الكسب الحرام، والعمل السيِّيء. وعن أبي سعيد الخدري وعبداللَّه بن مسعود وأبي هريرة: المعيشة الضنك: عذاب القبر وضغطته. وقد أشار تعالى إلى فتنة القبر وعذابه في قوله: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ۝﴾[3].

قال مقيّده -عفا اللَّه عنه وغفر له-: قد جاء عن النَّبي ﷺ من حديث أبي هريرة: أن المعيشة الضنك في الآية: عذاب القبر. وبعض طرقه بإسناد جيّد كما قاله ابن كثير في تفسير هذه الآية. ولا ينافي ذلك شمول المعيشة الضنك لمعيشته في الدنيا. وطعام الضريع والزَّقُّوم. فتكون معيشته ضنكًا في الدنيا والبرزخ والآخرة، والعياذ باللَّه تعالى»[4].

وقال: «قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾؛ ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أن من أعرض عن ذكره يحشره يوم القيامة في حال كونه أعمى. قال مجاهد وأبو صالح والسدي: أعمى أي لا حجَّة له. وقال عكرمة: عمي عليه كل شيء إلا جهنم. وقد قدّمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك: أن من أنواع البيان التي تضمنها أن يقول بعض العلماء في الآية قولًا، ويكون في نفس الآية قرينة تدّل على خلاف ذلك القول. وقد ذكرنا أمثلة متعددة لذلك. فإذا علمت ذلك فاعلم: أن في هذه الآية الكريمة قرينة دالة على خلاف قول مجاهد وأبي صالح والسدي وعكرمة. وأن المراد بقوله: ﴿أَعْمَىٰ﴾ أي: أعمى البصر لا يرى شيئًا. والقرينة المذكورة هي قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۝﴾ فصرّح بأن عماه هو العمى المقابل للبصر وهو بصر العين، لأن الكافر كان في الدنيا أعمى القلب كما دلّت على ذلك آيات كثيرة من كتاب اللَّه، وقد زاد -جل وعلا- في سورة بني إسرائيل أنه مع ذلك العمى يحشر أصمّ أبكم أيضًا، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَن

---

(١) الغاشية: الآية (٦).
(٢) الدخان: الآيتان (٤٣-٤٤).
(٣) إبراهيم: الآية (٢٧).
(٤) أضواء البيان (٤/ ١٢٦-١٢٧).

يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّاۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾﴾[1]»[2].

قال السعدي: «يخبر تعالى أنه أمر آدم وإبليس أن يهبطا إلى الأرض، وأن يتخذ آدم وبنوه الشيطان عدوا لهم، فيأخذوا الحذر منه، ويعدوا له عدته ويحاربوه، وأنه سينزل عليهم كتبا، ويرسل إليهم رسلا يبينون لهم الطريق المستقيم الموصلة إليه وإلى جنته، ويحذرونهم من هذا العدو المبين، وأنهم أي وقت جاءهم ذلك الهدى، الذي هو الكتب والرسل، فإن من اتبعه اتبع ما أمر به، واجتنب ما نهي عنه، فإنه لا يضل في الدنيا ولا في الآخرة، ولا يشقى فيهما، بل قد هدي إلى صراط مستقيم، في الدنيا والآخرة، وله السعادة والأمن في الآخرة.

وقد نفى عنه الخوف والحزن في آية أخرى، بقوله: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[3]، واتباع الهدى، بتصديق الخبر، وعدم معارضته بالشبه، وامتثال الأمر بأن لا يعارضه بشهوة.

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى﴾ أي: كتابي الذي يتذكر به جميع المطالب العالية، وأن يتركه على وجه الإعراض عنه، أو ما هو أعظم من ذلك، بأن يكون على وجه الإنكار له، والكفر به ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ أي: فإن جزاءه، أن نجعل معيشته ضيقة مشقة، ولا يكون ذلك إلا عذابا.

وفسرت المعيشة الضنك بعذاب القبر، وأنه يضيق عليه قبره، ويحصر فيه ويعذب، جزاء لإعراضه عن ذكر ربه، وهذه إحدى الآيات الدالة على عذاب القبر. والثانية قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾[4] الآية. والثالثة قوله: ﴿مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾[5] والرابعة قوله عن آل فرعون: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾[6] الآية.

والذي أوجب لمن فسرها بعذاب القبر فقط من السلف، وقصرها على ذلك -والله أعلم- آخر الآية، وأن الله ذكر في آخرها عذاب يوم القيامة. وبعض

---

(١) الإسراء: الآية (٩٧).
(٢) أضواء البيان (٤/ ١٢٧-١٢٨).
(٣) البقرة: الآية (٣٨).
(٤) الأنعام: الآية (٩٣).
(٥) السجدة: الآية (٢١).
(٦) غافر: الآية (٤٦).

المفسرين يرى أن المعيشة الضنك عامة في دار الدنيا بما يصيب المعرض عن ذكر ربه من الهموم والغموم والآلام، التي هي عذاب معجل، وفي دار البرزخ، وفي الدار الآخرة، لإطلاق المعيشة الضنك، وعدم تقييدها. ﴿وَنَحْشُرُهُۥ﴾ أي: هذا المعرض عن ذكر ربه ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ البصر على الصحيح، كما قال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾[1].

قال على وجه الذل والمراجعة والتألم والضجر من هذه الحالة: ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ﴾ في دار الدنيا ﴿بَصِيرًا﴾ فما الذي صيرني إلى هذه الحالة البشعة. ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا﴾ بإعراضك عنها ﴿وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ أي: تترك في العذاب، فأجيب، بأن هذا هو عين عملك، والجزاء من جنس العمل، فكما عميت عن ذكر ربك، وعشيت عنه ونسيته ونسيت حظك منه، أعمى الله بصرك في الآخرة، فحشرت إلى النار أعمى، أصم، أبكم، وأعرض عنك، ونسيك في العذاب»[2].

قال ابن كثير: «﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى﴾ أي: خالف أمري، وما أنزلته على رسولي، أعرض عنه وتناساه وأخذ من غيره هداه ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ أي: في الدنيا، فلا طمأنينة له، ولا انشراح لصدره، بل صدره ضيق حَرَج لضلاله، وإن تَنَعَّم ظاهره، ولبس ما شاء وأكل ما شاء، وسكن حيث شاء، فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى، فهو في قلق وحيرة وشك، فلا يزال في ريبة يتردد. فهذا من ضنك المعيشة»[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في إثبات عذاب القبر

* عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في قوله: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ قال: «عذاب القبر»[4].

---

(١) الإسراء: الآية (٩٧).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ١٩٧-١٩٩).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣١٦).
(٤) أخرجه: البزار كما في تفسير ابن كثير (٥/ ٣١٧)، والبيهقي في «إثبات عذاب القبر» حديث (٦٩)، (٧٠)، والحاكم (١/ ٣٨١)، وابن حبان (الإحسان ٧/ ٣٨٨-٣٨٩/ ٣١١٩)، وقال ابن كثير في التفسير (٥/ ٣١٧): «إسناده جيد». وفي الباب عن أبي سعيد الخدري مرفوعا أخرجه: البيهقي في «إثبات عذاب القبر» حديث (٧١)، و الحاكم (٢/ ٣٨١) وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد فسرت المعيشة الضنك بعذاب القبر، ولا ريب أنه من المعيشة الضنك، والآية تتناول ما هو أعم منه، وإن كانت نكرة في سياق الإثبات، فإن عمومها من حيث المعنى، فإنه سبحانه رتب المعيشة الضنك على الإعراض عن ذكره.

فالمعرض عنه له من ضنك المعيشة بحسب إعراضه، وإن تنعم في الدنيا بأصناف النعم، ففي قلبه من الوحشة والذل والحسرات التي تقطع القلوب والأماني الباطلة والعذاب الحاضر ما فيه، وإنما تتوارى عند سكرات الشهوات والعشق وحب الدنيا والرياسة، إن لم ينضم إلى ذلك سكر الخمر، فسكر هذه الأمور أعظم من سكر الخمر. فإنه يفيق صاحبه ويصحو، وسكر الهوى وحب الدنيا لا يصحو صاحبه إلا إذا سكر في عسكر الأموات، فالمعيشة الضنك لازمة لمن أعرض عن ذكر اللَّه الذي أنزله على رسوله ﷺ في دنياه، وفي البرزخ ويوم معاده ولا تقر العين ولا يهدأ القلب ولا تطمئن النفس إلا بإلهها ومعبودها الذي هو حق، وكل معبود سواه باطل.

فمن قرت عينه باللَّه قرت به كل عين، ومن لم تقر عينه باللَّه تقطعت نفسه على الدنيا حسرات. واللَّه تعالى إنما جعل الحياة الطيبة لمن آمن باللَّه وعمل صالحًا كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾[1]، فضمن لأهل الإيمان والعمل الصالح الجزاء في الدنيا بالحياة الطيبة والحسنى يوم القيامة»[2].

* * *

---

(١) النحل: الآية (٩٧).

(٢) الجواب الكافي (ص: ١٠٦).

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ١٢٧﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ﴾؛ ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أنه يجازي المسرفين ذلك الجزاء المذكور. وقد دلّ مسلك الإيماء والتنبيه على أن ذلك الجزاء لعلة إسرافهم على أنفسهم في الطغيان والمعاصي، وبيّن في غير هذا الموضع أن جزاء الإسراف النار، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾[1]، وبيّن في موضع آخر: أن محل ذلك إذا لم يُنيبوا إلى اللّه ويتوبوا إليه، وذلك في قوله: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ﴾[2]، إلى قوله: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ﴾[3].

قوله تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾؛ ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أن عذاب الآخرة أشدّ وأبقى. أي: أشدّ ألمًا وأدوم من عذاب الدنيا، ومن المعيشة الضنك التي هي عذاب القبر. وقد أوضح هذا المعنى في غير هذا الموضع؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾[4]، وقوله تعالى ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾[6]، إلى غير ذلك من الآيات»[7].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وهكذا نجزي، أي نثيب من أسرف فعصى ربه، ولم يؤمن برسله وكتبه، فنجعل له معيشة ضنكا في البرزخ كما قد بيّنا

---

(١) غافر: الآية (٤٣).
(٢) الزمر: الآية (٥٣).
(٣) الزمر: الآية (٥٤).
(٤) الرعد: الآية (٣٤).
(٥) فصلت: الآية (١٦).
(٦) القلم: الآية (٣٣).
(٧) أضواء البيان (٤/ ١٢٩-١٣٠).

قبل، ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ يقول -جلّ ثناؤه-: ولعذاب في الآخرة أشدّ لهم مما وعدتهم في القبر من المعيشة الضنك وأبقى، يقول: وأدوم منها، لأنه إلى غير أمد ولا نهاية»[١].

قال السعدي: «﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: هذا الجزاء ﴿نَجْزِى﴾ به ﴿مَنْ أَسْرَفَ﴾ بأن تعدى الحدود، وارتكب المحارم وجاوز ما أذن له، ﴿وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾ الدالة على جميع مطالب الإيمان دلالة واضحة صريحة، فاللَّه لم يظلمه ولم يضع العقوبة في غير محلها، وإنما السبب إسرافه وعدم إيمانه.

﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَدُّ﴾ من عذاب الدنيا أضعافا مضاعفة ﴿وَأَبْقَىٰٓ﴾ لكونه لا ينقطع، بخلاف عذاب الدنيا فإنه منقطع، فالواجب الخوف والحذر من عذاب الآخرة»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة

* عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال للمُلاَعِن: . . وأخبره أن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة[٣].

★ فوائد الحديث:

قال ابن تيمية: «قد أخبر سبحانه بما عاقب به أهل السيئات من الأمم كقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب مدين وقوم فرعون في الدنيا، وأخبر بما يعاقبهم به في الآخرة، ولهذا قال مؤمن آل فرعون: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ﴾[٥]، وقال: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ

---

(١) جامع البيان (١٦/ ٢٨٠). (٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ١٩٩-٢٠٠).
(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ١٩)، ومسلم (٢/ ١١٣٠-١١٣١/ ١٤٩٣)، والترمذي (٣/ ٥٠٦-٥٠٧/ ١٢٠٢)، والنسائي (٦/ ٤٨٦-٤٨٧/ ٣٤٧٣). (٤) غافر: الآيات (٣٠-٣٣).
(٥) القلم: الآية (٣٣).

ﵟثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍﵞ[١]، وقال: ﵟوَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَﵞ[٢] وقال: ﵟفَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠ﵞ إلى قوله: ﵟيَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَﵞ[٣]، ولهذا يذكر اللَّه في عامة سور الإنذار ما عاقب به أهل السيئات في الدنيا، وما أعده لهم في الآخرة، وقد يذكر في السورة وعد الآخرة فقط، إذ عذاب الآخرة أعظم، وثوابها أعظم، وهي دار القرار»[٤].

قلت: رحم اللَّه ابن تيمية على هذا البيان العظيم الذي فيه واقع عذاب الآخرة، وأنه هو العذاب، فمهما وقع في الدنيا من مكابدة ومشقة وعناء وتعب، ومهما طبق على الإنسان من الحدود؛ فحُدّ إما بالجلد، وإما بالرجم، وإما بالقتل؛ فإنه بالمقارنة مع عذاب الآخرة سهل ويسير. فنرجو اللَّه أن يقينا العذابين الدنيوي والأخروي، وأن يعافينا منهما، فإننا ضعفاء مستغيثون به، محتاجون إلى عفوه ولطفه ورحمته، ومستعيذون به من عذابه وأليم عقابه.

* * *

(١) التوبة: الآية (١٠١).

(٢) السجدة: الآية (٢١).

(٣) الدخان: الآيات (١٠-١٦).

(٤) مجموع الفتاوى (٢٨/ ١٣٩).

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: أفلم يهد لقومك المشركين بالله، ومعنى يهد: يبين. يقول: أفلم يبين لهم كثرة ما أهلكنا قبلهم من الأمم التي سلكت قبلها التي يمشون في مساكنهم ودورهم، ويرون آثار عقوباتنا التي أحللناها بهم سوء مغبة ما هم عليه مقيمون من الكفر بآياتنا، ويتعظوا بهم، ويعتبروا، وينيبوا إلى الإذعان، ويؤمنوا بالله ورسوله، خوفا أن يصيبهم بكفرهم بالله مثل ما أصابهم..

وقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾ يقول -تعالى ذكره-: إن فيما يعاين هؤلاء ويرون من آثار وقائعنا بالأمم المكذّبة رسلها قبلهم، وحلول مثلاتنا بهم لكفرهم بالله ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ يقول: لدلالات وعبرا وعظات ﴿لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾ يعني: لأهل الحجى والعقول، ومن ينهاه عقله وفهمه ودينه عن مواقعة ما يضره»[١].

قال ابن كثير: «يقول تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ﴾ لهؤلاء المكذبين بما جئتهم به يا محمد، كم أهلكنا من الأمم المكذبين بالرسل قبلهم، فبادوا فليس لهم باقية ولا عين ولا أثر، كما يشاهدون ذلك من ديارهم الخالية التي خلفوهم فيها، يمشون فيها، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾ أي: العقول الصحيحة والألباب المستقيمة، كما قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾[٢]، وقال في سورة الم السجدة: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾﴾[٣]»[٤].

---

(١) جامع البيان (١٦/ ٢٣١).
(٢) الحج: الآية (٤٦).
(٣) السجدة: الآية (٢٦).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣١٨).

قال السعدي: «أي: أفلم يهد لهؤلاء المكذبين المعرضين، ويدلهم على سلوك طريق الرشاد، وتجنب طريق الغي والفساد، ما أحل اللّٰه بالمكذبين قبلهم، من القرون الخالية، والأمم المتتابعة، الذين يعرفون قصصهم، ويتناقلون أسمارهم، وينظرون بأعينهم مساكنهم من بعدهم، كقوم هود وصالح ولوط وغيرهم، وأنهم لما كذبوا رسلنا، وأعرضوا عن كتبنا، أصبناهم بالعذاب الأليم؟

فما الذي يؤَمِّن هؤلاء أن يحل بهم ما حل بأولئك؟ ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾﴾[1]، لا شيء من هذا كله، فليس هؤلاء الكفار خيرا من أولئك حتى يدفع عنهم العذاب بخيرهم؛ بل هم شر منهم؛ لأنهم كفروا بأشرف الرسل وخير الكتب، وليس لهم براءة مزبورة، وعهد عند اللّٰه، وليسوا كما يقولون إن جمعهم ينفعهم ويدفع عنهم، بل هم أذل وأحقر من ذلك، فإهلاك القرون الماضية بذنوبهم من أسباب الهداية لكونها من الآيات الدالة على صحة رسالة الرسل الذين جاءوهم، وبطلان ما هم عليه، ولكن ما كل أحد ينتفع بالآيات، إنما ينتفع بها أولو النهى، أي العقول السليمة والفطر المستقيمة والألباب التي تزجر أصحابها عما لا ينبغي»[2].

* * *

(١) القمر: الآيتان (٤٣-٤٤).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٠٠-٢٠١).

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: لولا الكلمة السابقة من اللَّه وهو أنه لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه، والأجل المسمى الذي ضربه اللَّه تعالى لهؤلاء المكذبين إلى مدة معينة لجاءهم العذاب بغتة»[1].

قال السعدي: «هذه تسلية للرسول، وتصبير له عن المبادرة إلى إهلاك المكذبين المعرضين، وأن كفرهم وتكذيبهم سبب صالح لحلول العذاب بهم، ولزومه لهم؛ لأن اللَّه جعل العقوبات سببًا وناشئًا عن الذنوب، ملازمًا لها، وهؤلاء قد أتوا بالسبب، ولكن الذي أخره عنهم كلمة ربك المتضمنة لإمهالهم وتأخيرهم، وضرب الأجل المسمى، فالأجل المسمى ونفوذ كلمة اللَّه، هو الذي أخر عنهم العقوبة إلى إبان وقتها، ولعلهم يراجعون أمر اللَّه فيتوب عليهم، ويرفع عنهم العقوبة إذا لم تحق عليهم الكلمة»[2].

* * *

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣١٨).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٠١).

قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي: من تكذيبهم لك، ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ يعني: صلاة الفجر، ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ يعني: صلاة العصر. وقوله: ﴿وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ﴾ أي: من ساعاته فتهجد به. وحمله بعضهم على المغرب والعشاء، ﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ في مقابلة آناء الليل، ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾[(1)]»[(2)].

قال السعدي: «أمر الله رسوله بالصبر على أذيتهم بالقول، وأمره أن يتعوض عن ذلك، ويستعين عليه بالتسبيح بحمد ربه، في هذه الأوقات الفاضلة، قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، وفي أطراف النهار، أوله وآخره، عموم بعد خصوص، وأوقات الليل وساعاته، ولعلك إن فعلت ذلك ترضى بما يعطيك ربك من الثواب العاجل والآجل، وليطمئن قلبك، وتقر عينك بعبادة ربك، وتتسلى بها عن أذيتهم، فيخف حينئذ عليك الصبر»[(3)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل صلاتي الصبح والعصر ورضى الله ﷻ عن عباده المؤمنين

* عن عمارة بن رؤيبة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لن يلج النار أحد صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها**»، يعني الفجر والعصر. فقال له رجل من أهل البصرة: آنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. قال الرجل: وأنا أشهد أني سمعته من رسول الله ﷺ سمعته أذناي ووعاه قلبي[(4)].

---

(١) الضحى: الآية (٥).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣١٨-٣١٩).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٠١-٢٠٢).
(٤) أخرجه: أحمد (٤/ ١٣٦)، ومسلم (١/ ٤٤٠/ ٦٣٤)، وأبو داود (١/ ٢٩٧/ ٤٢٧)، والنسائي (١/ ٢٥٤/ ٤٧٠).

★ **فوائد الحديث:**

قوله: «لن يلج النار أحد صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها»: «يعني: الفجر والعصر. أي: لن يدخل النار من عاهد وحافظ على هاتين الصلاتين ببركة المداومة عليهما، والله أعلم»[١].

* عن أبي موسى أن النبي ﷺ قال: **«من صلى البردين دخل الجنة»**[٢].

★ **فوائد الحديث:**

قال الخطابي: «يريد بالبردين: صلاتي الفجر والعصر، وذلك لأنهما تصليان في بردي النهار، وهما طرفاه حين يطيب الهواء وتذهب سورة الحر»[٣]

قال الحافظ: «قال البزار في توجيه اختصاص هاتين الصلاتين بدخول الجنة دون غيرهما من الصلوات ما محصله: إن من موصولة لا شرطية، والمراد الذين صلوهما أول ما فرضت الصلاة ثم ماتوا قبل فرض الصلوات الخمس، لأنها فرضت أولا ركعتين بالغداة وركعتين بالعشي، ثم فرضت الصلوات الخمس، فهو خبر عن ناس مخصوصين لا عموم فيه. قلت: ولا يخفى ما فيه من التكلف، والأوجه أن (من) في الحديث شرطية. وقوله: (دخل) جواب الشرط، وعدل عن الأصل وهو فعل المضارع كأن يقول يدخل الجنة إرادة للتأكيد في وقوعه بجعل ما سيقع كالواقع»[٤]

* عن جرير بن عبدالله ﷺ قال: كنا عند النبي ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر فقال: **«أما إنكم سترون ربكم كما ترون هذا لا تضامون -أو لا تضاهون- في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا. ثم قال: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾»**[٥][٦].

---

(١) المفهم (٢/ ٢٦٢).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٨٠). والبخاري (٢/ ٦٦/ ٥٧٤)، ومسلم (١/ ٤٤٠/ ٦٣٥).

(٣) أعلام الحديث (١/ ٤٤٨).

(٤) الفتح (٢/ ٦٧).

(٥) طه: الآية (١٣٠).

(٦) أخرجه البخاري (٢/ ٦٦/ ٥٧٣) ومسلم (١/ ٤٣٩/ ٦٣٣). وأبو داود (٥/ ٩٧-٩٨/ ٤٧٢٩). وابن ماجه (١/ ٦٣/ ١٧٧). والنسائي في الكبرى (٤/ ٤١٩/ ٧٧٦٢).

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن بطال: «في حديث جرير فضل المبادرة والمحافظة على صلاة الصبح والعصر وأن بذلك تنال رؤية اللَّه تعالى يوم القيامة، وإنما خصتا بالذكر والتأكيد لفضلهما باجتماع ملائكة الليل وملائكة النهار فيها، وهو معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾[(١)]»[(٢)].

* عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«إن اللَّه -تبارك وتعالى- يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة. فيقولون: لبيك ربنا وسعديك. فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك. فيقول: أنا أعطيكم أفضل من ذلك. قالوا: يا رب وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدًا»**[(٣)].

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ: «قوله: «رضواني» بكسر أوله وضمه، وفي حديث جابر قال «رضواني أكبر» وفيه تلميح بقوله تعالى: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾[(٤)] لأن رضاه سبب كل فوز وسعادة، وكل من علم أن سيده راض عنه كان أقر لعينه وأطيب لقلبه من كل نعيم لما في ذلك من التعظيم والتكريم. وفي هذا الحديث أن النعيم الذي حصل لأهل الجنة لا مزيد عليه»[(٥)].

قال ابن أبي جمرة: «ظاهر الحديث يدل على أن فضل نعيم الآخرة دوام رضى المولى سبحانه عن عبيده المؤمنين أهل دار كرامته»[(٦)].

وقال: «وفيه دليل على أن الخير كله إنما هو في رضى المولى ﷻ، وأن دونه من النعيم على اختلاف أنواعه في كلا الدارين إنما هو من أثر ذلك الخير، وهو النعيم الحقيقي»[(٧)].

---

(١) الإسراء: الآية (٧٨). (٢) شرح البخاري (٢/ ١٩٩).

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٨٨) والبخاري (١١/ ٥٠٦-٥٠٧/ ٦٥٤٩) ومسلم (٤/ ٢١٧٦/ ٢٨٢٩) والترمذي (٤/ ٥٩٥/ ٢٥٥٥) والنسائي في الكبرى (٤/ ٤١٦/ ٧٧٤٩).

(٤) التوبة: الآية (٧٢). (٥) فتح الباري (١١/ ٥١٥).

(٦) بهجة النفوس (٤/ ٢٨٨).

(٧) بهجة النفوس (٤/ ٢٩٠).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: ولا تنظر إلى ما جعلنا لضرباء هؤلاء المعرضين عن آيات ربهم وأشكالهم، متعة في حياتهم الدنيا، يتمتعون بها، من زهرة عاجل الدنيا ونضرتها ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ يقول: لنختبرهم فيما متعناهم به من ذلك، ونبتليهم، فإن ذلك فانٍ زائل، وغُرور وخدع تضمحلّ، ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ﴾ الذي وعدك أن يرزقكه في الآخرة حتى ترضى، وهو ثوابه إياه ﴿خَيْرٌ﴾ لك مما متعناهم به من زهرة الحياة الدنيا، ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ يقول: وأدوم؛ لأنه لا انقطاع له ولا نفاد»[1].

قال السعدي: «أي: لا تمد عينيك معجبا، ولا تكرر النظر مستحسنا إلى أحوال الدنيا والممتعين بها، من المآكل والمشارب اللذيذة، والملابس الفاخرة، والبيوت المزخرفة، والنساء المجملة، فإن ذلك كله زهرة الحياة الدنيا، تبتهج بها نفوس المغترين، وتأخذ إعجابا بأبصار المعرضين، ويتمتع بها -بقطع النظر عن الآخرة- القوم الظالمون، ثم تذهب سريعا، وتمضي جميعا، وتقتل محبيها وعشاقها، فيندمون حيث لا تنفع الندامة، ويعلمون ما هم عليه إذا قدموا يوم القيامة، وإنما جعلها اللّه فتنة واختبارا، ليعلم من يقف عندها ويغتر بها، ومن هو أحسن عملا؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾[2]، ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ﴾ العاجل من العلم والإيمان وحقائق الأعمال الصالحة، والآجل من النعيم المقيم والعيش السليم في جوار الرب الرحيم ﴿خَيْرٌ﴾ مما متعنا به أزواجا في ذاته وصفاته ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ لكونه

(١) جامع البيان (١٦/ ٢٣٥).
(٢) الكهف: الآية (٧-٨).

لا ينقطع، أكلها دائم وظلها كما قال تعالى ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾[١].

وفي هذه الآية إشارة إلى أن العبد إذا رأى من نفسه طموحا إلى زينة الدنيا وإقبالا عليها أن يذكر ما أمامها من رزق ربه، وأن يوازن بين هذا وهذا»[٢].

قال الرازي: «في قوله: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ وجهان: أحدهما: المراد منه نظر العين، وهؤلاء قالوا: مد النظر تطويله وأن لا يكاد يرده استحسانًا للمنظور إليه إعجابًا به كما فعل نظارة قارون حيث قالوا: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[٣] حتى واجههم أولوا العلم والإيمان بقولهم: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾[٤]، وفيه أن النظر غير الممدود معفو عنه، وذلك كما إذا نظر الإنسان إلى شيء مرة ثم غض، ولما كان النظر إلى الزخارف كالمركوز في الطباع قيل: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ أي لا تفعل ما أنت معتاد له. ولقد شدد المتقون في وجوب غض البصر عن أبنية الظلمة وعُدَد الفسقة في اللباس والمركوب وغير ذلك؛ لأنهم اتخذوا هذه الأشياء لعيون النظارة، فالناظر إليها محصل لغرضهم وكالمقوي لهم على اتخاذها. القول الثاني: قال أبو مسلم: الذي نهى عنه بقوله: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ ليس هو النظر، بل هو الأسف، أي لا تأسف على ما فاتك مما نالوه من حظ الدنيا»[٥].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في ذم الدنيا والتسابق إلى زهرتها

* عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إن أكثر ما أخاف عليكم ما يخرج اللَّه لكم من بركات الأرض**»، قيل: وما بركات الأرض؟ قال: «**زهرة الدنيا**» فقال له رجل: هل يأتي الخير بالشر؟ فصمت النبي ﷺ حتى ظننت أنه ينزل عليه، ثم جعل يمسح عن جبينه. فقال: «**أين السائل؟**» قال: أنا. قال أبو سعيد: لقد حمدناه حين طلع لذلك. قال: «**لا يأتي الخير إلا بالخير، إن هذا المال خضرة حلوة، وإنَّ كل ما أنبت الربيع يقتل حبطا، أو يلمّ، إلا آكلة الخضرة أكلت حتى إذا امتدت خاصرتاها استقبلت الشمس فاجترت وثلطت وبالت ثم عادت**

---

(١) الأعلى: الآيتان (١٦-١٧).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٠٢).
(٣) القصص: الآية (٧٩).
(٤) القصص: الآية (٨٠).
(٥) مفاتيح الغيب (٢٢/ ١٣٦).

فأكلت، وإن هذا المال حلوة، من أخذه بحقه، ووضعه في حقه، فنعم المعونة هو. ومن أخذه بغير حقه كان كالذي يأكل ولا يشبع»[1].

★ **غريب الحديث:**

زهرة الدنيا: بفتح الزاي وسكون الهاء أي الزينة والبهجة.

حَبَطًا: بفتح المهملة والموحدة والطاء المهملة، والحبط انتفاخ البطن من كثرة الأكل.

يُلِمّ: بضم أوله أي يقرب من الهلاك.

آكلة الخضر: بالمد وكسر الكاف، والخضر بفتح الخاء وكسر الضاد هو ضرب من الكلأ يعجب الماشية.

اجترت: أي استرفعت ما أدخلته في كرشها من العلف فأعادت مضغه.

ثَلَطَت: أي ألقت ما في بطنها رقيقا.

★ **فوائد الحديث:**

قال النووي: «وأما قوله ﷺ: **«ما أخشى عليكم أيها الناس إلا ما يخرج اللَّه لكم من زهرة الدنيا، فقال رجل: يا رسول اللَّه أيأتي الخير بالشر؟ فقال له رسول اللَّه ﷺ: إن الخير لا يأتي إلا بخير أو خير هو»** فمعناه: أنه ﷺ حذرهم من زهرة الدنيا وخاف عليهم منها، فقال هذا الرجل: إنما يحصل ذلك لنا من جهة مباحة كغنيمة وغيرها، وذلك خير، وهل يأتي الخير بالشر؟ وهو استفهام إنكار واستبعاد، أي يبعد أن يكون الشيء خيرا ثم يترتب عليه شر، فقال له النبي ﷺ: أما الخير الحقيقي فلا يأتي إلا بخير، أي لا يترتب عليه إلا خير، ثم قال: **«أو خير هو»** معناه: أن هذا الذي يحصل لكم من زهرة الدنيا ليس بخير، وإنما هو فتنة، وتقديره: الخير لا يأتي إلا بخير، ولكن ليست هذه الزهرة بخير لما تؤدي إليه من الفتنة والمنافسة والاشتغال بها عن كمال الإقبال على الآخرة، ثم ضرب لذلك مثلا فقال ﷺ: **«إن كل ما ينبت الربيع يقتل حبطا أو يلم إلا آكلة الخضر.. إلى آخره»**

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٩١) والبخاري (١١/ ٢٩٣/ ٦٤٢٧) ومسلم (٢/ ٧٢٧/ ١٠٥٢) والنسائي (٥/ ٩٤-٩٥/ ٢٥٨٠).

ومعناه: أن نبات الربيع وخضره يقتل حبطا بالتخمة لكثرة الأكل، أو يقارب القتل إلا إذا اقتصر منه على اليسير الذي تدعو إليه الحاجة وتحصل به الكفاية المقتصدة فإنه لا يضر، وهكذا المال هو كنبات الربيع مستحسن تطلبه النفوس وتميل إليه، فمنهم من يستكثر منه ويستغرق فيه غير صارف له في وجوهه، فهذا يهلكه أو يقارب إهلاكه، ومنهم من يقتصد فيه فلا يأخذ إلا يسيرا، وإن أخذ كثيرا فرقه في وجوهه كما تثلطه الدابة فهذا لا يضره»[١].

قال ابن بطال: «هذه الأحاديث تنبيه في أن زهرة الدنيا ينبغي أن يخشى سوء عاقبتها وشر فتنتها من فتح اللَّه عليه الدنيا، ويحذر التنافس فيها والطمأنينة إلى زخرفها الفاني؛ لأن النبي ﷺ خشي ذلك على أمته، وحذرهم منه لعلمه أن الفتنة مقرونة بالغنى»[٢].

وقال: «.. فهذا كله يدل أن الغنى بلية وفتنة، ولذلك استعاذ النبي ﷺ من شر فتنته، وقد أخبر اللَّه تعالى بهذا المعنى فقال لرسوله: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ﴾[٤]، ولهذا آثر أكثر سلف الأمة التقلل من الدنيا وأخذ البلغة؛ إذ التعرض للفتن غرر»[٥].

وقال النووي: «فيه التحذير من الاغترار بالدنيا والنظر إليها والمفاخرة بها»[٦].

* عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال في حديث طويل وفي آخره: «.. وإنه لعلى حصير ما بينه وبينه شيء، وتحت رأسه وسادة من أدم حشوها ليف، وإن عند رجليه قرظا مصبورا، وعند رأسه أُهُب معلقة، فرأيت أثر الحصير في جنبه فبكيت، فقال: ما يبكيك. فقلت: يا رسول اللَّه، إن كسرى وقيصر فيما هما فيه، وأنت رسول اللَّه، فقال: **أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة**»[٧].

---

(١) شرح مسلم (٧/ ١٢٧-١٢٨).
(٢) شرح البخاري (١٠/ ١٥٥).
(٣) طه: الآية (١٣١).
(٤) التغابن: الآية (١٥).
(٥) شرح صحيح البخاري (١٠/ ١٥٦).
(٦) شرح مسلم (٧/ ١٢٦).
(٧) أخرجه: أحمد (١/ ٣٣-٣٤)، والبخاري (٨/ ٨٤٨-٨٤٩/ ٤٩١٣) ومسلم (٢/ ١١٠٨-١١١٠/ ١٤٧٩[٣١])، والترمذي (٥/ ٣٩١-٣٩٤/ ٣٣١٨)، والنسائي (٤/ ٤٤٣-٤٤٤/ ٢١٣١). مختصرا دون ذكر موضع الشاهد، وابن ماجه (٢/ ١٣٩٠-١٣٩١/ ٤١٥٣).

★ **غريب الحديث:**

مِن أَدَم: أي من جلد.

لِيف: هو ما يخرج من أصول سعف النخل.

قَرْظًا مَصْبُورًا: أي مجموعا غير منتشر وإن كان في غير وعاء.

أُهُب: جمع إهاب وهو الجلد قبل الدباغ.

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن بطال: «قال الطبري: وفيه الإبانة عن أن كل لذة وشهوة قضاها المرء في الدنيا فيما له مندوحة عنها؛ فهو استعجال بذلك من نعيم الآخرة الذي لو لم يستعجله في الدنيا كان مدخورا له في الآخرة، وذلك لقوله ﷺ لعمر: **«أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا»** فأخبر أن ما أوتيه فارس والروم من نعيم الدنيا تعجيل من اللَّه لهم نظير ما دخر لأهل ولايته عنده؛ فكره لأمته أن تؤتى مثل ما أوتي فارس والروم على سبيل التلذذ والتنعم»[١].

وقال النووي: «وفيه ما كان عليه النبي ﷺ من التقلل من الدنيا والزهادة فيها»[٢].

قال الحافظ: «فيه إيثار القناعة وعدم الالتفات إلى ما خص به الغير من أمور الدنيا الفانية»[٣].

قال ابن هبيرة: «في هذا الحديث من الفقه: أنه ليس التوسع من الدنيا دليلا على رضا اللَّه ﷻ إلا في المؤمنين خاصة، لقول عمر ﷺ: **«يا رسول اللَّه، ادع اللَّه تعالى أن يوسع على أمتك؛ فقد وسع على فارس والروم وهم لا يعبدون الله»**.

وفي هذا الحديث: «أنه إذا خطر على قلب المؤمن أن ما في يد مثل كسرى وفارس والروم من الدنيا دليل خير لهم أن ينكر عليه ذلك، ألا ترى أن رسول اللَّه ﷺ استوى جالسا وقال: **«أفي شك أنت يا ابن الخطاب؟ أولئك قوم عجلت لهم**

---

(١) شرح البخاري (٧/ ٣١٣-٣١٤).

(٢) شرح مسلم (١٠/ ٧٩).

(٣) فتح الباري (٩/ ٣٦٦).

طيباتهم في الحياة الدنيا» حتى فزع عمر إلى الاستغفار بقوله: «يا رسول اللَّه استغفر لي»»[١].

* * *

(١) الإفصاح (١/ ١٢٩).

قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾

★ **غريب الآية:**

اصْطَبِر: أي تحمل الصبر بجهدك.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَأْمُرْ﴾ يا محمد ﴿أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ يقول: واصطبر على القيام بها، وأدائها بحدودها أنت ﴿لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا﴾ يقول: لا نسألك مالا، بل نكلفك عملا ببدنك، نؤتيك عليه أجرا عظيما وثوابا جزيلا: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ يقول: نحن نعطيك المال ونكسبكه، ولا نسألكه، وقوله: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ يقول: والعاقبة الصالحة من عمل كلّ عامل لأهل التقوى والخشية من اللَّه دون من لا يخاف له عقابا، ولا يرجو له ثوابا»[1].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ أي: استنقذهم من عذاب اللَّه بإقام الصلاة، واصطبر أنت على فعلها كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾[2]..

وقوله: ﴿لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ يعني إذا أقمت الصلاة أتاك الرزق من حيث لا تحتسب، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾[4]، ولهذا قال: ﴿لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ وقال الثوري: ﴿لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا﴾ أي: لا نكلفك الطلب..

---

(١) جامع البيان (١٦/ ٢٣٦).

(٢) التحريم: الآية (٦).

(٣) الطلاق: الآيتان (٢-٣).

(٤) الذاريات: الآيات (٥٦-٥٨).

﴿وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي: وحسن العاقبة في الدنيا والآخرة، وهي الجنة لمن اتقى الله»[١].

قال السعدي: «أي: حث أهلك على الصلاة، وأزعجهم إليها من فرض ونفل. والأمر بالشيء أمر بجميع ما لا يتم إلا به، فيكون أمرا بتعليمهم ما يصلح الصلاة ويفسدها ويكملها.

﴿وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ أي: على الصلاة بإقامتها، بحدودها وأركانها وآدابها وخشوعها، فإن ذلك مشق على النفس، ولكن ينبغي إكراهها وجهادها على ذلك، والصبر معها دائما، فإن العبد إذا أقام صلاته على الوجه المأمور به، كان لما سواها من دينه أحفظ وأقوم، وإذا ضيعها كان لما سواها أضيع، ثم ضمن تعالى لرسوله الرزق، وأن لا يشغله الاهتمام به عن إقامة دينه، فقال: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ أي: رزقك علينا قد تكفلنا به، كما تكفلنا بأرزاق الخلائق كلهم، فكيف بمن قام بأمرنا، واشتغل بذكرنا؟! ورزق الله عام للمتقي وغيره، فينبغي الاهتمام بما يجلب السعادة الأبدية، وهو: التقوى، ولهذا قال: ﴿وَٱلْعَـٰقِبَةُ﴾ في الدنيا والآخرة ﴿لِلتَّقْوَىٰ﴾ التي هي فعل المأمور وترك المنهي، فمن قام بها، كان له العاقبة، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٢]»[٣].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير الآية

* عن عبد الله بن سلام قال: كان النبي ﷺ إذا دخل عليه بعض الضيق في الرزق أمر أهله بالصلاة ثم قرأ: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ الآية[٤].

★ **فوائد الحديث:**

قال محمد بن نصر المروزي رحمه الله: «ولقد ذكر أن النبي ﷺ، كان إذا رأى بأهله شدة، أو ضيقا أمرهم بالصلاة، وتلا هذه الآية: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣٢١-٣٢٢). (٢) الأعراف: الآية (١٢٨).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٠٣).

(٤) أخرجه: الطبراني في الأوسط (١/ ٤٨٧/ ٨٩٠)، وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٦٧): «رواه الطبراني في الأوسط ورجاله ثقات». وأخرجه أبو نعيم في الحلية (٨/ ١٧٦).

نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ الآية.

وأمر اللَّه عباده أن يأتموا بمحمد ﷺ، وأمرهم محمد إذا رأوا الآيات التي يخافون فيها العذاب أن يفزعوا إلى الصلاة، فقال: إن الشمس والقمر آيتان من آيات اللَّه، فإذا انكسفت، فافزعوا إلى الصلاة[1]، وفزع هو إلى الصلاة، ولا نعلم طاعة يدفع اللَّه بها العذاب مثل الصلاة، فصلى عند الكسوف، بزيادة في الركوع، وبكى في سجوده وتضرع»[2].

* عن أسلم أن عمر بن الخطاب كان يصلي من الليل ما شاء اللَّه، حتى إذا كان من آخر الليل أيقظ أهله للصلاة، يقول لهم: «الصلاة الصلاة» ثم يتلو هذه الآية: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَالْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾[3].

★ فوائد الحديث:

قال ابن عبدالبر: «فيه ما كان عليه عمر من قيام الليل وأنه لم تشغله أمور المسلمين وما كان إليه منهم عن الصلاة بالليل، وذلك لفضل صلاة الليل.

وفيه أنه لم يكن يكلف أهله من الصلاة ما كان هو يفعله منها بالليل.

ويحتمل أن يكون إيقاظه أهله ليدركوا شيئًا من صلاة الأسحار والاستغفار فيها.

ويحتمل أن يكون إيقاظه لهم للصلاة المفروضة صلاة الصبح، وأيها كان فإنه امتثل في ذلك الآية التي ذكر مالك وامتثل أيضًا واللَّه أعلم، قول اللَّه ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوٓا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾[4].

قال أهل العلم بتأويل القرآن ومعانيه: أدبوهم وعلموهم»[5].

* عن زيد بن ثابت سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: **«من كانت الدنيا همه فرق اللَّه عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له. ومن كانت**

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٧٦) والبخاري (٢/ ٦٧٨/ ١٠٤٦) ومسلم (٢/ ٦١٨/ ٩٠١) وأبو داود (١/ ٦٩٧-٦٩٨/ ١١٨٠) والنسائي (٣/ ١٤٨-١٤٩/ ١٤٧١) وابن ماجه (١/ ٤٠١/ ١٢٦٣) من حديث عائشة ﵂.

(٢) تعظيم قدر الصلاة (١/ ٢٣٠).

(٣) أخرجه: مالك (١/ ١١٩/ ٥)، وعبد الرزاق (٣/ ٤٩/ ٤٧٤٣).

(٤) التحريم: الآية (٦).

(٥) الاستذكار (٥/ ٢١٦).

الآخرة نيته جمع اللَّه له أمره، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة»(١).

★ فوائد الحديث:

قال ابن القيم: «تعلق العبد بما سوى اللَّه تعالى مضرة عليه، إذا أخذ منه فوق القدر الزائد على حاجته، غير مستعين به على طاعة اللَّه، فإذا نال من الطعام والشراب والنكاح واللباس فوق حاجته ضره ذلك، ولو أحب سوى اللَّه ما أحب، فلا بد أن يسلبه ويفارقه، فإن أحبه لغير الله؛ فلا بد أن تضره محبته، ويعذب بمحبوبه، إما في الدنيا وإما في الآخرة، والغالب أنه يعذب به في الدارين، قال اللَّه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣٤ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ۝٥٥﴾(٣).

والتفسير المختار لهذه الآية أن يقال: تعذيبهم بها هو الأمر المشاهد من تعذيب طلاب الدنيا ومحبيها ومؤثريها على الآخرة: بالحرص على تحصيلها، والتعب العظيم في جمعها، ومقاساة أنواع المشاق في ذلك، فلا تجد أتعب ممن الدنيا أكبر همه، وهو حريص بجهده على تحصيلها، والعذاب هنا هو الألم والمشقة والنصب»(٤).

*** عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن اللَّه تعالى يقول: يا ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى، وأسد فقرك، وإلا تفعل ملأت يديك شغلا، ولم أسد فقرك»**(٥).

---

(١) أخرجه: ابن ماجه (٢/ ١٣٧٥/ ٤١٠٥)، وقال البوصيري: إسناده صحيح رجاله ثقات.

(٢) التوبة: الآيتان (٣٤-٣٥). (٣) التوبة: الآية (٥٥).

(٤) إغاثة اللهفان (٨١-٨٢ موارد الظمآن).

(٥) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٥٨)، والترمذي (٤/ ٥٥٤/ ٢٤٦٦)، وقال: هذا حديث حسن غريب. وابن ماجه (٢/ ١٣٧٦/ ٤١٠٧)، وصححه ابن حبان (الإحسان ٢/ ١١٩/ ٣٩٣)، والحاكم (٢/ ٤٤٣) ووافقه الذهبي. إلا أن الحديث سنده ضعيف من أجل زائد بن نشيط لم يوثقه غير ابن حبان وقال عنه الحافظ مقبول. وللحديث شاهد قوي من حديث معقل بن يسار أخرجه الحاكم (٤/ ٣٢٦)، وصححه ووافقه الذهبي. وانظر الصحيحة (١٣٥٩).

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن القيم: «من أبلغ العذاب في الدنيا: تشتيت الشمل، وتفريق القلب، وكون الفقر نصب عيني العبد لا يفارقه، ولولا سكرة عشاق الدنيا بحبها لاستغاثوا من هذا العذاب، على أن أكثرهم لا يزال يشكو ويصرخ منه.

وفي الترمذي أيضًا عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ؛ قال: «**يقول اللَّه -تبارك وتعالى-: ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى، وأسد فقرك، وإن لا تفعل ملأت يديك شغلًا، ولم أسد فقرك**».

وهذا أيضًا من أنواع العذاب، وهو اشتغال القلب والبدن بتحمل أنكاد الدنيا، ومحاربة أهلها إياه، ومقاساة معاداتهم؛ كما قال بعض السلف: «**من أحب الدنيا؛ فليوطن نفسه على تحمل المصائب**».

ومحب الدنيا لا ينفك من ثلاث: هم لازم، وتعب دائم. وحسرة لا تنقضي.

وذلك أن محبها لا ينال منها شيئًا إلا طمحت نفسه إلى ما فوقه»[(١)].

* عن أنس بن مالك قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**رأيت ذات ليلة فيما يرى النائم كأنا في دار عقبة بن رافع، فأتينا برطب من رطب ابن طاب، فأولت الرفعة لنا في الدنيا والعاقبة في الآخرة، وأن ديننا قد طاب**»[(٢)].

★ **غريب الحديث:**

ابن طاب: هو نوع من الرطب معروف، وهو مضاف إلى ابن طاب، رجل من أهل المدينة.

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن تيمية: «إن أكثر بني آدم قد يفعل بعض المأمور به، ولا يترك المنهي عنه إلا الصديقون، كما قال سهل، لأن المأمور به له مقتضى في النفس، وأما ترك المنهي عنه إلى خلاف الهوى، ومجاهدة النفس، فهو أصعب وأشق، فقل أهله،

---

(١) إغاثة اللهفان (٨٣-٨٤ موارد الظمآن).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ٢١٣)، ومسلم (٤/ ١٧٧٩/ ٢٢٧٠)، وأبو داود (٥/ ٢٨٦/ ٥٠٢٥)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٨٨/ ٧٦٤٤).

ولا يمكن أحدا أن يفعله إلا مع فعل المأمور به، لا تتصور تقوى وهي فعل ترك قط، فإن من ترك الشرك واتباع الهوى المضل، واتباع الشهوات المحرمات، فلابد أن يفعل من المأمور به أمورا كثيرة تصده عن ذلك. فتقواهم تحفظ لهم حسناتهم التي أمروا بها، وتمنعهم من السيئات التي تضرهم، بخلاف من فعل ما أمر به وما نهي عنه مثلا، فإن وجود المنهي عنه يفسد عليه من المأمور به ما يفسد، فلا يسلم له، ولهذا كانت العاقبة للتقوى، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾، ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1]، ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾[2].

وذلك لأن المتقين بمنزلة من أكل الطعام النافع، واتقى الأطعمة المؤذية، فصح جسمه، وكانت عاقبته سليمة، وغير المتقي بمنزلة من خلط من الأطعمة، فإنه وإن اغتذى بها، لكن تلك التخاليط قد تورثه أمراضا إما مؤذية وإما مهلكة.

ومع هذا فلا يقول عاقل إن حاجته وانتفاعه بترك المضر من الأغذية أكثر من حاجته وانتفاعه بالأغذية النافعة، بل حاجته وانتفاعه بالأغذية التي تناولها أعظم من انتفاعه بما تركه منها، بحيث لو لم يتناول غذاء قط لهلك قطعا. وأما إذا تناول النافع والضار، فقد يرجى له السلامة، وقد يخاف عليه العطب، وإذا تناول النافع دون الضار حصلت له الصحة والسلامة.

فالأول نظير من ترك المأمور به، والثاني نظير من فعل المأمور به والمنهي عنه، وهو المخلط الذي خلط عملا صالحا وآخر سيئا. والثالث نظير المتقي الذي فعل ما أمر به، واجتنب ما نهي عنه، فعظم أمر التقوى لتضمنها السلامة مع الكرامة لا لأجل السلامة فقط، فإنه ليس في الآخرة دارا إلا الجنة أو النار، فمن سلم من النار دخل الجنة، ومن لم ينعم عُذِّب، فليس في الآدميين من يسلم من العذاب والنعيم جميعا، فتدبر هذا فكل خصلة قد أمر الله بها أو أثنى عليها، ففيها فعل المأمور به ولابد، تضمنًا أو استلزامًا، وحمدها لنيل الخير عن الشر والثواب عن العقاب»[3].

* * *

---

(١) الأعراف: الآية (١٢٨).

(٢) آل عمران: الآية (١٢٠).

(٣) مجموع الفتاوى (٢٠/ ١٣٦-١٣٧).

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرا عن الكفار في قولهم: ﴿لَوْلَا﴾ أي هلا يأتينا محمد ﴿بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ أي بعلامة دالة على صدقه في أنه رسول الله؟ قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ يعني القرآن العظيم الذي أنزله عليه الله وهو أمي لا يحسن الكتابة، ولم يدارس أهل الكتاب، وقد جاء فيه أخبار الأولين بما كان منهم في سالف الدهور بما يوافقه عليه الكتب المتقدمة الصحيحة منها، فإن القرآن مهيمن عليها يصدق الصحيح ويبين خطأ المكذوب فيها وعليها، وهذه الآية كقوله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَـٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾[1]»[2].

قال السعدي: «أي: قال المكذبون للرسول ﷺ: هلا يأتينا بآية من ربه؟ يعنون آيات الاقتراح كقولهم: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾﴾[3].

وهذا تعنت منهم وعناد وظلم فإنهم هم والرسول بشر عبيد لله، فلا يليق منهم الاقتراح بحسب أهوائهم، وإنما الذي ينزلها ويختار منها ما يختار بحسب حكمته هو الله.

ولأن قولهم ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ يقتضي أنه لم يأتهم بآية على صدقه

---

(١) العنكبوت: الآيتان (٥٠-٥١).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣٢٢-٣٢٣).

(٣) الإسراء: الآيات (٩٠-٩٢).

ولا بينة على حقه، وهذا كذب وافتراء، فإنه أتى من المعجزات الباهرات والآيات القاهرات ما يحصل ببعضه المقصود ولهذا قال: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم﴾ إن كانوا صادقين في قولهم، وأنهم يطلبون الحق بدليله ﴿بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ أي هذا القرآن العظيم المصدق لما في الصحف الأولى من التوراة والإنجيل والكتب السابقة المطابق لها المخبر بما أخبرت به، وتصديقه أيضًا مذكور فيها ومبشر بالرسول بها. وهذا كقوله تعالى ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾[1] فالآيات تنفع المؤمنين ويزداد بها إيمانهم وإيقانهم، وأما المعرضون عنها المعارضون لها فلا يؤمنون بها ولا ينتفعون بها ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾[2]»[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن القرآن أعظم آيات النبوة لشموليته وبقائه، ولما حواه من علم وتشريع

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «**ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه اللّٰه إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة**»[4].

★ **فوائد الحديث:**

قلت: تقدم الكلام على هذا الحديث مستوفى عند قوله تعالى من سورة يونس: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[5] الآية فالحمد لله على منه وتوفيقه وإحسانه.

* * *

---

(١) العنكبوت: الآية (٥١). (٢) يونس: الآيتان (٩٦-٩٧).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٠٤-٢٠٥).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٤١)، والبخاري (٩/ ٣/ ٤٩٨١)، ومسلم (١/ ١٣٤/ ١٥٢)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٣٠/ ١١١٢٩).

(٥) يونس: الآية (٣٧).

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُواْ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾﴾

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُواْ﴾. أمر اللَّه -جل وعلا- نبيّه ﷺ في هذه الآية الكريمة أن يقول للكفار الذين يقترحون عليه الآيات عنادًا وتعنُّتًا: كل منا ومنكم متربِّص، أي: منتظر ما يحلّ بالآخر من الدوائر كالموت والغلبة. وقد أوضح في غير هذا الموضع أن ما ينتظره النّبي ﷺ وأصحابه والمسلمون كله خير، بعكس ما ينتظره ويتربص الكفار. كقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾﴾[1]، وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾[2]، إلى غير ذلك من الآيات. والتربّص: الانتظار.

قوله تعالى: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾. ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة أن الكفار سيعلمون في ثاني حال مَن أصحاب الصراط السوي ومن اهتدى. أي: وفّق لطريق الصواب والديمومة على ذلك. وأمر نبيّه أن يقول ذلك للكفار. والمعنى: سيتضِح لكم أنا مُهتدون، وأنا على صراط مستقيم، وأنكم على ضلال وباطل. وهذا يظهر لهم يوم القيامة إذا عاينوا الحقيقة، ويظهر لهم في الدنيا لِما يرونه من نصر اللَّه لنبيّه ﷺ.

وهذا المعنى الذي ذكره هنا بيّنه في غير هذا الموضع؛ كقوله: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[3]، وقوله: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ﴾[4]، وقوله: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾[5] إلى غير ذلك من الآيات»[6].

---

(١) التوبة: الآية (٥٢).
(٢) التوبة: الآية (٩٨).
(٣) الفرقان: الآية (٤٢).
(٤) القمر: الآية (٢٦).
(٥) ص: الآية (٨٨).
(٦) أضواء البيان (٤/ ١٣١-١٣٢).

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ولو أنا أهلكنا هؤلاء المشركين الذين يكذبون بهذا القرآن من قبل أن ننزله عليهم، ومن قبل أن نبعث داعيا يدعوهم إلى ما فرضنا عليهم فيه بعذاب ننزله بهم بكفرهم بالله، ﴿لَقَالُوا۟﴾ يوم القيامة إذ وردوا علينا فأردنا عقابهم: ﴿رَبَّنَا﴾ هلا ﴿أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ يدعونا إلى طاعتك ﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾ يقول: ﴿فَنَتَّبِعَ﴾ حجتك وأدلتك وما تنزله عليه من أمرك ونهيك ﴿مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ﴾ بتعذيبك إيانا ﴿وَنَخْزَىٰ﴾ به..

﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾﴾، يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد كلكم أيها المشركون بالله ﴿مُّتَرَبِّصٌ﴾ يقول: منتظر لمن يكون الفلاح وإلى ما يؤول أمري وأمركم متوقف ينتظر دوائر الزمان ﴿فَتَرَبَّصُوا۟﴾ يقول: فترقبوا وانتظروا ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ﴾ أهل الطريق المستقيم المعتدل الذي لا اعوجاج فيه إذا جاء أمر الله وقامت القيامة؛ أنحن أم أنتم؟ ﴿وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ يقول: وستعلمون حينئذ من المهتدي الذي هو على سنن الطريق القاصد غير الجائر عن قصده منا ومنكم»[١].

قال ابن كثير: «قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ أي لو أنا أهلكنا هؤلاء المكذبين قبل أن نرسل إليهم هذا الرسول الكريم، وننزل عليهم هذا الكتاب العظيم، لكانوا قالوا: ﴿رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ قبل أن تهلكنا حتى نؤمن به ونتبعه، كما قال: ﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ يبين تعالى أن هؤلاء المكذبين متعنتون معاندون لا يؤمنون ﴿وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾[٢]، كما قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾[٣] وقال: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا

---

(١) جامع البيان (١٦/ ٢٣٨).

(٢) يونس: الآية (٩٧).

(٣) الأنعام: الآيات (١٥٥-١٥٧).

زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾[١]، وقال: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[٢].

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ﴾ أي يا محمد لمن كذبك وخالفك واستمر على كفره وعناده ﴿كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ﴾ أي منا ومنكم ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ أي فانتظروا ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ﴾ أي الطريق المستقيم ﴿وَمَنِ اهْتَدَىٰ﴾ إلى الحق وسبيل الرشاد وهذا كقوله تعالى: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[٣]، ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ﴾[٤]»[٥].

* * *

(١) فاطر: الآية (٤٢).

(٢) الأنعام: الآيتان (١٠٩-١١٠).

(٣) الفرقان: الآية (٤٢).

(٤) القمر: الآية (٢٦).

(٥) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣٢٣).



سورة الأنبياء

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل سورة الأنبياء

* عن ابن مسعود قال: بنو إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء هن من العتاق الأول وهن من تلادي[1].

★غريب الحديث:

العتاق: جمع عتيق، والعرب تجعل كل شيء بلغ الغاية في الجودة عتيق.

تلادي: التلاد قديم الملك، أي مما حفظ قديما.

★ فوائد الحديث:

قال البيهقي: «يريد تفضيل هذه السور لما تضمن من ذكر القصص وأخبار الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- وأخبار الأمم. والتلاد ما كان قديمًا من المال. يريد أنها من أوائل السور المنزلة في أول الإسلام لأنها مكية، وأنها من أول ما قرأه وحفظه من القرآن، والله أعلم»[2].

أغراض السورة

قال ابن عاشور: «الأغراض التي ذكرت في هذه السورة هي:

(١) أخرجه البخاري (٨/ ٥٥٦/ ٤٧٣٩).

(٢) شعب الإيمان (٢/ ٤٧٦).

الإنذار بالبعث وتحقيق وقوعه، وإنه لتحقق وقوعه كان قريبا .

وإقامة الحجة عليه بخلق السموات والأرض عن عدم وخلق الموجودات من الماء.

والتحذير من التكذيب بكتاب اللَّه تعالى ورسوله .

والتذكير بأن هذا الرسول ﷺ ما هو إلا كأمثاله من الرسل، وما جاء إلا بمثل ما جاء به الرسل من قبله .

وذكر كثير من أخبار الرسل ﷺ .

والتنويه بشأن القرآن وأنه نعمة من اللَّه على المخاطبين، وشأن رسول الإسلام ﷺ وأنه رحمة للعالمين .

والتذكير بما أصاب الأمم السالفة من جراء تكذيبهم رسلهم، وأن وعد اللَّه للذين كذبوا واقع ولا يغرهم تأخيره فهو جاء لا محالة .

وحذرهم من أن يغتروا بتأخيره كما اغتر الذين من قبلهم حتى أصابهم بغتة، وذكر من أشراط الساعة فتح يأجوج ومأجوج .

وذكرهم بما في خلق السموات والأرض من الدلالة على الخالق .

ومن الإيماء إلى أن وراء هذه الحياة حياة أخرى أتقن وأحكم لتجزى كل نفس بما كسبت وينتصر الحق على الباطل .

ثم ما في ذلك الخلق من الدلائل على وحدانية الخالق إذا لا يستقيم هذا النظام بتعدد الآلهة .

وتنزيه اللَّه تعالى عن الشركاء وعن الأولاد، والاستدلال على وحدانية اللَّه تعالى .

وما يكرهه على فعل ما لا يريد .

وأن جميع المخلوقات صائرون إلى الفناء .

وأعقب ذلك تذكيرهم بالنعمة الكبرى عليهم وهي نعمة الحفظ .

ثم عطف الكلام إلى ذكر الرسل والأنبياء .

وتنظير أحوالهم وأحوال أممهم بأحوال محمد ﷺ وأحوال قومه .

وكيف نصر اللَّه الرسل على أقوامهم واستجاب دعواتهم.

وأن الرسل كلهم جاءوا بدين اللَّه وهو دين واحد في أصوله قطعه الضالون قطعا.

وأثنى على الرسل وعلى من آمنوا بهم.

وأن العاقبة للمؤمنين في خير الدنيا وخير الآخرة، وأن اللَّه سيحكم بين الفريقين بالحق ويعين رسله على تبليغ شرعه»[1].

وزاد المراغي: «خلاصة ما تتضمنه هذه السورة:

١- الإنذار بقرب الساعة مع غفلتهم عنها.

٢- إنكار المشركين نبوة محمد ﷺ؛ لأنه بشر مثلهم وأن ما جاء به أضغاث أحلام، وأنه قد افتراه ولو كان نبيا حقا لأتى بآية كآيات موسى وعيسى.

٣- الرد على هذه الشبهة بأن الأنبياء جميعا كانوا بشرا، وأهل العلم من اليهود والنصارى يعلمون ذلك حق العلم.

٤- الإخبار بأن اللَّه أهلك كثيرا من الأمم المكذبة لرسلها وأنشأ بعدهم أقواما آخرين.

٥- بيان أن السموات والأرض لم تخلقا عبثا، وأن الملائكة لا يستكبرون عن عبادته ولا يملون.

٦- إقامة الدليل على وحدانية اللَّه تعالى والنعي على من يتخذ آلهة من دونه بلا دليل على صدق ما يقولون مع أن الأنبياء جميعا أوحي إليهم أنه لا إله إلا هو.

٧- النعي على من ادعى أن الملائكة بنات اللَّه.

٨- وصف النشأة الأولى ببيان أن السموات والأرض كانتا رتقا فانفصلتا، وأن الجبال جعلت في الأرض أوتادا حتى لا تميد بأهلها، وأن كلا من الشمس والقمر يسبح في فلكه.

٩- استعجال الكافرين للعذاب، مع أنهم لو علموا كنهه ما طلبوه.

---

(١) التحرير والتنوير (١٧/ ٦-٨).

١٠- بيان أن الساعة تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون.

١١- قصص بعض الأنبياء كموسى وهارون وإبراهيم ولوط ونوح وداود وسليمان وأيوب وإسماعيل وإدريس وذي الكفل ويونس وزكريا وقصص مريم.

١٢- بيان أن الدين الحق عند اللَّه هو الإسلام وبه جاءت جميع الشرائع، والاختلاف بينها إنما هو في الرسوم بحسب اختلاف الأزمنة والأمكنة.

١٣- حادث يأجوج ومأجوج من أشراط الساعة واقتراب يوم القيامة.

١٤- بيان أن الأصنام وعابديها يكونون يوم القيامة حطب جهنم، وأنهم لو كانوا آلهة حقا ما دخلوها.

١٥- وصف ما يلاقيه الكفار من الأهوال في النار يوم القيامة.

١٦- وصف النعيم الذي يتمتع به أهل الجنة إذ ذاك.

١٧- بيان أن الأرض ستبدل غير الأرض، وأن السماء تطوى طي السجل للكتاب.

١٨- الوحي إنما جاء بالتوحيد وأن لا إله إلا إله واحد، وأن الواجب الاستسلام له والانقياد لأمره.

١٩- ما ختمت به السورة من طلب الرسول ﷺ أن يحكم اللَّه بينه وبين أعدائه المشركين، وأن اللَّه هو المستعان على ما يصفونه به من أنه مفتر، وأنه مجنون، وأنه شاعر يتربصون به ريب المنون»[١].

* * *

(١) تفسير المراغي (١٧/ ٨١-٨٢).

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ۝١﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: دنا حساب الناس على أعمالهم التي عملوها في دنياهم ونعمهم التي أنعمها عليهم فيها في أبدانهم وأجسامهم ومطاعمهم ومشاربهم وملابسهم وغير ذلك من نعمه عندهم، ومسألته إياهم ماذا عملوا فيها، وهل أطاعوه فيها فانتهوا إلى أمره ونهيه في جميعها، أم عصوه فخالفوا أمره فيها؟ ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾ يقول: وهم في الدنيا عما الله فاعل بهم من ذلك يوم القيامة وعن دنو محاسبته إياهم منهم، واقترابه لهم في سهو وغفلة، وقد أعرضوا عن ذلك، فتركوا الفكر فيه والاستعداد له والتأهب جهلًا منهم بما هم لاقوه عند ذلك من عظيم البلاء وشديد الأهوال»[1].

قال السعدي: «هذا تعجب من حالة الناس، وأنه لا ينجع فيهم تذكير، ولا يرعون إلى نذير، وأنهم قد قرب حسابهم، ومجازاتهم على أعمالهم الصالحة والطالحة، والحال أنهم في غفلة معرضون، أي: غفلة عما خلقوا له، وإعراض عما زجروا به. كأنهم للدنيا خلقوا، وللتمتع بها ولدوا، وأن الله تعالى لا يزال يجدد لهم التذكير والوعظ، ولا يزالون في غفلتهم وإعراضهم»[2].

قال ابن عاشور: «إعراضهم هو إبايتهم التأمل في آيات القرآن التي تذكرهم بالبعث وتستدل لهم عليه، فمتعلق الإعراض غير متعلق الغفلة؛ لأن المعرض عن الشيء لا يعد غافلا عنه، أي أنهم لما جاءتهم دعوة الرسول ﷺ إلى الإيمان وإنذارهم بيوم القيامة استمروا على غفلتهم عن الحساب بسبب إعراضهم عن دلائل التذكير به. فكانت الغفلة عن الحساب منهم غير مقلوعة من نفوسهم بسبب تعطيلهم

---

(١) جامع البيان (١٧/ ١).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٠٧).

ما شأنه أن يقلع الغفلة عنهم بإعراضهم عن الدلائل المثبتة للبعث»[١].

قال المكي الناصري: «يقول تعالى ردا على منكري البعث: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ والمراد باقتراب الحساب اقتراب وقته، ومن أجل هذا الاقتراب ينبغي لعقلاء الناس أن يعدوا العدة ويتأهبوا ليوم الحساب، حتى لا يرجعوا من الغنيمة بالإياب، وبنفس المعنى جاء قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾[٢] والقرب والبعد أمران نسبيان، فقد يكون قرب يوم الحساب بالنسبة إلى علم الله وتقديره على حد قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾[٣]، وقد يكون قرب يوم الحساب بالنسبة لبقاء العالم على اعتبار أن ما بقي من مدته أقصر مما مضى على حد قوله ﷺ: «**بعثت أنا والساعة كهاتين**»[٤] ومهما يكن من أمر فإن كل ما هو آت قريب، وإن طال انتظاره قرونا وأجيالا»[٥].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أهل الغفلة

* عن أبي سعيد عن النبي ﷺ: «﴿فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ قال: في الدنيا»[٦].

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن القيم: «أما الغفلة فمضادة للعلم منافية له وقد ذم سبحانه أهلها ونهى عن الكون منهم وعن طاعتهم والقبول منهم قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾[٧] وقال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾[٨] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ

---

(١) التحرير والتنوير (١٧/ ١٠-١١).

(٢) القمر: الآية (١).

(٣) الحج: الآية (٤٧).

(٤) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٣٠) والبخاري (٩/ ٥٤٨/ ٥٣٠١) ومسلم (٤/ ٢٢٦٨/ ٢٩٥٠) من حديث سهل بن سعد ﵁.

(٥) التيسير في أحاديث التفسير (٤/ ١١١).

(٦) أخرجه: النسائي في الكبرى (٦/ ٤٠٧/ ١١٣٣٢). وله شاهد أخرجه: أحمد (٣/ ٩) والبخاري (٨/ ٥٤٧/ ٤٧٣٠) ومسلم (٤/ ٢١٨٨/ ٢٨٤٩) والترمذي (٤/ ٥٩٧/ ٢٥٥٨) والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٩٣/ ١١٣١٦) من حديث أبي سعيد الخدري ﵁ أيضًا قال: قال رسول الله ﷺ: «**يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح، فينادي مناد: يا أهل الجنة.. ثم قرأ ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ﴾ وهؤلاء في غفلة أهل الدنيا ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾**».

(٧) الأعراف: الآية (٢٠٥).

(٨) الكهف: الآية (٢٨).

بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾[1]، وقال النبي ﷺ في وصيته لنساء المؤمنين: «لا تغفلن فتنسين الرحمة»[2] وسئل بعض العلماء عن عشق الصور فقال: قلوب غفلت عن ذكر الله فابتلاها الله بعبودية غيره.

فالقلب الغافل مأوى الشيطان فإنه وسواس خناس قد التقم قلب الغافل يقرأ عليه أنواع الوساوس والخيالات الباطلة، فإذا تذكر وذكر الله انجمع وانضم وخنس وتضاءل لذكر الله فهو دائما بين الوسوسة والخنس»[3].

* * *

(١) الأعراف: الآية (١٧٩).

(٢) أخرجه: أحمد (٦/ ٣٧٠) وأبو داود (١/ ٤٧١/ ١٥٠١) والترمذي (٥/ ٥٧١/ ٣٥٨٣) وصححه الحاكم (١/ ٧٣٢) من حديث حميضة بنت ياسر عن جدتها يسيرة ﵂.

(٣) مفتاح دار السعادة (١/ ٣٧٣-٣٧٤).

قوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾

★ **غريب الآية:**

لاهية: ساهية مشتغلة بما لا يعنيها.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ما يحدث الله من تنزيل شيء من هذا القرآن للناس، ويذكرهم به ويعظهم إلا استمعوه، وهم يلعبون، لاهية قلوبهم»(١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «لما قال: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ علم أن الذكر منه محدث ومنه ما ليس بمحدث؛ لأن النكرة إذا وصفت ميز بها بين الموصوف وغيره، كما لو قال: ما يأتيني من رجل مسلم إلا أكرمته، وما آكل إلا طعاما حلالا ونحو ذلك، ويعلم أن المحدث في الآية ليس هو المخلوق الذي يقوله الجهمي ولكنه الذي أنزل جديدا، فإن الله كان ينزل القرآن شيئًا بعد شيء، فالمنزل أولا هو قديم بالنسبة إلى المنزل آخرا. وكل ما تقدم على غيره فهو قديم في لغة العرب، كما قال: ﴿كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾(٢) وقال: ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾(٣) وقال: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾(٤) وقال: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۞ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ۝٧٦﴾(٥) وكذلك قوله: ﴿جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾(٦) لم يقل جعلناه فقط حتى يظن أنه بمعنى خلقناه؛ ولكن قال: ﴿جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أي صيرناه عربيا؛ لأنه قد كان قادرا على أن ينزله عجميا، فلما أنزله عربيا كان قد جعله عربيا دون عجمي»(٧).

---

(١) جامع البيان (١٧/ ٢).
(٢) يس: الآية (٣٩).
(٣) يوسف: الآية (٩٥).
(٤) الأحقاف: الآية (١١).
(٥) الشعراء: الآيتان (٧٥و٧٦).
(٦) الزخرف: الآية (٣).
(٧) مجموع الفتاوى (١٢/ ٥٢٢).

قال السعدي: «﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ يذكرهم ما ينفعهم ويحثهم عليه وما يضرهم، ويرهبهم منه ﴿إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ﴾ سماعا، تقوم عليهم به الحجة، ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ أي: قلوبهم غافلة معرضة لاهية بمطالبها الدنيوية، وأبدانهم لاعبة، قد اشتغلوا بتناول الشهوات والعمل بالباطل، والأقوال الردية، مع أن الذي ينبغي لهم أن يكونوا بغير هذه الصفة، تقبل قلوبهم على أمر اللّٰه ونهيه، وتستمعه استماعًا، تفقه المراد منه، وتسعى جوارحهم في عبادة ربهم، التي خلقوا لأجلها، ويجعلون القيامة والحساب والجزاء منهم على بال، فبذلك يتم لهم أمرهم، وتستقيم أحوالهم، وتزكوا أعمالهم»[(١)].

قال المكي الناصري: «يقول اللّٰه تعالى نعيا على الغافلين اللاهين: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ والمراد بالذكر هنا كتاب اللّٰه، ووصفه بالمحدث يصدق بمعنيين اثنين:

المعنى الأول: أن القرآن إنما أنزل منجما، سورة بعد سورة، وآية بعد آية، فكان نزوله يتجدد من وقت لآخر، ولم ينزل دفعة واحدة كما هو معلوم، على حد قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾[(٢)].

والمعنى الثاني: أن القرآن هو أحدث الكتب الإلهية نزولا وخاتمتها بالمرة، على حد قول ابن عباس فيما رواه عنه البخاري: «**وكتابكم أحدث الكتب باللّٰه، تقرأونه محضا لم يشب**»[(٣)]»[(٤)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في سؤال أهل الكتاب

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء وكتابكم الذي أنزل اللّٰه على نبيكم ﷺ أحدث الأخبار باللّٰه محضا لم يشب، وقد حدثكم اللّٰه أن أهل الكتاب قد بدلوا من كتب اللّٰه وغيروا فكتبوا بأيديهم قالوا: هو من عند اللّٰه ليشتروا بذلك ثمنا قليلا، أو لا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٠٧-٢٠٨).
(٢) الإسراء: الآية (١٠٦).
(٣) هو حديث الباب.
(٤) التيسير في أحاديث التفسير (٤/ ١١١).

مساءلتهم، فلا والله ما رأينا رجلا منهم يسألكم عن الذي أنزل عليكم[١].

★ غريب الحديث:

لم يشب: لم يخالطه غيره.

★ فوائد الحديث:

قال ابن بطال: «سأل بعض علماء النصارى محمد بن وضاح فقال: ما بال كتابكم معشر المسلمين لا زيادة فيه ولا نقصان، وكتابنا بخلاف ذلك؟ فقال له: لأن الله وكل حفظ كتابكم إليكم فقال: ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾[٢] فما وكله إلى المخلوقين دخله الخرم والنقصان، وقال في القرآن: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾[٣] فتولى الله حفظه، فلا سبيل إلى الزيادة فيه ولا إلى النقصان»[٤].

قال الغنيمان: «يعني أن الله قد أغناكم بما جاءكم به نبيكم ﷺ، فقد أنزل الله عليه آخر الكتب التي قضى الله تعالى أن تنزل إلى الأرض من عنده، فهو أحدثها بالله، وأقربها عهدا به، وقد وصل إلينا خالصا ليس فيه ما يداخله من غيره، فكيف بعد ذلك يسوغ للمسلم أن يذهب يسأل اليهود أو النصارى عما في أيديهم من كتبهم.

وقد أعلمنا الله تعالى أنهم حرفوها، وزادوا فيها ونقصوا منها، ثم كذبوا على الناس بأن قالوا: هذا من عند الله، كما ذكر الله ذلك عنهم بقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ۝٧٩﴾[٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝٧٨﴾[٦]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٧١﴾[٧] إلى غير ذلك مما ذكره الله تعالى عنهم من الكذب والتزوير، وتحريف كلام الله عن مواضعه، وتغييره وتبديله»[٨].

---

(١) أخرجه البخاري (١٣/ ٦٠٧/ ٧٥٢٣).
(٢) المائدة: الآية (٤٤).
(٣) الحجر: الآية (٩).
(٤) شرح صحيح البخاري (٨/ ٧٤).
(٥) البقرة: الآية (٧٩).
(٦) آل عمران: الآية (٧٨).
(٧) آل عمران: الآية (٧١).
(٨) شرح صحيح البخاري (٢/ ٤٠٦-٤٠٧).

قوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول: وأسر هؤلاء الناس الذين اقتربت الساعة منهم وهم في غفلة معرضون، لاهية قلوبهم، النجوى بينهم، يقول: وأظهروا المناجاة بينهم فقالوا: هل هذا الذي يزعم أنه رسول من اللَّه أرسله إليكم إلا بشر مثلكم، يقولون: هل هو إلا إنسان مثلكم في صوركم وخلقكم، يعنون بذلك محمدا ﷺ. وقال الذين ظلموا، فوصفهم بالظلم بفعلهم وقيلهم الذي أخبر به عنهم في هذه الآيات أنهم يفعلون ويقولون من الإعراض عن ذكر اللَّه والتكذيب برسوله»[1].

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أن الكفار أخفوا النجوى فيما بينهم، قائلين: إن النبي ﷺ ما هو إلا بشر مثلهم، فكيف يكون رسولا إليهم؟ والنجوى: الإسرار بالكلام وإخفاؤه عن الناس. وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من دعواهم: أن بشرا مثلهم لا يمكن أن يكون رسولا، وتكذيب اللَّه لهم في ذلك جاء في آيات كثيرة، وقد قدمنا كثيرا من ذلك، كقوله: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾﴾[2]، وقوله: ﴿فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ﴾[3] الآية، وقوله: ﴿فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾﴾[4] وقوله: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ۞ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾[6] الآية، وقوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾[7] الآية. والآيات بمثل ذلك

---

(١) جامع البيان (١٧/ ٢).
(٢) الإسراء: الآية (٩٤).
(٣) التغابن: الآية (٦).
(٤) القمر: الآية (٢٤).
(٥) المؤمنون: الآيتان (٣٣و٣٤).
(٦) الفرقان: الآية (٧).
(٧) إبراهيم: الآية (١٠).

كثيرة جدا، كما تقدم إيضاح ذلك.

وقد رد اللَّه عليهم هذه الدعوى الكاذبة التي هي منع إرسال البشر، كقوله هنا في هذه السورة الكريمة: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً﴾[2] الآية، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ﴾[3]، وقوله هنا: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾﴾[4]، إلى غير ذلك من الآيات»[5].

قال السعدي: «ذكر ما يتناجى به الكافرون الظالمون على وجه العناد، ومقابلة الحق بالباطل، وأنهم تناجوا، وتواطأوا فيما بينهم، أن يقولوا في الرسول ﷺ، إنه بشر مثلكم، فما الذي فضله عليكم، وخصه من بينكم، فلو ادعى أحد منكم مثل دعواه، لكان قوله من جنس قوله، ولكنه يريد أن يتفضل عليكم، ويرأس فيكم، فلا تطيعوه، ولا تصدقوه»[6].

قال ابن عاشور: «وجه إسرارهم بذلك الكلام قصدهم أن لا يطلع المسلمون على ما تآمروا به لئلا يتصدى الرسول ﷺ للرد عليهم؛ لأنهم علموا أن حجتهم في ذلك واهية يرومون بها أن يضللوا الدهماء، أو أنهم أسروا بذلك لفريق رأوا منهم مخائل التصديق لما جاء به النبي ﷺ لما تكاثر بمكة الذين أسلموا فخشوا أن يتتابع دخول الناس في الإسلام، فاختلوا بقوم ما زالوا على الشرك، وناجوهم بذلك ليدخلوا الشك في قلوبهم»[7].

* * *

(١) النحل: الآية (٤٣).
(٢) الرعد: الآية (٣٨).
(٣) الفرقان: الآية (٢٠).
(٤) الأنبياء: الآية (٨).
(٥) أضواء البيان (٤/ ٥٥٤-٥٥٥).
(٦) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٠٨-٢٠٩).
(٧) التحرير والتنوير (١٧/ ١٣).

قوله تعالى: ﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي أفتتبعونه فتكونون كمن يأتي السحر وهو يعلم أنه سحر، فقال تعالى مجيبا لهم عما افتروه واختلقوه من الكذب ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ﴾ أي الذي يعلم ذلك، لا يخفى عليه خافية، وهو الذي أنزل هذا القرآن المشتمل على خبر الأولين والآخرين، الذي لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله إلا الذي يعلم السر في السموات والأرض وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي السميع لأقوالكم والعليم بأحوالكم وفي هذا تهديد لهم ووعيد»[1].

قال الشنقيطي: «المعنى: أنهم زعموا أن ما جاء به نبينا ﷺ سحر، وبناء على ذلك الزعم الباطل أنكروا على أنفسهم إتيان السحر وهم يبصرون. يعنون بذلك تصديق النبي ﷺ، أي لا يمكن أن نصدقك ونتبعك، ونحن نبصر أن ما جئت به سحر. وقد بين -جل وعلا- في غير هذا الموضع أنهم ادعوا أن ما جاء به ﷺ سحر، كقوله عن بعضهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾[3]. وقد رد اللّٰه عليهم دعواهم أن القرآن سحر بقوله هنا: ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝﴾[4] يعني أن الذي يعلم القول في السماء والأرض الذي هو السميع العليم، المحيط علمه بكل شيء، هو الذي أنزل هذا القرآن العظيم، وكون من أنزله هو العالم بكل شيء يدل على كمال صدقه في الأخبار وعدله في الأحكام، وسلامته من جميع العيوب والنقائص، وأنه ليس بسحر. وقد أوضح هذا المعنى في غير هذا الموضع: كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣٢٥).

(٢) المدثر: الآية (٢٤).

(٣) الذاريات: الآية (٥٢).

(٤) الأنبياء: الآية (٤).

يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[1] الآية، وقوله تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾[2] إلى غير ذلك من الآيات»[3].

قال السعدي: «هذا، وهم يعلمون أنه رسول اللّه حقا بما يشاهدون من الآيات الباهرة، ما لم يشاهده غيرهم، ولكن حملهم على ذلك الشقاء والظلم والعناد، واللّه تعالى قد أحاط علما بما تناجوا به، وسيجازيهم عليه، ولهذا قال: ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ﴾ أي: الخفي والجلي ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: في جميع ما احتوت عليه أقطارهما ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لسائر الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما في الضمائر، وأكنته السرائر»[4].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في السحر

* عن جندب البجلي أنه قتل ساحرا كان عند الوليد بن عقبة ثم قال: ﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾[5].

* عن عائشة رضي الله عنها قالت: سحر رسول اللّه ﷺ رجل من بني زريق يقال له لبيد بن الأعصم، حتى كان رسول اللّه ﷺ يخيل إليه أنه كان يفعل الشيء وما فعله، حتى إذا كان ذات يوم -أو ذات ليلة وهو عندي، لكنه دعا ودعا ثم قال: يا عائشة أشعرت أن اللّه أفتاني فيما استفتيته فيه؟ أتاني رجلان فقعد أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي، فقال أحدهما لصاحبه: ما وجع الرجل؟ فقال: مطبوب، قال: ومن طبه؟ قال: لبيد بن الأعصم، قال: في أي شيء؟ قال: في مشط ومشاطة وجف طلع نخلة ذكر، قال: وأين هو؟ قال: في بئر ذروان، فأتاها رسول اللّه ﷺ في ناس من أصحابه، فجاء فقال: يا عائشة، كأن ماءها نقاعة الحناء، وكأن رؤوس نخلها رؤوس الشياطين، قلت: يا رسول اللّه أفلا استخرجته؟ قال: قد عافاني اللّه،

---

(١) الفرقان: الآية (٦). (٢) النساء: الآية (١٦٦).

(٣) أضواء البيان (٤/ ٥٥٥-٥٥٦). (٤) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٠٩).

(٥) أخرجه: البخاري في التاريخ (٢/ ٢٢٢/ ٢٢٦٨) والدارقطني (٣/ ١١٤/ ١١٣) والبيهقي في السنن الكبرى (٨/ ١٣٦). وأخرج القصة مطولة: الحاكم (٤/ ٣٦١) وسكت عنها وكذا الذهبي. وقال الألباني رحمه الله في الضعيفة (١٤٤٦): «وهذا إسناد صحيح موقوف».

فكرهت أن أثير على الناس فيه شرا، فأمر بها فدفنت[١].

★ **فوائد الحديث:**

تقدم الكلام حول حكم السحر وما جاء في حده في سورة البقرة عند الآية (١٠٢).

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٦/ ٥٧) والبخاري (١٠/ ٢٧٢/ ٥٧٦٣) ومسلم (٤/ ١٧١٩-١٧٢٠/ ٢١٨٩) والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٨٠/ ٧٦١٥) وابن ماجه (٢/ ١١٧٣/ ٣٥٤٥).

قوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ⑤﴾

★ **غريب الآية:**

أضغاث: أخلاط مجتمعة لا يعلم تأويلها. واحدها: ضغث.

افتراه: اختلقه وكذبه. والافتراء: الكذب.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ما صدقوا بحكمة هذا القرآن، ولا أنه من عند اللَّه، ولا أقروا بأنه وحي أوحى اللَّه إلى محمد ﷺ، بل قال بعضهم: هو أهاويل رؤيا رآها في النوم. وقال بعضهم: هو فرية واختلاق افتراه واختلقه من قبل نفسه. وقال بعضهم: بل محمد شاعر، وهذا الذي جاءكم به شعر ﴿فَلْيَأْتِنَا﴾ به يقول: قالوا فليجئنا محمد إن كان صادقا في قوله أن اللَّه بعثه رسولا إلينا، وأن هذا الذي يتلوه علينا وحي من اللَّه أوحاه إلينا ﴿بِـَٔايَةٍ﴾ يقول: بحجة ودلالة على حقيقة ما يقول ويدعي ﴿كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ يقول: كما جاءت به الرسل الأولون من قبله من إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، وكناقة صالح، وما أشبه ذلك من المعجزات التي لا يقدر عليها إلا اللَّه، ولا يأتي بها إلا الأنبياء والرسل»[1].

قال البقاعي: «ولما كانت أقوالهم في أمر القرآن قد اضطربت، والاضطراب من أمارات الباطل، وكان وصفهم له بأنه سحر مما يهول السامع ويعلم منه أنه معجز، فربما أدى إلى الاستبصار في أمره، أخبر أنهم نزلوا به عن رتبة السحر على سبيل الاضطراب فقال: ﴿بَلْ قَالُوٓا۟﴾ أي عن هذا الذكر الحكيم أنه ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ﴾ أي تخاليط نائم مبناه الباطل وإن كان ربما صدق بالأخبار ببعض المغيبات التي كشف الزمان عن أنها كما أخبر القرآن، ثم نزلوا عن ذلك إلى وصف موجب

(١) جامع البيان (١٧/ ٣).

لأعظم النفرة عنه وعمن ظهر عنه فقالوا: ﴿بَلِ ٱفۡتَرَىٰهُ﴾ أي تعمد وصفه من عند نفسه ونسبه إلى اللَّه.

ولما كان ذلك لا ينافي كون مضمونه صادقا في نفسه، قالوا: ﴿بَلۡ هُوَ شَاعِرٌ﴾ أي يخيل ما لا حقيقة له كغيره من الشعراء، نتربص به ريب المنون لأنه بشر كما تقدم، فلا بد أن يموت ونستريح بعد موته، وإليه أشار في آخر التي قبلها ﴿قُلۡ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ﴾[1] إلى آخره، فاضطربت أقوالهم وعولوا أخيرا على قريب من السحر في نفي الحقيقة.

ولما كانوا يصفون القرآن بجميع هذه الأوصاف جملة، يقولون لكل شخص ما رأوه أنسب له منها، نبه اللَّه سبحانه كل من له لب على بطلانها كلها بتناقضها بحرف الإضراب إشارة إلى أنه كان يجب على من قالها على قلة عقله وعدم حيائه أن لا ينتقل إلى قول منها إلا بعد الإعراض عن الذي قبله، وأنه مما يضرب عنه لكونه غلطا، ما قيل إلا عن سبق لسان وعدم تأمل، سترا لعناده وتدليسا لفجوره، ولو فعل ذلك لكانت جديرة بانكشاف بطلانها بمجرد الانتقال فكيف عند اجتماعها. ولما كانت نسبته إلى الشعر أضعفها شأنا، وأوضحها بطلانا، لم يحتج إلى إضراب عنه، وعبروا في الأضغاث بوصف القرآن تأكيدا لعيبه، وفي الافتراء والشعر بوصفه ﷺ لذلك.

ولما أنتج لهم ذلك على زعمهم القدح في أعظم المعجزات، سببوا عن هذا القدح طلب آية فقالوا: ﴿فَلۡيَأۡتِنَا﴾ أي دليلا على رسالته ﴿بِـَٔايَةٖ﴾ أي لأنا قد بينا بطعننا أن القرآن ليس بآية؛ ثم خيلوا النصفة بقولهم: ﴿كَمَآ﴾ أي مثل ما، وبنوا الفعل للمفعول إشارة إلى أنه متى صحت الرسالة كان ذلك بزعمهم من غير تخلف لشيء أصلا فقالوا: ﴿أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ أي بالآيات مثل تسبيح الجبال، وتسخير الريح، وتفجير الماء، وإحياء الموتى، وهذا تناقض آخر في اعترافهم برسالة الأولين مع معرفتهم أنهم بشر، وإنكارهم رسالته ﷺ لكونه بشرا، ولم يستحيوا بعد التناقض من المكابرة فيما أتاهم به من انشقاق القمر، وتسبيح الحصى، ونبع الماء، والقرآن المعجز، مع كونه أميًّا إلى غير ذلك»[2].

---

(١) طه: الآية (١٣٥).

(٢) نظم الدرر (١٢/ ٣٨٦-٣٨٨).

قال الشنقيطي: «الظاهر أن الإضراب في قوله هنا: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ إلخ، إضراب انتقالي لا إبطالي، لأنهم قالوا ذلك كله، وقال بعض العلماء: كل هذه الأقوال المختلفة التي حكاها اللّه عنهم صدرت من طائفة متفقة لا يثبتون على قول، بل تارة يقولون هو ساحر، وتارة شاعر، وهكذا، لأن المبطل لا يثبت على قول واحد. وقال بعض أهل العلم: كل واحد من تلك الأقوال قالته طائفة: كما قدمنا الإشارة إلى هذا في سورة الحجر في الكلام على قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾﴾[1] وقد رد اللّه عليهم هذه الدعاوى الباطلة في آيات من كتابه: كرده دعواهم أنه شاعر أو كاهن في قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾[3]، وقوله في رد دعواهم إنه افتراه: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُۖ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُۖ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[6] إلى غير ذلك من الآيات، وكقوله في رد دعواهم إنه كاهن أو مجنون: ﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾[7]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾[8]، وقوله تعالى: ﴿۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾[9]، وقوله: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢۚ بَلْ

(١) الحجر: الآية (٩١).
(٢) الحاقة: الآيات (٤١-٤٧).
(٣) يس: الآيات (٦٩-٧٠).
(٤) يونس: الآيتان (٣٧و٣٨).
(٥) هود: الآية (١٣).
(٦) يوسف: الآية (١١١).
(٧) الطور: الآية (٢٩).
(٨) التكوير: الآية (٢٢).
(٩) سبأ: الآية (٤٦).

جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ وَأَكۡثَرُهُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾﴾[(١)] إلى غير ذلك من الآيات المبينة إبطال كل ما ادعوه في النبي ﷺ والقرآن. وقوله: ﴿أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمِۭ﴾ أي أخلاط كالأحلام المختلفة التي يراها النائم ولا حقيقة لها كما قال الشاعر:

أحاديث طسم أو سراب بفدفد ترقرق للساري وأضغاث حالم

وعن اليزيدي: الأضغاث ما لم يكن له تأويل.

قوله تعالى: ﴿فَلۡيَأۡتِنَا بِـَٔايَةٖ كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أن الكفار اقترحوا على نبينا أن يأتيهم بآية كآيات الرسل قبله؛ نحو ناقة صالح، وعصى موسى، وريح سليمان، وإحياء عيسى للأموات وإبرائه الأكمه والأبرص، ونحو ذلك. وإيضاح وجه التشبيه في قوله: ﴿كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ هو أنه في معنى: كما أتى الأولون بالآيات؛ لأن إرسال الرسل متضمن للإتيان بالآيات، فكذلك أرسل محمد ﷺ بالمعجزة. وقد بين تعالى أن الآيات التي اقترحوها لو جاءتهم ما آمنوا وأنها لو جاءتهم وتمادوا على كفرهم أهلكهم الله بعذاب مستأصل، كما أهلك قوم صالح لما عقروا الناقة. كقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ﴾[(٢)] الآية، وكقوله تعالى: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ لَّيُؤۡمِنُنَّ بِهَاۚ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَا يُشۡعِرُكُمۡ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٠٩﴾﴾[(٣)]. وأشار إلى ذلك هنا في قوله: ﴿مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآۖ أَفَهُمۡ يُؤۡمِنُونَ ﴿٦﴾﴾[(٤)] يعني أن الأمم الذين اقترحوا الآيات من قبلهم وجاءتهم رسلهم بما اقترحوا، لم يؤمنوا بل تمادوا فأهلكهم الله وأنتم أشد منهم عتوا وعنادا. فلو جاءكم ما اقترحتم، ما آمنتم، فهلكتم كما هلكوا. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ﴾[(٥)] إلى غير ذلك من الآيات.

وبين أنهم جاءتهم آية هي أعظم الآيات، فيستحق من لم يكتف بها التقريع والتوبيخ، وذلك في قوله: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ

---

(١) المؤمنون: الآيتان (٦٩و٧٠).
(٢) الإسراء: الآية (٥٩).
(٣) الأنعام: الآية (١٠٩).
(٤) الأنبياء: الآية (٦).
(٥) يونس: الآيتان (٩٦و٩٧).

عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥٠ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾[١] الآية»[٢].

قال السعدي: «يذكر تعالى ائتفاك المكذبين بمحمد ﷺ، وبما جاء به من القرآن العظيم، وأنهم تقولوا فيه، وقالوا فيه الأقاويل الباطلة المختلفة، فتارة يقولون: ﴿أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾ بمنزلة كلام النائم الهاذي، الذي لا يحس بما يقول، وتارة يقولون: ﴿افْتَرَاهُ﴾ واختلقه وتقوله من عند نفسه، وتارة يقولون: إنه شاعر وما جاء به شعر.

وكل من له أدنى معرفة بالواقع من حالة الرسول، ونظر في هذا الذي جاء به، جزم جزما لا يقبل الشك، أنه أجل الكلام وأعلاه، وأنه من عند اللَّه، وأن أحدا من البشر لا يقدر على الإتيان بمثل بعضه، كما تحدى اللَّه أعداءه بذلك، ليعارضوه مع توفر دواعيهم لمعارضته وعداوته، فلم يقدروا على شيء من معارضته، وهم يعلمون ذلك، وإلا فما الذي أقامهم وأقعدهم وأقض مضاجعهم، وبلبل ألسنتهم إلا الحق الذي لا يقوم له شيء، وإنما يقولون هذه الأقوال فيه -حيث لم يؤمنوا به- تنفيرا عنه لمن لم يعرفه، وهو أكبر الآيات المستمرة، الدالة على صحة ما جاء به الرسول ﷺ وصدقه، وهو كاف شاف، فمن طلب دليلا غيره، أو اقترح آية من الآيات سواه، فهو جاهل ظالم مشبه لهؤلاء المعاندين الذين كذبوه وطلبوا من الآيات الاقتراحية ما هو أضر شيء عليهم، وليس لهم فيها مصلحة، لأنهم إن كان قصدهم معرفة الحق إذا تبين دليله، فقد تبين دليله بدونها، وإن كان قصدهم التعجيز وإقامة العذر لأنفسهم، إن لم يأت بما طلبوا فإنهم بهذه الحالة -على فرض إتيان ما طلبوا من الآيات- لا يؤمنون قطعا، فلو جاءتهم كل آية، لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم.

ولهذا قال اللَّه عنهم: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ أي: كناقة صالح، وعصا موسى، ونحو ذلك»[٣].

* * *

(١) العنكبوت: الآيتان (٥٠و٥١).

(٢) أضواء البيان (٤/ ٥٥٦-٥٥٨).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢١٠-٢١١).

قوله تعالى: ﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ما آمن من قبل هؤلاء المكذبين محمدا من مشركي قومه الذين قالوا: فليأتنا محمد بآية كما جاءت به الرسل قبله من أهل قرية عذبناهم بالهلاك في الدنيا إذ جاءهم رسولنا إليهم بآية معجزة ﴿أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ يقول: أفهؤلاء المكذبون محمدا السائلوه الآية يؤمنون به إن جاءتهم آية، ولم تؤمن قبلهم أسلافهم من الأمم الخالية التي أهلكناها برسلها مع مجيئها»[1].

قال ابن كثير: «أي ما آتينا قرية من القرى التي بعث فيهم الرسل آية على يدي نبيها فآمنوا بها بل كذبوا، فأهلكناهم بذلك، أفهؤلاء يؤمنون بالآيات لو رأوها دون أولئك؟ كلا بل ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ۝٩٧﴾[2] هذا كله، وقد شاهدوا من الآيات الباهرات والحجج القاطعات والدلائل البينات على يدي رسول الله ﷺ ما هو أظهر وأجلى، وأبهر وأقطع وأقهر، مما شوهد مع غيره من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين»[3].

قال السعدي: «أي: بهذه الآيات المقترحة، وإنما سنته تقتضي أن من طلبها، ثم حصلت له، فلم يؤمن أن يعاجله بالعقوبة. فالأولون ما آمنوا بها، أفيؤمن هؤلاء بها؟ ما الذي فضلهم على أولئك، وما الخير الذي فيهم، يقتضي الإيمان عند وجودها؟ وهذا الاستفهام بمعنى النفي، أي: لا يكون ذلك منهم أبدا»[4].

* * *

---

(١) جامع البيان (١٧/ ٤).

(٢) يونس: الآيتان (٩٦و٩٧).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣٢٥-٣٢٦).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢١١).

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٧﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه: وما أرسلنا يا محمد رسولا إلى أمة من الأمم التي خلت من قبل أمتك إلا رجالا مثلهم نوحي إليهم، ما نريد أن نوحيه إليهم، من أمرنا ونهينا، لا ملائكة، فماذا أنكروا من إرسالنا لك إليهم، وأنت رجل كسائر الرسل الذين قبلك إلى أممهم. وقوله: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ يقول للقائلين لمحمد ﷺ في تناجيهم بينهم: هل هذا إلا بشر مثلكم: فإن أنكرتم وجهلتم أمر الرسل الذين كانوا من قبل محمد، فلم تعلموا أيها القوم أمرهم إنسا كانوا أم ملائكة، فاسألوا أهل الكتب من التوراة والإنجيل ما كانوا يخبروكم عنهم»(١).

قال ابن كثير: «يقول تعالى رادًّا على من أنكر بعثة الرسل من البشر: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم﴾ أي جميع الرسل الذين تقدموا كانوا رجالا من البشر، لم يكن فيهم أحد من الملائكة، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ﴾(٢) وقال تعالى: ﴿قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾(٣) وقال تعالى حكاية عمن تقدم من الأمم أنهم أنكروا ذلك فقالوا: ﴿أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا﴾(٤) ولهذا قال تعالى: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ أي اسألوا أهل العلم من الأمم كاليهود والنصارى وسائر الطوائف: هل كان الرسل الذين أتوهم بشرا أو ملائكة؟ إنما كانوا بشرا، وذلك من تمام نعمة الله على خلقه؛ إذ بعث فيهم رسلا منهم يتمكنون من تناول البلاغ منهم والأخذ عنهم»(٥).

---

(١) جامع البيان (١٧/ ٤-٥).
(٢) يوسف: الآية (١٠٩).
(٣) الأحقاف: الآية (٩).
(٤) التغابن: الآية (٦).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣٢٦-٣٢٧).

قال البقاعي: «ولما كان السياق لإنكار أن يكون النبي بشرا، وكان الدهر كله ما خلا قط جزء منه من رسالة، إما برسول قائم، وإما بتناقل أخباره، كان تعميم الزمان أنسب فقال من غير حرف جر: ﴿قَبْلِكَ﴾ أي في جميع الزمان الذي تقدم زمانك في جميع طوائف البشر ﴿إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ بالملائكة سرا من غير أن يطلع على ذلك الملك غيرهم، كما اقتضته العظمة من التخصيص والاختيار والإسرار عن الأغيار، وذلك من نعم اللّه على خلقه، لأن جعل الرسل من البشر أمكن للتلقي منهم والأخذ عنهم.

ولما لم يكن لهم طريق في علم هذا إن لم يقبلوا خبره عن القرآن إلا سؤال من كانوا يفزعون إليهم من أهل الكتاب ليشايعوهم على ما هم عليه من الشك والارتياب، قال: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ ثم نبه على أنهم غير محتاجين فيه إلى السؤال بما كان قد بلغهم على الآجال من أحوال موسى وعيسى وإبراهيم وإسماعيل وغيرهم عليهم الصلاة والسلام بقوله، معبرا بأداة الشك محركا لهم إلى المعالي: ﴿إِن كُنتُمْ﴾ أي بجبلاتكم ﴿لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي لا أهلية لكم في اقتناص علم، بل كنتم أهل تقليد محض وتبع صرف»[١].

قال السعدي: «هذه الآية وإن كان سببها خاصا بالسؤال عن حالة الرسل المتقدمين من أهل الذكر، وهم أهل العلم، فإنها عامة في كل مسألة من مسائل الدين، أصوله وفروعه، إذا لم يكن عند الإنسان علم منها أن يسأل من يعلمها. ففيه الأمر بالتعلم والسؤال لأهل العلم. ولم يؤمر بسؤالهم إلا لأنه يجب عليهم التعليم والإجابة عما علموه.

وفي تخصيص السؤال بأهل الذكر والعلم نهي عن سؤال المعروف بالجهل، وعدم العلم، ونهي له أن يتصدى لذلك. وفي هذه الآية دليل على أن النساء ليس منهن نبية لا مريم ولا غيرها لقوله: ﴿إِلَّا رِجَالًا﴾»[٢].

قلت: هكذا نجد في السور المكية المباحثة والمناظرة المتكررة بأساليب متعددة مع كفار قريش المعاندين الذين يختلقون الشبه الباردة، التي يعرف كذبها من

---

(١) نظم الدرر (١٢/ ٣٨٩-٣٩٠).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢١٣-٢١٤).

له أدنى مسكة عقل وبصيص فهم، ومنهجهم الإعراض عن كتاب اللَّه ووصفهم له بما يحلو لهم والإعراض عن نبوة الرسول ﷺ مع وضوح دلائله وآياته، ولهذا قال اللَّه فيهم: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾[1]، وهذا المنهج الباطل الفاسد مستمر دعاته، بل توسع الملاحدة فيه، واختلقوا شيئا سموه الطبيعة فهي الخالقة الصانعة المسيرة عندهم، ولو سئل أحدهم عن تحديد الطبيعة ما هي؟ ما استطاع جوابًا عن ذلك، وإنما يرمي بالكلام رميًا، وبالشبه التي لا تنطلي إلا على الحمقى والغارقين في الشهوات والموبقات، الذين لا يميزون بين خبيث وطيب.

والمبتدعة وأمثالهم من أهل الإسلام يرتكسون في الطواف بالموتى والمقبورين، الذين مضى على موتهم مئات السنين ولا يعرف لهم أثر ولا وجود وإنما هو عدم متحقق، ومع ذلك يبنون عليهم، ويرممون بناياتهم الواسعة، ويضعون فيها من الأموال ما يبني مدنًا للفقراء والمساكين، ولو كانوا كما يقولون بأن في هذه القبور من يعتقدون، فهو لا يسمن ولا يغنيهم من جوع، ولا ينفع الطائف بها، وكما قال تعالى: ﴿فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾[2]، وكما قال تعالى: ﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ﴾[3]، فقل لي بربك هل هناك أكثر من هذه الارتكاسة والانتكاسة التي تضحك منها الحيوانات؟! وترى الحمقى يترنمون بأبيات وأصوات يوهمون الغفلى أنهم يذكرون ويعيشون أزمانًا روحانية! ولهذا تجد مجالسهم يؤمها الأبالسة والشياطين من الجن والإنس، ويرتكبون فيها الموبقات التي يندى لها الجبين، فهلا سأل المشركون والمبتدعة عن هذه الأفعال الشنيعة أهل العلم بالتوحيد والسنة، فيخبرونهم بواقع ارتكاسهم وانتكاسهم، وأن بدعهم لا خير فيها مهما زينها لهم إبليس، واللَّه المستعان.

* * *

---

(١) البقرة: الآيتان (٦و٧).

(٢) الأنبياء: الآية (٦٣).

(٣) فاطر: الآية (١٤).

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ⑧﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وما جعلنا الرسل الذين أرسلناهم من قبلك يا محمد إلى الأمم الماضية قبل أمتك ﴿جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ يقول: لم نجعلهم ملائكة لا يأكلون الطعام، ولكن جعلناهم أجسادا مثلك يأكلون الطعام.. وقوله: ﴿وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ يقول: ولا كانوا أربابا لا يموتون ولا يفنون، ولكنهم كانوا بشرا أجسادا فماتوا، وذلك أنهم قالوا لرسول اللّه ﷺ كما أخبر اللّه عنهم ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا﴾ إلى قوله: ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا﴾[1] قال اللّه -تبارك وتعالى- لهم: ما فعلنا ذلك بأحد قبلكم فنفعل بكم، وإنما كنا نرسل إليهم رجالا نوحي إليهم كما أرسلنا إليكم رسولا نوحي إليه أمرنا ونهينا»[2].

قال الرازي: «كانوا يقولون: ﴿مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ⑦﴾[3] فأجاب اللّه بقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ فبين تعالى أن هذه عادة اللّه في الرسل من قبل وأنه لم يجعلهم جسدا لا يأكلون بل جسدا يأكلون الطعام ولا يخلدون في الدنيا بل يموتون كغيرهم، ونبه بذلك على أن الذي صاروا به رسلا غير ذلك وهو ظهور المعجزات على أيديهم وبراءتهم عن الصفات القادحة في التبليغ»[4].

قال السعدي: «هذا جواب لشبه المكذبين للرسول القائلين: هلا كان ملكا، لا يحتاج إلى طعام وشراب، وتصرف في الأسواق، وهلا كان خالدا؟ فإذا لم يكن

---

(١) الإسراء: الآيات (٩٠-٩٢).

(٢) جامع البيان (١٧/ ٥-٦).

(٣) الفرقان: الآية (٧).

(٤) التفسير الكبير (٢٢/ ١٤٥).

كذلك، دل على أنه ليس برسول.

وهذه الشبه ما زالت في قلوب المكذبين للرسل، تشابهوا في الكفر، فتشابهت أقوالهم، فأجاب تعالى عن هذه الشبه لهؤلاء المكذبين للرسول، المقرين بإثبات الرسل قبله -ولو لم يكن إلا إبراهيم عليه السلام، الذي قد أقر بنبوته جميع الطوائف، والمشركون يزعمون أنهم على دينه وملته- بأن الرسل قبل محمد ﷺ، كلهم من البشر، الذين يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق، وتطرأ عليهم العوارض البشرية، من الموت وغيره، وأن الله أرسلهم إلى قومهم وأممهم، فصدقهم من صدقهم، وكذبهم من كذبهم، وأن الله صدقهم ما وعدهم به من النجاة، والسعادة لهم ولأتباعهم، وأهلك المسرفين المكذبين لهم.

فما بال محمد ﷺ، تقام الشبه الباطلة على إنكار رسالته، وهي موجودة في إخوانه المرسلين، الذين يقر بهم المكذبون لمحمد؟ فهذا إلزام لهم في غاية الوضوح، وأنهم إن أقروا برسول من البشر، ولن يقروا برسول من غير البشر، إن شبههم باطلة، قد أبطلوها هم بإقرارهم بفسادها، وتناقضهم بها، فلو قدر انتقالهم من هذا إلى إنكار نبوة البشر رأسا، وأنه لا يكون نبي إن لم يكن ملكا مخلدا، لا يأكل الطعام، فقد أجاب [الله] تعالى عن هذه الشبهة بقوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝٨ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾[1]»[2].

قال القاسمي: «وفي هذا التعريف الرباني عن حال المرسل أكبر رادع لأولئك المنزوين عن الناس المتصيدين به قلوب الرعاع والعامة والحمقى ومن لا يزن عند ربه جناح بعوضة. إذ يرون تناول الطعام في المحافل وتكثير سواد الناس في المجامع والخروج للأسواق لقضاء الحاجات، من أعظم الهوادم لصروح الاعتقاد فيهم. فتراهم يأنفون من شراء حوائجهم بأيديهم، وهو السنة. ومن المشي بالأسواق وهو المأذون فيه. ومن إجابة الدعوة، وهي واجبة لأوهام في أنفسهم شيدوها. ومحافظة على السمعة حموا جانبها. فتبا لهم من قوم مبتدعين، يعبدون

(١) الأنعام: الآيتان (٨و٩).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢١٢-٢١٣).

قلوب الخلق ولا يعبدون اللَّه. ويريدون حالة فوق ما عليه رسل اللَّه. وما ذاك إلا لله. فما أجرأهم على منازعة الجبار. وما أصبرهم على النار»[١].

قال ابن عاشور: «وذكر الجسد يفيد التهكم بالمشركين لأنهم لما قالوا: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾[٢] وسألوا أن يأتي بما أرسل به الأولون كان مقتضى أقوالهم أن الرسل الأولين كانوا في صور الآدميين لكنهم لا يأكلون الطعام، وأكل الطعام من لوازم الحياة، فلزمهم لما قالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام أن يكونوا قائلين بأن شأن الرسل أن يكونوا أجسادا بلا أرواح، وهذا من السخافة بمكانة.

وأما قوله: ﴿وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ﴾ فهو زيادة استدلال لتحقيق بشريتهم استدلالا لا بما هو واقع من عدم كفاءة أولئك الرسل كما هو معلوم بالمشاهدة لقطع معاذير الضالين، فإن زعموا أن قد كان الرسل الأولون مخالفين للبشر فماذا يصنعون في لحاق الفناء إياهم. فهذا وجه زيادة ﴿وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ﴾ وأتي في نفي الخلود عنهم بصيغة ﴿مَا كَانُوا۟﴾ تحقيقًا لتمكن عدم الخلود منهم»[٣].

* * *

(١) محاسن التأويل (١١/ ٢٣٥-٢٣٦).

(٢) الفرقان: الآية (٧).

(٣) التحرير والتنوير (١٧/ ١٩-٢٠).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٩﴾

★ **غريب الآية:**

المسرفين: جمع مسرف، وهو المتجاوز لحد الاعتدال في كل شيء.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ثم صدقنا رسلنا الذين كذبتهم أممهم وسألتهم الآيات فآتيناهم ما سألوه من ذلك ثم أقاموا على تكذيبهم إياها، وأصروا على جحودهم نبوتها بعد الذي أتتهم به من آيات ربها، وعدنا الذي وعدناهم من الهلاك على إقامتهم على الكفر بربهم بعد مجيء الآية التي سألوه وذلك كقوله -جل ثناؤه-: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1] وكقوله: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾[2] ونحو ذلك من المواعيد التي وعد الأمم مع مجيء الآيات وقوله: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُمْ﴾ يقول -تعالى ذكره-: فأنجينا الرسل عند إصرار أممها على تكذيبها بعد الآيات ﴿وَمَن نَّشَآءُ﴾ وهم أتباعها الذين صدقوها وآمنوا بها وقوله: ﴿وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ يقول -تعالى ذكره-: وأهلكنا الذين أسرفوا على أنفسهم بكفرهم بربهم»[3].

قال الشنقيطي: «بين -جل وعلا- في هذه الآيات: أنه أرسل الرسل إلى الأمم فكذبوهم، وأنه وعد الرسل بأن لهم النصر والعاقبة الحسنة، وأنه صدق رسله ذلك الوعد فأنجاهم. وأنجى معهم ما شاء أن ينجيه.. والمراد به من آمن بهم من أممهم، وأهلك المسرفين وهم الكفار المكذبون للرسل، وقد أوضح هذا المعنى

---

(١) المائدة: الآية (١١٥).

(٢) هود: الآية (٦٤).

(٣) جامع البيان (١٧/ ٦).

في مواضع كثيرة من كتابه، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾[1]، وقوله: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ * وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ﴾[3]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾[5] الآية، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَـٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾[6] الآية، وقوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾[7] الآية، إلى غير ذلك من الآيات. والظاهر أن (صدق) تتعدى بنفسها وبالحروف، تقول: صدقته الوعد، وصدقته في الوعد. كقوله هنا: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَـٰهُمُ ٱلْوَعْدَ﴾، وقوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ﴾[8]. فقول الزمخشري: ﴿صَدَقْنَـٰهُمُ ٱلْوَعْدَ﴾ كقوله: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ لا حاجة إليه، والله أعلم. والإسراف: مجاوزة الحد في المعاصي كالكفر، ولذلك يكثر في القرآن إطلاق المسرفين على الكفار»[9].

* * *

(١) يوسف: الآية (١١٠).

(٢) إبراهيم: الآية (٤٧).

(٣) إبراهيم: الآيتان (١٣و١٤).

(٤) الصافات: الآيات (١٧١-١٧٣).

(٥) هود: الآية (٥٨).

(٦) هود: الآية (٦٦).

(٧) هود: الآية (٩٤).

(٨) آل عمران: الآية (١٥٢).

(٩) أضواء البيان (٤/٥٥٨-٥٥٩).

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٠﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «بين تعالى بقوله: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ عظيم نعمته عليهم بالقرآن في الدين والدنيا، فلذلك قال فيه: ﴿ذِكْرُكُمْ﴾ وفيه ثلاثة أوجه:

أحدها: ذكرهم شرفكم وصيتكم، كما قال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾[1].

وثانيها: المراد فيه تذكرة لكم لتحذروا ما لا يحل وترغبوا فيما يجب، ويكون المراد بالذكر الوعد والوعيد، كما قال: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٥﴾[2].

وثالثها: المراد ذكر دينكم ما يلزم وما لا يلزم لتفوزوا بالجنة إذا تمسكتم به وكل ذلك محتمل، وقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ كالبعث على التدبر في القرآن لأنهم كانوا غفلاء لأن الخوض من لوازم الغفلة والتدبر دافع لذلك الخوض ودفع الضرر عن النفس من لوازم الفعل، فمن لم يتدبر فكأنه خرج عن العقل»[3].

قال ابن عاشور: «والذكر يطلق على التذكير بما فيه الصلاح، ويطلق على السمعة والصيت كقوله: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢﴾[4]. وقد أوثر هذا المصدر هنا وجعل معرفا بالإضافة إلى ضمير المخاطبين ليكون كلاما موجها فيصح قصد المعنيين معا من كلمة (الذكر) بأن مجيء القرآن مشتملا على أعظم الهدى هو تذكير لهم بما به نهاية إصلاحهم ومجيئه بلغتهم، وفي قومهم، وبواسطة واحد منهم، سمعة عظيمة لهم كما قال تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ۝١٩٥﴾[5] وقال: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ﴾[6].

وقد فسر السلف هذه الآية بالمعنيين. وفي تفسير الطبري هنا قال جماعة: معنى ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ أنه الشرف أي فيه شرفكم. وقال ابن عطية: يحتمل أن يريد فيه شرفكم

---

(١) الزخرف: الآية (٤٤).
(٢) الذاريات: الآية (٥٥).
(٣) التفسير الكبير (٢٢/ ١٤٦).
(٤) مريم: الآية (٢).
(٥) الشعراء: الآية (١٩٥).
(٦) البقرة: الآية (١٥١).

وذكركم آخر الدهر كما تذكر عظام الأمور. وقد فسر بمثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ﴾[١].

وعلى المعنيين يكون لتفريع قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ أحسن موقع لأن الاستفهام الإنكاري لنفي عقلهم متجه على كلا المعنيين فإن من جاءه ما به هديه فلم يهتد ينكر عليه سوء عقله، ومن جاءه ما به مجده وسمعته فلم يعبأ به ينكر عليه سوء قدره للأمور حق قدرها كما يكون الفضل في مثله مضاعفا. وأيضا فهو متفرع على الإقناع بإنزال القرآن آية تفوق الآيات التي سألوا مثلها وهو المفاد من الاستئناف ومن تأكيد الجملة بالقسم وحرف التحقيق قال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ۝٥١﴾ في سورة العنكبوت وذلك لإعجازه اللفظي والمعنوي»[٢].

قال السعدي: «﴿لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ﴾ -أيها المرسل إليهم، محمد بن عبدالله بن عبد المطلب- ﴿كِتَٰبٗا﴾ جليلًا وقرآنًا مبينًا ﴿فِيهِ ذِكۡرُكُمۡ﴾ أي: شرفكم وفخركم وارتفاعكم، إن تذكرتم به ما فيه من الأخبار الصادقة فاعتقدتموها، وامتثلتم ما فيه من الأوامر، واجتنبتم ما فيه من النواهي، ارتفع قدركم، وعظم أمركم، ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ ما ينفعكم وما يضركم؟ كيف لا ترضون ولا تعملون على ما فيه ذكركم وشرفكم في الدنيا والآخرة، فلو كان لكم عقل، لسلكتم هذا السبيل، فلما لم تسلكوه، وسلكتم غيره من الطرق، التي فيها ضعتكم وخستكم في الدنيا والآخرة وشقاوتكم فيهما، علم أنه ليس لكم معقول صحيح، ولا رأي رجيح.

وهذه الآية، مصداقها ما وقع، فإن المؤمنين بالرسول الذين تذكروا بالقرآن من الصحابة فمن بعدهم، حصل لهم من الرفعة والعلو الباهر، والصيت العظيم، والشرف على الملوك، ما هو أمر معلوم لكل أحد، كما أنه معلوم ما حصل، لمن لم يرفع بهذا القرآن رأسا، ولم يهتد به ويتزك به، من المقت والضعة، والتدسية، والشقاوة، فلا سبيل إلى سعادة الدنيا والآخرة إلا بالتذكر بهذا الكتاب»[٣].

* * *

(١) الزخرف: الآية (٤٤).
(٢) التحرير والتنوير (١٧/ ٢٢-٢٣).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢١٤-٢١٥).

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾﴾

★ **غريب الآية:**

قصمنا: القصم: الكسر والحطم. وعبر به عن الهلاك. يقال: قصمتُ الشيءَ: إذا كسرته.

أنشأنا: أوجدنا.

يركضون: الركض: العدو بشدة. وركض الدابة: ضربها برجله كي تعدو.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وكثيرا قصمنا من قرية والقصم: أصله الكسر يقال منه: قصمت ظهر فلان إذا كسرته وانقصمت سنه: إذا انكسرت، وهو ههنا معني به أهلكنا وكذلك تأوله أهل التأويل.. وقوله: ﴿مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ أجري الكلام على القرية والمراد بها أهلها لمعرفة السامعين بمعناه وكأن ظلمها: كفرها بالله وتكذيبها رسله وقوله: ﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ يقول -تعالى ذكره-: وأحدثنا بعد ما أهلكنا هؤلاء الظلمة من أهل هذه القرية التي قصمناها بظلمها قومًا آخرين سواهم.

قوله: ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ﴾ يقول: فلما عاينوا عذابنا قد حل بهم ورأوه قد وجدوا مسه. يقال منه: قد أحسست من فلان ضعفا وأحسته منه ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ يقول: إذا هم مما أحسوا بأسنا النازل بهم يهربون سراعا عجلى يعدون منهزمين يقال منه: ركض فلان فرسه: إذا كده بسياقته.. قوله تعالى: ﴿لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾﴾ يقول -تعالى ذكره-: لا تهربوا ﴿وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾ يقول: إلى ما أنعمتم فيه من عيشتكم

ومساكنكم»[١].

قال ابن عاشور: «مناسبة موقعها أنه بعد أن أخبر أنه صدق رسله وعده وهو خبر يفيد ابتداء التنويه بشأن الرسل ونصرهم، وبشأن الذين آمنوا بهم. وفيه تعريض بنصر محمد ﷺ وذكر إهلاك المكذبين له تبعا لذلك، فأعقب ذلك بذكر إهلاك أمم كثيرة من الظالمين، ووصف ما حل بهم ليكون ذلك مقصودا بذاته ابتداء اهتماما به ليقرع أسماعهم، فهو تعريض بإنذار المشركين بالانقراض بقاعدة قياس المساواة، وأن اللَّه ينشئ بعدهم أمة مؤمنة كقوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[٢]»[٣].

قال الشنقيطي: «أي قصمنا كثيرا من القرى التي كانت ظالمة، وأنشأنا بعدها قوما آخرين. وهذا المعنى المذكور هنا جاء مبينا في مواضع كثيرة من كتاب اللَّه. كقوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾[٤]، وقوله: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾[٥] الآية، وقوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾﴾[٦] إلى غير ذلك من الآيات»[٧].

قال السعدي: «يقول تعالى محذرا لهؤلاء الظالمين، المكذبين للرسول، بما فعل بالأمم المكذبة لغيره من الرسل ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا﴾ أي: أهلكنا بعذاب مستأصل ﴿مِن قَرْيَةٍ﴾ تلفت عن آخرها ﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ وأن هؤلاء المهلكين، لما أحسوا بعذاب اللَّه وعقابه، وباشرهم نزوله، لم يمكن لهم الرجوع ولا طريق لهم إلى النزوع وإنما ضربوا الأرض بأرجلهم، ندما وقلقا، وتحسرا على ما فعلوا وهروبا من وقوعه، فقيل لهم على وجه التهكم بهم: ﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴿١٣﴾﴾ أي: لا يفيدكم الركوض والندم، ولكن إن كان لكم اقتدار، فارجعوا إلى ما أترفتم فيه من اللذات والمشتهيات، ومساكنكم

(١) جامع البيان (١٧/ ٧-٨).
(٢) إبراهيم: الآية (١٩).
(٣) التحرير والتنوير (١٧/ ٢٤).
(٤) الإسراء: الآية (١٧).
(٥) الحج: الآية (٤٥).
(٦) الطلاق: الآيتان (٨و٩).
(٧) أضواء البيان (٤/ ٥٥٩).

المزخرفات، ودنياكم التي غرتكم وألهتكم، حتى جاءكم أمر اللَّه. فكونوا فيها متمكنين، وللذاتها جانين، وفي منازلكم مطمئنين معظمين، لعلكم أن تكونوا مقصودين في أموركم، كما كنتم سابقا، مسئولين من مطالب الدنيا، كحالتكم الأولى، وهيهات، أين الوصول إلى هذا؟ وقد فات الوقت، وحل بهم العقاب والمقت، وذهب عنهم عزهم، وشرفهم ودنياهم، وحضرهم ندمهم وتحسرهم؟»[1].

قال المكي الناصري: «وبهذه الآيات استحضر كتاب اللَّه أمام الأنظار مشهد الظالمين الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد، ولم يؤدوا حقوق اللَّه ولا حقوق العباد، مؤكدا أنه إذا حان مصرع الظالمين لم يفلتوا مهما حاولوا أن يفروا من العذاب، ولم ينفعهم الندم ولا العتاب، فما أكثر عدد الظالمين الذي هلكوا وبادوا، فألقي عليهم رداء النسيان، وباستئصالهم التام، وحصدهم كما يحصد الزرع، دخلوا في خبر كان»[2].

قال ابن عاشور: «وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْئَلُونَ﴾ من جملة التهكم. وذكر المفسرون في معنى ﴿تُسْئَلُونَ﴾ احتمالات ستة. أظهرها: أن المعنى: ارجعوا إلى ما كنتم فيه من النعيم لتروا ما آل إليه، فلعلكم يسألكم سائل عن حال ما أصابكم فتعلموا كيف تجيبون لأن شأن المسافر أن يسأله الذين يقدم إليهم عن حال البلاد التي تركها من خصب ورخاء أو ضد ذلك، وفي هذا تكملة للتهكم»[3].

* * *

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢١٥-٢١٦).

(٢) التيسير في أحاديث التفسير (٤/ ١١٣).

(٣) التحرير والتنوير (١٧/ ٢٧).

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾﴾

★ **غريب الآية:**

حصيدًا: أي موتى وهلكى. وأصل الحصد: القطع، ثم استعمل في الاستئصال والإهلاك.

خامدين: الخمود: الهمود والسكون. وخمدت النار: انطفأت وسكن لهيبها. والمراد هنا: الموت. قال الفرزدق:

تَرع لي خِنْدِفٌ واللهُ يَرْفَعُ لي نَارًا إذا خَمَدَتْ نَارُهُمْ تَقِدِ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: قال هؤلاء الذين أحل الله بهم بأسه بظلمهم لما نزل بهم بأس الله: يا ويلنا إنا كنا ظالمين بكفرنا بربنا ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ﴾ يقول فلم تزل دعواهم حين أتاهم بأس الله بظلمهم أنفسهم: ﴿يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ حتى قتلهم الله فحصدهم بالسيف كما يحصد الزرع ويستأصل قطعا بالمناجل وقوله: ﴿خَٰمِدِينَ﴾ يقول: هالكين قد انطفأت شرارتهم وسكنت حركتهم فصاروا همودا كما تخمد النار فتطفأ»[1].

قال ابن عاشور: «شبهوا بزرع حصد أي بعد أن كان قائما على سوقه خضرا، فهو يتضمن تشبيههم قبل هلاكهم بزرع في حسن المنظر والطلعة كما شبه بالزرع في قوله تعالى: ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ في سورة الفتح[2]. ويقال للناشئ: أنبته الله نباتا حسنا قال تعالى: ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ في سورة آل عمران[3]. فللإشارة إلى الشبهين شبه البهجة وشبه الهلك أوثر تشبيههم

(١) جامع البيان (١٧/ ٩).
(٢) الآية (٢٩).
(٣) الآية (٣٧).

حين هلاكهم بالحصيد.

وكذلك شبهوا حين هلاكهم بالنار الخامدة فتضمن تشبيههم قبل ذلك بالنار المشبوبة في القوة والبأس كما شبه بالنار في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ﴾ في سورة المائدة[1] وقوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا﴾ في سورة البقرة[2]»[3].

قال السعدي: «أي الدعاء بالويل والثبور والندم والإقرار على أنفسهم بالظلم، وأن اللَّه عادل فيما أحل بهم ﴿حَتَّىٰ جَعَلۡنَٰهُمۡ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾ أي بمنزلة النبات الذي قد حصد وأنيم. قد خمدت منهم الحركات، وسكنت منهم الأصوات. فاحذروا -أيها المخاطبون- أن تستمروا على تكذيب أشرف الرسل فيحل بكم كما حل بأولئك»[4].

* * *

(١) الآية (٦٤).

(٢) الآية (١٧).

(٣) التحرير والتنوير (١٧/ ٢٨-٢٩).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢١٦).

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾﴾

اقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ إلا حجة عليكم أيها الناس ولتعتبروا بذلك كله، فتعلموا أن الذي دبره وخلقه لا يشبهه شيء، وأنه لا تكون الألوهة إلا له، ولا تصلح العبادة لشيء غيره، ولم يخلق ذلك عبثا ولعبا..

﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾﴾ يقول -تعالى ذكره-: لو أردنا أن نتخذ زوجة وولدا لاتخذنا ذلك من عندنا، ولكنا لا نفعل ذلك ولا يصلح لنا فعله ولا ينبغي؛ لأنه لا ينبغي أن يكون لله ولد ولا صاحبة»[1].

قال ابن عاشور: «كثر أن ينبه القرآن العقول إلى الحكمة التي اقتضت المناسبة بين خلق ما في السموات والأرض ملتبسا بالحق، وبين جزاء المكلفين على أعمالهم على القانون الذي أقامته الشرائع لهم في مختلف أجيالهم وعصورهم وبلدانهم إلى أن عمتهم الشريعة العامة الخاتمة شريعة الإسلام، وإلى الحكمة التي اقتضت تكوين حياة أبدية تلقى فيها النفوس جزاء ما قدمته في هذه الحياة الزائلة جزاء وفاقا.

فلذلك كثر أن تعقب الآيات المبينة لما في الخلق من الحق بالآيات التي تذكر الجزاء والحساب والعكس كقوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾[2] في آخر سورة المؤمنين وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾﴾[3] آخر الحجر وقوله

---

(١) جامع البيان (١٧/ ٩-١٠).

(٢) المؤمنون: الآية (١١٥).

(٣) الحجر: الآية (٨٥).

تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾[1] في سورة ص وقوله تعالى: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾﴾[2] في سورة الدخان وقوله تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾﴾[3] في سورة الأحقاف إلى غير هذه الآيات. فكذلك هذه الآية عقب بها ذكر القوم المهلكين، والمقصود من ذلك إيقاظ العقول إلى الاستدلال بما في خلق السموات والأرض وما بينهما من دقائق المناسبات وإعطاء كل مخلوق ما به قوامه، فإذا كانت تلك سنة اللَّه في خلق العوالم ظرفها ومظروفها، استدل بذلك على أن تلك السنة لا تختلف في ترتب المسببات على أسبابها فيما يأتيه جنس المكلفين من الأعمال، فإذا ما لاح لهم تخلف سبب عن سببه أيقنوا أنه تخلف مؤقت فإذا علمهم اللَّه على لسان شرائعه بأنه ادخر الجزاء الكامل على الأعمال إلى يوم آخر آمنوا به، وإذا علمهم أنهم لا يفوتون ذلك بالموت بل إن لهم حياة آخرة وأن اللَّه باعثهم بعد الموت أيقنوا بها، وإذا علمهم أنه ربما عجل لهم بعض الجزاء في الحياة الدنيا أيقنوا به.

ولذلك كثر تعقيب ذكر نظام خلق السموات والأرض بذكر الجزاء الآجل والبعث وإهلاك بعض الأمم الظالمة أو تعقيب ذكر البعث والجزاء الآجل والعاجل بذكر نظام خلق السموات والأرض.

وحسبك تعقيب ذلك بالتفريع بالفاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾[4] الآيات ختام سورة آل عمران.

---

(١) ص: الآيات (٢٦-٢٨). (٢) الدخان: الآيات (٣٧-٤٠).

(٣) الأحقاف: الآية (٣).

(٤) آل عمران: الآيتان (١٩٠و١٩١).

ولأجل هذا اطرد أو كاد أن يطرد ذكر لفظ ﴿وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ بعد ذكر خلق السموات والأرض في مثل هذا المقام لأن تخصيص ما بينهما بالذكر يدل على الاهتمام به لأن أشرفه هو نوع الإنسان المقصود بالعبرة والاستدلال وهو مناط التكليف. فليس بناء الكلام على أن يكون الخلق لعبا منظورا فيه إلى رد اعتقاد معتقد ذلك ولكنه بني على النفي أخذا لهم بلازم غفلتهم عن دقائق حكمة اللّه بحيث كانوا كقائلين بكون هذا الصنع لعبا»[(١)].

قال السعدي: «يخبر تعالى أنه ما خلق السموات والأرض عبثا، ولا لعبا من غير فائدة، بل خلقها بالحق وللحق، ليستدل بها العباد على أنه الخالق العظيم، المدبر الحكيم، الرحمن الرحيم، الذي له الكمال كله، والحمد كله، والعزة كلها، الصادق في قيله، الصادقة رسله، فيما تخبر عنه، وأن القادر على خلقهما مع سعتهما وعظمهما، قادر على إعادة الأجساد بعد موتها، ليجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾ على الفرض والتقدير المحال ﴿لَّاتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾ أي: من عندنا ﴿إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ ولم نطلعكم على ما فيه عبث ولهو، لأن ذلك نقص ومثل سوء، لا نحب أن نريه إياكم، فالسموات والأرض اللذان بمرأى منكم على الدوام، لا يمكن أن يكون القصد منهما العبث واللهو، كل هذا تنزل مع العقول الصغيرة وإقناعها بجميع الوجوه المقنعة، فسبحان الحليم الرحيم، الحكيم في تنزيله الأشياء منازلها»[(٢)].

قال المكي الناصري: «يقول تعالى تنويها بعدله وحكمته وتنبيها إلى أنه لم يخلق الإنسان ولا الأكوان عبثا: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ على غرار قوله تعالى في سورة الدخان: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾[(٣)] ثم قال تعالى موضحا هذا المعنى أكمل توضيح: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ

---

(١) التحرير والتنوير (١٧/ ٣٠-٣٢).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢١٧).

(٣) الدخان: الآية (٣٨).

﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

وواضح من السياق الذي وردت فيه هذه الآيات أنها ترمي إلى إثبات حقيقة واقعية لا جدال فيها، ألا وهي أن اللَّه الذي طبع الطبيعة هو الذي شرع الشريعة، وكما أن نواميس الطبيعة التي أبدعها تضبط سير الأكوان، فإن قوانين الشريعة التي أنزلها تضبط سلوك الإنسان، فما على الإنسان إلا أن يتحمل مسؤوليته كاملة ويطبق على سلوكه قوانين الشريعة، كما تطبق كافة الأكوان على سيرها نواميس الطبيعة، ولينظر الإنسان إلى حكمة اللَّه السارية في الوجود، وإلى عنايته البارزة في كل موجود، فلا لعب ولا عبث في أفعال الحكيم العليم، ولا لهو ولا لغو في تصرفات اللَّه العلي العظيم، وتعالى اللَّه الملك الحق، الذي يبطل الباطل ويحق الحق»[1].

* * *

(١) التيسير في أحاديث التفسير (٤/ ١١٣-١١٤).

قوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾

★ غريب الآية:

يدمغه: يبطله من دمغت الرجلَ أَدْمَغُهُ: إذا كسرت دِمَاغَهُ وأصبته.

أترفتم: المترف: المتنعم بضروب النعم، المتوسع فيها.

زاهق: أي ذاهب، باطل. وزهوق النفوس: تلفها.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ولكن ننزل الحق من عندنا وهو كتاب اللَّه وتنزيله على الكفر به وأهله فيدمغه: يقول: فيهلكه كما يدمغ الرجل الرجل بأن يشجه على رأسه شجة تبلغ الدماغ، وإذا بلغت الشجة ذلك من المشجوج لم يكن له بعدها حياة.

وقوله: ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ يقول: فإذا هو هالك مضمحل.. وقوله: ﴿وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ يقول: ولكم الويل من وصفكم ربكم بغير صفته وقيلكم: إنه اتخذ زوجة وولدا وفريتكم عليه»[١].

قال السعدي: «يخبر تعالى أنه تكفل بإحقاق الحق وإبطال الباطل، وإن كل باطل قيل وجودل به، فإن اللَّه ينزل من الحق والعلم والبيان ما يدمغه، فيضمحل، ويتبين لكل أحد بطلانه ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ أي: مضمحل فان، وهذا عام في جميع المسائل الدينية، لا يورد مبطل شبهة عقلية ولا نقلية، في إحقاق باطل، أو رد حق، إلا وفي أدلة اللَّه من القواطع العقلية والنقلية، ما يذهب ذلك القول الباطل ويقمعه فإذا هو متبين بطلانه لكل أحد.

وهذا يتبين باستقراء المسائل، مسألة مسألة، فإنك تجدها كذلك، ثم قال:

---

(١) جامع البيان (١٧/ ١٠-١١).

﴿وَلَكُمُ﴾ أيها الواصفون اللَّه بما لا يليق به، من اتخاذ الولد والصاحبة، ومن الأنداد والشركاء، حظكم من ذلك، ونصيبكم الذي تدركون به ﴿ٱلْوَيْلُ﴾ والندامة والخسران.

ليس لكم مما قلتم فائدة، ولا يرجع عليكم بعائدة تؤملونها، وتعملون لأجلها، وتسعون في الوصول إليها، إلا عكس مقصودكم، وهو الخيبة والحرمان»[1].

قال ابن عاشور: «﴿بَلْ﴾ للإضراب عن اتخاذ اللهو وعن أن يكون الخلق لعبا إضراب إبطال وارتقاء، أي بل نحن نعمد إلى باطلكم فنقذف بالحق عليه كراهية للباطل بله أن نعمل عملا هو باطل ولعب..

وعندما انتهت مقارعتهم بالحجج الساطعة لإبطال قولهم في الرسول وفي القرآن ابتداء من قوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ إلى قوله تعالى: ﴿كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾. وما تخلل ذلك من المواعظ والقوارع والعبر. ختم الكلام بشتمهم وتهديدهم بقوله تعالى: ﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ أي مما تصفون به محمدا ﷺ والقرآن»[2].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢١٨).

(٢) التحرير والتنوير (١٧/ ٣٣-٣٥).

قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾

★غريب الآية:

لا يستحسرون: لا يفترون ولا ينقطعون عن العبادة. وحسر عن ذراعه: كشف عنها. وانحسرت عنه قوته: إذا كَلَّ وتعب وانقطع عن الانبعاث. فهو حسير. والجمع: حسرى. قال علقمة:

بها جِيَفُ الحَسْرَى فأمّا عظَامُها فَبِيضٌ وأمّا جِلْدُها فَصَلِيبُ

لا يفترون: لا يضعفون، ولا يسكنون عن نشاطهم في العبادة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أخبر تعالى عن عبودية الملائكة له، ودأبهم في طاعته ليلا ونهارا فقال: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ﴾ يعني الملائكة ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ أي لا يستنكفون عنها كما قال: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾﴾[1].

وقوله: ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ أي لا يتعبون ولا يملون ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ فهم دائبون في العمل ليلا ونهارا مطيعون قصدا وعملا قادرون عليه كما قال تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[2]»[3].

قال ابن القيم: «هما جملتان تامتان مستقلتان أي: إن له من في السموات ومن في الأرض عبيدا وملكا ثم استأنف جملة أخرى فقال: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ يعني أن الملائكة الذين عنده لا يستكبرون عن عبادته يعني لا يأنفون

---

(١) النساء: الآية (١٧٢).

(٢) التحريم: الآية (٦).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣٢٩).

عنها، ولا يتعاظمون ولا يستحسرون، فيعيون وينقطعون، يقال: حسر واستحسر، إذا تعب وأعيا بل عبادتهم وتسبيحهم كالنفس لبني آدم. فالأول: وصف لعبيد ربوبيته، والثاني: وصف لعبيد إلهيته»[١].

قال السعدي: «أخبر أنه له ملك السموات والأرض وما بينهما، فالكل عبيده ومماليكه، فليس لأحد منهم ملك ولا قسط من الملك، ولا معاونة عليه، ولا يشفع إلا بإذن اللَّه، فكيف يتخذ من هؤلاء آلهة وكيف يجعل لله منها ولد؟! فتعالى وتقدس المالك العظيم، الذي خضعت له الرقاب، وذلت له الصعاب، وخشعت له الملائكة المقربون، وأذعنوا له بالعبادة الدائمة المستمرة أجمعون، ولهذا قال: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ﴾ أي من الملائكة ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ أي: لا يملون ولا يسأمونها، لشدة رغبتهم، وكمال محبتهم، وقوة أبدانهم.

﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ۝٢٠﴾ أي: مستغرقين في العبادة والتسبيح في جميع أوقاتهم فليس في أوقاتهم وقت فارغ ولا خال منها وهم على كثرتهم بهذه الصفة، وفي هذا من بيان عظمته وجلالة سلطانه وكمال علمه وحكمته، ما يوجب أن لا يعبد إلا هو، ولا تصرف العبادة لغيره»[٢].

* * *

(١) مدارج السالكين (١/ ١٠٢).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢١٨-٢١٩).

قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: أتخذ هؤلاء المشركون آلهة من الأرض هم ينشرون: يعني بقوله هم: الآلهة يقول: هذه الآلهة التي اتخذوها تنشر الأموات، يقول: يحيون الأموات وينشرون الخلق، فإن الله هو الذي يحيي ويميت..

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ يقول -تعالى ذكره-: لو كان في السموات والأرض آلهة تصلح لهم العبادة سوى الله الذي هو خالق الأشياء، وله العبادة والألوهية التي لا تصلح إلا له ﴿لَفَسَدَتَا﴾ يقول: لفسد أهل السموات والأرض ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ يقول -جل ثناؤه-: فتنزيه لله وتبرئة له مما يفتري به عليه هؤلاء المشركون من الكذب»[1].

قال ابن كثير: «ينكر تعالى على من اتخذ من دونه آلهة فقال: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ أي: أهم يحيون الموتى وينشرونهم من الأرض؟ أي لا يقدرون على شيء من ذلك، فكيف جعلوها لله ندا وعبدوها معه؟ ثم أخبر تعالى أنه لو كان في الوجود آلهة غيره لفسدت السموات والأرض فقال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ﴾ أي في السموات والأرض ﴿لَفَسَدَتَا﴾ كقوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾[2] وقال ههنا: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي عما يقولون أن له ولدا أو شريكا ﷻ وتقدس وتنزه عن الذي يفترون ويأفكون علوا كبيرا»[3].

قال ابن عاشور: «وصف الآلهة بأنها من الأرض تهكم بالمشركين، وإظهار

---

(١) جامع البيان (١٧/ ١٣-١٤).
(٢) المؤمنون: الآية (٩١).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣٣٠).

لأفن رأيهم، أي جعلوا لأنفسهم آلهة من عالم الأرض أو مأخوذة من أجزاء الأرض من حجارة أو خشب تعريضا بأن ما كان مثل ذلك لا يستحق أن يكون معبودا، كما قال إبراهيم ﷺ: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾[1] في الصافات.. وهذا استدلال على بطلان عقيدة المشركين إذ زعموا أن اللَّه جعل آلهة شركاء له في تدبير الخلق أي أنه بعد أن خلق السموات والأرض أقام في الأرض شركاء له، ولذلك كانوا يقولون في التلبية في الحج: (لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك) وذلك من الضلال المضطرب الذي وضعه لهم أئمة الكفر بجهلهم وترويج ضلالهم على عقول الدهماء.

وبذلك يتبين أن هذه الآية استدلال على استحالة وجود آلهة غير اللَّه بعد خلق السموات والأرض لأن المشركين لم يكونوا ينكرون أن اللَّه خالق السموات والأرض قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[2] في سورة الزمر وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ۝﴾[3] في سورة الزخرف. فهي مسوقة لإثبات الوحدانية لا لإثبات وجود الصانع إذ لا نزاع فيه عند المخاطبين ولا لإثبات انفراده بالخلق إذ لا نزاع فيه كذلك، ولكنها منتظمة على ما يناسب اعتقادهم الباطل لكشف خطئهم وإعلان باطلهم. والفساد هو اختلال النظام وانتفاء النفع من الأشياء. ففساد السماء والأرض هو أن تصيرا غير صالحتين ولا منتسقتي النظام بأن يبطل الانتفاع بما فيهما. فمن صلاح السماء نظام كواكبها، وانضباط مواقيت طلوعها وغروبها، ونظام النور والظلمة. ومن صلاح الأرض مهدها للسير، وإنباتها الشجر والزرع، واشتمالها على المرعى والحجارة والمعادن والأخشاب، وفساد كل من ذلك ببطلان نظامه الصالح»[4].

قال السعدي: «لما بين تعالى كمال اقتداره وعظمته، وخضوع كل شيء له، أنكر على المشركين الذين اتخذوا من دون اللَّه آلهة من الأرض، في غاية العجز وعدم القدرة ﴿هُمْ يُنشِرُونَ﴾ استفهام بمعنى النفي، أي: لا يقدرون على نشرهم وحشرهم، يفسرها قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ

---

(١) الصافات: الآية (٩٥).
(٢) الزمر: الآية (٣٨).
(٣) الزخرف: الآية (٩).
(٤) التحرير والتنوير (١٧/ ٣٧-٣٩).

﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ۝﴾[1] ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ۝ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ۝﴾[2] فالمشرك يعبد المخلوق، الذي لا ينفع ولا يضر، ويدع الإخلاص لله، الذي له الكمال كله وبيده الأمر والنفع والضر، وهذا من عدم توفيقه، وسوء حظه، وتوفر جهله، وشدة ظلمه، فإنه لا يصلح الوجود، إلا على إله واحد، كما أنه لم يوجد، إلا برب واحد.

ولهذا قال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ﴾ أي: في السموات والأرض ﴿ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ في ذاتهما، وفسد من فيهما من المخلوقات.

وبيان ذلك: أن العالم العلوي والسفلي على ما يرى في أكمل ما يكون من الصلاح والانتظام، الذي ما فيه خلل ولا عيب، ولا ممانعة، ولا معارضة، فدل ذلك على أن مدبره واحد، وربه واحد، وإلهه واحد، فلو كان له مدبران وربان أو أكثر من ذلك، لاختل نظامه، وتقوضت أركانه فإنهما يتمانعان ويتعارضان، وإذا أراد أحدهما تدبير شيء، وأراد الآخر عدمه، فإنه محال وجود مرادهما معا، ووجود مراد أحدهما دون الآخر، يدل على عجز الآخر، وعدم اقتداره واتفاقهما على مراد واحد في جميع الأمور، غير ممكن، فإذًا يتعين أن القاهر الذي يوجد مراده وحده، من غير ممانع ولا مدافع، هو الله الواحد القهار، ولهذا ذكر الله دليل التمانع في قوله: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ۝﴾.

ومنه -على أحد التأويلين- قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ۝ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝﴾[3] ولهذا قال هنا: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ أي: تنزه وتقدس عن كل نقص لكماله وحده، ﴿رَبِّ ٱلْعَرْشِ﴾ الذي هو سقف المخلوقات وأوسعها، وأعظمها، فربوبية ما دونه من باب أولى، ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي: الجاحدون الكافرون، من اتخاذ الولد والصاحبة، وأن يكون له شريك بوجه من الوجوه»[4].

---

(١) الفرقان: الآية (٣).
(٢) يس: الآيتان (٧٤و٧٥).
(٣) الإسراء: الآيتان (٤٢و٤٣).
(٤) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢١٩-٢٢١).

قوله تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ۝٢٣﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: لا سائل يسأل رب العرش عن الذي يفعل بخلقه من تصريفهم فيما شاء من حياة وموت وإعزاز وإذلال، وغير ذلك من حكمه فيهم؛ لأنهم خلقه وعبيده وجميعهم في ملكه وسلطانه، والحكم حكمه، والقضاء قضاؤه، لا شيء فوقه يسأله عما يفعل، فيقول له: لم فعلت؟ ولم لم تفعل؟ ﴿وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ يقول -جل ثناؤه-: وجميع من في السموات والأرض من عباده مسئولون عن أفعالهم ومحاسبون على أعمالهم، وهو الذي يسألهم عن ذلك ويحاسبهم عليه؛ لأنه فوقهم ومالكهم، وهم في سلطانه»[١].

قال ابن عطية: «وصف نفسه تعالى بأنه ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ وهذا وصف يحتمل معنيين: إما أن يريد أنه بحق ملكه وسلطانه لا يعارض ولا يسأل عن شيء يفعله؛ إذ له أن يفعل في ملكه ما يشاء، وإما أن يريد أنه محكم الأفعال، واضع كل شيء موضعه، فليس في أفعاله موضع سؤال ولا اعتراض، وهؤلاء من البشر يسألون لهاتين العلتين لأنهم ليسوا مالكين ولأنهم في أفعالهم خلل كثير»[٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «هذا ذكره اللَّه إثباتا لقدرته لا نفيا لحكمته وعدله؛ بل بين سبحانه أنه يفعل ما يشاء فلا أحد يمكنه أن يعارضه إذا شاء شيئًا بل هو قادر على فعل ما يشاء، بخلاف المخلوق الذي يشاء أشياء كثيرة ولا يمكنه أن يفعلها، ولهذا قال النبي في الحديث الصحيح: «**لا يقولن أحدكم اللهم اغفر لي إن شئت اللهم ارحمني إن شئت فان اللَّه لا مكره له ولكن ليعزم المسألة**»[٣] وذلك أنه إنما

---

(١) جامع البيان (١٧/ ١٤).
(٢) المحرر الوجيز (٤/ ٧٨).
(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٤٣) والبخاري (١٣/ ٥٤٩/ ٧٤٧٧) ومسلم (٤/ ٢٠٦٣/ ٢٦٧٩) وأبو داود (٢/ ١٦٣/ ١٤٨٣) والترمذي (٥/ ٤٩١/ ٣٤٩٧) والنسائي في الكبرى (٦/ ١٥١/ ١٠٤١٩) وابن ماجه (٢/ ١٢٦٧/ ٣٨٥٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

يقال: افعل كذا إن شئت لمن قد يفعله مكرها، فيفعل ما لا يريد لدفع ضرر الإكراه عنه، واللَّه تعالى لا مكره له، فلا يفعل إلا ما يشاء، فقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾[1] و ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾[2] و ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾[3] ونحو ذلك هو لإثبات قدرته على ما يشاء»[4].

قال السعدي: «الكمال حكمته ووضعه الأشياء مواضعها، وإتقانها، أحسن كل شيء يقدره العقل، فلا يتوجه إليه سؤال، لأن خلقه ليس فيه خلل ولا إخلال.

﴿وَهُمْ﴾ أي: المخلوقين كلهم ﴿يُسْـَٔلُونَ﴾ عن أفعالهم وأقوالهم، لعجزهم وفقرهم، ولكونهم عبيدًا، قد استحقت أفعالهم وحركاتهم فليس لهم من التصرف والتدبير في أنفسهم، ولا في غيرهم مثقال ذرة»[5].

* * *

---

(١) الحج: الآية (١٨).

(٢) آل عمران: الآية (١٢٩).

(٣) المائدة: الآية (٤٠).

(٤) مجموع الفتاوى (١٣/ ٢٢٥-٢٢٦).

(٥) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٢١).

قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾﴾

★ غريب الآية:

برهانكم: أي حجتكم ودليلكم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عطية: «قررهم تعالى ثانية على اتخاذ الآلهة، وفي تكرار هذا التقرير مبالغة في نكره وبيان فساده، وفي هذا التقرير زيادة على الأول وهي قوله تعالى: ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ فكأنهم قررهم هنا على قصد الكفر بالله ﷻ، ثم دعاهم إلى الحجة والإتيان بالبرهان. وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى﴾ يحتمل أن يريد به هذا جميع الكتب المنزلة قديمها وحديثها، أي ليس فيها برهان على اتخاذ آلهة من دون الله، بل فيها ضد ذلك، ويحتمل أن يريد هذا القرآن، والمعنى فيه ذكر الأولين والآخرين، فذكر الآخرين بالدعوة وبيان الشرع لهم وردهم على طريق النجاة، وذكر الأولين بقص أخبارهم وذكر الغيوب في أمورهم، ومعنى الكلام على هذا التأويل عرض القرآن في معرض البرهان أي ﴿هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ فهذا برهاني أنا ظاهر في ﴿ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى﴾»[1].

قال ابن كثير: «يقول تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً قُلْ﴾ يا محمد ﴿هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ أي دليلكم على ما تقولون ﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ﴾ يعني القرآن ﴿وَذِكْرُ مَن قَبْلِى﴾ يعني الكتب المتقدمة على خلاف ما تقولونه وتزعمون، فكل كتاب أنزل على كل نبي أرسل ناطق بأنه لا إله إلا الله، ولكن أنتم أيها المشركون لا تعلمون الحق، فأنتم معرضون عنه، ولهذا قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ كما قال: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ

---

(١) المحرر الوجيز (٤/ ٧٨).

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ ۝٤٥﴾[(١)] وقال: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾[(٢)] فكل نبي بعثه اللّٰه يدعو إلى عبادة اللّٰه وحده لا شريك له، والفطرة شاهدة بذلك أيضا، والمشركون لا برهان لهم، وحجتهم داحضة عند ربهم، وعليهم غضب، ولهم عذاب شديد»[(٣)].

قال السعدي: «رجع إلى تهجين حال المشركين، وأنهم اتخذوا من دونه آلهة فقل لهم موبخا ومقرعا: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡۖ﴾ أي: حجتكم ودليلكم على صحة ما ذهبتم إليه، ولن يجدوا لذلك سبيلا؛ بل قد قامت الأدلة القطعية على بطلانه، ولهذا قال: ﴿هَٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِيۗ﴾ أي: قد اتفقت الكتب والشرائع على صحة ما قلت لكم من إبطال الشرك، فهذا كتاب اللّٰه الذي فيه ذكر كل شيء، بأدلته العقلية والنقلية، وهذه الكتب السابقة كلها براهين وأدلة لما قلت.

ولما علم أنهم قامت عليهم الحجة والبرهان على بطلان ما ذهبوا إليه، علم أنه لا برهان لهم، لأن البرهان القاطع يجزم أنه لا معارض له، وإلا لم يكن قطعيا، وإن وجد معارضات، فإنها شبه لا تغني من الحق شيئا.

وقوله: ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّۖ﴾ أي: وإنما أقاموا على ما هم عليه، تقليدا لأسلافهم، يجادلون بغير علم ولا هدى، وليس عدم علمهم بالحق لخفائه وغموضه، وإنما ذلك لإعراضهم عنه، وإلا فلو التفتوا إليه أدنى التفات، لتبين لهم الحق من الباطل تبينًا واضحًا جليًّا، ولهذا قال: ﴿فَهُم مُّعۡرِضُونَ﴾»[(٤)].

قال تقي الدين الهلالي: «إن اللّٰه أنكر على المشركين اتخاذهم من دون اللّٰه آلهة، مع أن تلك الآلهة مخلوقة لا خالقة ومتصرف فيها لا متصرفة، فلا تستطيع أن تخلق ذبابا ولو اجتمعت له، ولا تستطيع أن تميت حيا ولا أن تحيي ميتا، فعيسى والملائكة ومن عبد من الأنبياء والصالحين مخلوقون مربوبون لا ينفعون ولا يضرون، فمن عبدهم خاسر في الدنيا والآخرة، وسيقول المشرك الجهول نحن

---

(١) الزخرف: الآية (٤٥). (٢) النحل: الآية (٣٦).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣٣٠-٣٣١).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٢٢).

لا نتخذ الصالحين آلهة ولا نعبدهم، وقد تقدم الرد على هذا الادعاء في مواضع كثيرة، ونزيد هنا فنقول: لو علمتم معنى لا إله إلا اللَّه لعلمتم معنى العبادة ولأقررتم بأنكم اتخذتم آلهة من دون اللَّه وعبدتموهم، فإن كل من عبدته فقد اتخذته إلها، والعبادة ما يتقرب به إلى اللَّه تعالى كالدعاء والاستغاثة والاستعانة بغير طريق الأسباب، والخوف بالغيب والرجاء والتوكل والذبح والنذر وجعل التحليل والتحريم لهم إلى غير ذلك»[1].

* * *

(١) سبيل الرشاد (٢/ ٣٤).

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وما أرسلنا يا محمد من قبلك من رسول إلى أمة من الأمم إلا نوحي إليه أنه لا معبود في السموات والأرض تصلح العبادة له سواي فاعبدون يقول: فأخلصوا لي العبادة وأفردوا لي الألوهية»[١].

قال ابن عطية: «لما أخبرهم تعالى أنهم لا يعلمون الحق لإعراضهم أتبع ذلك بإعلامهم أنه ما أرسل قط رسولا إلا أوحى إليه أن اللَّه تعالى فرد صمد، وهذه عقيدة لم تختلف فيها النبوات، وإنما اختلفت في الأحكام»[٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فبين أنه لا بد أن يوحي بالتوحيد إلى كل رسول، وقال تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾[٣] فبين أنه لم يشرع الشرك قط، فهذان النصان قد دلا على أنه أمر بالتوحيد لكل رسول، ولم يأمر بالإشراك قط، وقد أمر آدم وبنيه من حين أهبط باتباع هداه الذي يوحيه إلى الأنبياء، فثبت أن علة الشرك كان من ترك اتباع الأنبياء والمرسلين فيما أمروا به من التوحيد والدين، لا أن الشرك كان علة للكفر بالرسل، فإن الإشراك والكفر بالرسل متلازمان في الواقع»[٤].

قال ابن عاشور: «لما أظهر لرسوله أن المعاندين لا يعلمون الحق لإعراضهم عن تلقيه أقبل على رسوله ﷺ بتأييد مقاله الذي لقنه أن يجيبهم به وهو قوله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ﴾ فأفاده تعميمه في شرائع سائر الرسل سواء من أنزل عليه كتاب ومن لم ينزل عليه كتاب، وسواء من كان كتابه باقيا مثل موسى وعيسى وداود، ومن لم يبق كتابه مثل إبراهيم.

---

(١) جامع البيان (١٧/ ١٥).
(٢) المحرر الوجيز (٤/ ٧٩).
(٣) الزخرف: الآية (٤٥).
(٤) مجموع الفتاوى (٢٠/ ١٠٧).

وليس ذكر هذه الجملة لمجرد تقرير ما قبلها من آي التوحيد، وإن أفادت التقرير تبعا لفائدتها المقصودة. وفيها إظهار لعناية اللَّه تعالى بإزالة الشرك من نفوس البشر وقطع دابره إصلاحا لعقولهم بأن يزال منها أفظع خطل وأسخف رأي، ولم تقطع دابر الشرك شريعة كما قطعه الإسلام بحيث لم يحدث الإشراك في هذه الأمة»[1].

قلت: ما ذكره المفسر ابن عاشور أن اللَّه في كتابه والرسول ﷺ في سنته حذّرا من الشرك ووسائله وقطعا دابر ذلك؛ أمر لا مرية فيه. أما ما ذكره من عدم وقوع الشرك في هذه الأمة فبطلانه واضح جدًّا؛ بل بعد ذهاب القرون الأولى الفاضلة أغرق المسلمون في الشرك الأكبر وملئت الديار به، ولم تبق رقعة فيما أعلم إلا وامتلأت بالشرك ومظاهره؛ بل لا توجد بادية ولا حاضرة إلا وتجد بها صنمًا باديًا يقام فيه من الشرك وألوانه ما لا يقام للات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، من ذبح ونذر وطواف واستغاثة بالمقبور وتقبيل للتراب والأعتاب والجدران، وإسراج للمصابيح، وقصد تلك الأوثان للعلاج على اختلاف التخصصات بزعمهم؛ فهذا للحمقى والمجانين، وذاك للمرضى بالحمى والصداع، وذلك للعقم والحنجرة والعيون، والآخر لزيادة الأرزاق... كأنك في أكبر المستشفيات العالمية التي جمعت كل التخصصات الطبية!

واستمر الحال على هذا المنوال حتى جاءت دعوة الإمام المصلح أبي عبد اللَّه محمد بن عبد الوهاب النجدي الدرعي، فطهرت ديار نجد من الوثنية والقبورية وغيرها، وهكذا انتشرت بالعالم الإسلامي، فكان لدعوته الأثر العظيم على تلك البقعة، إلا أن العلماء المرتزقة علماء المصالح والإتاوات ممن تحركهم قادة الشرك ودعاته، حملوا على هذه الدعوة المباركة دعوة التوحيد فوصفوها بما لا يليق بها؛ إذ الطعن فيها طعن في دعوة الرسول ﷺ التي ترتكز على اجتثات جذور الشرك وعروقه في القول والعمل، لا كما قال هذا المفسر، فهذه غفلة أو جهل بواقع أقاليم العالم الإسلامي وما فيها من شركيات، حتى أصبح الصغير والكبير يقسمان بهذه الأصنام التي سموها أولياء، وهي لعمر اللَّه إن كان أصحابها من الموحدين الأخيار فسيتبرؤون يوم القيامة من عابديهم الذين صرفوا لهم ما اللَّه به منفرد ومختص؛ ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾[2].

---

(١) التحرير والتنوير (١٧/ ٤٨-٤٩). (٢) البقرة: الآية (١٦٦).

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى ردا على من زعم أن له تعالى وتقدس ولدا من الملائكة، كمن قال ذلك من العرب: إن الملائكة بنات اللَّه فقال: ﴿سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ أي الملائكة عباد اللَّه مكرمون عنده في منازل عالية ومقامات سامية، وهم له في غاية الطاعة قولا وفعلا ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ أي: لا يتقدمون بين يديه بأمر، ولا يخالفونه فيما أمرهم به، بل يبادرون إلى فعله»[1].

قال السعدي: «يخبر تعالى عن سفاهة المشركين المكذبين للرسول، وأنهم زعموا -قبحهم الله- أن اللَّه اتخذ ولدا فقالوا: الملائكة بنات اللَّه، تعالى اللَّه عن قولهم، وأخبر عن وصف الملائكة، بأنهم عبيد مربوبون مدبرون، ليس لهم من الأمر شيء، وإنما هم مكرمون عند اللَّه، قد أكرمهم اللَّه، وصيرهم من عبيد كرامته ورحمته، وذلك لما خصهم به من الفضائل والتطهير عن الرذائل، وأنهم في غاية الأدب مع اللَّه، والامتثال لأوامره.

ف ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾ أي: لا يقولون قولا مما يتعلق بتدبير المملكة، حتى يقول اللَّه، لكمال أدبهم، وعلمهم بكمال حكمته وعلمه.

﴿وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ أي: مهما أمرهم، امتثلوا لأمره، ومهما دبرهم عليه، فعلوه، فلا يعصونه طرفة عين، ولا يكون لهم عمل بأهواء أنفسهم من دون أمر الله»[2].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣٣١).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٢٣-٢٢٤).

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أن الكفار لعنهم اللَّه قالوا عليه أنه اتخذ ولدا. وقد بينا ذلك فيما مضى بيانا شافيا في مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك. ﷻ عما يقول الظالمون علوا كبيرا. وبين هنا بطلان ما ادعوه على ربهم من اتخاذ الأولاد وهم في زعمهم الملائكة بحرف الإضراب الإبطالي الذي هو ﴿بَلْ﴾ مبينا: أنهم عباده المكرمون، والعبد لا يمكن أن يكون ولدا لسيده. ثم أثنى على ملائكته بأنهم عباد مكرمون، لا يسبقون ربهم بالقول أي لا يقولون إلا ما أمرهم أن يقولوه لشدة طاعتهم له ﴿وَهُم بِأَمْرِهِۦ﴾ وما أشار إليه في هذه الآية الكريمة من أن الملائكة عبيده وملكه، والعبد لا يمكن أن يكون ولدا لسيده أشار له في غير هذا الموضع، كقوله في البقرة: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾[1]، وقوله في النساء: ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾[2] أي والمالك بكل شيء لا يمكن أن يكون له ولد. لأن الملك ينافي الولدية، ولا يمكن أن يوجد شيء سواه إلا وهو ملك له -جل وعلا-.

وما ذكره في هذه الآية الكريمة: من الثناء الحسن على ملائكته عليهم صلوات اللَّه وسلامه بينه في غير هذا الموضع. كقوله تعالى. ﴿عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ١٠﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ٢٠﴾[5] إلى غير ذلك من الآيات»[6].

* * *

(١) البقرة: الآية (١١٦).
(٢) النساء: الآية (١٧١).
(٣) التحريم: الآية (٦)
(٤) الانفطار: الآية (١٠).
(٥) الأنبياء: الآيتان (١٩-٢٠).
(٦) أضواء البيان (٤/ ٥٦٠-٥٦١).

قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: يعلم ما بين أيدي الملائكة ما لم يبلغوه ما هو، وما هم فيه قائلون وعاملون، وما خلفهم: يقول: وما مضى من قبل اليوم مما خلفوه ورائهم من الأزمان والدهور ما عملوا فيه، قالوا ذلك كله محصى لهم وعليهم، لا يخفى عليه من ذلك شيء»(١).

قال البقاعي: «أي مما لم يعملوه ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ مما عملوه، أو يكون الأول لما عملوه والثاني لما لم يعلموه، لأنك تطلع على ما قدامك ويخفى عليك ما خلفك، أي أن علمه محيط بأحوالهم ماضيا وحالا ومآلا، لا يخفى عليه خافية»(٢).

قال الرازي: «ذكر المفسرون فيه وجوها:

أحدها: قال ابن عباس: يعلم ما قدموا وما أخروا من أعمالهم.

وثانيها: ما بين أيديهم الآخرة وما خلفهم الدنيا وقيل على عكس ذلك.

وثالثها: قال مقاتل: يعلم ما كان قبل أن يخلقهم وما يكون بعد خلقهم.

وحقيقة المعنى أنهم يتقلبون تحت قدرته في ملكوته وهو محيط بهم، وإذا كانت هذه حالتهم فكيف يستحقون العبادة وكيف يتقدمون بين يدي اللّه تعالى فيشفعون لمن لم يأذن اللّه تعالى له»(٣).

قال السعدي: «أي: أمورهم الماضية والمستقبلة، فلا خروج لهم عن علمه، كما لا خروج لهم عن أمره وتدبيره»(٤).

* * *

---

(١) جامع البيان (١٧/ ١٦).

(٢) نظم الدرر (١٢/ ٤٠٩).

(٣) تفسير الرازي (٢٢/ ١٦٠-١٦١).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٢٤).

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾

⋆ **غريب الآية:**

مشفقون: من الإشفاق وهو عناية مختلطة بخوف؛ لأن المشفق يحب المشفق عليه ويخاف ما يلحقه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «ومن جزئيات وصفهم، بأنهم لا يسبقونه بالقول، أنهم لا يشفعون لأحد بدون إذنه ورضاه، فإذا أذن لهم، وارتضى من يشفعون فيه، شفعوا فيه، ولكنه تعالى لا يرضى من القول والعمل إلا ما كان خالصا لوجهه، متبعا فيه الرسول، وهذه الآية من أدلة إثبات الشفاعة، وأن الملائكة يشفعون.

﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ أي: خائفون وجلون، قد خضعوا لجلاله، وعنت وجوههم لعزه وجماله»[(١)].

قال ابن عاشور: «قوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ تخصيص بالذكر لبعض ما شمله قوله تعالى: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾ اهتماما بشأنه لأنه مما كفروا بسببه إذ جعلوا الآلهة شفعاء لهم عند اللّه، وحذف مفعول (ارتضى) لأنه عائد صلة منصوب بفعل، والتقدير: لمن ارتضاه، أي ارتضى الشفاعة له بأن بإذن الملائكة أن يشفعوا له إظهارا لكرامتهم عند اللّه أو استجابة لاستغفارهم لمن في الأرض، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾[(٢)] في سورة الشورى. وذلك الاستغفار من جملة ما خلقوا لأجله، فليس هو من التقدم بالقول.

ثم زاد تعظيمهم ربهم تقريرا بقوله تعالى: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ أي هم يعظمونه تعظيم من يخاف بطشته ويحذر مخالفة أمره»[(٣)].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٢٤).

(٢) الشورى: الآية (٥).

(٣) التحرير والتنوير (١٧/ ٥١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في شفاعة النبي ﷺ للخلائق، والفرق بين الشفاعة المنفية والمثبتة

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتي رسول اللَّه ﷺ بلحم، فرفع إليه الذراع -وكانت تعجبه- فنهس منها نهسة، ثم قال: «أنا سيد الناس يوم القيامة، وهل تدرون مم ذلك؟ يجمع الناس- الأولين والآخرين في صعيد واحد، يسمعهم الداعي وينفذهم البصر، وتدنو الشمس، فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون، فيقول الناس: ألا ترون ما قد بلغكم؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعض الناس لبعض: عليكم بآدم، فيأتون آدم عليه السلام فيقولون له: أنت أبو البشر، خلقك اللَّه بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا؟ فيقول آدم: إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه نهاني عن الشجرة فعصيته، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح. فيأتون نوحا فيقولون: يا نوح، إنك أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وقد سماك اللَّه عبدا شكورا، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول: إن ربي عز وجل قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه قد كانت لي دعوة دعوتها على قومي، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى إبراهيم. فيأتون إبراهيم فيقولون: يا إبراهيم، أنت نبي اللَّه وخليله من أهل الأرض، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول لهم: إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قد كنت كذبت ثلاث كذبات -فذكرهن أبو حيان في الحديث- نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى موسى. فيأتون موسى فيقولون: يا موسى، أنت رسول اللَّه، فضلك اللَّه برسالته وبكلامه على الناس. اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قد قتلت نفسا لم أومر بقتلها، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى عيسى. فيأتون عيسى فيقولون: يا عيسى، أنت رسول اللَّه، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وكلمت الناس في المهد صبيا، اشفع لنا، ألا ترى إلى

ما نحن فيه؟ فيقول عيسى: إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله قط، ولن يغضب بعده مثله ولم يذكر ذنبا نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى محمد ﷺ. فيأتون محمدا ﷺ فيقولون. يا محمد أنت رسول اللّٰه، وخاتم الأنبياء، وقد غفر اللّٰه لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فأنطلق فآتي تحت العرش، فأقع ساجدا لربي ﷻ. ثم يفتح اللّٰه علي من محامده وحسن الثناء عليه شيئًا لم يفتحه على أحد قبلي، ثم يقال: يا محمد ارفع رأسك، سل تعطه، واشفع تشفع، فأرفع رأسي فأقول: أمتي يا رب، أمتي يا رب فيقال: يا محمد أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب، ثم قال: والذي نفسي بيده، إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وحمير، أو: كما بين مكة وبصرى»[1].

★ **غريب الحديث:**

نهس: النهس الأخذ بطرف الأسنان. وقال ثعلب: هو بالمهملة الأخذ بالأطراف، وبالمعجمة الأخذ بالأضراس. وقال غيره: هو نتر اللحم.

يشفع لكم: الشفاعة: أصلها الضم والجمع. ومنه: ناقة شفوع؛ إذا جمعت بين حلبتين في حلبة واحدة. وناقة شافع؛ إذا اجتمع لها حمل وولد يتبعها. والشفع: ضم واحد إلى واحد. والشفعة: ضم ملك الشريك إلى ملكك. فالشفاعة إذن: ضم غيرك إلى جاهك ووسيلتك. فهي على التحقيق: إظهار لمنزلة الشفيع عند المشفع، وإيصال منفعة إلى المشفوع له»[2].

* عن أبي هريرة ﷺ أنه قال: قيل: يا رسول اللّٰه من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال رسول اللّٰه ﷺ: «**لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك، لما رأيت من حرصك على الحديث، أسعد الناس بشفاعتي يوم**

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٣٥-٤٣٥) والبخاري (٨/ ٥٠٤-٥٠٥/ ٤٧١٢) ومسلم (١/ ١٨٤-١٨٦/ ١٩٤) والترمذي (٤/ ٥٣٧-٥٣٩/ ٢٤٣٤) والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٧٨-٣٧٩/ ١١٢٨٦) وابن ماجه مختصرا (٢/ ١٠٩٩/ ٣٣٠٧).

(٢) المفهم (١/ ٤٢٨).

القيامة من قال لا إله إلا اللَّه خالصا من قلبه، أو نفسه»[١].

* عن جابر ﷺ: أن رسول اللَّه ﷺ تلا قول اللَّه ﷻ ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ فقال ﷺ: **«إن شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي»**[٢].

★ فوائد الأحاديث:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأما شفاعته ودعاؤه للمؤمنين فهي نافعة في الدنيا والدين باتفاق المسلمين، وكذلك شفاعته للمؤمنين يوم القيامة في زيادة الثواب ورفع الدرجات متفق عليها بين المسلمين، وقد قيل إن بعض أهل البدع ينكرها.

وأما شفاعته لأهل الذنوب من أمته فمتفق عليها بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان وسائر أئمة المسلمين الأربعة وغيرهم، وأنكرها كثير من أهل البدع من الخوارج والمعتزلة والزيدية، وقال هؤلاء: من يدخل النار لا يخرج منها لا بشفاعة ولا غيرها، وعند هؤلاء ما ثم إلا من يدخل الجنة فلا يدخل النار، ومن يدخل النار فلا يدخل الجنة، ولا يجتمع عندهم في الشخص الواحد ثواب وعقاب. وأما الصحابة والتابعون لهم بإحسان وسائر الأئمة كالأربعة وغيرهم فيقرون بما تواترت به الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ أن اللَّه يخرج من النار قوما بعد أن يعذبهم اللَّه ما شاء أن يعذبهم، يخرجهم بشفاعة محمد ﷺ، ويخرج آخرين بشفاعة غيره، ويخرج قومًا بلا شفاعة.

واحتج هؤلاء المنكرون للشفاعة بقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾[٣] وبقوله: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ﴾[٤] وبقوله: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ﴾[٥] وبقوله:

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٠٧ و٣٧٣ و٥١٨) والبخاري (١/ ٢٥٧/ ٩٩) والنسائي في الكبرى (٣/ ٤٢٦-٤٢٧/ ٥٨٤٢).

(٢) أخرجه: الحاكم (٢/ ٣٨٢) وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» وتعقبه الذهبي بقوله: «على شرط مسلم». وأخرجه بدون ذكر: الآية: الترمذي (٤/ ٥٤٠/ ٢٤٣٦) وابن ماجه (٢/ ١٤٤١/ ٤٣١٠) وصححه ابن حبان (١٤/ ٣٨٦/ ٦٤٦٧) والحاكم (١/ ٦٩).

(٣) البقرة: الآية (٤٨). (٤) البقرة: الآية (١٢٣).

(٥) البقرة: الآية (٢٥٤).

﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾[١] وبقوله: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾[٢].

وجواب أهل السنة بأن هذا يراد به شيئان:

أحدهما: أنها لا تنفع المشركين، كما قال تعالى في نعتهم ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾[٣] فهؤلاء نفى عنهم نفع شفاعة الشافعين لأنهم كانوا كفارا.

والثاني: أنه يراد بذلك نفي الشفاعة التي يثبتها أهل الشرك، ومن شابههم من أهل البدع: من أهل الكتاب والمسلمين الذين يظنون أن للخلق عند اللَّه من القدر أن يشفعوا عنده بغير إذنه، كما يشفع الناس بعضهم عند بعض فيقبل المشفوع إليه شفاعة شافع لحاجته إليه رغبة ورهبة، وكما يعامل المخلوق المخلوق بالمعاوضة.

فالمشركون كانوا يتخذون من دون اللَّه شفعاء من الملائكة والأنبياء والصالحين، ويصورون تماثيلهم فيستشفعون بها ويقولون: هؤلاء خواص اللَّه، فنحن نتوسل إلى اللَّه بدعائهم وعبادتهم ليشفعوا لنا، كما يتوسل إلى الملوك بخواصهم لكونهم أقرب إلى الملوك من غيرهم، فيشفعون عند الملوك بغير إذن الملوك، وقد يشفع أحدهم عند الملك فيما لا يختاره فيحتاج إلى إجابة شفاعته رغبة ورهبة.

فأنكر اللَّه هذه الشفاعة فقال تعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾[٤] وقال: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ﴿٢٦﴾﴾[٥]..

فهذه الشفاعة التي أثبتها المشركون للملائكة والأنبياء والصالحين حتى صوروا تماثيلهم وقالوا: استشفاعنا بتماثيلهم استشفاع بهم، وكذلك قصدوا قبورهم وقالوا: نحن نستشفع بهم بعد مماتهم ليشفعوا لنا إلى اللَّه، وصوروا تماثيلهم فعبدوهم كذلك، وهذه الشفاعة أبطلها اللَّه ورسوله، وذم المشركين عليها وكفرهم

---

(١) غافر: الآية (١٨).
(٢) المدثر: الآية (٤٨).
(٣) المدثر: الآيات (٤٢-٤٨).
(٤) البقرة: الآية (٢٥٥).
(٥) النجم: الآية (٢٦).

بها . قال الله تعالى عن قوم نوح : ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾[1] . قال ابن عباس وغيره : هؤلاء قوم صالحون كانوا في قوم نوح ، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم فعبدوهم[2] ، وهذا مشهور في كتب التفسير والحديث وغيرها كالبخاري وغيره ، وهذه أبطلها النبي ﷺ وحسم مادتها وسد ذريعتها ، حتى لعن من اتخذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد يصلى فيها ، وإن كان المصلي فيها لا يستشفع بهم ، ونهى عن الصلاة إلى القبور وأرسل علي بن أبي طالب فأمره أن لا يدع قبرا مشرفا إلا سواه ، ولا تمثالا إلا طمسه ومحاه ، ولعن المصورين . وعن أبي الهياج الأسدي : قال لي علي بن أبي طالب : «**لأبعثك على ما بعثني رسول الله ﷺ ألا تدع تمثالًا إلى طمسته ، ولا قبرا مشرفا إلا سويته**» . وفي لفظ : «**ولا صورة إلى طمستها**»[3]»[4] .

وقد تقدمت مباحث الشفاعة في سورة البقرة عند تفسير قوله تعالى : ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾[5] .

* * *

---

(١) نوح : الآيتان (٢٣و٢٤) .

(٢) البخاري (٨/ ٨٦٢/ ٤٩٢٠) .

(٣) أخرجه : أحمد (١/ ٣٦) ومسلم (٢/ ٦٦٦/ ٩٦٩) وأبو داود (٣/ ٥٣٨-٥٣٩/ ٣٢١٨) والترمذي (٣/ ٣٦٦/ ١٠٤٩) والنسائي (٤/ ٣٩٣/ ٢٠٣٠) .

(٤) مجموع الفتاوى (١/ ١٤٨-١٥٢)

(٥) البقرة : الآية (٢٥٥) .

قوله تعالى: ﴿۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ومن يقل من الملائكة: إني إله من دون اللَّه ﴿فَذَٰلِكَ﴾ الذي يقول ذلك منهم ﴿نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ يقول: نثيبه على قيله ذلك جهنم ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يقول: كما نجزي من قال من الملائكة: إني إله من دون اللَّه جهنم كذلك نجزي ذلك كل من ظلم نفسه فكفر باللَّه وعبد غيره.

وقيل: عني بهذه الآية إبليس وقال قائلو ذلك: إنما قلنا ذلك لأنه لا أحد من الملائكة قال: إني إله من دون اللَّه سواه»[(١)].

قال ابن عطية: «المعنى من يقل منهم كذا أن لو قاله وليس منهم من قال هذا، وقال بعض المفسرين المراد بقوله: ﴿وَمَن يَقُلْ﴾ الآية، إبليس.

قال القاضي أبو محمد: هذا ضعيف لأن إبليس لم يرو قط أنه ادعى ربوبية»[(٢)].

قال الشنقيطي: «الضمير في قوله: ﴿مِنْهُمْ﴾ عائد إلى الملائكة المذكورين في قوله: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾[(٣)] والمعنى: أنهم مع كرامتهم على اللَّه لو ادعى أحد منهم أن له الحق في صرف شيء من حقوق اللَّه الخاصة به إليه لكان مشركا، وكان جزاؤه جهنم. ومعلوم أن التعليق يصح فيما لا يمكن ولا يقع. كقوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾[(٤)] الآية، وقوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[(٥)] والمراد بذلك تعظيم أمر الشرك. وهذا الفرض والتقدير الذي ذكره -جل وعلا- هنا في شأن الملائكة، ذكره أيضًا في شأن الرسل على الجميع صلوات اللَّه وسلامه قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[(٦)]

---

(١) جامع البيان (١٧/ ١٧).
(٢) المحرر الوجيز (٤/ ٧٩).
(٣) الأنبياء: الآية (٢٦).
(٤) الزخرف: الآية (٨١).
(٥) الأنبياء: الآية (٢٢).
(٦) الزمر: الآية (٦٥).

ولما ذكر -جل وعلا- من ذكر من الأنبياء في سورة الأنعام في قوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ﴾[1] إلى آخر من ذكر منهم قال بعد ذلك: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾[2].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ﴾ الآية دليل قاطع على أن حقوق اللّٰه الخالصة له من جميع أنواع العبادة لا يجوز أن يصرف شيء منها لأحد ولو ملكا مقربا، أو نبيا مرسلا. ومما يوضح ذلك قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾[3]، وقوله تعالى مخاطبا لسيد الخلق صلوات اللّٰه وسلامه عليه: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾[4]»[5].

قال السعدي: «فلما بين أنه لا حق لهم في الألوهية، ولا يستحقون شيئًا من العبودية بما وصفهم به من الصفات المقتضية لذلك، ذكر أيضًا أنه لا حظ لهم، ولا بمجرد الدعوى، وأن من قال منهم: ﴿إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ﴾ على سبيل الفرض والتنزل ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وأي ظلم أعظم من ادعاء المخلوق الناقص، الفقير إلى اللّٰه من جميع الوجوه مشاركة اللّٰه في خصائص الإلهية والربوبية؟»[6].

قال ابن عاشور: «وفي هذا إبطال لدعوى عامة النصارى إلهية عيسى عليه السلام، وأنهم يقولون عليه ما لم يقله. ثم صرح بما اقتضاه التعريض فقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي مثل ذلك الجزاء وهو جهنم يجزي المثبتين لله شريكا. والظلم: الشرك»[7].

* * *

(١) الأنعام: الآية (٨٤).
(٢) الأنعام: الآية (٨٨).
(٣) آل عمران: الآيتان (٧٩و٨٠).
(٤) آل عمران: الآية (٦٤).
(٥) أضواء البيان (٤/ ٥٦١-٥٦٢).
(٦) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٢٤).
(٧) التحرير والتنوير (١٧/ ٥٢).

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾

★ **غريب الآية:**

رتقًا: الرتق: أصله الضم والالتحام. خلافه الفتق. فهو الفصل بين المتصلين.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: أولم ينظر هؤلاء الذين كفروا باللَّه بأبصار قلوبهم، فيروا بها ويعلموا أن السموات والأرض كانتا رتقا: يقول: ليس فيهما ثقب، بل كانتا ملتصقتين، يقال منه: رتق فلان الفتق: إذا شده، فهو يرتقه رتقا ورتوقا. ومن ذلك قيل للمرأة التي فرجها ملتحم: رتقاء، ووحد الرتق، وهو من صفة السماء والأرض، وقد جاء بعد قوله: ﴿كَانَتَا﴾ لأنه مصدر، مثل قول الزور والصوم والفطر.

وقوله: ﴿فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ يقول: فصدعناهما وفرجناهما.

ثم اختلف أهل التأويل في معنى وصف اللَّه السموات والأرض بالرتق، وكيف كان الرتق، وبأي معنى فتق؟ فقال بعضهم: عني بذلك أن السموات والأرض كانتا ملتصقتين، ففصل اللَّه بينهما بالهواء.. وقال آخرون: بل معنى ذلك أن السموات كانت مرتتقة طبقة، ففتقها اللَّه فجعلها سبع سموات، وكذلك الأرض كانت كذلك مرتتقة ففتقها، فجعلها سبع أرضين.. وقال آخرون: بل عني بذلك أن السموات كانت رتقا لا تمطر، والأرض كذلك رتقا لا تنبت، ففتق السماء بالمطر، والأرض بالنبات.. وقال آخرون: إنما قيل: ﴿فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ لأن الليل كان قبل النهار، ففتق النهار.. قال أبو جعفر: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: معنى ذلك: أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا من المطر والنبات، ففتقنا السماء بالغيث، والأرض بالنبات.

وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب في ذلك لدلالة قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ على ذلك، وأنه -جل ثناؤه- لم يعقب ذلك بوصف الماء بهذه الصفة إلا والذي تقدمه من ذكر أسبابه.

فإن قال قائل: فإن كان ذلك كذلك فكيف قيل: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ والغيث إنما ينزل من السماء الدنيا؟ قيل: إن ذلك مختلف فيه، قد قال قوم: إنما ينزل من السماء السابعة. وقال آخرون: من السماء الرابعة، ولو كان ذلك أيضًا كما ذكرت من أنه ينزل من السماء الدنيا لم يكن في قوله: ﴿أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ دليل على خلاف ما قلنا؛ لأنه لا يمتنع أن يقال السموات والمراد منها واحدة فتجمع؛ لأن كل قطعة منها سماء، كما يقال: ثوب أخلاق، وقميص أسمال.

فإن قال قائل: وكيف قيل إن السموات والأرض كانتا، فالسموات جمع، وحكم جمع الإناث أن يقال في قليله كن، وفي كثيره كانت؟ قيل: إنما قيل كذلك لأنهما صنفان، فالسموات نوع، والأرض آخر، وذلك نظير قول الأسود بن يعفر:

إن المنية والحتوف كلاهما توفي المخارم يرقبان سوادي

فقال كلاهما وقد ذكر المنية والحتوف لما وصفت من أنه عنى النوعين، وقد أخبرت عن أبي عبيدة معمر بن المثنى قال: أنشدني غالب النفيلي للقطامي:

ألم يحزنك أن حبال قيس وتغلب قد تباينتا انقطاعا

فجعل حبال قيس وهي جمع، وحبال تغلب وهي جمع اثنين»[1].

قال ابن كثير: «يقول تعالى منبها على قدرته التامة، وسلطانه العظيم في خلقه الأشياء، وقهره لجميع المخلوقات فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ أي: الجاحدون لإلهيته العابدون معه غيره، ألم يعلموا أن الله هو المستقل بالخلق، المستبد بالتدبير، فكيف يليق أن يعبد معه غيره أو يشرك به ما سواه، ألم يروا أن السموات والأرض كانتا رتقا أي: كان الجميع متصلا بعضه ببعض، متلاصق متراكم بعضه فوق بعض في ابتداء الأمر، ففتق هذه من هذه، فجعل السموات سبعا، والأرض

(١) جامع البيان (١٧/ ١٨-٢٠).

سبعا، وفصل بين السماء الدنيا والأرض بالهواء، فأمطرت السماء وأنبتت الأرض»[1].

قال الشنقيطي: «الاستفهام لتوبيخ الكفار وتقريعهم، حيث يشاهدون غرائب صنع اللَّه وعجائبه، ومع هذا يعبدون من دونه ما لا ينفع من عبده، ولا يضر من عصاه، ولا يقدر على شيء.

وقوله: ﴿كَانَتَا﴾ التثنية باعتبار النوعين اللذين هما نوع السماء، ونوع الأرض. كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ﴾[2] ونظيره قول عمر بن شييم:

ألم يحزنك أن جبال قيس وتغلب قد تباينتا انقطاعا

والرتق مصدر رتقه رتقا: إذا سده. ومنه الرتقاء. وهي التي انسد فرجها، ولكن المصدر وصف به هنا ولذا أفرده ولم يقل كانتا رتقين. والفتق: الفصل بين الشيئين المتصلين. فهو ضد الرتق. ومنه قول الشاعر:

يهوون عليهم إذا يغضبو ن سخط العداة وإرغامها
ورتق الفتوق وفتق الرتو ق ونقض الأمور وإبرامها

واعلم أن العلماء اختلفوا في المراد بالرتق والفتق في هذه الآية على خمسة أقوال، بعضها في غاية السقوط، وواحد منها تدل له قرائن من القرآن العظيم:

الأول: أن معنى ﴿كَانَتَا رَتْقًا﴾ أي كانت السموات والأرض متلاصقة بعضها مع بعض، ففتقها اللَّه وفصل بين السموات والأرض، فرفع السماء إلى مكانها، وأقر الأرض في مكانها، وفصل بينهما بالهواء الذي بينهما كما ترى.

القول الثاني: أن السموات السبع كانت رتقا. أي متلاصقة بعضها ببعض، ففتقها اللَّه وجعلها سبع سموات، كل اثنتين منها بينهما فصل، والأرضون كذلك كانت رتقا ففتقها، وجعلها سبعا بعضها منفصل عن بعض.

القول الثالث: أن معنى ﴿كَانَتَا رَتْقًا﴾ أن السماء كانت لا ينزل منها مطر، والأرض كانت لا ينبت فيها نبات، ففتق اللَّه السماء بالمطر، والأرض بالنبات.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣٣٢).
(٢) فاطر: الآية (٤١).

الرابع: أنها ﴿كَانَتَا رَتْقًا﴾ أي في ظلمة لا يرى من شدتها شيء ففتقهما اللَّه بالنور. وهذا القول في الحقيقة يرجع إلى القول الأول، والثاني.

الخامس: وهو أبعدها لظهور سقوطه. أن الرتق يراد به العدم. والفتق يراد به الإيجاد. أي كانتا عدما فأوجدناهما. وهذا القول كما ترى.

فإذا عرفت أقوال أهل العلم في هذه الآية، فاعلم أن القول الثالث منها وهو كونهما كانتا رتقا بمعنى أن السماء لا ينزل منها مطر، والأرض لا تنبت شيئًا ففتق اللَّه السماء بالمطر والأرض بالنبات قد دلت عليه قرائن من كتاب اللَّه تعالى:

الأولى: أن قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ يدل على أنهم رأوا ذلك.

لأن الأظهر في رأى أنها بصرية، والذي يرونه بأبصارهم هو أن السماء تكون لا ينزل منها مطر، والأرض ميتة هامدة لا نبات فيها. فيشاهدون بأبصارهم إنزال اللَّه المطر، وإنباته به أنواع النبات.

القرينة الثانية: أنه أتبع ذلك بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾[1]. والظاهر اتصال هذا الكلام بما قبله. أي وجعلنا من الماء الذي أنزلناه بفتقنا السماء، وأنبتنا به أنواع النبات بفتقنا الأرض كل شيء حي.

القرينة الثالثة: أن هذا المعنى جاء موضحا في آيات أخر من كتاب اللَّه كقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ۝١١ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ۝١٢﴾[2] لأن المراد بالرجع نزول المطر منها تارة بعد أخرى، والمراد بالصدع: انشقاق الأرض عن النبات. وكقوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝٢٤ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَآءَ صَبًّا ۝٢٥ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ۝٢٦﴾[3] الآية. واختار هذا القول ابن جرير وابن عطية وغيرهما للقرائن التي ذكرنا. ويؤيد ذلك كثرة ورود الاستدلال بإنزال المطر، وإنبات النبات في القرآن العظيم على كمال قدرة اللَّه تعالى، وعظم منته على خلقه، وقدرته على البعث. والذين قالوا: إن المراد بالرتق والفتق أنهما كانتا متلاصقتين ففتقهما اللَّه وفصل بعضهما عن بعض قالوا في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَ﴾ أنها من رأى العلمية لا البصرية، وقالوا: وجه

(١) الأنبياء: الآية (٣٠).
(٢) الطارق: الآيتان (١١و١٢).
(٣) عبس: الآيات (٢٤-٢٦).

تقريرهم بذلك أنه جاء في القرآن، وما جاء في القرآن فهو أمر قطعي لا سبيل للشك فيه. والعلم عند الله تعالى.

وأقرب الأقوال في ذلك هو ما ذكرنا دلالة القرائن القرآنية عليه، وقد قال فيه الفخر الرازي في تفسيره: ورجحوا هذا الوجه على سائر الوجوه بقوله بعد ذلك: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾[1] وذلك لا يليق إلا وللماء تعلق بما تقدم، ولا يكون كذلك إلا إذا كان المراد ما ذكرنا.

فإن قيل: هذا الوجه مرجوح. لأن المطر لا ينزل من السموات بل من سماء واحدة وهي سماء الدنيا.

قلنا: إنما أطلق عليه لفظ الجمع لأن كل قطعة منها سماء. كما يقال ثوب أخلاق، وبرمة أعشار»[2].

قال السعدي: «أي: أولم ينظر هؤلاء الذين كفروا بربهم، وجحدوا الإخلاص له في العبودية، ما يدلهم دلالة مشاهدة، على أنه الرب المحمود الكريم المعبود، فيشاهدون السماء والأرض فيجدونهما رتقا، هذه ليس فيها سحاب ولا مطر، وهذه هامدة ميتة، لا نبات فيها، ففتقناهما: السماء بالمطر، والأرض بالنبات، أليس الذي أوجد في السماء السحاب، بعد أن كان الجو صافيا لا قزعة فيه، وأودع فيه الماء الغزير، ثم ساقه إلى بلد ميت؛ قد اغبرت أرجاؤه، وقحط عنه ماؤه، فأمطره فيها، فاهتزت، وتحركت، وربت، وأنبتت من كل زوج بهيج، مختلف الأنواع، متعدد المنافع، [أليس ذلك] دليلا على أنه الحق، وما سواه باطل، وأنه محيي الموتى، وأنه الرحمن الرحيم؟»[3].

* * *

(١) الأنبياء: الآية (٣٠).

(٢) أضواء البيان (٤/ ٥٦٢-٥٦٤).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٢٥).

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «اختلف المفسرون، فقال بعضهم: المراد من قوله: ﴿كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ الحيوان فقط، وقال آخرون: بل يدخل فيه النبات والشجر لأنه من الماء صارناميا وصار فيه الرطوبة والخضرة والنور والثمر، وهذا القول أليق بالمعنى المقصود، كأنه تعالى قال: ففتقنا السماء لإنزال المطر، وجعلنا منه كل شيء في الأرض من النبات وغيره حيا، حجة القول الأول أن النبات لا يسمى حيا، قلنا: لا نسلم والدليل عليه قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾[1] أما قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ فالمراد أفلا يؤمنون بأن يتدبروا هذه الأدلة فيعلموا بها الخالق الذي لا يشبه غيره، ويتركوا طريقة الشرك»[2].

قال الشنقيطي: «الظاهر أن (جعل) هنا بمعنى خلق. لأنها متعدية لمفعول واحد. ويدل لذلك قوله تعالى في سورة النور: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ﴾[3].

واختلف العلماء في معنى خلق كل شيء من الماء. قال بعض العلماء: الماء الذي خلق منه كل شيء هو النطفة؛ لأن الله خلق جميع الحيوانات التي تولد عن طريق التناسل من النطف، وعلى هذا فهو من العام المخصوص.

وقال بعض العلماء: هو الماء المعروف؛ لأن الحيوانات إما مخلوقة منه مباشرة كبعض الحيوانات التي تتخلق من الماء. وإما غير مباشرة لأن النطف من الأغذية، والأغذية كلها ناشئة عن الماء، وذلك في الحبوب والثمار ونحوها ظاهر، وكذلك هو في اللحوم والألبان والأسمان ونحوها: لأنه كله ناشئ بسبب الماء.

---

(١) الروم: الآية (٥٠).

(٢) التفسير الكبير (٢٢/ ١٦٥).

(٣) النور: الآية (٤٥).

وقال بعض أهل العلم: معنى خلقه كل حيوان من ماء: أنه كأنما خلقه من الماء لفرط احتياجه إليه، وقلة صبره عنه. كقوله: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾[1] إلى غير ذلك من الأقوال. وقد قدمنا المعاني الأربعة التي تأتي لها لفظة (جعل) وما جاء منها في القرآن وما لم يجئ فيه في سورة النحل»[2].

قال ابن عاشور: «استدلال بما هو أظهر لرؤية الأبصار وفيه عبرة للناس في أكثر أحواله. وهو عبرة للمتأملين في دقائقه في تكوين الحيوان من الرطوبات. وهي تكوين التناسل وتكوين جميع الحيوان فإنه لا يتكون إلا من الرطوبة ولا يعيش إلا ملابسا لها فإذا انعدمت منه الرطوبة فقد الحياة، ولذلك كان استمرار الحمى مفضيا إلى الهزال ثم إلى الموت.

و(جعل) هنا بمعنى خلق، متعدية إلى مفعول واحد لأنها غير مراد منها التحول من حال إلى حال.

و﴿مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ متعلق بـ ﴿جَعَلْنَا﴾. و(من) ابتدائية. وفرع عليه ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ إنكارا عليهم عدم إيمانهم الإيمان الذي دعاهم إليه محمد ﷺ وهو الإيمان بوحدانية الله»[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن قدرة الله تعالى تتجلى في الماء الذي كان مصدرا للخلق ولا تتم الحياة إلا به

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله: إني إذا رأيتك طابت نفسي وقرت عيني، فأنبئني عن كل شيء، قال: «**كل شيء خلق من ماء**»[4].

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن القيم: «الماء: مادة الحياة، وسيد الشراب، وأحد أركان العالم، بل

---

(١) الأنبياء: الآية (٣٧). (٢) أضواء البيان (٤/ ٥٦٥).

(٣) التحرير والتنوير (١٧/ ٥٦).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٩٥) وابن حبان (الإحسان ٢/ ٢٦١/ ٥٠٨) دون ذكر محل الشاهد، والحاكم (٤/ ١٦٠) ووافقه الذهبي، وذكره الهيثمي في المجمع (٥/ ١٦) وقال: «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح خلا أبي ميمونة وهو ثقة».

ركنه الأصلي، فإن السموات خلقت من بخاره، والأرض من زبده، وقد جعل اللَّه منه كل شيء حي»[1].

وقال ابن رجب: «حديث أبي هريرة يدل على أن الماء مادة جميع المخلوقات، وقد دل القرآن على أن الماء مادة جميع الحيوانات قال اللَّه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ﴾[2] وقول من قال: أن المراد بالماء النطفة التي يخلق منها الحيوانات بعيد لوجهين أحدهما: أن النطفة لا تسمى ماء مطلقا بل مقيدا لقوله تعالى: ﴿خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ ۝ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۝﴾[3] وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ۝﴾[4] والثاني: أن من الحيوانات ما يتولد من غير نطفة كدود الخل والفاكهة ونحو ذلك، فليس كل حيوان مخلوقا من نطفة، والقرآن دل على خلق جميع ما يدب وما فيه حياة من ماء، فعلم بذلك أن أصل جميعها الماء المطلق، ولا ينافي هذا قوله تعالى: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ ۝﴾[5] وقول النبي ﷺ: «خلقت الملائكة من نور»[6] فإن حديث أبي هريرة دل على أن أصل النور والنار الماء، كما أن أصل التراب الذي خلق منه آدم الماء، فإن آدم خلق من طين، والطين تراب مختلط بماء، أو التراب خلق من الماء كما تقدم عن ابن عباس وغيره، وزعم مقاتل: أن الماء خلق من النور وهو مردود بحديث أبي هريرة هذا وغيره، ولا يستنكر خلق النار من الماء، فإن اللَّه ﷻ جمع بقدرته بين الماء والنار في الشجر الأخضر، وجعل ذلك من أدلة القدرة على البعث، وذكر الطبائعيون أن الماء بانحداره يصير بخارا، والبخار ينقلب هواء والهواء ينقلب نارا واللَّه أعلم»[7].

قلت: المسلم العاقل يقف في الأمور الغيبية الموقف الذي يليق به، وهو أن ما أخبر به اللَّه أو أخبر به الرسول ﷺ؛ لا شك في صدقه وأنه العليم الخبير، والرسول ﷺ مخبر عن اللَّه، فخبره كله صدق، وما سوى ذلك لا يجرؤ المسلم على شيء

---

(١) زاد المعاد (٤/ ٣٨٨).
(٢) النور: الآية (٤٥).
(٣) الطارق: الآيتان (٦و٧).
(٤) المرسلات: الآية (٢٠).
(٥) الحجر: الآية (٢٧).
(٦) أخرجه: أحمد (٦/ ١٥٣) ومسلم (٤/ ٢٢٩٤/ ٢٩٩٦) من حديث عائشة ﵂.
(٧) لطائف المعارف (ص٢٦ - ٢٧).

منه، فإذا أخبر الرسول ﷺ بأن الملائكة خلقت من نور فيبقى الحديث على ظاهره، وإذا أخبر اللَّه عن الجن بأنهم خلقوا من نار فتبقى الآية على ظاهرها، فلا حاجة بنا إلى قول المفسرين في إرجاع النور والنار إلى الماء بما لا دليل عليه من الكتاب والسنة، ويبقى معنى الآية ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ أي: ما للمياه فيه أثر، سواء كان في أصله أو في إخراجه وانتعاشه كالنبات والأشجار ونحوها، وكل ما يدب على الأرض فأصله من الماء بلا نزاع سواء كان من الإنسان أو الحيوانات، فكل هذه الأشياء ثبت بالنظر أنها من الماء، فمن تمام التصديق الوقوف على النص، وعدم تجاوزه بالتكلفات الباردة التي يسلكها بعض الشراح عافاهم اللَّه ورحمهم.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾﴾

★ غريب الآية:

رواسي: جبال. وأصل الرسو: الثبوت، من رست السفينة: إذا وقفت وثبتت.

تميد: تتحرك وتضطرب.

فجاجا: جمع فج، وهو المفرج الواسع بين الجبلين.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ أي جبالا أرسى الأرض بها وقررها وثقلها، لئلا تميد بالناس، أي تضطرب وتتحرك، فلا يحصل لهم قرار عليها لأنها غامرة في الماء إلا مقدار الربع، فإنه باد للهواء والشمس، ليشاهد أهلها السماء وما فيها من الآيات الباهرات، والحكم والدلالات ولهذا قال: ﴿أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ أي لئلا تميد بهم وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا﴾ أي: ثغرا في الجبال يسلكون فيها طريقًا من قطر إلى قطر، ومن إقليم إلى إقليم، كما هو المشاهد في الأرض، يكون الجبل حائلا بين هذه البلاد وهذه البلاد، فيجعل اللَّه فيه فجوة -ثغرة- ليسلك الناس فيها من ههنا إلى ههنا، ولهذا قال: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾»[1].

قال السعدي: «أي: ومن الأدلة على قدرته وكماله ووحدانيته ورحمته، أنه لما كانت الأرض لا تستقر إلا بالجبال، أرساها بها وأوتدها، لئلا تميد بالعباد، أي: لئلا تضطرب، فلا يتمكن العباد من السكون فيها، ولا حرثها، ولا الاستقرار بها، فأرساها بالجبال، فحصل بسبب ذلك من المصالح والمنافع ما حصل، ولما كانت الجبال المتصل بعضها ببعض، قد تتصل اتصالا كثيرا جدا، فلو بقيت بحالها،

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣٣٣).

جبالا شامخات، وقللا باذخات، لتعطل الاتصال بين كثير من البلدان.

فمن حكمة اللَّه ورحمته، أن جعل بين تلك الجبال فجاجا سبلا أي: طرقا سهلة لا حزنة، لعلهم يهتدون إلى الوصول إلى مطالبهم من البلدان، ولعلهم يهتدون بالاستدلال بذلك على وحدانية المنان»[1].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٢٦).

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهَا مُعْرِضُونَ ۝٣٢﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا﴾ للأرض مسموكا قوله: ﴿مَّحْفُوظًا﴾ يقول: حفظناها من كل شيطان رجيم.. وقوله: ﴿وَهُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ يقول: هؤلاء المشركون عن آيات السماء، ويعني بآياتها شمسها وقمرها ونجومها ﴿مُعْرِضُونَ﴾: يقول: يعرضون عن التفكير فيها، وتدبر ما فيها من حجج اللَّه عليهم، ودلالتها على وحدانية خالقها، وأنه لا ينبغي أن تكون العبادة إلا لمن دبرها وسواها ولا تصلح إلا له»[١].

قال القرطبي: «بين أن المشركين غفلوا عن النظر في السموات وآياتها، من ليلها ونهارها، وشمسها وقمرها، وأفلاكها ورياحها وسحابها، وما فيها من قدرة اللَّه تعالى، إذ لو نظروا واعتبروا لعلموا أن لها صانعا قادرا واحدا، فيستحيل أن يكون له شريك»[٢].

قال ابن عاشور: «لما ذكر الاعتبار بخلق الأرض وما فيها ناسب بحكم الطباق ذكر خلق السماء عقبه، إلا أن حالة خلق الأرض فيها منافع للناس. فعقب ذكرها بالامتنان بقوله تعالى: ﴿أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ وبقوله تعالى: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

وأما حال خلق السماء فلا تظهر فيه منفعة فلم يذكر بعده امتنان، ولكنه ذكر إعراضهم عن التدبر في آيات خلق السماء الدالة على الحكمة البالغة فعقب بقوله تعالى: ﴿وَهُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾. فأدمج في خلال ذلك منة وهي حفظ السماء من أن تقع بعض الأجرام الكائنة فيها أو بعض أجزائها على الأرض فتهلك الناس أو تفسد الأرض، فتعطل منافعها، فذلك إدماج للمنة في خلال الغرض المقصود الذي لا مندوحة عن العبرة به»[٣].

---

(١) جامع البيان (١٧/ ٢١-٢٢).
(٢) جامع أحكام القرآن (٦/ ٢٨٥).
(٣) التحرير والتنوير (١٧/ ٥٨).

قال الشنقيطي: «تضمنت هذه الآية الكريمة ثلاث مسائل:

الأولى: أن اللَّه -جل وعلا- جعل السماء سقفا، أي لأنها للأرض كالسقف للبيت.

الثانية: أنه جعل ذلك السقف محفوظا.

الثالثة: أن الكفار معرضون عما فيها (أي السماء) من الآيات، لا يتعظون به ولا يتذكرون. وقد أوضح هذه المسائل الثلاث في غير هذا الموضع.

أما كونه جعلها سقفا، فقد ذكره في سورة الطور أنه مرفوع، وذلك من قوله: ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ۝٤ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ۝٥﴾[1] الآية.

وأما كون ذلك السقف محفوظا فقد بينه في مواضع من كتابه، فبين أنه محفوظ من السقوط في قوله: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾[2]، وقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾[4]، وقوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾[5]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ۝١٧﴾[6] على قول من قال: وما كنا عن الخلق غافلين. إذ لو كنا نغفل لسقطت عليهم السماء فأهلكتهم. وبين أنه محفوظ من التشقق والتفطر، لا يحتاج إلى ترميم ولا إصلاح كسائر السقوف إذا طال زمنها. كقوله تعالى: ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾[7]، وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦﴾[8] أي ليس فيها من شقوق ولا صدوع. وبين أن ذلك السقف المذكور محفوظ من كل شيطان رجيم. كقوله: ﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ۝١٧﴾[9]. .

---

(١) الطور: الآيات (١-٥).
(٢) الحج: الآية (٦٥).
(٣) الروم: الآية (٢٥).
(٤) فاطر: الآية (٤١).
(٥) البقرة: الآية (٢٥٥).
(٦) المؤمنون: الآية (١٧).
(٧) الملك: الآية (٣).
(٨) ق: الآية (٦).
(٩) الحجر: الآية (١٧).

وأما كون الكفار معرضين عما فيها من الآيات فقد بينه في مواضع من كتابه. كقوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾[1]، وقوله: ﴿وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ﴾[2] الآية، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾[3]، وقوله: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾[4]»[5].

* * *

(١) يوسف: الآية (١٠٥).

(٢) القمر: الآية (٢).

(٣) يونس: الآيتان (٩٦و٩٧).

(٤) يونس: الآية (١٠١).

(٥) أضواء البيان (٤/ ٥٦٦-٥٦٧).

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾

★ **غريب الآية:**

فلك: أصل الفلك: كل شيء دائر. والفلك أيضًا: مجرى الكواكب.

يسبحون: يجرون. وأصل السَّبْحِ: المَرُّ السريعُ في الماءِ أو الهواءِ.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: والله الذي خلق لكم أيها الناس الليل والنهار، نعمة منه عليكم وحجة، ودلالة على عظيم سلطانه، وأن الألوهة له دون كل ما سواه فهما يختلفان عليكم لصلاح معايشكم وأمور دنياكم وآخرتكم، وخلق الشمس والقمر أيضًا، كل في فلك يسبحون، يقول: كل ذلك في فلك يسبحون»[١].

قال ابن كثير: «قال منبها على بعض آياته: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ أي هذا في ظلامه وسكونه، وهذا بضيائه وأنسه، يطول هذا تارة ثم يقصر أخرى، وعكسه الآخر ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ هذه لها نور يخصها، وفلك بذاته، وزمان على حدة، وحركة وسير خاص، وهذا بنور آخر، وفلك آخر، وسير آخر، وتقدير آخر ﴿كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ أي يدورون»[٢].

قال السعدي: «وهذا عام في جميع آيات السماء، من علوها، وسعتها، وعظمتها، ولونها الحسن، وإتقانها العجيب، وغير ذلك من المشاهد فيها، من الكواكب الثوابت والسيارات، وشمسها، وقمرها النيرات، المتولد عنهما الليل والنهار، وكونهما دائما في فلكهما سابحين، وكذلك النجوم، فتقوم بسبب ذلك منافع العباد من الحر والبرد والفصول، ويعرفون حساب عباداتهم ومعاملاتهم،

---

(١) جامع البيان (١٧/ ٢٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣٣٤).

ويستريحون في ليلهم ويهدؤون ويسكنون، وينتشرون في نهارهم، ويسعون في معايشهم، كل هذه الأمور إذا تدبرها اللبيب، وأمعن فيها النظر، جزم جزما لا شك فيه، أن اللَّه جعلها مؤقتة في وقت معلوم، إلى أجل محتوم، يقضي العباد منها مآربهم، وتقوم بها منافعهم، وليستمتعوا وينتفعوا، ثم بعد هذا ستزول وتضمحل، ويفنيها الذي أوجدها، ويسكنها الذي حركها، وينتقل المكلفون إلى دار غير هذه الدار، يجدون فيها جزاء أعمالهم، كاملا موفرا ويعلم أن المقصود من هذه الدار أن تكون مزرعة لدار القرار، وأنها منزل سفر، لا محل إقامة»[1].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٢٧).

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: وما خلدنا أحدا من بني آدم يا محمد قبلك في الدنيا فنخلدك فيها ولا بد لك من أن تموت كما مات من قبلك من رسلنا ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ يقول: فهؤلاء المشركون بربهم هم الخالدون في الدنيا بعدك؟ لا! ما ذلك كذلك، بل هم ميتون بكل حال، عشت أو مت، فأدخلت الفاء في إن وهي جزاء، وفي جوابه؛ لأن الجزاء متصل بكلام قبله، ودخلت أيضًا في قوله فهم لأنه جواب للجزاء، ولو لم يكن في قوله (فهم) الفاء جاز على وجهين: أحدهما: أن تكون محذوفة وهي مرادة، والآخر أن يكون مرادا تقديمها إلى الجزاء، فكأنه قال: أفهم الخالدون إن مت.

وقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ يقول -تعالى ذكره-: كل نفس منفوسة من خلقه، معالجة غصص الموت، ومتجرعة كأسها.

وقوله: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ يقول -تعالى ذكره-: ونختبركم أيها الناس بالشر، وهو الشدة نبتليكم بها وبالخير، وهو الرخاء والسعة والعافية، فنفتنكم به»[1].

قال ابن كثير: «يقول تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أي يا محمد ﴿ٱلْخُلْدَ﴾ أي في الدنيا بل ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾[2] وقد استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب من العلماء إلى أن الخضر عليه السلام مات وليس بحي إلى الآن لأنه بشر، سواء كان وليا أو نبيا أو رسولا، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾ وقوله: ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ﴾ أي يا محمد ﴿فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ أي

---

(١) جامع البيان (١٧/ ٢٤).

(٢) الرحمن: الآيتان (٢٦و٢٧).

يؤملون أن يعيشوا بعدك، لا يكون هذا، بل كل إلى الفناء، ولهذا قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾ وقد روي عن الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه أنشد واستشهد بهذين البيتين:

تمنى رجال أن أموت وإن أمت فتلك سبيل لست فيها بأوحد

فقل للذي يبغي خلاف الذي مضى تهيأ لأخرى مثلها فكأن قد

وقوله: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ أي نختبركم بالمصائب تارة، وبالنعم أخرى، فننظر من يشكر ومن يكفر ومن يصبر ومن يقنط»[1].

قال السعدي: «لما كان أعداء الرسول يقولون تربصوا به ريب المنون. قال اللَّه تعالى: هذا طريق مسلوك، ومعبد منهوك، فلم نجعل لبشر ﴿مِن قَبْلِكَ﴾ يا محمد ﴿ٱلْخُلْدَ﴾ في الدنيا، فإذا مت، فسبيل أمثالك، من الرسل والأنبياء والأولياء، وغيرهم.

﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ أي: فهل إذا مت خلدوا بعدك، فليهنهم الخلود إذا إن كان، وليس الأمر كذلك، بل كل من عليها فان، ولهذا قال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾ وهذا يشمل سائر نفوس الخلائق، وإن هذا كأس لا بد من شربه وإن طال بالعبد المدى، وعمر سنين، ولكن اللَّه تعالى أوجد عباده في الدنيا، وأمرهم ونهاهم، وابتلاهم بالخير والشر، بالغنى والفقر، والعز والذل والحياة والموت، فتنة منه تعالى ليبلوهم أيهم أحسن عملا ومن يفتتن عند مواقع الفتن ومن ينجو، ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ فنجازيكم بأعمالكم، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[2] وهذه الآية تدل على بطلان قول من يقول ببقاء الخضر، وأنه مخلد في الدنيا، فهو قول لا دليل عليه، ومناقض للأدلة الشرعية»[3].

قال ابن عاشور: «عنيت الآيات من أول السورة باستقصاء مطاعن المشركين في القرآن ومن جاء به بقولهم: ﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾[4] وقولهم: ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾[5] وكان من جملة أمانيهم لما أعياهم اختلاق المطاعن أن كانوا يتمنون موت محمد ﷺ أو يرجونه أو يدبرونه قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣٣٥).
(٢) فصلت: الآية (٤٦).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٢٨-٢٢٩).
(٤) الأنبياء: الآية (٣).
(٥) الأنبياء: الآية (٥).

نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾﴾[(١)] في سورة الطور وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾[(٢)] في الأنفال.

وقد دل على أن هؤلاء هم المقصود من الآية قوله تعالى: ﴿أَفَإِي۟ن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ فلما كان تمنيهم موته وتربصهم به ريب المنون يقتضي أن الذين تمنوا ذلك وتربصوا به كأنهم واثقون بأنهم يموتون بعده فتتم شماتتهم، أو كأنهم لا يموتون أبدا فلا يشمت بهم أحد، وجه إليهم استفهام الإنكار على طريقة التعريض بتنزيلهم منزلة من يزعم أنهم خالدون.

وفي الآية إيماء إلى أن الذين لم يقدر اللَّه لهم الإسلام ممن قالوا ذلك القول سيموتون قبل موت النبي ﷺ فلا يشمتون به فإن الرسول ﷺ لم يمت حتى أهلك اللَّه رؤوس الذين عاندوه وهدى بقيتهم إلى الإسلام»[(٣)].

قال الشنقيطي: «قال بعض أهل العلم: كان المشركون ينكرون نبوته ﷺ ويقولون: هو شاعر يتربص به ريب المنون، ولعله يموت كما مات شاعر بني فلان. فقال اللَّه تعالى: قد مات الأنبياء من قبلك، وتولى اللَّه دينه بالنصر والحياطة، فهكذا نحفظ دينك وشرعك.

وقال بعض أهل العلم: لما نعي جبريل إلى النبي ﷺ نفسه قال: «فمن لأمتي»؟ فنزلت ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾ والأول أظهر. لأن السورة مكية: ومعنى الآية: أن اللَّه لم يجعل لبشر قبل نبيه الخلد أي دوام البقاء في الدنيا، بل كلهم يموت.

وقوله: ﴿أَفَإِي۟ن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ استفهام إنكاري معناه النفي. والمعنى: أنك إن مت فهم لن يخلدوا بعدك، بل سيموتون. ولذلك أتبعه بقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾. وما أشار إليه -جل وعلا- في هذه الآية من أنه ﷺ سيموت، وأنهم سيموتون، وأن الموت ستذوقه كل نفس أوضحه في غير هذا الموضع. كقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾[(٤)]، كقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾[(٥)]، وقوله

---

(١) الطور: الآية (٣٠).
(٢) الأنفال: الآية (٣٠).
(٣) التحرير والتنوير (١٧/ ٦٢-٦٣).
(٤) الزمر: الآية (٣٠).
(٥) آل عمران: الآية (١٨٥).

في سورة العنكبوت: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ٥٦ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ٥٧﴾[1]، وقوله تعالى في سورة النساء: ﴿أَيۡنَمَا تَكُونُواْ يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾[2] إلى غير ذلك من الآيات.. وقوله في هذه الآية الكريمة ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلۡخَٰلِدُونَ﴾ يفهم منه أنه لا ينبغي للإنسان أن يفرح بموت أحد لأجل أمر دنيوي يناله بسبب موته. لأنه هو ليس مخلدا بعده..

قوله تعالى: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾. المعنى: ونختبركم بما يجب فيه الصبر من البلايا، وبما يجب فيه الشكر من النعم، وإلينا مرجعكم فنجازيكم على حسب ما يوجد منكم من الصبر أو الشكر، وقوله: ﴿فِتۡنَةٗ﴾ مصدر مؤكد لـ ﴿وَنَبۡلُوكُم﴾ من غير لفظه.

وما ذكره -جل وعلا-: من أنه يبتلي خلقه أي يختبرهم بالشر والخير قد بينه في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: ﴿وَبَلَوۡنَٰهُم بِٱلۡحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ ٤٢ فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٤٣ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ٤٤ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٥﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ٩٤ ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٩٥﴾[5] إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله تعالى في هذه الآيات الكريمة: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗ﴾ يدل على أن بلا يبلو تستعمل في الاختبار بالنعم، وبالمصائب والبلايا. وقال بعض العلماء: أكثر ما يستعمل في الشر بلا يبلو، وفي الخبر أبلى يبلى.

وقد جمع اللغتين في الخير قول زهير بن أبي سلمى:

جزى الله بالإحسان ما فعلا بكم … وأبلاهما خير البلاء الذي يبلو»[6].

---

(١) العنكبوت: الآيتان (٥٦و٥٧).
(٢) النساء: الآية (٧٨).
(٣) الأعراف: الآية (١٦٨).
(٤) الأنعام: الآيات (٤٢-٤٥).
(٥) الأعراف: الآيتان (٩٤و٩٥).
(٦) أضواء البيان (٤/ ٥٦٧-٥٧٠).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﴿وَإِذَا رَءَاكَ﴾ يا محمد ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ بالله ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ يقول: ما يتخذونك إلا سخريا، يقول بعضهم لبعض ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ﴾ يعني بقوله: يذكر آلهتكم بسوء ويعيبها، تعجبا منهم من ذلك، يقول الله -تعالى ذكره-: فيعجبون من ذكرك يا محمد آلهتهم التي لا تضر ولا تنفع بسوء ﴿وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ الذي خلقهم وأنعم عليهم، ومنه نفعهم، وبيده ضرهم، وإليه مرجعهم بما هو أهله منهم أن يذكروه به كافرون، والعرب تضع الذكر موضع المدح والذم، فيقولون: سمعنا فلانا يذكر فلانا، وهم يريدون سمعناه يذكره بقبيح ويعيبه ومن ذلك قول عنترة:

لا تذكري مهري وما أطعمته   فيكون جلدك مثل جلد الأجرب

يعني بذلك: لا تعيبي مهري، وسمعناه يذكر بخير»[1].

قال السعدي: «وهذا من شدة كفرهم، فإن المشركين إذا رأوا رسول الله ﷺ استهزأوا به وقالوا: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ﴾ أي: هذا المحتقر بزعمهم، الذي يسب آلهتكم ويذمها، ويقع فيها، أي: فلا تبالوا به، ولا تحتفلوا به.

هذا استهزاؤهم واحتقارهم له، بما هو من كماله، فإنه الأكمل الأفضل الذي من فضائله ومكارمه إخلاص العبادة لله، وذم كل ما يعبد من دونه وتنقصه، وذكر محله ومكانته، ولكن محل الازدراء والاستهزاء هؤلاء الكفار، الذين جمعوا كل خلق ذميم، ولو لم يكن إلا كفرهم بالرب وجحدهم لرسله فصاروا بذلك، من أخس الخلق وأرذلهم، ومع هذا فذكرهم للرحمن، الذي هو أعلى حالاتهم كافرون

(١) جامع البيان (١٧/ ٢٥).

بها، لأنهم لا يذكرونه ولا يؤمنون به إلا وهم مشركون، فذكرهم كفر وشرك، فكيف بأحوالهم بعد ذلك؟ ولهذا قال: ﴿وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ وفي ذكر اسمه ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ هنا، بيان لقباحة حالهم، وأنهم كيف قابلوا الرحمن -مسدي النعم كلها، ودافع النقم الذي ما بالعباد من نعمة إلا منه، ولا يدفع السوء إلا إياه- بالكفر والشرك»[١].

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أن الكفار إذا رأوا النبي ﷺ ما يتخذونه إلا هزوا، أي مستهزأ به مستخفا به. والهزؤ: السخرية، فهو مصدر وصف به. ويقولون: أهذا الذي يذكر آلهتكم أي يعيبها وينفي أنها تشفع لكم وتقربكم إلى اللّه زلفى، ويقول: إنها لا تنفع من عبدها، ولا تضر من لم يعبدها، وهم مع هذا كله كافرون بذكر الرحمن. فالخطاب في قوله: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ﴾ للنبي ﷺ..

وفي هذه الآية الكريمة دلالة واضحة على سخافة عقول الكفار؛ لأنهم عاكفون على ذكر أصنام لا تنفع ولا تضر، ويسوءهم أن تذكر بسوء، أو يقال إنها لا تشفع ولا تقرب إلى اللّه. وأما ذكر اللّه وما يجب أن يذكر به من الوحدانية فهم به كافرون لا يصدقون به، فهم أحق بأن يتخذوا هزؤا من النبي ﷺ الذي اتخذوه هزؤا، فإنه محق وهم مبطلون.

فإذا عرفت معنى هذه الآية الكريمة فاعلم أن هذا المعنى الذي دلت عليه جاء أيضًا مبينا في سورة الفرقان في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ۝٤١ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ۝٤٢﴾[٢] فتحقيرهم لعنهم اللّه له ﷺ المذكور في قوله في الأنبياء في قوله: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ هو المذكور في الفرقان في قوله: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾[٣] أي لما يبين من معائبها، وعدم فائدتها، وعظم ضرر عبادتها»[٤].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٢٩-٢٣٠).

(٢) الفرقان: الآيتان (٤١و٤٢).

(٣) الفرقان: الآية (٤٢).

(٤) أضواء البيان (٤/ ٥٧٠-٥٧٢).

قوله تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ يعني آدم ﴿مِنْ عَجَلٍ﴾.

واختلف أهل التأويل في تأويله، فقال بعضهم: معناه: من عجل في بنيته وخلقته، كان من العجلة، وعلى العجلة.. وقال آخرون: معناه: خلق الإنسان من عجل: أي من تعجيل في خلق اللَّه إياه ومن سرعة فيه وعلى عجل، وقالوا: خلقه اللَّه في آخر النهار يوم الجمعة قبل غروب الشمس على عجل في خلقه إياه قبل مغيبها.. وقال بعض أهل العربية من أهل البصرة ممن قال نحو هذه المقالة: إنما قال: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ وهو يعني أنه خلقه من تعجيل من الأمر، لأنه قال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ قال: فهذا العجل. وقوله: ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ وعلى قول صاحب هذه المقالة، يجب أن يكون كل خلق اللَّه خلق على عجل، لأن كل ذلك خلق بأن قيل له كن فكان. فإذا كان ذلك كذلك، فما وجه خصوص الإنسان إذا بذكر أنه خلق من عجل دون الأشياء كلها، وكلها مخلوق من عجل، وفي خصوص اللَّه -تعالى ذكره- الإنسان بذلك الدليل الواضح، على أن القول في ذلك غير الذي قاله صاحب هذه المقالة.

وقال آخرون منهم: هذا من المقلوب، وإنما خلق العجل من الإنسان، وخلقت العجلة من الإنسان. وقالوا: ذلك مثل قوله: ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِي ٱلْقُوَّةِ﴾[1] وإنما هو لتنوء العصبة بها متثاقلة، وقالوا: هذا وما أشبهه في كلام العرب كثير مشهور، قالوا: وإنما كلم القوم بما يعقلون، قالوا: وذلك مثل قولهم: عرضت الناقة، وكقولهم: إذا طلعت الشعرى واستوت العود على الحرباء: أي استوت الحرباء على العود، كقول الشاعر:

وتركب خيلا لا هوادة بينها ... وتشقى الرماح بالضياطرة الحمر

وكقول ابن مقبل:

---

(١) القصص: الآية (٧٦).

حسرت كفي عن السربال آخذه فردا يجر على أيدي المفدينا

يريد: حسرت السربال عن كفي، ونحو ذلك من المقلوب، وفي إجماع أهل التأويل على خلاف هذا القول الكفاية المغنية عن الاستشهاد على فساده بغيره.

قال أبو جعفر: والصواب من القول في تأويل ذلك عندنا الذي ذكرناه عمن قال معناه: خلق الإنسان من عجل في خلقه: أي على عجل وسرعة في ذلك، وإنما قيل ذلك كذلك، لأنه بودر بخلقه مغيب الشمس في آخر ساعة من نهار يوم الجمعة، وفي ذلك الوقت نفخ فيه الروح.

وإنما قلنا أولى الأقوال التي ذكرناها في ذلك بالصواب، لدلالة قوله تعالى: ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ على ذلك.. فتأويل الكلام إذا كان الصواب في تأويل ذلك ما قلنا بما به استشهدنا ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍۚ﴾ ولذلك يستعجل ربه بالعذاب ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ أيها المستعجلون ربهم بالآيات القائلون لنبينا محمد ﷺ: بل هو شاعر، فليأتنا بآية كما أرسل الأولون آياتي، كما أريتها من قبلكم من الأمم التي أهلكناها بتكذيبها الرسل، إذا أتتها الآيات فلا تستعجلون، يقول: فلا تستعجلوا ربكم، فإنا سنأتيكم بها ونريكموها»[1].

قال الشنقيطي: «في هذه الآية الكريمة: ﴿مِنْ عَجَلٍۚ﴾ فيه للعلماء قولان معروفان، وفي نفس الآية قرينة تدل على عدم صحة أحدهما. أما القول الذي دلت القرينة المذكورة على عدم صحته: فهو قول من قال: العجل الطين وهي لغة حميرية. كما قال شاعرهم:

البيع في الصخرة الصماء منبته والنخل ينبت بين الماء والعجل

يعني: بين الماء والطين. وعلى هذا القول فمعنى الآية: خلق الإنسان من طين، كقوله تعالى: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾[2]، وقوله: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾[3]. والقرينة المذكورة الدالة على أن المراد بالعجل في الآية ليس الطين قوله بعده: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾، وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[4].

(١) جامع البيان (١٧/ ٢٦-٢٨).
(٢) الإسراء: الآية (٦١).
(٣) السجدة: الآية (٧).
(٤) الأنبياء: الآية (٣٨).

فهذا يدل على أن المراد بالعجل هو العجلة التي هي خلاف التأني والتثبت. والعرب تقول: خلق من كذا. يعنون بذلك المبالغة في الإنصاف، كقولهم: خلق فلان من كرم، وخلقت فلانة من الجمال. ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾[١] على الأظهر. ويوضح هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾﴾[٢] أي: ومن عجلته دعاؤه على نفسه أو ولده بالشر. قال بعض العلماء: كانوا يستعجلون عذاب اللَّه وآياته الملجئة إلى العلم والإقرار، ويقولون متى هذا الوعد. فنزل قوله: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ للزجر عن ذلك. كأنه يقول لهم: ليس ببدع منكم أن تستعجلوا. فإنكم مجبولون على ذلك، وهو طبعكم وسجيتكم. ثم وعدهم بأنه سيريهم آياته، ونهاهم أن يستعجلوا بقوله: ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾. كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾[٣]. وقال بعض أهل العلم: المراد بالإنسان في قوله: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ آدم. وعن سعيد بن جبير والسدي: لما دخل الروح في عيني آدم نظر في ثمار الجنة، فلما دخل جوفه اشتهى الطعام، فوثب من قبل أن تبلغ الروح رجليه عجلان إلى ثمار الجنة. فذلك قوله: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾. وعن مجاهد والكلبي وغيرهما: خلق آدم يوم الجمعة في آخر النهار، فلما أحيا اللَّه رأسه استعجل وطلب تتميم نفخ الروح فيه قبل غروب الشمس. والظاهر أن هذه الأقوال ونحوها من الإسرائيليات. وأظهر الأقوال أن معنى الآية: أن جنس الإنسان من طبعه العجل وعدم التأني كما بينا، والعلم عند اللَّه تعالى»[٤].

قال ابن كثير: «والحكمة في ذكر عجلة الإنسان هاهنا أنه لما ذكر المستهزئين بالرسول، صلوات اللَّه [وسلامه] عليه، وقع في النفوس سرعة الانتقام منهم واستعجلت ذلك، فقال اللَّه تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾؛ لأنه تعالى يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، يؤجل ثم يعجل، وينظر ثم لا يؤخر؛ ولهذا قال: ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى﴾ أي: نقمي وحكمي واقتداري على من عصاني، ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾»[٥].

---

(١) الروم: الآية (٥٤).
(٢) الإسراء: الآية (١١).
(٣) فصلت: الآية (٥٣).
(٤) أضواء البيان (٤/ ٥٧٣-٥٧٤).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣٣٦).

قال الرازي: «لقائل أن يقول: القوم استعجلوا الوعد على وجه التكذيب ومن هذا حاله لا يكون مستعجلا على الحقيقة. قلنا: استعجالهم على هذا الوجه أدخل في الذم لأنه إذا ذم المرء استعجال الأمر المعلوم فبأن يذم على استعجال ما لا يكون معلوما له كان أولى، وأيضا فإن استعجالهم بما توعدهم من عقاب الآخرة أو هلاك الدنيا يتضمن استعجال الموت وهم عالمون بذلك فكانوا مستعجلين في الحقيقة.

أما قوله تعالى: ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ فقد اختلفوا في المراد بالآيات على أقوال:

أحدها: أنها هي الهلاك المعجل في الدنيا والعذاب في الآخرة، ولذلك قال: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ أي: أنها ستأتي لا محالة في وقتها.

وثانيها: أنها أدلة التوحيد وصدق الرسول.

وثالثها: أنها آثار القرون الماضية بالشام واليمن والأول أقرب إلى النظم»[1].

قال ابن عاشور: «والمعنى: وعد بأنهم سيرون آيات اللّه في نصر الدين، وذلك بما حصل يوم بدر من النصر وهلك أيمة الشرك، وما حصل بعده من أيام الإسلام التي كان النصر فيها عاقبة المسلمين.

وتفرع على هذا الوعد نهي عن طلب التعجيل، أي عليكم أن تكلوا ذلك إلى ما يوقته اللّه ويؤجله، ولكل أجل كتاب. فهو نهي عن التوغل في هذه الصفة وعن لوازم ذلك التي تفضي إلى الشك في الوعيد»[2].

قال السعدي: «أي: خلق عجولا يبادر الأشياء، ويستعجل بوقوعها، فالمؤمنون يستعجلون عقوبة اللّه للكافرين ويتباطئونها، والكافرون يتولون ويستعجلون بالعذاب، تكذيبا وعنادا»[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير الآية

* عن أبي هريرة ﷺ قال: قدمت الشام فلقيت كعبا، فكان يحدثني عن

---

(١) التفسير الكبير (٢٢/ ١٧٣).

(٢) التحرير والتنوير (١٧/ ٦٨).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٣٠).

التوراة، وأحدثه عن رسول اللَّه ﷺ، حتى أتينا على ذكر يوم الجمعة، فحدثته أن رسول اللَّه ﷺ قال: «إن في الجمعة ساعة لا يوافقها مسلم يسأل اللَّه فيها خيرا إلا أعطاه إياه. فقال كعب: صدق اللَّه ورسوله هي في كل سنة مرة. قلت: لا فنظر كعب ساعة، ثم قال: صدق اللَّه ورسوله هي في كل شهر مرة قلت: لا فنظر ساعة فقال: صدق اللَّه ورسوله، في كل جمعة مرة. قلت: نعم فقال كعب: أتدري أي يوم هو؟ قلت: وأي يوم هو؟ قال: فيه خلق اللَّه آدم وفيه تقوم الساعة والخلائق فيه مصيخة إلا الثقلين الجن والإنس خشية القيامة. فقدمت المدينة فأخبرت عبداللَّه بن سلام بقول كعب فقال: كذب كعب قلت: إنه قد رجع إلى قولي. فقال: أتدري أي ساعة هي؟ قلت: لا وتهالكت عليه أخبرني أخبرني. فقال: هي فيما بين العصر والمغرب قلت: كيف ولا صلاة؟ قال: أما سمعت النبي ﷺ يقول: «**لا يزال العبد في صلاة ما كان في مصلاه ينتظر الصلاة**»[1].

⋆ غريب الحديث:

مصيخة: أي مستمعة.

تهالكت عليه: من تهالك على الشيء أي اشتد حرصه عليه.

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٨٦)و(٥/ ٤٥٣) ومسلم (٢/ ٥٨٥/ ٨٥٤) طرفا منه، وأبو داود (١/ ٦٣٤-٦٣٥/ ١٠٤٦) والترمذي (٢/ ٣٦٢-٣٦٣/ ٤٩١) وقال: «حديث حسن صحيح»، والنسائي (٣/ ١٢٧-١٢٨/ ١٤٢٩) من حديث أبي هريرة. وأخرجه من حديث عبداللَّه بن سلام: ابن ماجه (١/ ٣٦٠-٣٦١/ ١١٣٩).

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ويقول هؤلاء المستعجلون ربهم بالآيات والعذاب لمحمد ﷺ: متى هذا الوعد؟ يقول: متى يجيئنا هذا الذي تعدنا من العذاب إن كنتم صادقين فيما تعدوننا به من ذلك، وقيل: هذا الوعد والمعنى الموعود لمعرفة السامعين معناه وقيل: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ كأنهم قالوا ذلك لرسول الله ﷺ وللمؤمنين به»[1].

قال ابن عطية: «فسر استعجالهم بقولهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ وكأن استفهامهم على جهة الهزء والتكذيب، وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ يريدون محمدا ﷺ ومن آمن به لأن المؤمنين كانوا يتوعدونهم على لسان الشرع»[2].

قال البقاعي: «ولما ذم العجلة وهي إرادة الشيء قبل أوانه، ونهى عنها، قال دالا عليها عاطفا على عامل ﴿هَٰذَا﴾: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي في استهزائهم بأولياء الله: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا﴾ وتهكموا بقولهم: ﴿ٱلْوَعْدُ﴾ أي بإتيان الآيات من الساعة ومقدماتها وغيرها، وزادوا في الإلهاب والتهييج تكذيبا فقالوا: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي عريقين في هذا الوصف جدا بما دل عليه الوصف وفعل الكون»[3].

قال ابن عاشور: «نشأ عن ذكر استبطاء المسلمين وعد الله بنصرهم على الكافرين ذكر نظيره في جانب المشركين أنهم تساءلوا عن وقت هذا الوعد تهكما فنشأ به القولان، واختلف الحالان. فيكون قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ عطفا على جملة ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي﴾. وهذا معبر عن مقالة أخرى من مقالاتهم التي يتلقون بها دعوة النبي ﷺ استهزاء وعنادا. وذكر مقالتهم هذه هنا لاستبطاء

(١) جامع البيان (١٧/ ٢٨).
(٢) المحرر الوجيز (٤/ ٨٣).
(٣) نظم الدرر (١٢/ ٤٢١).

المسلمين النصر . وبهذا الاعتبار تكون متصلة بجملة ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ فيجوز أن تكون معطوفة عليها . وخاطبوا بضمير الجماعة النبي ﷺ والمسلمين ولأجل هذه المقالة كان المسلمون يستعجلون وعيد المشركين .

واستفهامهم استعملوه في التهكم مجازا مرسلا بقرينة إن كنتم صادقين ؛ لأن المشركين كانوا موقنين بعدم حصول الوعد . والمراد بالوعد ما توعدهم به القرآن من نصر رسوله واستئصال معانديه . وإلى هذه الآية ونظيرها ينظر قول النبي ﷺ يوم بدر[١] حين وقف القليب الذي دفنت فيه جثث المشركين وناداهم بأسمائهم : ﴿قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾[٢] أي ما وعدنا ربنا من النصر وما وعدكم من الهلاك وعذاب النار»[٣] .

* * *

(١) أخرجه : أحمد (٤/ ٢٩) والبخاري (٧/ ٣٨٢/ ٣٩٧٦) ومسلم (٤/ ٢٢٠٤/ ٢٨٧٥) من طريق قتادة قال : ذكر لنا أنس بن مالك عن أبي طلحة أن نبي الله ﷺ . . فذكر الحديث .

(٢) الأعراف : الآية (٤٤) .

(٣) التحرير والتنوير (١٧/ ٦٩-٧٠) .

قوله تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾﴾

★ غريب الآية:

لا يكفون: لا يدفعون ولا يمنعون.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: لو يعلم هؤلاء الكفار المستعجلون عذاب ربهم ماذا لهم من البلاء حين تلفح وجوههم النار، وهم فيها كالحون، فلا يكفون عن وجوههم النار التي تلفحها، ولا عن ظهورهم فيدفعونها عنها بأنفسهم ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ يقول: ولا لهم ناصر ينصرهم، فيستنقذهم حينئذ من عذاب الله لما أقاموا على ما هم عليه مقيمون من الكفر بالله، ولسارعوا إلى التوبة منه والإيمان بالله ولما استعجلوا لأنفسهم البلاء»[1].

قال الرازي: «وإنما خص الوجوه والظهور لأن مس العذاب لهما أعظم موقعا ولكثرة ما يستعمل ذكرهما في دفع المضرة عن النفس»[2].

قال الشنقيطي: «معنى الآية الكريمة: لو يعلم الكفار الوقت الذي يسألون عنه بقولهم: متى هذا الوعد؟ وهو وقت صعب شديد، تحيط بهم فيه النار من وراء وقدام. فلا يقدرون على منعها ودفعها عن أنفسهم، ولا يجدون ناصرا ينصرهم، لما كانوا بتلك الصفة من الكفر والاستهزاء والاستعجال، ولكن جهلهم بذلك هو الذي هونه عليهم. وما تضمنته هذه الآية الكريمة من المعاني جاء مبينا في مواضع أخر من كتاب الله تعالى.

أما إحاطة النار بهم في ذلك اليوم فقد جاءت موضحة في آيات متعددة، كقوله

(١) جامع البيان (١٧/ ٢٨).

(٢) التفسير الكبير (٢٢/ ١٧٤).

تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ﴾[2] الآية، وقوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾﴾[4]. وقوله تعالى: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾[5] إلى غير ذلك من الآيات. نرجو اللَّه الكريم العظيم أن يعيذنا منها ومن كل ما قرب إليها من قول وعمل، إنه قريب مجيب. وما تضمنته من كونهم في ذلك اليوم ليس لهم ناصر ولا قوة يدفعون بها عن أنفسهم جاء مبينا في مواضع أخر. كقوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾﴾[6]، وقوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾﴾[7] والآيات في ذلك كثيرة.

وما أشارت إليه هذه الآية من أن الذي هون عليهم ذلك اليوم العظيم حتى استعجلوه واستهزءوا بمن يخوفهم منه إنما هو جهلهم به، جاء مبينا أيضًا في مواضع أخر. كقوله تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ﴾[8]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾[9] إلى غير ذلك من الآيات»[10].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير الآية

* عن عدي بن حاتم أن النبي ﷺ قال: **«ما منكم من أحد إلا وسيكلمه اللَّه يوم القيامة ليس بين اللَّه وبينه ترجمان، ثم ينظر فلا يرى شيئًا قدامه، ينظر بين يديه فتستقبله النار، فمن استطاع منكم أن يتقي النار ولو بشق تمرة»**[11].

---

(١) الكهف: الآية (٢٩).
(٢) الأعراف: الآية (٤١).
(٣) الزمر: الآية (١٦).
(٤) إبراهيم: الآية (٥٠).
(٥) المؤمنون: الآية (١٠٤).
(٦) الطارق: الآية (١٠).
(٧) الصافات: الآيتان (٢٥و٢٦).
(٨) الشورى: الآية (١٨).
(٩) يونس: الآية (٥٠).
(١٠) أضواء البيان (٤/ ٥٧٤-٥٧٥).
(١١) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٥٦ و٣٧٧) والبخاري (١١/ ٤٨٨/ ٦٥٣٩) ومسلم (٢/ ٧٠٣-٧٠٤/ ١٠١٦) والترمذي (٤/ ٥٢٨/ ٢٤١٥) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وابن ماجه (١/ ٦٦/ ١٨٥).

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ ابن حجر: «قال ابن هبيرة: نظر اليمين والشمال هنا كالمثل لأن الإنسان من شأنه إذا وهمه أمر أن يلتفت يمينا وشمالا يطلب الغوث. قلت: ويحتمل أن يكون سبب الالتفات أنه يترجى أن يجد طريقا يذهب فيها ليحصل له النجاة من النار، فلا يرى إلا ما يفضي به إلى النار»[1].

* * *

(١) الفتح (١١/ ٤٩٣).

قوله تعالى: ﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ۝٤٠﴾

★ **غريب الآية:**

تبهتهم: من بهت: أي دهش وتحير وانقطعت حجته.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: لا تأتي هذه النار التي تلفح وجوه هؤلاء الكفار الذين وصف أمرهم في هذه السورة حين تأتيهم عن علم منهم بوقتها، ولكنها تأتيهم مفاجأة لا يشعرون بمجيئها فتبهتهم: يقول: فتغشاهم فجأة وتلفح وجوههم معاينة كالرجل يبهت الرجل في وجهه بالشيء حتى يبقى المبهوت كالحيران منه ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ يقول: فلا يطيقون حين تبغتهم فتبهتهم دفعها عن أنفسهم ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ يقول: ولا هم وإن لم يطيقوا دفعها عن أنفسهم يؤخرون بالعذاب بها لتوبة يحدثونها، وإنابة ينيبون؛ لأنها ليست حين عمل وساعة توبة وإنابة، بل هي ساعة مجازاة وإثابة»[1].

قال الرازي: «لما بين شدة هذا العذاب بين أن وقت مجيئه غير معلوم لهم بل تأتيهم الساعة بغتة وهم لها غير محتسبين، ولا لأمرها مستعدين، فتبهتهم أي تدعهم حائرين واقفين لا يستطيعون حيلة في ردها ولا عما يأتيهم منها مصرفا ولا هم ينظرون أي لا يمهلون لتوبة ولا معذرة، واعلم أن اللّه تعالى إنما لم يعلم المكلفين وقت الموت والقيامة لما فيه من المصلحة؛ لأن المرء مع كتمان ذلك أشد حذرا وأقرب إلى التلافي»[2].

قال البقاعي: «﴿بَلْ تَأْتِيهِم﴾ أي الساعة التي هي ظرف لجميع تلك الأحوال

---

(١) جامع البيان (١٧/ ٢٩).

(٢) التفسير الكبير (٢٢/ ١٧٤).

وهي معلومة لكل أحد فهي مستحضرة في كل ذهن ﴿بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ﴾ أي تدعهم باهتين حائرين؛ ثم سبب عن بهتهم قوله: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أي لا يطلبون طوع ذلك لهم في ذلك الوقت ليأسهم عنه ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي يمهلون من ممهل ما ليتداركوا ما أعد لهم فيها، فيا شدة أسفهم على التفريط في الأوقات التي أمهلوا فيها في هذه الدار، وصرفهم إياها في لذات أكثرها أكدار»[1].

* * *

(١) نظم الدرر (١٢/ ٤٢٢).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾﴾

★ **غريب الآية:**

استهزئ: يقال: استهزأ به يستهزئ: إذا اسْتَخَفَّ به.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: إن يتخذك يا محمد هؤلاء القائلون لك: هل هذا إلا بشر مثلكم، أفتأتون السحر وأنتم تبصرون، إذ رأوك هزوا ويقولون: هذا الذي يذكر آلهتكم كفرا منهم بالله، واجتراء عليه، فلقد استهزئ برسل من رسلنا الذين أرسلناهم من قبلك إلى أممهم، يقول: فوجب ونزل بالذين استهزءوا بهم، وسخروا منهم من أممهم ما كانوا به يستهزءون: يقول -جل ثناؤه-: حل بهم الذي كانوا به يستهزؤون من البلاء والعذاب الذي كانت رسلهم تخوفهم نزوله بهم، يستهزئون: يقول -جل ثناؤه-: فلن يعدو هؤلاء المستهزئون بك من هؤلاء الكفرة أن يكونوا كأسلافهم من الأمم المكذبة رسلها، فينزل بهم من عذاب الله وسخطه باستهزائهم بك نظير الذي نزل بهم»[١].

قال القرطبي: «هذا تسلية للنبي ﷺ وتعزية له، يقول: إن استهزأ بك هؤلاء فقد استهزئ برسل من قبلك، فاصبر كما صبروا، ثم وعده النصر فقال: ﴿فَحَاقَ﴾ أي أحاط ودار ﴿بِٱلَّذِينَ﴾ كفروا و(﴿سَخِرُوا۟ مِنْهُم﴾ وهزئوا بهم ﴿مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي جزاء استهزائهم»[٢].

قال الشنقيطي: «في هذه الآية الكريمة تسلية للنبي ﷺ بأن إخوانه من الرسل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم استهزأ بهم الكفار، كما استهزءوا به ﷺ.

---

(١) جامع البيان (١٧/ ٢٩).

(٢) جامع أحكام القرآن (١١/ ٢٩٠).

يعني: فاصبر كما صبروا، ولك العاقبة الحميدة، والنصر النهائي كما كان لهم. وما تضمنته هذه الآية الكريمة من ذلك جاء موضحا في مواضع من كتاب اللّه. كقوله تعالى: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾[٢] الآية، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِي الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤﴾﴾[٥] والآيات بمثل ذلك كثيرة.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ﴾ أي أحاط بهم. ومادة حاق يائية العين. بدليل قوله في المضارع: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾[٦] ولا تستعمل هذه المادة إلا في إحاطة المكروه خاصة.

فلا تقول: حاق به الخير بمعنى أحاط به. والأظهر في معنى الآية: أن المراد: وحاق بهم العذاب الذي كانوا يكذبون به في الدنيا ويستهزؤون به، وعلى هذا اقتصر ابن كثير»[٧].

* * *

(١) فصلت: الآية (٤٣).

(٢) هود: الآية (١٢٠).

(٣) الأنعام: الآية (٣٤).

(٤) الحج: الآيات (٤٢-٤٤).

(٥) فاطر: الآية (٤).

(٦) فاطر: الآية (٤٣).

(٧) أضواء البيان (٤/ ٥٧٦-٥٧٧).

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾﴾

★ **غريب الآية:**

يكلأكم: الكلاءة: الحفظ. قال ابن هرمة:

إن سليمى والله يكلؤها ضنت بشيء ما كان يرذؤها

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء المستعجليك بالعذاب القائلين: متى هذا الوعد إن كنتم صادقين: من يكلؤكم أيها القوم: من يحفظكم ويحرسكم بالليل إذا نمتم وبالنهار إذا تصرفتم من الرحمن؟ يقول: من أمر الرحمن إن نزل بكم، ومن عذابه إن حل بكم، وترك ذكر الأمر وقيل من الرحمن اجتزاء بمعرفة السامعين من ذكره.. قوله: ﴿بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴾ وقوله: (بل) تحقيق لجحد قد عرفه المخاطبون بهذا الكلام وإن لم يكن مذكورا في هذا الموضع ظاهرا، ومعنى الكلام: وما لهم أن لا يعلموا أنه لا كالئ لهم من أمر الله إذا هو حل بهم ليلا أو نهارا، بل هم عن ذكر مواعظ ربهم وحججه التي احتج بها عليهم معرضون لا يتدبرون ذلك، فلا يعتبرون به، جهلا منهم وسفها»[1].

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما بين أن الكفار في الآخرة لا يكفون عن وجوههم النار بسائر ما وصفهم به أتبعه بأنهم في الدنيا أيضًا لولا أن الله تعالى يحرسهم ويحفظهم لما بقوا في السلامة، فقال لرسوله: قل لهؤلاء الكفار الذين يستهزءون ويغترون بما هم عليه: ﴿مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ وهذا كقول الرجل لمن حصل في قبضته ولا مخلص له منه: إلى أين مفرك مني! هل لك محيص عني!

(١) جامع البيان (١٧/ ٢٩-٣٠).

والكالئ الحافظ»[١].

وقال أيضا: «إنما ذكر الليل والنهار لأن لكل واحد من الوقتين آفات تختص به، والمعنى: من يحفظكم بالليل إذا نمتم، وبالنهار إذا تصرفتم في معايشكم.

أما قوله: ﴿بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴾ فالمعنى أنه تعالى مع إنعامه عليهم ليلا ونهارا بالحفظ والحراسة فهم عن ذكر ربهم الذي هو الدلائل العقلية والنقلية ولطائف القرآن معرضون، فلا يتأملون في شيء منها ليعرفوا أنه لا كالئ لهم سواه، ويتركون عبادة الأصنام التي لا حظ لها في حفظهم ولا في الإنعام عليهم»[٢].

قال ابن القيم: «سواء كان المعنى من يكلؤكم ويحفظكم منه إذا أراد بكم سوءا ويكون يكلؤكم مضمنا معنى يجيركم وينجيكم من بأسه، أو كانت من البدلية أي من يكلؤكم بدل الرحمن، أي هو الذي يكلؤكم وحده لا كالئ لكم غيره. ونظير (من) هذه قوله: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ۝﴾[٣] على أحد القولين، أي عوضكم وبدلكم، واستشهدوا على ذلك بقول الشاعر:

جارية لم تأكل المرققا ... ولم تذق من البقول الفستقا

أي لم تأكل الفستق بدل البقول، وعلى كلا القولين فهو سبحانه منعم عليهم بكلاءتهم وحفظهم وحراستهم مما يؤذيهم بالليل والنهار وحده، لا حافظ لهم غيره، هذا مع غناه التام عنهم وفقرهم التام إليه سبحانه، فإنه غني عن خلقه من كل وجه، فقراء محتاجون إليه من كل وجه»[٤].

قال الشنقيطي: «أمر الله -جل وعلا- نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة: أن يقول للمعرضين عن ذكر ربهم: ﴿مَن يَكْلَؤُكُم﴾ أي من هو الذي يحفظكم ويحرسكم ﴿بِاللَّيْلِ﴾ في حال نومكم ﴿وَالنَّهَارِ﴾ في حال تصرفكم في أموركم. والكلاءة بالكسر: الحفظ والحراسة. يقال: اذهب في كلاءة الله. أي في حفظه، واكتلأت منهم: احترست. ومنه قول ابن هرمة:

إن سليمى والله يكلؤها ... ضنت بشيء ما كان يرزؤها

وقول كعب بن زهير:

---

(١) التفسير الكبير (٢٢/ ١٧٤).
(٢) التفسير الكبير (٢٢/ ١٧٥).
(٣) الزخرف: الآية (٦٠).
(٤) طريق الهجرتين (ص٣١٥-٣١٦).

أنخت بعيري واكتلأت بعينه وآمرت نفسي أي أمري أفعل

و(من) في قوله ﴿مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِۗ﴾ فيها للعلماء وجهان معروفان: أحدهما وعليه اقتصر ابن كثير: أن (من) هي التي بمعنى بدل. وعليه فقوله: ﴿مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِۗ﴾ أي بدل الرحمن، يعني غيره. وأنشد ابن كثير لذلك قول الراجز:

جارية لم تلبس المرققا ولم تذق من البقول الفستقا

أي لم تذق بدل البقول الفستق. وعلى هذا القول فالآية كقوله تعالى: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾[1] أي بدلها ونظير ذلك من كلام العرب قول الشاعر:

أخذوا المخاض من الفصيل غلبة ظلما ويكتب للأمير أفيلا

يعني أخذوا في الزكاة المخاض بدل الفصيل. والوجه الثاني أن المعنى ﴿مَن يَكۡلَؤُكُم﴾ أي: يحفظكم ﴿مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِۗ﴾ أي: من عذابه وبأسه. وهذا هو الأظهر عندي. ونظيره من القرآن قوله تعالى: ﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥۖ﴾[2] أي: من ينصرني منه فيدفع عني عذابه»[3].

وقال أيضا: «وهذا المعنى الذي أشارت إليه هذه الآية الكريمة: أنه لا أحد يمنع أحدا من عذاب اللَّه، ولا يحفظه ولا يحرسه من اللَّه، وأن الحافظ لكل شيء هو اللَّه وحده، جاء مبينا في مواضع أخر. كقوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾[4] على أظهر التفسيرات، وقوله تعالى: ﴿قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ ضَرًّا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ نَفۡعَۢاۚ﴾[5] الآية، وقوله تعالى: ﴿قُلۡ مَن ذَا ٱلَّذِي يَعۡصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ سُوٓءًا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ رَحۡمَةٗۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ١٧﴾[6]، وقوله تعالى: ﴿قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ أَن يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗاۗ﴾[7]، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾[8] إلى غير ذلك من الآيات»[9].

---

(١) التوبة: الآية (٣٨).
(٢) هود: الآية (٦٣).
(٣) أضواء البيان (٤/ ٥٧٧-٥٧٨).
(٤) الرعد: الآية (١١).
(٥) الفتح: الآية (١١).
(٦) الأحزاب: الآية (١٧).
(٧) المائدة: الآية (١٧).
(٨) المؤمنون: الآية (٨٨).
(٩) أضواء البيان (٤/ ٥٧٨-٥٧٩).

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾﴾

★ **غريب الآية:**

يصحبون: ينصرون ويمنعون.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «اعلم أن الميم صلة يعني: ألهم آلهة تكلؤهم من دوننا، والتقدير ألهم آلهة من تمنعهم. وتم الكلام ثم وصف آلهتهم بالضعف فقال: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ﴾ وهذا خبر مبتدإ محذوف أي فهذه الآلهة لا تستطيع حماية أنفسها عن الآفات، وحماية النفس أولى من حماية الغير. فإذا لم تقدر على حماية نفسها فكيف تقدر على حماية غيرها، وفي قوله: ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ قولان: الأول: قال المازني: أصحبت الرجل إذا منعته فقوله: ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ من ذلك لا من الصحبة. الثاني: أن الصحبة ههنا بمعنى النصرة والمعونة، وكلها سواء في المعنى، يقال: صحبك اللّٰه ونصرك اللّٰه، ويقال للمسافر: في صحبة اللّٰه وفي حفظ اللّٰه، فالمعنى: ولا هم منا في نصرة ولا إعانة، والحاصل أن من لا يكون قادرا على دفع الآفات، ولا يكون مصحوبا من اللّٰه بالإعانة، كيف يقدر على شيء»[1].

قال الشنقيطي: «قوله في هذه الآية الكريمة ﴿أَمْ﴾ هي المنقطعة، وهي بمعنى بل والهمزة، فقد اشتملت على معنى الإضراب والإنكار، والمعنى: ألهم آلهة تجعلهم في منعة وعز حتى لا ينالهم عذابنا. ثم بين أن آلهتهم التي يزعمون لا تستطيع نفع أنفسها، فكيف تنفع غيرها بقوله: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ﴾. وقوله: ﴿مِّن دُونِنَا﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أنه متعلق ﴿ءَالِهَةٌ﴾ أي ألهم آلهة ﴿مِّن دُونِنَا﴾ أي سوانا ﴿تَمْنَعُهُم﴾

---

(١) التفسير الكبير (٢٢/ ١٧٥).

مما نريد أن نفعله بهم من العذاب! كلا! ليس الأمر كذلك.

الوجه الثاني: أنه متعلق ﴿تَمْنَعُهُم﴾ لقول العرب: منعت دونه، أي كففت أذاه. والأظهر عند الأول. ونحوه كثير في القرآن كقوله: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ﴾[1] الآية وقوله: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً﴾[2] الآية، إلى غير ذلك من الآيات.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة: من كون الآلهة التي اتخذوها لا تستطيع نصر أنفسها فكيف تنفع غيرها جاء مبينا في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا ۖ وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۚ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ۖ﴾[5] الآية، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾[6] الآية، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن تلك الآلهة المعبودة من دون الله ليس فيها نفع ألبتة.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ أي يجارون: أي ليس لتلك الآلهة مجير يجيرهم منا؛ لأن الله يجير ولا يجار عليه، كما صرح بذلك في سورة ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾[7] في قوله: ﴿قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾﴾[8]. والعرب تقول: أنا جار لك وصاحب من فلان. أي مجير لك منه. ومنه قول الشاعر:

---

(١) الأنبياء: الآية (٢٩).
(٢) الفرقان: الآية (٣).
(٣) الأعراف: الآيات (١٩١-١٩٥).
(٤) الأعراف: الآيتان (١٩٧و١٩٨).
(٥) فاطر: الآيتان (١٣و١٤).
(٦) الأحقاف: الآية (٥).
(٧) المؤمنون: الآية (١).
(٨) المؤمنون: الآية (٨٨).

ينادي بأعلى صوته متعوذا ليصحب منا والرماح دواني

يعني ليجار ويغاث منا . وأغلب أقوال العلماء في الآية راجعة إلى ما ذكرنا . كقول بعضهم : ﴿يُصۡحَبُونَ﴾ يمنعون . وقول بعضهم ينصرون . وقول بعضهم : ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصۡحَبُونَ﴾ أي لا يصحبهم اللَّه بخير ، ولا يجعل الرحمة صاحبا لهم . والعلم عند اللَّه تعالى»[1] .

* * *

(١) أضواء البيان (٤/ ٥٧٩-٥٨٠).

قوله تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ما لهؤلاء المشركين من آلهة تمنعهم من دوننا، ولا جار يجيرهم من عذابنا، إذا نحن أردنا عذابهم، فاتكلوا على ذلك، وعصوا رسلنا اتكالا منهم على ذلك، ولكنا متعناهم بهذه الحياة الدنيا وآباءهم من قبلهم حتى طال عليهم العمر، وهم على كفرهم مقيمون، لا تأتيهم منا واعظة من عذاب، ولا زاجرة من عقاب على كفرهم وخلافهم أمرنا، وعبادتهم الأوثان والأصنام، فنسوا عهدنا وجهلوا موقع نعمتنا عليهم، ولم يعرفوا موضع الشكر وقوله: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾ يقول -تعالى ذكره-: أفلا يرى هؤلاء المشركون بالله السائلو محمد ﷺ الآيات المستعجلو بالعذاب، أنا نأتي الأرض نخربها من نواحيها بقهرنا أهلها، وغلبتناهم، وإجلائهم عنها، وقتلهم بالسيوف، فيعتبروا بذلك ويتعظوا به ويحذروا منا أن ننزل من بأسنا بهم نحو الذي قد أنزلنا بمن فعلنا ذلك به من أهل الأطراف.. وقوله: ﴿أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ يقول -تبارك وتعالى-: أفهؤلاء المشركون المستعجلو محمد بالعذاب الغالبونا، وقد رأوا قهرنا من أحللنا بساحته بأسنا في أطراف الأرضين، ليس ذلك كذلك، بل نحن الغالبون وإنما هذا تقريع من الله تعالى لهؤلاء المشركين به بجهلهم يقول: أفيظنون أنهم يغلبون محمدا ويقهرونه، وقد قهر من ناوأه من أهل أطراف الأرض غيرهم»[1].

قال الرازي: «بين سبحانه تفضله عليهم مع كل ذلك بقوله: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾ يعني ما حملهم على الإعراض إلا الاغترار بطول المهلة. يعني طالت أعمارهم في الغفلة فنسوا عهدنا وجهلوا موقع مواقع نعمتنا واغتروا بذلك.

---

(١) جامع البيان (١٧/ ٣١-٣٢).

أما قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا﴾ فالمعنى أفلا يرى هؤلاء المشركون بالله المستعجلون بالعذاب آثار قدرتنا في إتيان الأرض من جوانبها نأخذ الواحد بعد الواحد، ونفتح البلاد والقرى مما حول مكة، ونزيدها في ملك محمد ﷺ، ونميت رؤساء المشركين الممتعين بالدنيا، وننقص من الشرك بإهلاك أهله، أما كان لهم في ذلك عبرة فيؤمنوا برسول الله ﷺ ويعلموا أنهم لا يقدرون على الامتناع من الله، وإرادته فيهم ولا يقدرون على مغالبته ثم قال: ﴿أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ أي فهؤلاء هم الغالبون أم نحن، وهو استفهام بمعنى التقرير والتقريع، والمعنى بل نحن الغالبون وهم المغلوبون»[1].

قال السعدي: «أي: أمددناهم بالأموال والبنين، وأطلنا أعمارهم، فاشتغلوا بالتمتع بها، ولهوا بها عما له خلقوا، وطال عليهم الأمد، فقست قلوبهم، وعظم طغيانهم، وتغلظ كفرانهم، فلو لفتوا أنظارهم إلى من عن يمينهم، وعن يسارهم من الأرض، لم يجدوا إلا هالكا ولم يسمعوا إلا صوت ناعية، ولم يحسوا إلا بقرون متتابعة على الهلاك، وقد نصب الموت في كل طريق لاقتناص النفوس الأشراك، ولهذا قال: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾ أي: بموت أهلها وفنائهم، شيئًا فشيئا، حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين، فلو رأوا هذه الحالة لم يغتروا ويستمروا على ما هم عليه.

﴿أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ الذين بوسعهم الخروج عن قدر الله؟ وبطاقتهم الامتناع عن الموت؟ فهل هذا وصفهم حتى يغتروا بطول البقاء؟ أم إذا جاءهم رسول ربهم لقبض أرواحهم أذعنوا وذلوا، ولم يظهر منهم أدنى ممانعة؟»[2].

قال الشنقيطي: «الظاهر أن الإضراب. ﴿بَلْ﴾ في هذه الآية الكريمة انتقالي. والإشارة في قوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ راجعة إلى المخاطبين من قبل في قوله: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾[3] الآية، وهم كفار قريش، ومن اتخذ آلهة من دون الله. والمعنى: أنه متع هؤلاء الكفار وآباءهم قبلهم بما رزقهم من نعيم الدنيا حتى

---

(١) التفسير الكبير (٢٢/ ١٧٥-١٧٦).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٣٣).

(٣) الأنبياء: الآية (٤٢).

طالت أعمارهم في رخاء ونعمة، فحملهم ذلك على الطغيان واللجاج في الكفر.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة: من أنه تعالى يمهل الكفار ويملي لهم في النعمة، وأن ذلك يزيدهم كفرا وضلالا جاء موضحا في مواضع كثيرة من كتاب اللَّه تعالى، كقوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾[4] والآيات بمثل ذلك كثيرة. والعمر يطلق على مدة العيش.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾. في معنى إتيان اللَّه الأرض ينقصها من أطرافها في هذه الآية الكريمة أقوال معروفة للعلماء: وبعضها تدل له قرينة قرآنية:

قال بعض العلماء: نقصها من أطرافها: موت العلماء، وجاء في ذلك حديث مرفوع عن أبي هريرة. وبعد هذا القول عن ظاهر القرآن بحسب دلالة السياق ظاهر كما ترى.

وقال بعض أهل العلم: نقصها من أطرافها خرابها عند موت أهلها.

وقال بعض أهل العلم: نقصها من أطرافها هو نقص الأنفس والثمرات، إلى غير ذلك من الأقوال، وأما القول الذي دلت عليه القرينة القرآنية: فهو أن معنى ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾ أي ننقص أرض الكفر ودار الحرب، ونحذف أطرافها بتسليط المسلمين عليها وإظهارهم على أهلها، وردها دار إسلام. والقرينة الدالة على هذا المعنى هي قوله بعده: ﴿أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾. والاستفهام لإنكار غلبتهم. وقيل: لتقريرهم بأنهم مغلوبون لا غالبون، فقوله: ﴿أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ دليل على أن نقص

---

(١) آل عمران: الآية (١٧٨).

(٢) الأعراف: الآيتان (١٨٢و١٨٣).

(٣) الفرقان: الآية (١٨).

(٤) الزخرف: الآيتان (٢٩و٣٠).

الأرض من أطرافها سبب لغلبة المسلمين للكفار، وذلك إنما يحصل بالمعنى المذكور. ومما يدل لهذا الوجه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ﴾[1] على قول من قال: إن المراد بالقارعة التي تصيبهم سرايا النبي ﷺ تفتح أطراف بلادهم، أو تحل أنت يا نبي اللَّه قريبا من دارهم.

وممن يروى عنه هذا القول: ابن عباس وأبو سعيد وعكرمة ومجاهد وغيرهم. وهذا المعنى الذي ذكر اللَّه هنا ذكره في آخر سورة الرعد أيضًا في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾[2]. وقال ابن كثير رحمه الله في تفسير آية الأنبياء هذه: إن أحسن ما فسر به قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾[3] هو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾﴾[4].

قال مقيده عفا اللَّه عنه وغفر له: ما ذكره ابن كثير رحمه الله صواب، واستقراء القرآن العظيم يدل عليه. وعليه فالمعنى: أفلا يرى كفار مكة ومن سار سيرهم في تكذيبك يا نبي اللَّه، والكفر بما جئت به ﴿أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾ أي بإهلاك الذين كذبوا الرسل كما أهلكنا قوم صالح وقوم لوط، وهم يمرون بديارهم. وكما أهلكنا قوم هود، وجعلنا سبأ أحاديث ومزقناهم كل ممزق، كل ذلك بسبب تكذيب الرسل، والكفر بما جاءوا به. وهذا هو معنى قوله: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ﴾[5] كقوم صالح وقوم لوط وقوم هود وسبأ، فاحذروا من تكذيب نبينا محمد ﷺ. لئلا ننزل بكم مثل ما أنزلنا بهم. وهذا الوجه لا ينافي قوله بعده: ﴿أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ والمعنى: أن الغلبة لحزب اللَّه القادر على كل شيء، الذي أهلك ما حولكم من القرى بسبب تكذيبهم رسلهم، وأنتم لستم بأقوى منهم، ولا أكثر أموالا ولا أولادا. كما قال تعالى: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾[6] الآية. وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ

---

(١) الرعد: الآية (٣١).
(٢) الرعد: الآية (٤١).
(٣) الأنبياء: الآية (٤٤).
(٤) الأحقاف: الآية (٢٧).
(٥) الأحقاف: الآية (٢٧).
(٦) الدخان: الآية (٣٧).

ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِنۡهُمۡ وَأَشَدَّ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ﴾[2] الآية. إلى غير ذلك من الآيات.

وإنذار الذين كذبوه ﷺ بما وقع لمن كذب من قبله من الرسل كثير جدا في القرآن. وبه تعلم اتجاه ما استحسنه ابن كثير رحمه الله من تفسير آية الأنبياء هذه بآية الأحقاف المذكورة كما بينا»[3].

* * *

---

(١) غافر: الآية (٨٢).

(٢) الروم: الآية (٩).

(٣) أضواء البيان (٤/ ٥٨٠-٥٨٣).

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «اعلم أنه سبحانه لما كرر في القرآن الأدلة، وبالغ في التنبيه عليها على ما تقدم أتبعه بقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ﴾ أي بالقرآن الذي هو كلام ربكم، فلا تظنوا أن ذلك من قبلي بل الله آتيكم به وأمرني بإنذاركم، فإذا قمت بما ألزمني ربي فلم يقع منكم القبول والإجابة فالوبال عليكم يعود، ومثلهم من حيث لم ينتفعوا بما سمعوا من إنذاره مع كثرته وتواليه بالصم الذين لا يسمعون أصلا؛ إذ الغرض بالإنذار ليس السماع بل التمسك به في إقدام على واجب، وتحرز عن محرم ومعرفة بالحق. فإذا لم يحصل هذا الغرض صار كأنه لم يسمع»[1].

قال ابن كثير: «أي إنما أنا مبلغ عن الله ما أنذرتكم به من العذاب والنكال ليس ذلك إلا عما أوحاه الله إلي، ولكن لا يجدي هذا عمن أعمى الله بصيرته، وختم على سمعه وقلبه، ولهذا قال: ﴿وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾»[2].

قال ابن عاشور: «استئناف ابتدائي مقصود منه الإتيان على جميع ما تقدم من استعجابهم بالوعد تهكما بقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ ومن التهديد الذي وجه إليهم بقوله تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ الخ ومن تذكيرهم بالخالق وتنبيههم إلى بطلان آلهتهم بقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾ ومن الاحتجاج عليهم بظهور بوارق نصر المسلمين، واقتراب الوعد بقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾ عقب به أمر الله رسوله أن يخاطبهم بتعريف كنه دعوته، وهي قصره على الإنذار بما سيحل بهم في الدنيا والآخرة إنذارا من طريق الوحي المنزل عليه من الله تعالى وهو

---

(١) التفسير الكبير (٢٢/ ١٧٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣٣٩).

القرآن، أي فلا تعرضوا عنه، ولا تتطلبوا مني آية غير ذلك، ولا تسألوا عن تعيين آجال حلول الوعيد، ولا تحسبوا أنكم تغيظونني بإعراضكم والتوغل في كفركم»[١].

قال أيضًا: «تقييد عدم السماع بوقت الإعراض عند سماع الإنذار لتفظيع إعراضهم عن الإنذار لأنه إعراض يفضي بهم إلى الهلاك فهو أفظع من عدم سماع البشارة أو التحديث، ولأن التذييل مسوق عقب إنذارات كثيرة. واختير لفظ الدعاء لأنه المطابق للغرض؛ إذ كان النبي ﷺ داعيا كما قال: ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾[٢]»[٣].

قال السعدي: «أي: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، للناس كلهم: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِۚ﴾ أي: إنما أنا رسول، لا آتيكم بشيء من عندي، ولا عندي خزائن اللَّه، ولا أعلم الغيب، ولا أقول إني ملك، وإنما أنذركم بما أوحاه اللَّه إلي، فإن استجبتم فقد استجبتم لله، وسيثيبكم على ذلك، وإن أعرضتم وعارضتم، فليس بيدي من الأمر شيء، وإنما الأمر لله، والتقدير كله لله.

﴿وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ﴾ أي: الأصم لا يسمع صوتا، لأن سمعه قد فسد وتعطل، وشرط السماع مع الصوت، أن يوجد محل قابل لذلك، كذلك الوحي سبب لحياة القلوب والأرواح، وللفقه عن اللَّه، ولكن إذا كان القلب غير قابل لسماع الهدى، كان بالنسبة للهدى والإيمان، بمنزلة الأصم، بالنسبة إلى الأصوات، فهؤلاء المشركون صم عن الهدى، فلا يستغرب عدم اهتدائهم، خصوصا في هذه الحالة، التي لم يأتهم العذاب، ولا مسهم ألمه»[٤].

* * *

---

(١) التحرير والتنوير (١٧/ ٧٧-٧٨).

(٢) يوسف: الآية (١٠٨).

(٣) التحرير والتنوير (١٧/ ٧٨-٧٩).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٣٤).

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٤٦﴾

★ غريب الآية:

نفحة: الوقعة اليسيرة تقع بهم. يقال: نفحه بالسيف: إذا ضربه به.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ولئن مست هؤلاء المستعجلين بالعذاب يا محمد نفحة من عذاب ربك، يعني بالنفحة النصيب والحظ من قولهم: نفح فلان لفلان من عطائه: إذا أعطاه قسما أو نصيبا من المال.. وقوله: ﴿لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ يقول: لئن أصابتهم هذه النفحة من عقوبة ربك يا محمد بتكذيبهم بك وكفرهم، ليعلمن حينئذ غب تكذيبهم بك، وليعترفن على أنفسهم بنعمة الله وإحسانه إليهم، وكفرانهم أياديه عندهم، وليقولن يا ويلنا إنا كنا ظالمين في عبادتنا الآلهة والأنداد، وتركنا عبادة الله الذي خلقنا وأنعم علينا، ووضعنا العبادة غير موضعها»[1].

قال الرازي: «بين تعالى أن حالهم سيتغير إلى أن يصيروا بحيث إذا شاهدوا اليسير مما أنذروا به فعنده يسمعون ويعتذرون ويعترفون حين لا ينتفعون، وهذا هو المراد بقوله: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٤٦﴾ وأصل النفح من الريح اللينة، والمعنى: ولئن مسهم شيء قليل من عذاب الله كالرائحة من الشيء دون جسمه لتنادوا بالويل، واعترفوا على أنفسهم بالظلم»[2].

* * *

(١) جامع البيان (١٧/ ٣٢-٣٣).

(٢) التفسير الكبير (٢٢/ ١٧٧).

قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾

★ **غريب الآية:**

القسط: العدل.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ﴾ العدل وهو ﴿ٱلْقِسْطَ﴾ وجعل القسط وهو موحد من نعت الموازين، وهو جمع لأنه في مذهب عدل ورضا ونظر، وقوله: ﴿لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ يقول: لأهل يوم القيامة ومن ورد على الله في ذلك اليوم من خلقه، وقد كان بعض أهل العربية يوجه معنى ذلك إلى (في) كأن معناه عنده: ونضع الموازين القسط في يوم القيامة وقوله: ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ﴾ يقول: فلا يظلم الله نفسا ممن ورد عليه منهم شيئًا بأن يعاقبه بذنب لم يعمله أو يبخسه ثواب عمل عمله، وطاعة أطاعه بها، ولكن يجازي المحسن بإحسانه، ولا يعاقب مسيئا إلا بإساءته.. وقوله: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ﴾ يقول: وإن كان الذي له من عمل الحسنات، أو عليه من السيئات وزن حبة من خردل أتينا بها، يقول: جئنا بها فأحضرناها إياه.. وقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ يقول: وحسب من شهد ذلك الموقف بنا حاسبين؛ لأنه لا أحد أعلم بأعمالهم وما سلف في الدنيا من صالح أو سيئ منا»[1].

قال السعدي: «يخبر تعالى عن حكمه العدل، وقضائه القسط بين عباده إذا جمعهم في يوم القيامة، وأنه يضع لهم الموازين العادلة، التي يبين فيها مثاقيل الذر، الذي توزن بها الحسنات والسيئات، ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ﴾ مسلمة أو كافرة

(١) جامع البيان (١٧/ ٣٣-٣٤).

﴿شَيْئًا﴾ بأن تنقص من حسناتها، أو يزاد في سيئاتها.

﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ التي هي أصغر الأشياء وأحقرها، من خير أو شر ﴿أَتَيْنَا بِهَا﴾ وأحضرناها، ليجازى بها صاحبها، كقوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝﴾[1]، وقالوا: ﴿يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾[2].

﴿وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ يعني بذلك نفسه الكريمة، فكفى به حاسبا أي: عالما بأعمال العباد، حافظا لها مثبتا لها في الكتاب، عالما بمقاديرها ومقادير ثوابها وعقابها واستحقاقها موصلا للعمال جزاءها»[3].

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أنه يضع الموازين القسط ليوم القيامة. فتوزن أعمالهم وزنا في غاية العدالة والإنصاف، فلا يظلم الله أحدا شيئا، وأن عمله من الخير أو الشر، وإن كان في غاية القلة والدقة كمثقال حبة من خردل، فإن الله يأتي به؛ لأنه لا يخفى عليه شيء وكفى به -جل وعلا- حاسبا؛ لإحاطة علمه بكل شيء.

وبين في غير هذا الموضع أن الموازين عند ذلك الوزن منها ما يخف، ومنها ما يثقل. وأن من خفت موازينه هلك، ومن ثقلت موازينه نجا. كقوله تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ۝﴾[4] وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ۝ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۝ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۝ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ۝﴾[6] إلى غير ذلك من الآيات.

(١) الزلزلة: الآيتان (٧و٨).
(٢) الكهف: الآية (٤٩).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٣٥).
(٤) الأعراف: الآيتان (٨و٩).
(٥) المؤمنون: الآيات (١٠١-١٠٣).
(٦) القارعة: الآيات (٦-٩).

وما ذكره -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة من أن موازين يوم القيامة موازين قسط ذكره في الأعراف في قوله: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾[1] لأن الحق عدل وقسط.

وما ذكره فيها من أنه لا تظلم نفس شيئًا بينه في مواضع أخر كثيرة، كقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٤٠﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٤٤﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[4] وقد قدمنا الآيات الدالة على هذا في سورة الكهف.

وما ذكره -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: من كون العمل وإن كان مثقال ذرة من خير أو شر أتى به -جل وعلا- أوضحه في غير هذا الموضع، كقوله عن لقمان مقررا له: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ۝١٦﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾[6] إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ﴾ جمع ميزان. وظاهر القرآن تعدد الموازين لكل شخص، لقوله: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾[7]، وقوله: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ﴾[8] فظاهر القرآن يدل على أن للعامل الواحد موازين يوزن بكل واحد منها صنف من أعماله، كما قال الشاعر:

ملك تقوم الحادثات لعدله ... فلكل حادثة لها ميزان

والقاعدة المقررة في الأصول: أن ظاهر القرآن لا يجوز العدول عنه إلا بدليل يجب الرجوع إليه»[9].

---

(١) الأعراف: الآية (٨).
(٢) النساء: الآية (٤٠).
(٣) يونس: الآية (٤٤).
(٤) الكهف: الآية (٤٩).
(٥) لقمان: الآية (١٦).
(٦) الزلزلة: الآيتان (٧و٨).
(٧) الأعراف: الآية (٨).
(٨) الأعراف: الآية (٩).
(٩) أضواء البيان (٤/ ٥٨٣-٥٨٥).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في إثبات الميزان والحساب، والعاقل من استعد لذلك

* عن عائشة أن رجلا قعد بين يدي النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إن لي مملوكين يكذبونني ويخونونني ويعصونني وأشتمهم وأضربهم، فكيف أنا منهم؟ قال: «**يحسب ما خانوك وعصوك وكذبوك، وعقابك إياهم، فإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم كان كفافا، لا لك ولا عليك، وإن كان عقابك إياهم دون ذنوبهم كان فضلا لك؛ وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم اقتص لهم منك الفضل. قال: فتنحى الرجل فجعل يبكي ويهتف، فقال رسول الله ﷺ**: أما تقرأ كتاب الله. ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ﴾ الآية، فقال الرجل: والله يا رسول الله، ما أجد لي ولهؤلاء شيئًا خيرا من مفارقتهم، أشهدكم أنهم أحرار كلهم»[(١)].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «**كلمتان حبيبتان إلى الرحمن خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم**»[(٢)].

* عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله سيخلص رجلا من أمتي على رءوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلا كل سجل مثل مد البصر، ثم يقول: أتنكر من هذا شيئا؟ أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: أفلك عذر؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: بلى إن لك عندنا حسنة،**

---

(١) أخرجه: أحمد (٦/ ٢٨٠-٢٨١) والترمذي (٥/ ٣٠٠/ ٣١٦٥) وقال: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبدالرحمن بن غزوان وقد روى ابن حنبل عن عبدالرحمن بن غزوان هذا الحديث». قلت: وعبد الرحمن بن غزوان ثقة له أفراد كما في التقريب. وذكره الهيثمي في المجمع (١٠/ ٣٥٠-٣٥١) وقال: «رواه أحمد وفي إسناد الصحابي الذي لم يسم راو لم يسم أيضا، وبقية رجالهما رجال الصحيح». قال المنذري في الترغيب (٤/ ٤٠٣): «إسناد أحمد والترمذي متصلان ورواتهما ثقات، عبدالرحمن هذا يكنى أبا نوح ثقة احتج به البخاري، وبقية رجال أحمد ثقات احتج بهم البخاري ومسلم» اهـ. وصححه الشيخ الألباني رحمه الله في صحيح الترغيب (٣/ ٤٢٦-٤٢٧).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٣٢) والبخاري (١٣/ ٦٥٧/ ٧٥٦٣) ومسلم (٤/ ٢٠٧٢/ ٢٦٩٤) والترمذي (٥/ ٤٧٨/ ٣٤٦٧) والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٠٧-٢٠٨/ ١٠٦٦٦) وابن ماجه (٢/ ١٢٥١/ ٣٨٠٦).

فإنه لا ظلم عليك اليوم، فتخرج بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا اللَّه وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، فيقول: احضر وزنك، فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات، فقال: إنك لا تظلم، قال: فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة، فلا يثقل مع اسم اللَّه شيء»[١].

★ فوائد الأحاديث:

قال الحافظ: «والموازين جمع ميزان وأصله موزان فقلبت الواو ياء لكسرة ما قبلها، واختلف في ذكره هنا بلفظ الجمع هل المراد أن لكل شخص ميزانا أو لكل عمل ميزان فيكون الجمع حقيقة، أو ليس هناك إلا ميزان واحد والجمع باعتبار تعدد الأعمال أو الأشخاص، ويدل على تعدد الأعمال قوله تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُۥ﴾[٢] ويحتمل أن يكون الجمع للتفخيم، كما في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾[٣] مع أنه لم يرسل إليهم إلا واحدا، والذي يترجح أنه ميزان واحد ولا يشكل بكثرة من يوزن عمله لأن أحوال القيامة لا تكيف بأحوال الدنيا، والقسط العدل وهو نعت الموازين إن كان مفردا وهي جمع لأنه مصدر»[٤].

قال الرازي: «الأظهر إثبات موازين في يوم القيامة لا ميزان واحد والدليل عليه قوله: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[٥] وقال في هذه الآية: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ وعلى هذا فلا يبعد أن يكون لأفعال القلوب ميزان، ولأفعال الجوارح ميزان، ولما يتعلق بالقول ميزان آخر. قال الزجاج: إنما جمع اللَّه الموازين ههنا، فقال: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ ولم يقل ميزانه لوجهين: الأول: أن العرب قد توقع لفظ الجمع على الواحد. فيقولون: خرج فلان إلى مكة على البغال. والثاني: أن المراد من الموازين ههنا جمع موزون لا جمع ميزان وأراد بالموازين الأعمال الموزونة. ولقائل أن يقول هذان الوجهان يوجبان العدول عن ظاهر اللفظ، وذلك إنما يصار إليه عند تعذر حمل الكلام على ظاهره، ولا مانع ههنا منه فوجب إجراء

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٢١٣، ٢٢١-٢٢٢) والترمذي (٥/ ٢٥/ ٢٦٣٩) وقال: «حسن غريب»، وابن ماجه (٢/ ١٤٣٧/ ٤٣٠٠)، وصححه الحاكم (١/ ٦ و٥٢٩) على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

(٢) الأعراف: الآية (٩).

(٣) الشعراء: الآية (١٠٥).

(٤) الفتح (١٣/ ٦٥٧-٦٥٨).

(٥) الأنبياء: الآية (٤٧).

اللفظ على حقيقته، فكما لم يمتنع إثبات ميزان له لسان وكفتان، فكذلك لا يمتنع إثبات موازين بهذه الصفة، فما الموجب لترك الظاهر والمصير إلى التأويل»[١].

قال السفاريني: «الأصح الأشهر أنه ميزان واحد لجميع الأمم ولجميع الأعمال، كفتاه كأطباق السموات والأرض كما مر. وقيل: لكل أمة ميزان. وقال الحسن البصري: لكل واحد من المكلفين ميزان. واستظهر بعضهم إثبات موازين يوم القيامة لا ميزان واحد لظاهر قوله ﷻ: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ﴾ وقوله: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾[٢]. وقال: لا يبعد على هذا أن يكون لأعمال القلوب ميزان، ولأفعال الجوارح ميزان، ولما يتعلق بالقول ميزان.

ورد هذا ابن عطية وقال: الناس على خلافه. وإنما لكل واحد وزن مختص به والميزان واحد. وقال بعضهم: إنما جمع الموازين في الآية الكريمة لكثرة من توزن أعمالهم، وهو حسن»[٣].

وقال ابن كثير: «الأكثر على أنه ميزان واحد وإنما جمع باعتبار تعدد الأعمال الموزونة فيه»[٤].

وقال ابن عثيمين: «وقد وردت النصوص بالجمع والإفراد:

فمثال الجمع قول اللَّه تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم﴾[٦].

وأما الإفراد فقال النبي ﷺ: **«كلمتان حبيبتان إلى الرحمن، خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان: سبحان اللَّه وبحمده، سبحان اللَّه العظيم». فقال: «في الميزان»** فأفرد؛ فكيف نجمع بين الآيات القرآنية وبين هذا الحديث؟!

فالجواب أن نقول: إنها جمعت باعتبار الموزون، حيث إنه متعدد، وأفردت

---

(١) التفسير الكبير (١٤/ ٢٩).

(٢) الأعراف: الآية (٨).

(٣) لوائح الأنوار السنية (٢/ ١٩٤-١٩٦).

(٤) التفسير (٥/ ٣٣٩).

(٥) الأنبياء: الآية (٤٧).

(٦) الأعراف: الآيتان (٨و٩).

باعتبار أن الميزان واحد، أو ميزان كل أمة، أو أن المراد بالميزان في قوله -عليه الصلاة والسلام-: «**ثقيلتان في الميزان**» أي في الوزن.

ولكن الذي يظهر والله أعلم أن الميزان واحد، وأنه جمع باعتبار الموزون، بدليل قوله: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾[1].

لكن يتوقف الإنسان: هل يكون ميزانا واحدا لجميع الأمم أو لكل أمة ميزان؛ لأن الأمم كما دلت عليه النصوص تختلف باعتبار أجرها؟!»[2].

أما بقية المباحث المتعلقة بالميزان فقد تقدمت في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾ من سورة الأعراف، وبالله التوفيق.

* * *

(١) الأعراف: الآية (٨).

(٢) شرح العقيدة الواسطية ضمن مجموع فتاوى ابن عثيمين (٨/ ٤٩٨-٤٩٩).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ولقد آتينا موسى بن عمران وأخاه هارون الفرقان، يعني به الكتاب الذي يفرق بين الحق والباطل، وذلك هو التوراة في قول بعضهم.. وكان ابن زيد يقول في ذلك ما:

حدثني به يونس قال: أخبرنا ابن وهب قال: قال ابن زيد في قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ قال: الفرقان: الحق آتاه اللَّه موسى وهارون، فرق بينهما وبين فرعون، قضى بينهم بالحق، وقرأ ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾[١] قال: يوم بدر.

قال أبو جعفر: وهذا القول الذي قاله ابن زيد في ذلك أشبه بظاهر التنزيل، وذلك لدخول الواو في الضياء، ولو كان الفرقان هو التوراة كما قال من قال ذلك، لكان التنزيل: ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان ضياء؛ لأن الضياء الذي آتى اللَّه موسى وهارون هو التوراة التي أضاءت لهما ولمن اتبعهما أمر دينهم فبصرهم الحلال والحرام، ولم يقصد بذلك في هذا الموضع ضياء الأبصار، وفي دخول الواو في ذلك دليل على أن الفرقان غير التوراة التي هي ضياء.

فإن قال قائل: وما ينكر أن يكون الضياء من نعت الفرقان، وإن كانت فيه واو فيكون معناه: وضياء آتيناه ذلك كما قال: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا﴾[٢]؟ قيل له: إن ذلك وإن كان الكلام يحتمله فإن الأغلب من معانيه ما قلنا، والواجب أن يوجه معاني كلام اللَّه إلى الأغلب الأشهر من وجوهها المعروفة عند

---

(١) الأنفال: الآية (٤١).

(٢) الصافات: الآيتان (٦و٧).

العرب ما لم يكن بخلاف ذلك ما يجب التسليم له من حجة خبر أو عقل.

وقوله: ﴿وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ يقول: وتذكيرا لمن اتقى اللَّه بطاعته وأداء فرائضه، واجتناب معاصيه، ذكرهم بما آتى موسى وهارون من التوراة»[١].

قال ابن كثير: «جامع القول في ذلك أن الكتب السماوية مشتملة على التفرقة بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والغي والرشاد، والحلال والحرام، وعلى ما يحصل نورا في القلوب، وهداية وخوفا وإنابة وخشية، ولهذا قال: ﴿ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي تذكيرا لهم وعظة»[٢].

قال السعدي: «كثيرا ما يجمع تعالى بين هذين الكتابين الجليلين، اللذين لم يطرق العالم أفضل منهما، ولا أعظم ذكرا، ولا أبرك، ولا أعظم هدى وبيانا، [وهما التوراة والقرآن] فأخبر أنه آتى موسى أصلا وهارون تبعا ﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾ وهي التوراة الفارقة بين الحق والباطل، والهدى والضلال، وأنها ﴿ضِيَآءً﴾ أي: نور يهتدي به المهتدون، ويأتم به السالكون، وتعرف به الأحكام، ويميز به بين الحلال والحرام، وينير في ظلمة الجهل والبدع والغواية، ﴿وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ يتذكرون به ما ينفعهم وما يضرهم، ويتذكر به الخير والشر، وخص (المتقين) بالذكر؛ لأنهم المنتفعون بذلك، علما وعملا»[٣].

* * *

(١) جامع البيان (١٧/ ٣٤-٣٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣٤١).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٣٦).

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: آتينا موسى وهارون الفرقان: الذكر الذي آتيناهما للمتقين الذين يخافون ربهم بالغيب، يعني في الدنيا أن يعاقبهم في الآخرة إذا قدموا عليه بتضييعهم ما ألزمهم من فرائضه فهم من خشيته يحافظون على حدوده وفرائضه، وهم من الساعة التي تقوم فيها القيامة مشفقون، حذرون أن تقوم عليهم، فيردوا على ربهم، قد فرطوا في الواجب عليهم لله، فيعاقبهم من العقوبة بما لا قبل لهم به»[(١)].

قال ابن عطية: «قوله تعالى: ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ يحتمل ثلاث تأويلات:

أحدها: في غيبهم وخلواتهم وحيث لا يطلع عليهم أحد وهذا أرجحها.

والثاني: أنهم يخشون اللَّه تعالى على أن أمره تعالى غائب، وإنما استدلوا بدلائل لا بمشاهدة.

والثالث: أنهم يخشون اللَّه ربهم بما أعلمهم به مما غاب عنهم من أمر آخرتهم ودنياهم»[(٢)].

قال السعدي: «أي: يخشونه في حال غيبتهم، وعدم مشاهدة الناس لهم، فمع المشاهدة أولى، فيتورعون عما حرم، ويقومون بما ألزم، ﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ أي: خائفون وجلون، لكمال معرفتهم بربهم، فجمعوا بين الإحسان والخوف، والعطف هنا من باب عطف الصفات المتغايرات، الواردة على شيء واحد وموصوف واحد»[(٣)].

---

(١) جامع البيان (١٧/ ٣٥).

(٢) المحرر الوجيز (٤/ ٨٥).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٣٦-٢٣٧).

قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٥٠﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -جل ثناؤه-: وهذا القرآن الذي أنزلناه إلى محمد ﷺ ذكر لمن تذكر به وموعظة لمن اتعظ به ﴿مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ كما أنزلنا التوراة إلى موسى وهارون ذكرا للمتقين ﴿أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ يقول -تعالى ذكره-: أفأنتم أيها القوم لهذا الكتاب الذي أنزلناه إلى محمد منكرون وتقولون: ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ۝٥﴾[1] وإنما الذي آتيناه من ذلك ذكر للمتقين، كالذي آتينا موسى وهارون ذكرا للمتقين»[2].

قال الرازي: «قال وكما أنزلت عليهم الفرقان فكذلك هذا القرآن المنزل عليك، وهو معنى قوله: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ﴾ بركته كثرة منافعه وغزارة علومه، وقوله: ﴿أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ فالمعنى أنه لا إنكار في إنزاله وفي عجائب ما فيه، فقد آتينا موسى وهارون التوراة، ثم هذا القرآن معجز لاشتماله على النظم العجيب والبلاغة البديعة واشتماله على الأدلة العقلية وبيان الشرائع، فمثل هذا الكتاب مع كثرة منافعه كيف يمكنكم إنكاره»[3].

قال السعدي: «﴿وَهَٰذَا﴾ أي: القرآن ﴿ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ فوصفه بوصفين جليلين، كونه ذكرا يتذكر به جميع المطالب، من معرفة اللّه بأسمائه وصفاته وأفعاله، ومن صفات الرسل والأولياء وأحوالهم، ومن أحكام الشرع من العبادات والمعاملات وغيرها، ومن أحكام الجزاء والجنة والنار، فيتذكر به المسائل والدلائل العقلية والنقلية، وسماه ذكرا، لأنه يذكر ما ركزه اللّه في العقول والفطر، من التصديق بالأخبار الصادقة، والأمر بالحسن عقلا والنهي عن القبيح عقلا وكونه

---

(١) الأنبياء: الآية (٥).

(٢) جامع البيان (١٧/ ٣٥).

(٣) التفسير الكبير (٢٢/ ١٨٠).

(مباركا) يقتضي كثرة خيراته ونمائها وزيادتها، ولا شيء أعظم بركة من هذا القرآن، فإن كل خير ونعمة، وزيادة دينية أو دنيوية، أو أخروية، فإنها بسببه، وأثر عن العمل به، فإذا كان ذكرا مباركا، وجب تلقيه بالقبول والانقياد والتسليم، وشكر الله على هذه المنحة الجليلة، والقيام بها، واستخراج بركته، بتعلم ألفاظه ومعانيه، وأما مقابلته بضد هذه الحالة من الإعراض عنه والإضراب عنه صفحا وإنكاره، وعدم الإيمان به فهذا من أعظم الكفر وأشد الجهل والظلم، ولهذا أنكر تعالى على من أنكره فقال: ﴿أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾»[1].

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة أن هذا القرآن العظيم ﴿ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ﴾ أي كثير البركات والخيرات. لأن فيه خير الدنيا والآخرة. ثم وبخ من ينكرونه منكرا عليهم بقوله: ﴿أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾. وما ذكره -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: من أن هذا القرآن مبارك بينه في مواضع متعددة من كتابه. كقوله تعالى في الأنعام: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾[2]، وقوله فيها أيضا: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾[3] الآية. وقوله تعالى في ص: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾[4]، إلى غير ذلك من الآيات. فنرجو الله تعالى القريب المجيب: أن تغمرنا بركات هذا الكتاب العظيم المبارك بتوفيق الله تعالى لنا لتدبر آياته، والعمل بما فيها من الحلال والحرام، والأوامر والنواهي، والمكارم والآداب امتثالا واجتنابا، إنه قريب مجيب»[5].

* * *

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٣٧).
(٢) الأنعام: الآية (١٥٥).
(٣) الأنعام: الآية (٩٢).
(٤) ص: الآية (٢٩).
(٥) أضواء البيان (٤/ ٥٨٧).

قوله تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾

★ **غريب الآية:**

رشده: الرشد: الهداية. خلافه: الغي والضلال.

عاكفون: العكوف الإقبال على الشيء وملازمته على سبيل التعظيم له.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن خليله إبراهيم ﷺ أنه آتاه رشده من قبل، أي من صغره ألهمه الحق والحجة على قومه، كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾[1] وما يذكر من الأخبار عنه في إدخال أبيه له في السرب وهو رضيع، وأنه خرج به بعد أيام، فنظر إلى الكوكب والمخلوقات، فتبصر فيها وما قصه كثير من المفسرين وغيرهم، فعامتها أحاديث بني إسرائيل، فما وافق منها الحق مما بأيدينا عن المعصوم، قبلناه لموافقته الصحيح، وما خالف شيئًا من ذلك رددناه، وما ليس فيه موافقة ولا مخالفة لا نصدقه ولا نكذبه، بل نجعله وقفا، وما كان من هذا الضرب منها فقد رخص كثير من السلف في روايته، وكثير من ذلك مما لا فائدة فيه، ولا حاصل له مما لا ينتفع به في الدين، ولو كانت فائدته تعود على المكلفين في دينهم لبينته هذه الشريعة الكاملة الشاملة، والذي نسلكه في هذا التفسير الإعراض عن كثير من الأحاديث الإسرائيلية، لما فيها من تضييع الزمان، ولما اشتمل عليه كثير منها من الكذب المروج عليهم، فإنهم لا تفرقة عندهم بين

---

(١) الأنعام: الآية (٨٣).

صحيحها وسقيمها، كما حرره الأئمة الحفاظ المتقنون من هذه الأمة والمقصود ههنا أن اللَّه تعالى أخبر أنه قد آتى إبراهيم رشده من قبل، أي: من قبل ذلك.

وقوله: ﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ أي: وكان أهلا لذلك ثم قال: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾﴾ هذا هو الرشد الذي أوتيه من صغره الإنكار على قومه في عبادة الأصنام من دون اللَّه ﷺ فقال: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ أي معتكفون على عبادتها.. ﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ لم يكن لهم حجة سوى صنيع آبائهم الضلال، ولهذا قال: ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾﴾ أي الكلام مع آبائكم الذي احتججتم بصنيعهم كالكلام معكم، فأنتم وهم في ضلال على غير الطريق المستقيم. فلما سفه أحلامهم، وضلل آباءهم، واحتقر آلهتهم ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾﴾ يقولون: هذا الكلام الصادر عنك تقوله لاعبا أم محقا فيه، فإنا لم نسمع به قبلك ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾ أي ربكم الذي لا إله غيره، وهو الذي خلق السموات والأرض، وما حوت من المخلوقات الذي ابتدأ خلقهن وهو الخالق لجميع الأشياء ﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي: وأنا أشهد أنه لا إله غيره ولا رب سواه»[١].

قلت: لا شك أن اللَّه خص أبا الحنفاء بما خصه به من الهداية والرشد والعلم النافع والنبوة، وجعله ينكر عبادة الأصنام في وقت مبكر، إذ لا شك أن عبادة الأصنام أمر مخالف للفطر والعقول السليمة، وأن فاعل ذلك عابث لا محالة، يقوم بمجهودات كبيرة في غير طائل، ويصرف أعمالًا وأقوالًا لمن ليست له ولا يستحقها، فالمشرك ظالم عابث سفيه أحمق تفوقه الأنعام والبهائم في تمييزها؛ لأنها مهما فقدت من عقل؛ فإنها لا تفقد تمييز ما ينفعها أو يضرها، فهي تحب الماء الطيب النافع لريها وسقيها، وتحب أنواع النباتات التي تناسب مستواها وحاجتها في الأكل، فتجدها تسرع إليه وتتحراه وتتوخاه، وخير دليل على هذا حديث البقرة التي نطقت، وكان نطقها معجزة؛ فإنها لما امتطيت للركوب قالت: (إنا لم نخلق لهذا؛ إنما خلقنا للحرث)[٢]. بخلاف المشرك فهو يعيش على الوهم والخرافة

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣٤١-٣٤٢).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٤٥-٢٤٦)، والبخاري (٦/ ٦٣٥/ ٣٤٧١)، ومسلم (٤/ ١٨٥٧-١٨٥٨/ ٢٣٨٨[١٣])، والنسائي في الكبرى (٥/ ٣٧/ ٨١١١).

ولا يربط السبب بمسببه، فالمعبود من دون اللَّه لا ينفع ولا يضر؛ بل عبادته ضرر محقق تخلد صاحبها في النار والعياذ باللَّه، فلو رجع الإنسان إلى فطرته وعقله لوجد المشرك من أعبث العابثين وأضل الضالين وأنه لا عقل له ولا فطرة.

وعودًا على بدء، فقد فضّل اللَّه هذا النبي المبارك الطيب الذي لم يكن مشركًا، وكان من الشاكرين لأنعم اللَّه، موحدًا له، داعيًا إلى توحيده. ونبينا ﷺ على جلالة قدره أمر باتباعه في الدعوة إلى التوحيد، فنرجو اللَّه أن يجعلنا على دعوته وطريقته، وأن يصرف ما بقي من أعمارنا في الدعوة إلى التوحيد الذي دعا له إمام الحنفاء وابنه النبي الأمين القرشي الهاشمي سيد ولد آدم، وخير من وطئ الحصى، وخير من صلى؛ فإن الصلاة عليه عبادة، وذكره شرف، واتباعه عصمة وهداية، ومخالفته ضلال، وبغضه ورد سننه كفر، ومن ترك حرفًا من سنته عوقب في الدنيا والآخرة، فاللهم صل على من اتبعه على الهدى والصراط المستقيم وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين.

قال السعدي: «لما ذكر تعالى موسى ومحمدا صلى اللَّه عليهما وسلم، وكتابيهما قال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل إرسال موسى ومحمد ونزول كتابيهما، فأراه اللَّه ملكوت السموات والأرض، وأعطاه من الرشد، الذي كمل به نفسه، ودعا الناس إليه، ما لم يؤته أحدا من العالمين غير محمد، وأضاف الرشد إليه لكونه رشدا بحسب حاله وعلو مرتبته، وإلا فكل مؤمن له من الرشد بحسب ما معه من الإيمان. ﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ أي: أعطيناه رشده، واختصصناه بالرسالة والخلة، واصطفيناه في الدنيا والآخرة، لعلمنا أنه أهل لذلك، وكفء له، لزكائه وذكائه، ولهذا ذكر محاجته لقومه، ونهيهم عن الشرك، وتكسير الأصنام، وإلزامهم بالحجة، فقال: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ﴾ التي مثلتموها، ونحتموها بأيديكم، على صور بعض المخلوقات ﴿ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ مقيمون على عبادتها، ملازمون لذلك، فما هي؟ وأي فضيلة ثبتت لها؟ وأين عقولكم التي ذهبت حتى أفنيتم أوقاتكم بعبادتها؟ والحال أنكم مثلتموها، ونحتموها بأيديكم، فهذا من أكبر العجائب، تعبدون ما تنحتون.

فأجابوا بغير حجة، جواب العاجز، الذي ليس بيده أدنى شبهة، فقالوا: ﴿وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا﴾ كذلك يفعلون، فسلكنا سبيلهم، وتبعناهم على عبادتها، ومن

المعلوم أن فعل أحد من الخلق سوى الرسل ليس بحجة، ولا تجوز به القدوة، خصوصا في أصل الدين، وتوحيد رب العالمين، ولهذا قال لهم إبراهيم مضللا للجميع: ﴿لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: ضلال بين واضح، وأي ضلال أبلغ من ضلالهم في الشرك، وترك التوحيد؟» أي: فليس ما قلتم يصلح للتمسك به، وقد اشتركتم وإياهم في الضلال الواضح، البين لكل أحد.

﴿قَالُوٓا۟﴾ على وجه الاستغراب لقوله، والاستعظام لما قال، وكيف بادأهم بتسفيههم وتسفيه آبائهم: ﴿أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾ أي: هذا القول الذي قلته، والذي جئتنا به، هل هو حق وجد؟ أم كلامك لنا كلام لاعب مستهزئ، لا يدري ما يقول؟ وهذا الذي أرادوا، وإنما رددوا الكلام بين الأمرين؛ لأنهم نزلوه منزلة المتقرر المعلوم عند كل أحد، أن الكلام الذي جاء به إبراهيم، كلام سفيه لا يعقل ما يقول، فرد عليهم إبراهيم ردا بين به وجه سفههم، وقلة عقولهم فقال: ﴿بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ فجمع لهم بين الدليل العقلي والدليل السمعي.

أما الدليل العقلي، فإنه قد علم كل أحد حتى هؤلاء الذين جادلهم إبراهيم، أن الله وحده الخالق لجميع المخلوقات من بني آدم، والملائكة، والجن، والبهائم، والسموات، والأرض، المدبر لهن بجميع أنواع التدبير، فيكون كل مخلوق مفطورا مدبرا متصرفا فيه، ودخل في ذلك جميع ما عبد من دون الله.

أفيليق عند من له أدنى مسكة من عقل وتمييز أن يعبد مخلوقا متصرفا فيه، لا يملك نفعا ولا ضرا، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، ويدع عبادة الخالق الرازق المدبر؟

أما الدليل السمعي: فهو المنقول عن الرسل عليهم الصلاة والسلام، فإن ما جاءوا به معصوم لا يغلط ولا يخبر بغير الحق، ومن أنواع هذا القسم شهادة أحد من الرسل على ذلك، فلهذا قال إبراهيم: ﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم﴾ أي: أن الله وحده المعبود وأن عبادة ما سواه باطل ﴿مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ وأي شهادة بعد شهادة الله أعلى من شهادة الرسل؟ خصوصا أولي العزم منهم، خصوصا خليل الرحمن»[1].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٣٨-٢٤٠).

قال المكي الناصري: «ما دام محور الحديث الرئيسي في هذه السورة هو موضوع العقيدة التي هي أصل الدين وأساسه، فإن قصة إبراهيم مع قومه يجب أن تحتل الصدارة في هذا الميدان، وذلك هو ما تصدى له كتاب اللّه هنا بالشرح والبيان، إذ إن اسم إبراهيم أصبح منذ قرون طويلة، وفي جميع الأديان الكتابية، رمزا إلى مكافحة الوثنية، ومجابهة الشرك، وإعلان التوحيد ونشره بين الناس، حتى إنه ليعتبر بحق إمام الموحدين مصداقا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾[1].

وقبل أن يتولى كتاب اللَّه في هذا الربع وصف ما دار بين إبراهيم وأبيه وقومه من حوار وصراع حول عقيدة التوحيد التي اهتدى إليها، ومعتقدات الشرك التي تلقوها أبا عن جد، أوجز القول في وصف مزايا إبراهيم وما آتاه اللَّه من رشد بلغ الغاية القصوى، عندما اختاره رسولا خليلا قبل موسى وهارون، فقال تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ ولولا ما ألهمه اللَّه من رشد وثبات، وآتاه من حكمة وحجة بالغة لما استطاع أن يواجه بمفرده مشركي قومه، على كثرة عددهم وقوتهم، وأن يفوز عليهم في الرهان، ويغلبهم بالحجة والبرهان.

ثم شرع كتاب اللَّه يفصل المحاورة التي دارت بين إبراهيم وأبيه وقومه على الوجه الآتي: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

ومن هذه المقالة يتجلى أولا حرص إبراهيم الخليل بشكل خاص على انتشال أبيه قبل غيره من حضيض الشرك، لما بين الأب والابن من علاقة خاصة لا تقوى قوتها بقية العلاقات، وفي نفس الوقت اهتم إبراهيم بانتشال بقية قومه من نفس الهوة التي ترددوا فيها جميعا، وهذا الاتجاه الرامي إلى إنقاذ العشيرة الأقربين من الضلال قبل غيرهم أكده كتاب اللَّه في خطابه لخاتم الرسل، إذ قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾[2].

ومن هذه المقالة يتجلى ثانيا رشد إبراهيم عليه السلام، وحذره من إلقاء الكلام على عواهنه، ولذلك لم يطلق على الأصنام التي كان يعبدها أبوه وقومه اسم الآلهة كما كانوا يعبرون عنها، وإنما أطلق عليها مجرد لفظ التماثيل، والتمثال اسم موضوع للشيء المصنوع باليد، الممثل بغيره، أي المشبه به، تقول: مثلت الشيء بالشيء،

---

(١) النحل: الآية (١٢٠). (٢) الشعراء: الآية (٢١٤).

إذا شبهته به، قال أبو حيان: وفي قوله: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ﴾ تحقير لها، وتصغير لشأنها، مع علمه بتعظيمهم لها. وفي خطابه لهم بقوله: ﴿أَنتُمْ﴾ استهانة بهم، وتوقيف على سوء صنيعهم. وهكذا استنكر إبراهيم عكوفهم على عبادة الأصنام، وملازمتهم لتعظيمها دون نفع ولا جدوى.

ويحكي كتاب اللّٰه جواب قومه إذ يقول: ﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ۝٥٣﴾ وليس في هذا الجواب أدنى حجة أو إقناع، وإنما مرده إلى التقليد الأعمى ومجرد الاتباع، فيرد عليهم إبراهيم قائلا: ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٥٤﴾ وبهذا الرد يطعن في حجتهم ويصم بالضلال قومه عن بكرة أبيهم، وهنا تتجلى معالم الفتوة التي امتاز بها إبراهيم ﷺ، من جرأته في نصرة الحق، ومهاجمته للباطل، وتحديه للتقاليد البالية، مهما كلفه ذلك من التضحيات الغالية، ولا يلبث قومه أن يسألوه مستفسرين وهم مترددون: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ۝٥٥﴾ يريدون أن يعرفوا هل هو جاد فيما يقول، أم أن كلامه مجرد لعب وهزل، لكن إبراهيم ينفي هذا الاحتمال ويرفع في الحين كل إشكال ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٥٦﴾ وبهذا أفهم قومه أن الإله الوحيد الذي يجب أن يعبدوه هو رب السموات والأرض الذي خلقهن، فهو ربهم الحق وحده لا شريك له، وزكى هذه الدعوى بشهادته عليها، إذ هو رسول اللّٰه وخليل الرحمن، وكفى بشهادته حجة وبرهانا، على غرار قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١٨﴾[1]، فلفظ ﴿ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ في هذه الآية مأخوذ من الشهادة بمعناها المعروف، لا من المشاهدة بمعنى مجرد الرؤية والحضور»[2].

قلت: ما ذكره اللّٰه على لسان إمام التوحيد إبراهيم ﷺ بوصفه لقومه بعكوفهم على عبادة الأصنام؛ هو واقع المسلمين مع الأسف اليوم في كثير من الأضرحة، التي يصفون أصحابها بالصلاح بزعمهم والعلم عند اللّٰه، وصحة هذا الوصف -إن كان صحيحًا- لا تسوِّغ ما يُفعل عند قبورهم من العكوف المستمر، وعقد المواسم، واجتماع الضلال فيها على الفسق والعصيان وعلى الموبقات المختلفة،

(١) آل عمران: الآية (١٨).

(٢) التيسير في أحاديث التفسير (٤/ ١٣٠-١٣٢).

وأكبرها الشرك بالله ونحر الذبائح، وإيقاد الشموع ورسم حرم خاص للوثن، وبعضهم ينذر اعتكافًا في هذا الوثن أو يلجأ إليه عند الحزن أو خوفًا من فلان، أو لمرض نزل به أو فاقة حلت به، ويشدون لهذه المشاهد الرحال من أمكنة بعيدة ومن أقطار مختلفة، فالمغاربة يقصدون الجيلاني في بغداد والحسيني في مصر، والسنغاليون ومنتسبو الطريقة التيجانية من الأفارقة يقصدون فاس. . . وهكذا تجد عكوف عباد الأوثان منتشرًا في كل مكان ما خلا بقعة نجدٍ التي طهرها الله على يد الإمام المصلح محمد بن عبد الوهاب من هذه الوثنية، فأين علماء الإسلام الغيورون على التوحيد؟ وأين الحكام الذين يزعمون إصلاح الشعوب والأوطان؟ فإن من واجبهم تطهير الأرض من هذه الأوثان حتى يعبد الله وحده.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾

★ غريب الآية:

جذاذًا: فتاتًا. وأصل الجَذّ: التفتيت والتكسير والقطع. قال الشاعر:

بنو المهلّب جَذَّ اللّه دَابِرَهم ... أَمْسَوْا رمادًا فلا أصلَ ولا طرف

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «لما بين أن أصنامهم ليس لها من التدبير شيء أراد أن يريهم بالفعل عجزها وعدم انتصارها، وليكيد كيدا يحصل به إقرارهم بذلك فلهذا قال: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم﴾ أي أكسرها على وجه الكيد ﴿بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ عنها إلى عيد من أعيادهم، فلما تولوا مدبرين، ذهب إليها بخفية.

﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا﴾ أي كسرا وقطعا، وكانت مجموعة في بيت واحد، فكسرها كلها، ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾ أي إلا صنمهم الكبير، فإنه تركه لمقصد سيبينه، وتأمل هذا الاحتراز العجيب، فإن كل ممقوت عند اللّه، لا يطلق عليه ألفاظ التعظيم، إلا على وجه إضافته لأصحابه، كما كان النبي ﷺ إذا كتب إلى ملوك الأرض المشركين يقول: (إلى عظيم الفرس) (إلى عظيم الروم) ونحو ذلك، ولم يقل (إلى العظيم) وهنا قال تعالى: ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾ ولم يقل: (كبيرا من أصنامهم) فهذا ينبغي التنبيه له، والاحتراز من تعظيم ما حقره اللّه، إلا إذا أضيف إلى من عظمه.

وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ أي ترك إبراهيم تكسير صنمهم هذا لأجل أن يرجعوا إليه، ويستملوا حجته، ويلتفتوا إليها، ولا يعرضوا عنها ولهذا قال في آخرها: ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾.

فحين رأوا ما حل بأصنامهم من الإهانة والخزي ﴿قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٩﴾ فرموا إبراهيم بالظلم الذي هم أولى به حيث كسرها ولم يدروا أن تكسيره لها من أفضل مناقبه ومن عدله وتوحيده، وإنما الظالم من اتخذها آلهة، وقد رأى ما يفعل بها ﴿قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾ أي: يعيبهم ويذمهم، ومن هذا شأنه لا بد أن يكون هو الذي كسرها أو أن بعضهم سمعه يذكر أنه سيكيدها ﴿يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ فلما تحققوا أنه إبراهيم ﴿قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ﴾ أي: بإبراهيم ﴿عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ﴾ أي بمرأى منهم ومسمع ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ أي: يحضرون ما يصنع بمن كسر آلهتهم، وهذا الذي أراد إبراهيم وقصد أن يكون بيان الحق بمشهد من الناس ليشاهدوا الحق وتقوم عليهم الحجة، كما قال موسى حين واعد فرعون: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾[1].

فحين حضر الناس وأحضر إبراهيم قالوا له: ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا﴾ أي: التكسير ﴿بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾؟ وهذا استفهام تقرير، أي: فما الذي جرأك، وما الذي أوجب لك الإقدام على هذا الأمر؟.

فقال إبراهيم والناس شاهدون: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ أي: كسرها غضبا عليها، لما عبدت معه، وأراد أن تكون العبادة منكم لصنمكم الكبير وحده، وهذا الكلام من إبراهيم، المقصد منه إلزام الخصم وإقامة الحجة عليه، ولهذا قال: ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾ وأراد الأصنام المكسرة اسألوها لم كسرت؟ والصنم الذي لم يكسر، اسألوه لأي شيء كسرها، إن كان عندهم نطق، فسيجيبونكم إلى ذلك، وأنا وأنتم، وكل أحد يدري أنها لا تنطق ولا تتكلم، ولا تنفع ولا تضر، بل ولا تنصر نفسها ممن يريدها بأذى»[2].

---

(١) طه: الآية (٥٩).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٤٠-٢٤٣).

قال تقي الدين الهلالي: «في قصة إبراهيم عليه السلام فوائد:

الأولى: كل موحد وإن قل عمله، يجد حجة على توحيد اللَّه تعالى يغلب بها أكبر علماء الشرك والتقليد، فمن ذلك أن رجلا من المشركين في صعيد مصر بالريرمون قال لموحد: أنتم وهابية تنكرون معجزات النبي ﷺ مع أنه حي يصلي في قبره، والأغوات وهم خدام المسجد النبوي يضعون له الماء للوضوء قبل كل صلاة، فقال له الموحد: أنت كفرت بإجماع المسلمين، وتنقصت رسول اللَّه ﷺ شر تنقص؛ لأن الوضوء لا يكون إلا عن حدث والنبي ﷺ منزه عن الحدث بعد أن انتقل إلى الرفيق الأعلى، فاعترف المشرك وقال: أستغفر اللَّه. والحكايات في هذا الباب كثيرة.

الثانية: حجة قوم إبراهيم ﴿وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾ هي حجة المشركين في كل زمان ومكان، وما أحسن جواب إبراهيم عليه السلام لقومه إذ قال لهم: ﴿لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

الثالثة: أن قوم إبراهيم كانوا يوحدون اللَّه تعالى في ربوبيته، ولذلك لم ينكروا عليه قوله: ﴿بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ وكذلك المشركون في زمان النبي ﷺ كانوا يعترفون ويؤمنون أن اللَّه رب كل شيء ومليكه والمتصرف فيه، بخلاف المشركين في هذا الزمان الذي اتخذوا من دون اللَّه أولياء، واعتقدوا أنهم يتصرفون في العالم بالإحياء والإماتة، والإعطاء والمنع، والنصر والهزيمة، وإنزال المطر والخصب أو القحط والجذب، فهؤلاء أغلظ كفرا وشركا من أولئك.

الرابعة: يجب على كل من قدر على تحطيم ما يعبد من دون اللَّه من القباب والأحجار والأشجار أن يقتدي بخليل اللَّه إبراهيم، وبخليله محمد ﷺ، فكل منهما كسر الأصنام، وقد فعل ذلك الإخوان الموحدون في الحجاز فهدموا قبة حمزة رضي الله عنه والقباب التي كانت في البقيع، فجزاهم اللَّه خيرا وأجزل ثوابهم.

الخامسة: تذكرنا قصة إبراهيم الخليل بمشركي هذا الزمان، فإنهم يبنون قبة على قبر بجانب الوادي، ويعبدون تلك القبة بالذبح والنذر، ويأتي السيل فيجرفها فيعيدون بناءها وعبادتها، ولا يفكرون بعقولهم في أن هذه القبة أو الروح المتلبسة

بها لو كانت تستطيع أن تدفع أو تجلب لهم خيرا لدافعت عن نفسها، وصرفت السيل عن القبة وحفظتها منه، ولكن كذلك يطبع اللّه على قلوب المشركين وما أحسن قول الخليل لهم: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۝ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[١]..

السابعة: أن نصر اللّه للموحدين وإهلاكه للمشركين سنة اللّه التي قد خلت من قبل، ولن تجد لسنة اللّه تبديلا، فإذا لم ينتصر الموحدون، وطال عليهم زمان غلبة أعدائهم فاعلم أن توحيدهم ضعيف، وإيمانهم ناقص، فإن اللّه وعد كل من نصر دينه الحق بالنصر، فقال تعالى في سورة محمد ﷺ: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾[٢] وقال تعالى في سورة المؤمن: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ۝﴾[٣] اللهم اجعلنا ممن نصر دينك ونصرته»[٤].

قال المكي الناصري: «ومما يحسن التنبيه إليه في هذا المقام اختيار كلمة (فتى) في وصف إبراهيم ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ۝﴾ واستعمال كلمة (فتية) جمع (فتى) في أصحاب الكهف: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝﴾[٥] ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ۝ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾[٦] ففي كلا المقامين يتعلق الأمر بمومنين صادقين آمنوا بوجود اللّه ووحدانيته وقدرته وحكمته، وتبرأوا من الشرك والمشركين واعتزلوا قومهم بعدما تحدوهم بالحق المبين، مما أعطوا به الدليل على منتهى الثبات وقوة الشخصية، ونهاية الإخلاص والصبر والتضحية فضربوا بذلك المثل الأعلى للفتوة واستحقوا الذكر العاطر في آيات اللّه المتلوة»[٧].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في كذبات إبراهيم عليه السلام

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلا

---

(١) الصافات: الآيتان (٩٥و٩٦).
(٢) محمد: الآيتان (٧و٨).
(٣) غافر: الآية (٥١).
(٤) سبيل الرشاد (٢/ ٤١-٤٢).
(٥) الكهف: الآية (١٠).
(٦) الكهف: الآيتان (١٣و١٤).
(٧) التيسير في أحاديث التفسير (٤/ ١٣٥-١٣٦).

ثلاث كذبات: ثنتين منهن في ذات اللَّه ﷻ: قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾[1] وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ وقال: بينا هو ذات يوم وسارة إذ أتى على جبار من الجبابرة فقيل له: إن هاهنا رجلا معه امرأة من أحسن الناس، فأرسل إليه فسأله عنها فقال: من هذه؟ قال: أختي. فأتى سارة قال: يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك، وإن هذا سألني عنك فأخبرته أنك أختي، فلا تكذبيني. فأرسل إليها، فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده فأخذ. فقال: ادعي اللَّه لي ولا أضرك، فدعت اللَّه فأطلق. ثم تناولها الثانية فأخذ مثلها أو أشد، فقال: ادعي اللَّه لي ولا أضرك، فدعت فأطلق. فدعا بعض حجبته فقال: إنكم لم تأتوني بإنسان، إنما أتيتموني بشيطان، فأخدمها هاجر. فأتته وهو قائم يصلي، فأومأ بيده: مهيم؟ قالت: رد اللَّه كيد الكافر أو الفاجر في نحره، وأخدم هاجر. قال أبو هريرة: تلك أمكم يا بني ماء السماء»[2].

★ **غريب الحديث:**

سقيم: السقم المرض.

أخذ: بضم الهمزة وكسر المعجمة مبنيا للمفعول أي اختنق حتى ركض برجله كأنه مصروع.

حجبته: بفتح الحاء المهملة والجيم جمع حاجب وهو البواب.

مهيم: معناها ما الخبر.

يا بني ماء السماء: قال ابن حبان: «كل من كان من ولد هاجر يقال له: (ولد ماء السماء)، لأن إسماعيل من هاجر، وقد ربي بماء زمزم وهو ماء السماء الذي أكرم اللَّه به إسماعيل حيث ولدته أمه هاجر، فأولادها أولاد ماء السماء»[3].

وقال الخطابي: «وقوله: (يا بني ماء السماء) يريد العرب وذلك أنهم يعيشون

---

(١) الصافات: الآية (٨٩).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٠٣-٤٠٤) والبخاري (٦/ ٤٧٨-٤٧٩/ ٣٣٥٨) ومسلم (٤/ ١٨٤٠-١٨٤١/ ٢٣٧١) وأبو داود (٢/ ٦٥٩-٦٦٠/ ٢٢١٢) والترمذي (٥/ ٣٠٠-٣٠١/ ٣١٦٦) والنسائي في الكبرى (٥/ ٩٧-٩٨/ ٨٣٧٣-٨٣٧٤).

(٣) ابن حبان (الإحسان ١٣/ ٤٧).

بماء السماء يتبعون مواقع القطر في بواديهم»[١].

قال القاضي عياض: «والأظهر عندي أن المراد بذلك الأنصار، ونسبهم إلى جدهم عامر بن حارثة بن امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد، وكان يعرف بماء السماء، وهو مشهور، والأنصار كلهم بنو حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر المذكور»[٢].

★ فوائد الحديث:

قال القاضي عياض: «قال أهل العلم: وهذا أصل في جواز المعاريض، قالوا: والمعاريض شيء يتخلص به الرجل من المكروه إلى الجائز، ومن الحرام إلى الحلال، ومن دفع ما يضره، وإنما يكره له التحيل في حق فيبطله أو باطل فيموه به»[٣].

«قال ابن عقيل: دلالة العقل تصرف ظاهر إطلاق الكذب على إبراهيم، وذلك أن العقل قطع بأن الرسول ينبغي أن يكون موثوقا به ليعلم صدق ما جاء به عن اللَّه، ولا ثقة مع تجويز الكذب عليه، فكيف مع وجود الكذب منه، إنما أطلق عليه ذلك لكونه بصورة الكذب عند السامع، وعلى تقديره فلم يصدر ذلك من إبراهيم عليه السلام يعني إطلاق الكذب على ذلك- إلا في حال شدة الخوف لعلو مقامه، وإلا فالكذب المحض في مثل تلك المقامات يجوز، وقد يجب لتحمل أخف الضررين دفعا لأعظمهما، وأما تسميته إياها كذبات فلا يريد أنها تذم، فإن الكذب وإن كان قبيحا مخلا لكنه قد يحسن في مواضع وهذا منها»[٤].

قال ابن القيم: «وقد أشكل على الناس تسميتها كذبة، لكون المتكلم إنما أراد باللفظ المعنى الذي قصده، فكيف يكون كذبا؟ والتحقيق في ذلك: أنها كذب بالنسبة إلى إفهام المخاطب، لا بالنسبة إلى غاية المتكلم، فإن الكلام له نسبتان، نسبة إلى المتكلم ونسبة إلى المخاطب، فلما أراد المورى أن يفهم المخاطب خلاف ما قصده بلفظه، أطلق الكذب عليه بهذا الاعتبار، وإن كان المتكلم صادقا

---

(١) أعلام الحديث (٣/ ١٥٣٨).

(٢) إكمال المعلم (٧/ ٣٤٧).

(٣) إكمال المعلم (٧/ ٣٤٧).

(٤) نقلا من الفتح (٦/ ٤٨٢-٤٨٣).

باعتبار قصده ومراده»[١].

قال ابن حجر: «وأما إطلاقه الكذب على الأمور الثلاثة فلكونه قال قولا يعتقده السامع كذبا لكنه إذا حقق لم يكن كذبا لأنه من باب المعاريض المحتملة للأمرين، فليس بكذب محض.. وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ﴾ قال القرطبي: هذا قاله تمهيدا للاستدلال على أن الأصنام ليست بآلهة، وقطعا لقومه في قولهم إنها تضر وتنفع، وهذا الاستدلال يتجوز فيه الشرط المتصل، ولهذا أردف قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ بقوله: ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ قال ابن قتيبة: معناه إن كانوا ينطقون فقد فعله كبيرهم هذا، فالحاصل أنه مشترط بقوله: ﴿إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ أو أنه أسند إليه ذلك لكونه السبب. وعن الكسائي أنه كان يقف عند قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ﴾ أي: فعله من فعله كائنا من كان، ثم يبتدئ ﴿كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ وهذا خبر مستقل، ثم يقول ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ﴾ إلى آخره، ولا يخفى تكلفه. وقوله: هذه أختي يعتذر عنه بأن مراده أنها أخته في الإسلام»[٢].

قال المازري: «أما الأنبياء عليهم السلام فمعصومون من الكذب فيما طريقه البلاغ عن اللّه سبحانه، قل ذلك أو جل لأن المعجزة تدل على صدقهم في ذلك.

وأما ما لا يتعلق بالبلاغ، ويعد من الصغائر كالكذبة الواحدة في شيء من أمور الدنيا، فيجري ذلك على الخلاف في عصمتهم من الصغائر وقد تقدم الكلام عليه.

وقد وصف ﷺ أن اثنتين من كذبات إبراهيم عليه السلام كانتا في ذات اللّه سبحانه، والكذب إنما يترك لله، فإذا كان إنما يفعل لله انقلب حكمه في بعض المواضع على حسب ما ورد في الشريعة، والقصد بهذا التقييد منه ﷺ نفي مذمة الكذب عنه لجلالة قدره في الأنبياء صلوات اللّه عليه وعليهم أجمعين.

وقد تأول بعض الناس كلماته هؤلاء حتى تخرج عن كونها كذبا، ولا معنى لأن يتحاشى العلماء مما لم يتحاش منه النبي ﷺ، ولكن قد يقال: إن المراد تسميتها كذبا على ظاهرها عندكم في مقتضى إطلاقكم عند استعمالكم اللفظ على حقيقته، ألا تراه يحكي عن إبراهيم عليه السلام أنه قال لسارة: (أخبريه أنك أختي فإنك أختي في الإسلام)

(١) حاشية عون المعبود (٦/ ٢٩٦-٢٩٧).
(٢) فتح الباري (٦/ ٤٨٢).

ومن سمى المسلمة أختا له قاصدا أخوة الإسلام فليس بكاذب، لكنه ﷺ إنما أطلق عليه لفظة الكذب لما قلناه من أن الأخت في الحقيقة المشاركة في النسب، وأما المشاركة في الدين فأخت على المجاز، فأراد أنها كذبة على مقتضى حقيقة اللفظة في اللغة، وعلى أن قوله: (إنها أختي) قد يكون في ذات اللّه، إذا أراد بها كف الظلم وصيانة الحريم، لكن لما كان فيها منفعة ميزها ﷺ عن الأوليين اللتين لا منفعة له فيهما. هذا الذي يظهر لي في تأويل هذا الحديث»[1].

* * *

(١) المعلم (٣/ ١٣١).

قوله تعالى: ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾﴾

★ **غريب الآية:**

نكسوا: قُلِبُوا. والنكس: قلب الشيء بحيث يصير أسفله أعلاه. يقال: رجل ناكس ورجال ناكسون. وشذ جمعه على نواكس. قال الفرزدق:

وإذا الرجال أَتَوْا يزيدَ رأيتهم خُضُعَ الرقابِ نواكِسَ الأَبْصَارِ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عطية: «المعنى: فظهر لهم ما قال إبراهيم من أن الأصنام التي قد أهلوها للعبادة ينبغي أن تسأل وتستفسر ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ في توقيف هذا الرجل على هذا الفعل، وأنتم معكم من تسألون، ثم ارتبكوا في ضلالهم، ورأوا بالفكرة وبديهة العقل أن الأصنام لا تنطق، فساءهم ذلك حتى نطقوا عنه إلى موضع قيام الحجة عليهم، وقوله تعالى: ﴿نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ استعارة للذي يرتطم في غيه كأنه منكوس على رأسه فهي أقبح هيئة للإنسان، وكذلك هذا هو في أسوأ حالات النظر، فقالوا لإبراهيم حين نكسوا في حيرتهم: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ أي فما بالك تدعو إلى ذلك»[1].

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرًا عن قوم إبراهيم حين قال لهم ما قال: ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي بالملامة في عدم احترازهم وحراستهم لآلهتهم فقالوا: ﴿إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي في تركهم لها مهملة لا حافظ عندها ﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ أي ثم أطرقوا في الأرض فقالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ قال قتادة: أدركت القوم حيرة سوء فقالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ وقال السدي: ﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ أي في الفتنة. وقال ابن زيد: أي في الرأي.

(١) المحرر الوجيز (٤/ ٨٨).

وقول قتادة أظهر في المعنى؛ لأنهم إنما فعلوا ذلك حيرة وعجزا، ولهذا قالوا له: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ فكيف تقول لنا سلوهم إن كانوا ينطقون، وأنت تعلم أنها لا تنطق»[١].

قال السعدي: «﴿فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: ثابت عليهم عقولهم، ورجعت إليهم أحلامهم، وعلموا أنهم ضالون في عبادتها، وأقروا على أنفسهم بالظلم والشرك، ﴿فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ فحصل بذلك المقصود، ولزمتهم الحجة بإقرارهم أن ما هم عليه باطل وأن فعلهم كفر وظلم، ولكن لم يستمروا على هذه الحالة، ولكن ﴿نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ أي: انقلب الأمر عليهم، وانتكست عقولهم وضلت أحلامهم، فقالوا لإبراهيم: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ فكيف تتهكم بنا وتستهزئ بنا، وتأمرنا أن نسألها وأنت تعلم أنها لا تنطق؟»[٢].

* * *

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣٤٤).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٤٣).

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: قال إبراهيم لقومه: أفتعبدون أيها القوم ما لا ينفعكم شيئًا ولا يضركم، وأنتم قد علمتم أنها لم تمنع نفسها ممن أرادها بسوء، ولا هي تقدر أن تنطق إن سئلت عمن يأتيها بسوء فتخبر به، أفلا تستحيون من عبادة ما كان هكذا.. وقوله: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ﴾ يقول: قبحا لكم وللآلهة التي تعبدون من دون اللَّه، أفلا تعقلون قبح ما تفعلون من عبادتكم ما لا يضر ولا ينفع، فتتركوا عبادته، وتعبدوا اللَّه الذي فطر السموات والأرض، والذي بيده النفع والضر»[1].

قال ابن كثير: «أي إذا كانت لا تنطق وهي لا تنفع ولا تضر، فلم تعبدونها من دون الله؟ ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ أي: أفلا تتدبرون ما أنتم فيه من الضلال والكفر الغليظ، الذي لا يروج إلا على جاهل ظالم فاجر؟ فأقام عليهم الحجة، وألزمهم بها، ولهذا قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾[2] الآية»[3].

قال الزمخشري: ﴿أُفٍّ﴾ صوت إذا صوت به علم أن صاحبه متضجر أضجره ما رأى من ثباتهم على عبادتها بعد انقطاع عذرهم وبعد وضوح الحق وزهوق الباطل فتأفف بهم. واللام لبيان المتأفف به. أي: لكم ولآلهتكم هذا التأفف»[4].

قال ابن عاشور: «فلما اعترفوا بأن الأصنام لا تستطيع النطق انتهز إبراهيم الفرصة لإرشادهم مفرعا على اعترافهم بأنها لا تنطق استفهاما إنكاريا على عبادتهم إياها وزائدا بأن تلك الأصنام لا تنفع ولا تضر. وجعل عدم استطاعتها النفع والضر

(١) جامع البيان (١٧/ ٤٢-٤٣).
(٢) الأنعام: الآية (٨٣).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣٤٥).
(٤) الكشاف (٢/ ٥٧٧).

ملزوما لعدم النطق لأن النطق هو واسطة الإفهام، ومن لا يستطيع الإفهام تبين أنه معدوم العقل وتوابعه من العلم والإرادة والقدرة.

و(أف) اسم فعل دال على الضجر وهو منقول من صورة تنفس المتضجر لضيق نفسه من الغضب. وتنوين (أف) يسمى تنوين التنكير والمراد به التعظيم أي ضجرا قويا لكم»[1].

* * *

(١) التحرير والتنوير (١٧/ ١٠٤).

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: قال بعض قوم إبراهيم لبعض: حرقوا إبراهيم بالنار ﴿وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ يقول: إن كنتم ناصريها، ولم تريدوا ترك عبادتها.. وقوله: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ في الكلام متروك اجتزئ بدلالة ما ذكر عليه منه وهو: فأوقدوا له نارا ليحرقوه ثم ألقوه فيها، فقلنا للنار: يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم، وذكر أنهم لما أرادوا إحراقه بنوا له بنيانا»[1].

قال ابن عطية: «وقد أكثر الناس في قصص حرق إبراهيم، وذكروا تحديد مدة بقائه في النار وصورة بقائه ما رأيت اختصاره لقلة صحته، والصحيح من ذلك أنه ألقي في النار فجعلها اللّه تعالى عليه ﴿بَرْدًا وَسَلَٰمًا﴾ فخرج منها سالما وكانت أعظم آية»[2].

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أن نبيه إبراهيم -عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام- لما أفحم قومه الكفرة بالبراهين والحجج القاطعة، لجؤوا إلى استعمال القوة فقالوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ أي بقتلكم عدوها إبراهيم شر قتلة، وهي الإحراق بالنار.

ولم يذكر هنا أنهم أرادوا قتله بغير التحريق: ولكنه تعالى ذكر في سورة العنكبوت أنهم ﴿قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾[3] وذلك في قوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ

---

(١) جامع البيان (١٧/ ٤٣).
(٢) المحرر الوجيز (٤/ ٨٨-٨٩).
(٣) العنكبوت: الآية (٢٤).

﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾[1] الآية .

وقد جرت العادة بأن المبطل إذا أفحم بالدليل لجأ إلى ما عنده من القوة ليستعملها ضد الحق .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ أي إن كنتم ناصرين آلهتكم نصرا مؤزرا . فاختاروا له أفظع قتلة ، وهي الإحراق بالنار . وإلا فقد فرطتم في نصرها .

قوله تعالى : ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ في الكلام حذف دل المقام عليه ، وتقديره : قالوا حرقوه فرموه في النار ، فلما فعلوا ذلك ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا﴾ . وقد بين في الصافات أنهم لما أرادوا أن يلقوه في النار بنوا له بنيانا ليلقوه فيه .

وفي القصة : أنهم ألقوه من ذلك البنيان العالي بالمنجنيق بإشارة رجل من أعراب فارس (يعنون الأكراد) ، وأن اللّه خسف به الأرض ، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة ، قال تعالى : ﴿قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾﴾[2] . والمفسرون يذكرون من شدة هذه النار وارتفاع لهبها ، وكثرة حطبها شيئًا عظيما هائلا . وذكروا عن نبي اللّه إبراهيم أنهم لما كتفوه مجردا ورموه إلى النار ، قال له جبريل : هل لك حاجة؟ قال : أما إليك فلا ، وأما اللّه فنعم! قال : لم لا تسأله؟ قال : علمه بحالي كاف عن سؤالي[3] .

وما ذكر اللّه -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة : من أنه أمر النار بأمره الكوني القدري أن تكون بردا وسلاما على إبراهيم يدل على أنه أنجاه من تلك النار . لأن قوله تعالى : ﴿كُونِى بَرْدًا﴾ يدل على سلامته من حرها . وقوله : ﴿وَسَلَٰمًا﴾ يدل على سلامته من شر بردها الذي انقلبت الحرارة إليه . وانجاؤه إياه منها الذي دل عليه أمره الكوني القدري هنا جاء مصرحا به في العنكبوت في قوله تعالى : ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[4] وأشار إلى ذلك هنا بقوله : ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا﴾[5] الآية .

---

(١) العنكبوت : الآية (٢٤).
(٢) الصافات : الآية (٩٧).
(٣) لا أصل له ، انظر الضعيفة (رقم٢١).
(٤) العنكبوت : الآية (٢٤).
(٥) الأنبياء : الآية (٧١).

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَأَرَادُوا بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾[١] يوضحه ما قبله. فالكيد الذي أرادوه به إحراقه بالنار نصرا منهم لآلهتهم في زعمهم، وجعله تعالى إياهم الأخسرين. أي الذين هم أكثر خسرانا لبطلان كيدهم وسلامته من نارهم.

وقد أشار تعالى إلى ذلك أيضًا في سورة الصافات في قوله: ﴿فَأَرَادُوا بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾[٢] وكونهم الأسفلين واضح لعلوه عليهم وسلامته من شرهم. وكونهم الأخسرين لأنهم خسروا الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين. وفي القصة: . . . أن كل الدواب تطفئ عن إبراهيم النار، إلا الوزغ فإنه ينفخ النار عليه»[٣].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في عداوة الوزغ للتوحيد وما أكثر الوزغ في هذا الزمان الذين ينفخون في الشرك ضد التوحيد وفي البدعة ضد السنة

* عن ابن عباس ﵄ قال: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾[٤] قالها إبراهيم ﵇ حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾[٥].

* وعنه ﵁ قال: كان آخر قول إبراهيم حين ألقي في النار: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾[٦].

★ **فوائد الحديثين:**

قال الشيخ ابن عثيمين: «هذه الكلمة: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ قالها إبراهيم حينما ألقي في النار، وذلك أن إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- دعا قومه إلى عبادة اللَّه وحده لا شريك له، وأبوا وأصروا على الكفر والشرك.

فقام ذات يوم على أصنامهم فكسرها وجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم، فلما وجدوا آلهتهم قد كسرت فانتقموا والعياذ باللَّه لأنفسهم.

---

(١) الأنبياء: الآية (٧٠). (٢) الصافات: الآية (٩٨).
(٣) أضواء البيان (٤/ ٥٨٧-٥٨٩). (٤) آل عمران: الآية (١٧٣).
(٥) أخرجه: البخاري (٨/ ٢٨٩/ ٤٥٦٣) والنسائي في الكبرى (٦/ ٣١٦/ ١١٠٨١).
(٦) أخرجه البخاري (٨/ ٢٨٩-٢٩٠/ ٤٥٦٤).

فقالوا ماذا نصنع بإبراهيم؟ ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ﴾ انتصارا لآلهتهم ﴿وَانصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾. فأوقدوا نارا عظيمة جدا ثم رموا إبراهيم في هذه النار. ويقال إنهم لعظم النار لم يتمكنوا من القرب منها وأنهم رموا إبراهيم فيها بالمنجنيق من بعد. فلما رموه قال: ﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾ فما الذي حدث؟

قال اللَّه تعالى: ﴿قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ۝٦٩﴾ بردًا ضد حر، وسلامًا ضد هلاك لأن النار حارة ومحرقة مهلكة، فأمر اللَّه هذه النار أن تكون بردا وسلاما عليه فكانت بردا وسلاما.

والمفسرون بعضهم ينقل عن بني إسرائيل في هذه القصة أن اللَّه لما قال: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ صارت جميع نيران الدنيا بردا.

وهذا ليس بصحيح لأن اللَّه وجه الخطاب إلى نار معينة ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا﴾ وعلماء النحو يقولون أنه إذا جاء التركيب على هذا الوجه صار نكرة مقصودة أي: لا يشمل كل نار، بل هو للنار التي ألقي فيها إبراهيم فقط، وهذا هو الصحيح، وبقية نيران الدنيا بقيت على ما هي عليه.

وقال العلماء أيضا: ولما قال الله: ﴿كُونِي بَرۡدٗا﴾ قرن ذلك بقوله: كوني ﴿سَلَٰمًا﴾ لأنه لو اكتفى بقوله: ﴿بَرۡدٗا﴾ لكانت بردا حتى تهلكه؛ لأن كل شيء يمتثل لأمر اللَّه ﷻ.

انظر إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا﴾ فماذا قالتا: ﴿قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾[1] منقادين لأمر الله»[2].

* عن سائبة مولاة الفاكه بن المغيرة أنها دخلت على عائشة فرأت في بيتها رمحا موضوعا. فقالت: يا أم المؤمنين ما تصنعين بهذا؟ قالت: نقتل به هذه الأوزاغ. فإن نبي اللَّه ﷺ أخبرنا أن إبراهيم لما ألقي في النار لم تكن في الأرض دابة إلا أطفأت النار غير الوزغ، فإنها كانت تنفخ عليه. فأمر رسول اللَّه ﷺ بقتله[3].

★ **غريب الحديث:**

الوزغ: جمع وزغة، وهي دويبة معروفة من الزواحف.

---

(١) فصلت: الآية (١١). (٢) شرح رياض الصالحين (٢/ ٥١٤-٥١٦).

(٣) أخرجه: أحمد (٦/ ٨٣ و١٠٩) ابن ماجه (٢/ ١٠٧٦/ ٣٢٣١) قال في الزوائد: «إسناد حديث عائشة صحيح ورجاله ثقات». وصححه ابن حبان (الإحسان ١٢/ ٤٤٧/ ٥٦٣١).

* عن أم شريك أن رسول اللَّه ﷺ أمر بقتل الوزغ، وقال: «كان ينفخ على إبراهيم عليه السلام»[(١)].

★ فوائد الحديثين:

قال القرطبي: «وأمره ﷺ بقتله لما يحصل منه من الضرر والأذى الذي هي عليه من الاستقذار المعتاد، والنفرة المألوفة؛ التي قد لازمت الطباع، ولما يتقى أن يكون فيها سم؛ أو شيء يضر متناوله، ولما روي: من أنها أعانت على وقود نار إبراهيم عليه السلام؛ فإنها كانت تنفخ فيه ليشتعل»[(٢)].

وقال النووي: «واتفقوا على أن الوزغ من الحشرات المؤذيات وجمعه أوزاغ ووزغان، وأمر النبي ﷺ بقتله وحث عليه ورغب فيه لكونه من المؤذيات، وأما سبب تكثير الثواب في قتله بأول ضربة ثم ما يليها[(٣)] فالمقصود به الحث على المبادرة بقتله والاعتناء به وتحريض قاتله على أن يقتله بأول ضربة، فإنه إذا أراد أن يضربه ضربات ربما انفلت وفات قتله»[(٤)].

وقال المناوي: «قال البيضاوي: قوله: «كان ينفخ على إبراهيم» بيان لخبث هذا النوع وفساده، وأنه بلغ في ذلك مبلغا استعمله الشيطان فحمله على أن ينفخ في النار التي ألقي فيها الخليل، وسعى في اشتعالها، وهو في الجملة من ذوات السموم المؤذية»[(٥)].

وقال الشوكاني: «قوله: «وكان ينفخ على إبراهيم» أي: في النار، وذلك لما جبل عليه طبعها من عداوة نوع الإنسان»[(٦)].

* * *

---

(١) أخرجه: عبد بن حميد (١٥٥٩) والبيهقي في السنن الكبرى (٩/ ٣١٦) والبغوي في شرح السنة (١٢/ ١٩٦-١٩٧/ ٣٢٦٧) وأخرجه: أحمد (٦/ ٤٢١) والبخاري (٦/ ٤٣٢/ ٣٣٠٧) ومسلم (٤/ ١٧٥٧/ ٢٢٣٧) والنسائي (٥/ ٢٢٩-٢٣٠/ ٢٨٨٥) وابن ماجه (٢/ ١٠٧٦/ ٣٢٢٨) بدون زيادة: «كان ينفخ على إبراهيم عليه السلام».

(٢) المفهم (٥/ ٥٣٩).

(٣) يشير إلى ما رواه أحمد (٢/ ٣٥٥)، ومسلم (٤/ ١٧٥٨/ ٢٢٤٠)، وأبو داود (٥/ ٢٦١/ ٥٢٦٣)، والترمذي (٤/ ٧٦/ ١٤٨٢)، وابن ماجه (٢/ ١٠٧٦/ ٣٢٢٩)، كلهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) شرح مسلم (١٤/ ١٩٨).

(٥) فيض القدير (٢/ ٥٩).

(٦) نيل الأوطار (٨/ ١٢٦).

قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ۝٧١﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ونجينا إبراهيم ولوطا من أعدائهما، نمرود وقومه من أرض العراق ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ﴾ وهي أرض الشام فارق صلوات اللَّه عليه قومه ودينهم وهاجر إلى الشام.

وهذه القصة التي قص اللَّه من نبأ إبراهيم وقومه تذكير منه بها قوم محمد ﷺ من قريش أنهم قد سلكوا في عبادتهم الأوثان وأذاهم محمدا على نهيه عن عبادتها ودعاهم إلى عبادة اللَّه مخلصين له الدين، مسلك أعداء أبيهم إبراهيم، ومخالفتهم دينه، وأن محمدا في براءته من عبادتها وإخلاصه العبادة لله، وفي دعائهم إلى البراءة من الأصنام، وفي الصبر على ما يلقى منهم في ذلك سالك منهاج أبيه إبراهيم، وأنه مخرجه من بين أظهرهم كما أخرج إبراهيم من بين أظهر قومه حين تمادوا في غيهم إلى مهاجره من أرض الشام، ومسل بذلك نبيه محمدا ﷺ عما يلقى من قومه من المكروه والأذى، ومعلمه أنه منجيه منهم كما نجى أباه إبراهيم من كفرة قومه»[١].

وقال أيضا: «و إنما اخترنا ما اخترنا من القول في ذلك لأنه لا خلاف بين جميع أهل العلم أن هجرة إبراهيم من العراق كانت إلى الشام، وبها كان مقامه أيام حياته، وإن كان قد كان قدم مكة، وبنى بها البيت، وأسكنه إسماعيل ابنه مع أمه هاجر، غير أنه لم يقم بها ولم يتخذها وطنا لنفسه، ولا لوط، واللَّه إنما أخبر عن إبراهيم ولوط أنهما أنجاهما إلى الأرض التي بارك فيها للعالمين»[٢].

قال ابن عطية: «واختلف الناس في ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ التي بورك فيها، ولجأ إليها إبراهيم ولوط عليهما السلام، فقالت فرقة: هي مكة، وذكروا قول اللَّه تعالى: ﴿لَلَّذِى بِبَكَّةَ

---

(١) جامع البيان (١٧/ ٤٥-٤٦).

(٢) جامع البيان (١٧/ ٤٧).

﴿مُبَارَكًا﴾[١]، وقال الجمهور: من أرض الشام، وهي الأرض التي بارك فيها، أما من جهة الآخرة فبالنبوءة، وأما من جهة الدنيا فهي أطيب بلاد اللَّه أرضا وأعذبها ماء وأكثرها ثمرة ونعمة، وهو الموضع المعروف بسكنى إبراهيم وعقبه.

وروي أنه ليس في الأرض ماء عذب إلا وأصله وخروجه من تحت صخرة بيت المقدس، وهذا ضعيف، وهي أرض المحشر، وبها مجمع الناس، وبها ينزل عيسى ابن مريم، وبها يهلك المسيح الدجال»[٢].

قال ابن عاشور: «هذه نجاة ثانية بعد نجاته من ضر النار، هي نجاته من الحلول بين قوم عدو له كافرين بربه وربهم، وهي نجاة من دار الشرك وفساد الاعتقاد. وتلك بأن سهل اللَّه له المهاجرة من بلاد «الكلدان» إلى أرض «فلسطين» وهي بلاد «كنعان».

وهجرة إبراهيم هي أول هجرة في الأرض لأجل الدين. واستصحب إبراهيم معه لوطا ابن أخيه (هاران) لأنه آمن بما جاء به إبراهيم. وكانت سارة امرأة إبراهيم معهما، وقد فهمت معيتها من أن المرء لا يهاجر إلا ومعه امرأته»[٣].

قال الشنقيطي: «وهذه الآية الكريمة تشير إلى هجرة إبراهيم ومعه لوط من أرض العراق إلى الشام فرارا بدينهما.

وقد أشار تعالى إلى ذلك في غير هذا الموضع. كقوله في العنكبوت: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ﴾[٤] الآية، وقوله في الصافات: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ٩٩﴾[٥] على أظهر القولين؛ لأنه فار إلى ربه بدينه من الكفار. وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ٩٩﴾: هذه الآية أصل في الهجرة والعزلة، وأول من فعل ذلك إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وذلك حين خلصه اللَّه من النار قال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ أي مهاجر من بلد قومي ومولدي، إلى حيث أتمكن من عبادة ربي ﴿فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ﴾[٦] فيما نويت إلى الصواب. وما أشار إليه -جل

(١) آل عمران: الآية (٩٦).
(٢) المحرر الوجيز (٤/ ٨٩).
(٣) التحرير والتنوير (١٧/ ١٠٨).
(٤) العنكبوت: الآية (٢٦).
(٥) الصافات: الآية (٩٩).
(٦) الزخرف: الآية (٢٧).

وعلا- من أنه بارك العالمين في الأرض المذكورة، التي هي الشام على قول الجمهور في هذه الآية بقوله: ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾ بينه في غير هذا الموضع. كقوله: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾[1] الآية، وقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾[2] الآية. ومعنى كونه (بارك فيها). هو ما جعل فيها من الخصب والأشجار والأنهار والثمار. كما قال تعالى: ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾[3] ومن ذلك أنه بعث أكثر الأنبياء منها.

وقال بعض أهل العلم: ومن ذلك أن كل ماء عذب أصل منبعه من تحت الصخرة التي عند بيت المقدس. وجاء في ذلك حديث مرفوع، والظاهر أنه لا يصح. وفي قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾[4] أقوال أخر تركناها لضعفها في نظرنا.

وفي هذه الآية الكريمة دليل على أن الفرار بالدين من دار الكفر إلى بلد يتمكن فيه الفار بدينه من إقامة دينه واجب. وهذا النوع من الهجرة وجوبه باق بلا خلاف بين العلماء في ذلك»[5].

* * *

(١) الأنبياء: الآية (٨١).

(٢) الإسراء: الآية (١).

(٣) الأعراف: الآية (٩٦).

(٤) الأنبياء: الآية (٧١).

(٥) أضواء البيان (٤/ ٥٩٠-٥٩١).

قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾﴾

★ غريب الآية:

نافلة: زيادة. وقيل: عطية خاصة. ومنه نافلة الصلاة، لأنها زيادة على ما فرض قال كعب يمدح النبي ﷺ:

مَهْلًا هَدَاكَ الذي أَعطاكَ نافِلَةَ الْـ ... قُرْآنِ فيهَا مَوَاعِيظُ وَتَفْصِيلُ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى بعد ذكره لإنعامه على إبراهيم وعلى لوط بأن نجاهما إلى الأرض المباركة أتبعه بذكر غيره من النعم، وإنما جمع بينهما لأن في كون لوط معه مع ما كان بينهما من القرابة والشركة في النبوة مزيد إنعام، ثم إنه سبحانه ذكر النعم التي أفاضها على إبراهيم ﷺ ثم النعم التي أفاضها على لوط، أما الأول فمن وجوه؛ أحدها: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ واعلم أن النافلة العطية خاصة، وكذلك النفل ويسمى الرجل الكثير العطايا نوفلا، ثم للمفسرين ههنا قولان: الأول: أنه ههنا مصدر من وهبنا له مصدر من غير لفظه ولا فرق بين ذلك، وبين قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ﴾ هبة أي وهبناهما له عطية وفضلا من غير أن يكون جزاء مستحقا، وهذا قول مجاهد وعطاء. والثاني: وهو قول أبي بن كعب وابن عباس وقتادة والفراء والزجاج: أن إبراهيم ﷺ لما سأل الله ولدا قال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾[1] فأجاب الله دعاءه: ووهب له إسحاق، وأعطاه يعقوب من غير دعائه، فكان ذلك: ﴿نَافِلَةً﴾ كالشيء المتطوع به من الآدميين فكأنه قال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ﴾ إجابة لدعائه، ووهبنا له يعقوب نافلة على ما سأل كالصلاة النافلة التي هي زيادة على الفرض، وعلى هذا النافلة يعقوب خاصة.

(١) الصافات: الآية (١٠٠).

والوجه الأول: أقرب لأنه تعالى جمع بينهما، ثم ذكر قوله: ﴿نَافِلَةً﴾ فإذا صلح أن يكون وصفا لهما فهو أولى.

النعمة الثانية: قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ أي وكلا من إبراهيم وإسحق ويعقوب أنبياء مرسلين، هذا قول الضحاك، وقال آخرون عاملين بطاعة اللَّه ﷻ مجتنبين محارمه.

والوجه الثاني: أقرب لأن لفظ الصلاح يتناول الكل لأنه سبحانه قال بعد هذه الآية: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾»[1].

قال السعدي: «﴿وَوَهَبْنَا لَهُ﴾ حين اعتزل قومه ﴿إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ ابن إسحاق ﴿نَافِلَةً﴾ بعدما كبر، وكانت زوجته عاقرًا، فبشرته الملائكة بإسحاق، ﴿وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾[2] ويعقوب، هو إسرائيل، الذي كانت منه الأمة العظيمة، وإسماعيل بن إبراهيم، الذي كانت منه الأمة الفاضلة العربية، ومن ذريته، سيد الأولين والآخرين. ﴿وَكُلًّا﴾ من إبراهيم وإسحاق ويعقوب ﴿جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ أي: قائمين بحقوقه، وحقوق عباده»[3].

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أنه وهب لإبراهيم ابنه إسحاق، وابن ابنه يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، وأنه جعل الجميع صالحين. وقد أوضح البشارة بهما في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: ﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾[4]، وقوله: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾[5]. وقد أشار تعالى في سورة مريم إلى أنه لما هجر الوطن والأقارب عوضه اللَّه من ذلك قرة العين بالذرية الصالحة، وذلك في قوله: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾﴾[6].

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿نَافِلَةً﴾ قال فيه ابن كثير: قال عطاء ومجاهد: نافلة عطية. وقال ابن عباس وقتادة والحكم بن عتيبة: النافلة: ولد الولد، يعني أن يعقوب ولد إسحاق.

---

(١) التفسير الكبير (٢٢/ ١٩١-١٩٢).
(٢) هود: الآية (٧١).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٤٥).
(٤) هود: الآية (٧١).
(٥) الصافات: الآية (١١٢).
(٦) مريم: الآية (٤٩).

قال مقيده -عفا اللَّه عنه وغفر له- : أصل النافلة في اللغة : الزيادة على الأصل ، ومنه النوافل في العبادات ، لأنها زيادات على الأصل الذي هو الفرض . وولد الولد زيادة على الأصل ، الذي هو ولد الصلب ، ومن ذلك قول أبي ذؤيب الهذلي :

فإن تك أنثى من معد كريمة   علينا فقد أعطيت نافلة الفضل

أي أعطيت الفضل عليها والزيادة علينا ، كما هو التحقيق في معنى بيت أبي ذؤيب هذا ، وكما شرحه به أبو سعيد الحسن بن الحسين السكري في شرحه لأشعار الهذليين . وبه تعلم أن إيراد صاحب اللسان بيت أبي ذؤيب المذكور مستشهدا به لأن النافلة الغنيمة غير صواب ، بل هو غلط . مع أن الأنفال التي هي الغنائم راجعة في المعنى إلى معنى الزيادة ، لأنها زيادة تكريم أكرم اللَّه بها هذا النبي الكريم فأحلها له ولأمته . أو لأن الأموال المغنومة أموال أخذوها زيادة على أموالهم الأصلية بلا تمن»[1] .

* * *

(١) أضواء البيان (٤/ ٥٩١-٥٩٢).

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «اعلم أنه سبحانه وصفهم أولا بالصلاح لأنه أول مراتب السائرين إلى اللَّه تعالى ثم ترقى فوصفهم بالإمامة. ثم ترقى فوصفهم بالنبوة والوحي. وإذا كان الصلاح الذي هو العصمة أول مراتب النبوة دل ذلك على أن الأنبياء معصومون فإن المحروم عن أول المراتب أولى بأن يكون محروما عن النهاية، ثم إنه سبحانه كما بين أصناف نعمه عليهم بين بعد ذلك اشتغالهم بعبوديته فقال: ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ كأنه ﷻ لما وفى بعهد الربوبية في الإحسان والإنعام فهم أيضًا وفوا بعهد العبودية وهو الاشتغال بالطاعة والعبادة»[1].

قال السعدي: «ومن صلاحهم، أنه جعلهم أئمة يهدون بأمره، وهذا من أكبر نعم اللَّه على عبده أن يكون إماما يهتدي به المهتدون، ويمشي خلفه السالكون، وذلك لما صبروا، وكانوا بآيات اللَّه يوقنون.

وقوله: ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ أي: يهدون الناس بديننا، لا يأمرون بأهواء أنفسهم، بل بأمر اللَّه ودينه، واتباع مرضاته، ولا يكون العبد إماما حتى يدعو إلى أمر اللَّه.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ يفعلونها ويدعون الناس إليها، وهذا شامل لجميع الخيرات كلها، من حقوق اللَّه وحقوق العباد.

﴿وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ هذا من باب عطف الخاص على العام، لشرف هاتين العبادتين وفضلهما، ولأن من كملهما كما أمر، كان قائما بدينه، ومن ضيعهما، كان لما سواهما أضيع، ولأن الصلاة أفضل الأعمال، التي فيها حقه،

---

(١) التفسير الكبير (٢٢/ ١٩٣).

والزكاة أفضل الأعمال، التي فيها الإحسان لخلقه.

﴿وَكَانُوا لَنَا﴾ أي: لا لغيرنا ﴿عَٰبِدِينَ﴾ أي: مديمين على العبادات القلبية والقولية والبدنية في أكثر أوقاتهم، فاستحقوا أن تكون العبادة وصفهم، فاتصفوا بما أمر اللَّه به الخلق، وخلقهم لأجله»[1].

قال ابن عاشور: «وتخصيص إقام الصلاة وإيتاء الزكاة بالذكر بعد شمول الخيرات إياهما تنويه بشأنهما لأن بالصلاة صلاح النفس إذ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وبالزكاة صلاح المجتمع لكفاية عوز المعوزين. وهذا إشارة إلى أصل الحنيفية التي أرسل بها إبراهيم ﷺ.

ومعنى الوحي بفعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة أنه أوحي إليهم الأمر بذلك كما هو بين.

ثم خصهم بذكر ما كانوا متميزين به على بقية الناس من ملازمة العبادة لله تعالى كما دل عليه فعل الكون المفيد تمكن الوصف، ودلت عليه الإشارة بتقديم المجرور إلى أنهم أفردوا اللَّه بالعبادة فلم يعبدوا غيره قط كما تقتضيه رتبة النبوءة من العصمة عن عبادة غير اللَّه من وقت التكليف كما قال يوسف: ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾[2] وقال تعالى في الثناء عن إبراهيم: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[3]»[4].

قال الشنقيطي: «الضمير في قوله: ﴿جَعَلْنَٰهُمْ﴾ يشمل كل المذكورين: إبراهيم، ولوطا وإسحاق، ويعقوب، كما جزم به أبو حيان في البحر المحيط، وهو الظاهر.

وقد دلت هذه الآية الكريمة على أن اللَّه جعل إسحاق ويعقوب من الأئمة، أي جعلهم رؤساء في الدين يقتدى بهم في الخيرات وأعمال الطاعات وقوله: ﴿بِأَمْرِنَا﴾ أي بما أنزلنا عليهم من الوحي والأمر والنهي، أو يهدون الناس إلى ديننا بأمرنا إياهم، بإرشاد الخلق ودعائهم إلى التوحيد.

وهذه الآية الكريمة تبين أن طلب إبراهيم الإمامة لذريته المذكور في سورة البقرة

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٤٥-٢٤٦).

(٢) يوسف: الآية (٣٨).

(٣) آل عمران: الآية (٦٧).

(٤) التحرير والتنوير (١٧/ ١١١).

أجابه اللَّه فيه بالنسبة إلى بعض ذريته دون بعضها، وضابط ذلك: أن الظالمين من ذريته لا ينالون الإمامة بخلاف غيرهم؛ كإسحاق ويعقوب فإنهم ينالونها كما صرح به تعالى في قوله هنا: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً﴾. وطلب إبراهيم هو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1]. فقوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ أي واجعل من ذريتي أئمة يقتدى بهم في الخير. فأجابه اللَّه بقوله: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: لا ينال الظالمين عهدي بالإمامة؛ على الأصوب. ومفهوم قوله: ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أن غيرهم يناله عهده بالإمامة، كما صرح به هنا. وهذا التفصيل المذكور في ذرية إبراهيم أشار له تعالى في الصافات بقوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾[2] وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ أي أن يفعلوا الطاعات، ويأمروا الناس بفعلها. وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة من جملة الخيرات، فهو من عطف الخاص على العام. وقد قدمنا مرارا النكتة البلاغية المسوغة للإطناب في عطف الخاص على العام. وعكسه في القرآن. فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

وقوله: ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ أي: مطيعين باجتناب النواهي وامتثال الأوامر بإخلاص. فهم يفعلون ما يأمرون الناس به، ويجتنبون ما ينهونهم عنه. كما قال نبي اللَّه شعيب: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾[3] الآية. وقوله: ﴿أَئِمَّةً﴾ معلوم أنه جمع إمام، والإمام: هو المقتدى به، ويطلق في الخير كما هنا، وفي الشر كما في قوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾[4] الآية»[5].

* * *

(١) البقرة: الآية (١٢٤).

(٢) الصافات: الآية (١١٣).

(٣) هود: الآية (٨٨).

(٤) القصص: الآية (٤١).

(٥) أضواء البيان (٤/ ٥٩٢-٥٩٣).

قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «عطف بذكر لوط وهو لوط بن هاران بن آزر، كان قد آمن بإبراهيم عليه السلام واتبعه وهاجر معه، كما قال تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾[1] فآتاه اللَّه حكما وعلما وأوحى إليه، وجعله نبيا، وبعثه إلى سدوم وأعمالها، فخالفوه وكذبوه، فأهلكهم اللَّه ودمر عليهم، كما قص خبرهم في غير موضع من كتابه العزيز ولهذا قال: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ * وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾»[2].

قال السعدي: «هذا ثناء من اللَّه على رسوله (لوط) عليه السلام بالعلم الشرعي، والحكم بين الناس، بالصواب والسداد، وأن اللَّه أرسله إلى قومه، يدعوهم إلى عبادة اللَّه، وينهاهم عما هم عليه من الفواحش، فلبث يدعوهم، فلم يستجيبوا له، فقلب اللَّه عليهم ديارهم وعذبهم عن آخرهم لأنهم ﴿قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ﴾ كذبوا الداعي، وتوعدوه بالإخراج، ونجى اللَّه لوطا وأهله، فأمره أن يسري بهم ليلا ليبعدوا عن القرية، فسروا ونجوا، من فضل اللَّه عليهم ومنته.

﴿وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ﴾ التي من دخلها، كان من الآمنين، من جميع المخاوف، النائلين كل خير وسعادة، وبر وسرور وثناء، وذلك لأنه من الصالحين، الذين صلحت أعمالهم وزكت أحوالهم، وأصلح اللَّه فاسدهم، والصلاح هو السبب لدخول العبد برحمة اللَّه، كما أن الفساد سبب لحرمانه الرحمة والخير، وأعظم

(١) العنكبوت: الآية (٢٦).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣٤٨).

الناس صلاحا الأنبياء عليهم السلام، ولهذا يصفهم بالصلاح، وقال سليمان ﷺ: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ۝١٩﴾[1]»[2].

قال الشنقيطي: «قوله: ﴿وَلُوطًا﴾ منصوب بفعل مضمر وجوبًا يفسر ﴿آتَيْنَاهُ﴾ كما قال في الخلاصة:

فالسابق انصبه بفعل أضمرا　　　حتما موافق لما قد أظهرا

قال القرطبي في تفسير هذه الآية: الحكم: النبوة. والعلم: المعرفة بأمر الدين، وما يقع به الحكم بين الخصوم. وقيل: علمًا فهمًا. وقال الزمخشري: حكمًا: حكمة، وهو ما يجب فعله، أو فصلا بين الخصوم، وقيل: هو النبوة.

قال مقيده عفا الله عنه: أصل الحكم في اللغة: المنع كما هو معروف. فمعنى الآيات: أن الله آتاه من النبوة والعلم ما يمنع أقواله وأفعاله من أن يعتريها الخلل. والقرية التي كانت تعمل الخبائث: هي سدوم وأعمالها، والخبائث التي كانت تعملها جاءت موضحة في آيات من كتاب الله: منها اللواط، وأنهم هم أول من فعله من الناس، كما قال تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾[3]، وقال: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ۝١٦٥ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ۝١٦٦﴾[4]. ومن الخبائث المذكورة إتيانهم المنكر في ناديهم، وقطعهم الطريق، كما قال تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾[5] الآية. ومن أعظم خبائثهم: تكذيب نبي الله لوط وتهديدهم له بالإخراج من الوطن. كما قال تعالى عنهم: ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ۝١٦٧﴾[6]، وقال تعالى: ﴿۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ۝٥٦﴾[7] إلى غير ذلك من الآيات. وقد بين الله في مواضع متعددة من كتابه: أنه أهلكهم فقلب بهم بلدهم، وأمطر عليهم حجارة من سجيل، كما قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ

---

(١) النمل: الآية (١٩).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٤٧).
(٣) الأعراف: الآية (٨٠).
(٤) الشعراء: الآيتان (١٦٥و١٦٦).
(٥) العنكبوت: الآية (٢٩)
(٦) الشعراء: الآية (١٦٧).
(٧) النمل: الآية (٥٦).

حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾﴾[١] والآيات بنحو ذلك كثيرة. والخبائث: جمع خبيثة، وهي الفعلة السيئة كالكفر واللواط وما جرى مجرى ذلك.

وقوله: ﴿قَوْمَ سَوْءٍ﴾ أي أصحاب عمل سيئ، ولهم عند اللَّه جزاء يسوءهم: وقوله: ﴿فَٰسِقِينَ﴾ أي خارجين عن طاعة اللَّه. وقوله: ﴿وَأَدْخَلْنَٰهُ﴾ يعني لوطا ﴿فِي رَحْمَتِنَآ﴾ شامل لنجاته من عذابهم الذي أصابهم، وشامل لإدخاله إياه في رحمته التي هي الجنة، كما في الحديث الصحيح: «تحاجت النار والجنة»[٢] الحديث. وفيه: «فقال للجنة أنت رحمتي أرحم بها من أشاء من عبادي»»[٣].

* * *

(١) الحجر: الآية (٧٤).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٧٦) والبخاري (٨/ ٧٦٥/ ٤٨٥٠) ومسلم (٤/ ٢١٨٦/ ٢٨٤٦) والترمذي (٤/ ٥٩٨-٥٩٩/ ٢٥٦١) والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٦٨/ ١١٥٢٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) أضواء البيان (٤/ ٥٩٤-٥٩٥).

قوله تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٦ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٧٧﴾

★ **غريب الآية:**

الكرب: الغم الشديد. وأصل ذلك من كَرْبِ الأرضِ: أي حَفْرُهَا وَقَلْبُهَا، وكأن الغم يثير النفس إثارة ذلك.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: واذكر يا محمد نوحا إذ نادى ربه من قبلك، ومن قبل إبراهيم ولوط، وسألنا أن نهلك قومه الذين كذبوا اللّه فيما توعدهم به من وعيده، وكذبوا نوحا فيما أتاهم به من الحق من عند ربه ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ۝٢٦﴾[1] فاستجبنا له دعاءه، ونجيناه وأهله يعني بأهله: أهل الإيمان من ولده وحلائلهم ﴿مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ يعني بالكرب العظيم: العذاب الذي أحل بالمكذبين من الطوفان والغرق. والكرب: شدة الغم، يقال منه: قد كربني هذا الأمر فهو يكربني كربا وقوله: ﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ يقول: ونصرنا نوحا على القوم الذين كذبوا بحججنا وأدلتنا، فأنجيناه منهم، فأغرقناهم أجمعين، إنهم كانوا قوم سوء. يقول -تعالى ذكره- إن قوم نوح الذين كذبوا بآياتنا كانوا قوم سوء يسيئون الأعمال، فيعصون اللّه ويخالفون أمره»[2].

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن استجابته لعبده ورسوله نوح عليه السلام، حين دعا على قومه لما كذبوه ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ۝١٠﴾[3] ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ

---

(١) نوح: الآية (٢٦) (٢) جامع البيان (١٧/ ٥٠).
(٣) القمر: الآية (١٠).

ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾[1] ولهذا قال ههنا: ﴿إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ﴾ أي الذين آمنوا به كما قال: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[2] وقوله: ﴿مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي من الشدة والتكذيب والأذى، فإنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم إلى الله ﷻ، فلم يؤمن به منهم إلا القليل وكانوا يتصدون لأذاه، ويتواصون قرنا بعد قرن، وجيلا بعد جيل على خلافه. وقوله: ﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ﴾ أي ونجيناه وخلصناه منتصرا من القوم ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي أهلكهم الله بعامة، ولم يبق على وجه الأرض منهم أحدا، كما دعا عليهم نبيهم»[3].

قال الشنقيطي: «قوله: ﴿وَنُوحًا﴾ منصوب بـ(اذكر) مقدرا، أي واذكر نوحا حين نادى من قبل، أي من قبل إبراهيم ومن ذكر معه. ونداء نوح هذا المذكور هنا هو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾[4] وقد أوضح الله هذا النداء بقوله: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾﴾[6] الآية. والمراد بالكرب العظيم في الآية: الغرق بالطوفان الذي تتلاطم أمواجه كأنها الجبال العظام، كما قال تعالى: ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾[7]، وقال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾[8] الآية، إلى غير ذلك من الآيات. والكرب: هو أقصى الغم، والأخذ بالنفس.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ﴾[9] يعني إلا من سبق عليه القول من أهله بالهلاك مع الكفرة الهالكين، كما قال تعالى: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن

---

(١) نوح: الآيتان (٢٦و٢٧).
(٢) هود: الآية (٤٠).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣٤٨-٣٤٩).
(٤) الصافات: الآيات (٧٥-٧٧).
(٥) نوح: الآيتان (٢٦و٢٧).
(٦) القمر: الآيات (٩-١١).
(٧) هود: الآية (٤٢).
(٨) العنكبوت: الآية (١٥).
(٩) الأنبياء: الآية (٧٦).

﴿كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾[١] الآية. ومن سبق عليه القول منهم: ابنه المذكور في قوله: ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾[٢] وامرأته المذكورة في قوله: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾[٣]». اهـ[٤]

* * *

---

(١) هود: الآية (٤٠).

(٢) هود: الآية (٤٣).

(٣) التحريم: الآية (١٠).

(٤) أضواء البيان (٤/ ٥٩٥-٥٩٦).

قوله تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَـٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾

★ غريب الآية:

نفشت: تَفَرَّقَتْ وَانْتَشَرَتْ لترعى ليلا بلا راع. مِنْ نَفَشْتُ الصوفَ إذا بَتَتُّهَا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: واذكر داود وسليمان يا محمد إذ يحكمان في الحرث

واختلف أهل التأويل في ذلك الحرث ما كان؟ فقال بعضهم: كان نبتا.. وقال آخرون: بل كان ذلك الحرث كرما.. قال أبو جعفر: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب ما قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ﴾ والحرث: إنما هو حرث الأرض، وجائز أن يكون ذلك كان زرعا، وجائز أن يكون غرسا، وغير ضائر الجهل بأي ذلك كان.

وقوله: ﴿إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ﴾ يقول: حين دخلت في هذا الحرث غنم القوم الآخرين من غير أهل الحرث ليلا، فرعته أو أفسدته ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَـٰهِدِينَ﴾ يقول: وكنا لحكم داود وسليمان والقوم الذين حكما بينهم فيما أفسدت غنم أهل الغنم من حرث أهل الحرث شاهدين لا يخفى علينا منه شيء، ولا يغيب عنا علمه، وقوله: ﴿فَفَهَّمْنَـٰهَا﴾ يقول: ففهمنا القضية في ذلك ﴿سُلَيْمَـٰنَ﴾ دون داود ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ يقول: وكلهم من داود وسليمان والرسل الذين ذكرهم في أول هذه السورة آتينا حكما وهو النبوة، وعلما: يعني وعلما بأحكام الله»[1].

قال ابن العربي: «فيها ثماني عشرة مسألة:

---

(١) جامع البيان (١٧/ ٥٠-٥١).

المسألة الأولى: قوله: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ﴾ لم يرد إذ جمعهما في القول اجتماعهما في الحكم، فإن حاكمين على حكم واحد لا يجوز، كما قدمناه، وإنما حكم كل منهما على انفراد بحكم، وكان سليمان هو الفاهم لها.

المسألة الثانية: في دستور في قصص القرآن: وذلك أن اللَّه ذكر لرسوله ما جرى من الأمم وعليها، وأقوال الأنبياء وأفعالها، فأحسن القصص وهو أصدقه؛ فإن الإسرائليات ذكروها مبدلة وبزيادة باطلة موصولة، أو بنقصان محرف للمقصد منقولة، وما نقل من حديث نفش الغنم، وقضاء داود وسليمان فيها، انظروا إليه، فما وافق منه ظاهر القرآن فهو صحيح، وما خالفه فهو باطل، وما لم يرد له فيه ذكر فهو محتمل، ربك أعلم به.

المسألة الثالثة: في ذكر وصف ما قضاه النبيان صلى اللَّه عليهما وسلم فيه: وفيه قولان: أحدهما: أنه كان زرعًا وقعت فيه الغنم ليلا، قاله قتادة.

الثاني: أنه كان كرمًا نبتت عناقيده، وهو قول ابن مسعود وشريح.

وقد روي أن النفش رعي الليل، والهمل رعي النهار، وهذا هو المشهور في اللغة.

المسألة الرابعة: في ذكر وصف قضائهما: أما حكم داود فإنه يروى أنه قضى لصاحب الحرث بالغنم.

وأما حكم سليمان فإنه قضى بأن تدفع الغنم لصاحب الحرث عله[1] يغتلها، ويدفع الحرث إلى صاحب الغنم ليقوم بعمارته، فإذا عاد في السنة المقبلة إلى مثل حالته رد إلى كل أحد ماله قاله ابن مسعود، ومجاهد، فرجع داود إلى حكم سليمان. .

المسألة السابعة: قال بعض الناس: إن داود لم يكن أنفذ الحكم، وظهر له ما قال غيره.

وقال آخرون: لم يكن حكمًا، وإنما كانت فتيا، فأما القول بأن ذلك من داود كان فتيا فهو ضعيف؛ لأنه كان النبي، وفتياه حكم.

وأما قوله الآخر: إنه لم يكن أنفذ الحكم فظهر له ما قال غيره فهو ضعيف؛ لأنه قال: ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ﴾، فبين أن كل واحد منهما كان قد حكم، على أنه قد قيل: إن

---

(١) هكذا بالأصل، ولعله: غَلَّة.

الفتيا حكم، وهو صحيح لفظا، وفي بعض المعنى؛ لأنه يلزم المقلد قوله، ولا يلزم المجتهد قول غيره.

وقد قيل: إن اللَّه أوحى أن الحكم حكم سليمان، فعلى هذا كان القضاء من اللَّه، وكل ذلك محتمل.

وهذا كله مبني على أن الأنبياء يجوز لهم الحكم بالاجتهاد، وهي: المسألة الثامنة: وقد بينا في كتاب التمحيص أن اجتهادهم صحيح؛ لأنه دليل شرعي، فلا إحالة في أن يستدل به الأنبياء.

فإن قيل: إنما يكون دليلا إذا عدم النص، وهم لا يعدمونه، لأجل نزول الملك.

قلنا: إذا لم ينزل الملك فقد عدموا النص.

جواب آخر: وذلك أنه عندنا دليل مع عدم النص، وعندهم هو دليل مع وجوده واللَّه أعلم»[1].

قال السعدي: «أي: واذكر هذين النبيين الكريمين ﴿دَاوُدَ﴾ و﴿سُلَيْمَٰنَ﴾ مثنيًا مبجلا، إذ آتاهما اللَّه العلم الواسع والحكم بين العباد، بدليل قوله: ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ﴾ أي: إذ تحاكم إليهما صاحب حرث، نفشت فيه غنم القوم الآخرين، أي: رعت ليلا فأكلت ما في أشجاره، ورعت زرعه، فقضى فيه داود ﷺ، بأن الغنم تكون لصاحب الحرث، نظرا إلى تفريط أصحابها، فعاقبهم بهذه العقوبة، وحكم فيها سليمان بحكم موافق للصواب، بأن أصحاب الغنم يدفعون غنمهم إلى صاحب الحرث فينتفع بدرها وصوفها، ويقومون على بستان صاحب الحرث، حتى يعود إلى حاله الأولى، فإذا عاد إلى حاله، ترادا ورجع كل منهما بما له، وكان هذا من كمال فهمه وفطنته ﷺ، ولهذا قال: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾ أي: فهمناه هذه القضية، ولا يدل ذلك أن داود لم يفهمه اللَّه في غيرها، ولهذا خصها بالذكر بدليل قوله: ﴿وَكُلًّا﴾ من داود وسليمان ﴿ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ وهذا دليل على أن الحاكم قد يصيب الحق والصواب وقد يخطئ ذلك، وليس بملوم إذا أخطأ مع بذل اجتهاده»[2].

---

(١) أحكام القرآن (٣/ ١٢٦٦-١٢٦٨).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٤٩-٢٥٠).

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ﴾ منصوب بـ (اذكر) مقدرا. وقيل: معطوف قوله: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ﴾[١] أي واذكر نوحا إذ نادى من قبل ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ﴾ الآية، وقوله: ﴿إِذْ﴾ بدل من (داود وسليمان) بدل اشتمال كما أوضحناه في سورة مريم وذكرنا بعض المناقشة فيه، وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك: أن من أنواع البيان التي تضمنها أن يقول بعض العلماء في الآية قولا ويكون في نفس الآية قرينة تدل على خلاف ذلك القول. وذكرنا في هذا الكتاب مسائل كثيرة من ذلك. فإذا علمت ذلك فاعلم أن جماعة من العلماء قالوا: إن حكم داود وسليمان في الحرث المذكور في هذه الآية كان بوحي: إلا أن ما أوحي إلى سليمان كان ناسخا لما أوحي إلى داود.

وفي الآية قرينتان على أن حكمهما كان باجتهاد لا بوحي، وأن سليمان أصاب فاستحق الثناء باجتهاده، وإصابته، وأن داود لم يصب فاستحق الثناء باجتهاده، ولم يستوجب لوما ولا ذما بعدم إصابته. كما أثنى على سليمان بالإصابة في قوله: ﴿فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ﴾، وأثنى عليهما في قوله: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ فدل قوله: ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ﴾ على أنهما حكما فيها معا، كل منهما بحكم مخالف لحكم الآخر، ولو كان وحيا لما ساغ الخلاف. ثم قال: ﴿فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ﴾ فدل ذلك على أنه لم يفهمها داود، ولو كان حكمه فيها بوحي لكان مفهما إياها كما ترى. فقوله: ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ﴾ مع قوله: ﴿فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ﴾ قرينة على أن الحكم لم يكن بوحي بل باجتهاد، وأصاب فيه سليمان دون داود بتفهيم اللَّه إياه ذلك.

والقرينة الثانية هي أن قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَـٰهَا﴾ الآية يدل على أنه فهمه إياها من نصوص ما كان عندهم من الشرع. لا أنه أنزل عليه فيها وحيا جديدا ناسخا. لأن قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَـٰهَا﴾ أليق بالأول من الثاني، كما ترى»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أنه إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإذا أخطأ فله أجر

* عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**كانت امرأتان معهما ابناهما**

(١) الأنبياء: الآية (٧٦).

(٢) أضواء البيان (٤/ ٥٩٦-٥٩٧).

جاء الذئب فذهب بابن إحداهما، فتحاكمتا إلى داود فقضى به للكبرى، فخرجتا على سليمان بن داود فأخبرتاه فقال: آتوني بالسكين أشقه بينهما. فقالت الصغرى: لا تفعل يرحمك الله، هو ابنها. فقضى به للصغرى»[1].

★ فوائد الحديث:

قال ابن حجر: «قوله: «**فقضى به للكبرى**» إلخ قيل: كان ذلك على سبيل الفتيا منهما لا الحكم، ولذلك ساغ لسليمان أن ينقضه. وتعقبه القرطبي بأن في لفظ الحديث أنه قضى بأنهما تحاكما، وبأن فتيا النبي وحكمه سواء في وجوب تنفيذ ذلك. وقال الداودي: إنما كان منهما على سبيل المشاورة فوضح لداود صحة رأي سليمان فأمضاه. وقال ابن الجوزي: استويا عند داود في اليد، فقدم الكبرى للسن. وتعقبه القرطبي وحكى أنه قيل: كان من شرع داود أن يحكم للكبرى قال: وهو فاسد لأن الكبر والصغر وصف طردي كالطول والقصر والسواد والبياض، ولا أثر لشيء من ذلك في الترجيح، قال: وهذا مما يكاد يقطع بفساده. قال: والذي ينبغي أن يقال إن داود ﷺ قضى به للكبرى لسبب اقتضى به عنده ترجيح قولها، إذ لا بينة لواحدة منهما، وكونه لم يعين في الحديث اختصارا لا يلزم منه عدم وقوعه، فيحتمل أن يقال: إن الولد الباقي كان في يد الكبرى وعجزت الأخرى عن إقامة البينة قال: وهذا تأويل حسن جار على القواعد الشرعية وليس في السياق ما يأباه ولا يمنعه، فإن قيل فكيف ساغ لسليمان نقض حكمه؟ فالجواب أنه لم يعمد إلى نقض الحكم، وإنما احتال بحيلة لطيفة أظهرت ما في نفس الأمر، وذلك أنهما لما أخبرتا سليمان بالقصة فدعا بالسكين ليشقه بينهما، ولم يعزم على ذلك في الباطن، وإنما أراد استكشاف الأمر، فحصل مقصوده لذلك لجزع الصغرى الدال على عظيم الشفقة، ولم يلتفت إلى إقرارها بقولها هو ابن الكبرى لأنه علم أنها آثرت حياته، فظهر له من قرينة شفقة الصغرى وعدمها في الكبرى -مع ما انضاف إلى ذلك من القرينة الدالة على صدقها- ما هجم به على الحكم للصغرى. ويحتمل أن يكون سليمان ﷺ ممن يسوغ له أن يحكم بعلمه، أو تكون الكبرى في تلك

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٢٢) والبخاري (٦/ ٥٦٦/ ٣٤٢٧-٦٧٦٩) ومسلم (٣/ ١٣٤٤-١٣٤٥/ ١٧٢٠) والنسائي (٨/ ٢٣٦-٢٣٧/ ٥٤١٩).

الحالة اعترفت بالحق لما رأت من سليمان الجد والعزم في ذلك. ونظير هذه القصة ما لو حكم حاكم على مدع منكر بيمين، فلما مضى ليحلفه حضر من استخرج من المنكر ما اقتضى إقراره بما أراد أن يحلف على جحده، فإنه والحالة هذه يحكم عليه بإقراره سواء كان ذلك قبل اليمين أو بعدها، ولا يكون ذلك من نقض الحكم الأول، ولكن من باب تبدل الأحكام بتبدل الأسباب. وقال ابن الجوزي: استنبط سليمان لما رأى الأمر محتملا فأجاد، وكلاهما حكم بالاجتهاد، لأنه لو كان داود حكم بالنص لما ساغ لسليمان أن يحكم بخلافه»[١].

قال المازري: «هذا يكون أصلًا في استعمال الحكام طرقا من الحيل المباحة في استخراج الحقوق إذا وقع الإشكال. وكأن داود رجح بالكبر فقضى به، وهذا ليس في شرعنا. وأما سليمان فعلم أن الطباع مجبولة على الإشفاق على الولد، فأراد اختبار المشفقة عليه ليستدل بذلك على الأم منهما»[٢].

قال القاضي عياض: «يحتمل أن داود ﷺ إنما قضى به للكبرى على مقتضى شرعنا إذ كان لا يخالفه، إما لكونه في يدها أو يشبهها إن كان القضاء في شرعه في الإلحاق بالشبهة، وحكم سليمان بعد هذا التوسط والتلطف به للصغرى؛ لما رأى من إشفاقها بعد تعجيزه الكبرى بذلك وفضيحته لها، إذ لو كان ولدها لأشفقت عليه فيكون منها حينئذ لتلك الخجلة والفضيحة ما يوجب الاعتراف والتسليم، ومثل هذا يفعله نبهاء الحكام من الاستدلال بأمور لو تجردت لم يقضى بها في شيء، لكن يقيم بها الحجة والإرهاب على المدعي حتى يستبين منه الاضطراب، ويضطر إلى الاعتراف، ورب قوي الشكيمة في الباطل لا تنفع فيه رقية ولا حيلة»[٣].

قال ابن بطال: «فيه من الفقه: أن من أتى من المتنازعين بما يشبه فالقول قوله؛ لأن سليمان جعل شفقتها عليه شبهة مع دعواها.

وفيه: أنه جائز للعالم مخالفة غيره من العلماء وإن كانوا أسن منه وأفضل إذا رأى الحق في خلاف قولهم.

---

(١) الفتح (٦/ ٥٧٤-٥٧٥).

(٢) المعلم (٢/ ٢٦٦).

(٣) إكمال المعلم (٥/ ٥٨٠).

ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ﴾ الآية فإنه أثنى على سليمان بعلمه، وعذر داود باجتهاده ولم يخله من العلم»[1].

وقال الحافظ ابن حجر: «دلت هذه القصة على أن الفطنة والفهم موهبة من الله لا تتعلق بكبر سن ولا صغره، وفيه أن الحق في جهة واحدة، وأن الأنبياء يسوغ لهم الحكم بالاجتهاد وإن كان وجود النص ممكنا لديهم بالوحي، لكن في ذلك زيادة في أجورهم ولعصمتهم من الخطأ في ذلك؛ إذ لا يقرون لعصمتهم على الباطل»[2].

* عن حرام بن محيصة عن أبيه أن ناقة للبراء بن عازب دخلت حائط رجل فأفسدته عليهم، فقضى رسول الله ﷺ على أهل الأموال حفظها بالنهار، وعلى أهل المواشي حفظها بالليل[3].

★ فوائد الحديث:

قال الخطابي: «وهذه سنة لرسول الله ﷺ خاصة في هذا الباب، ويشبه أن يكون إنما فرق بين الليل والنهار في هذا لأن في العرف أن أصحاب الحوائط والبساتين يحفظونها بالنهار ويوكلون بها الحفاظ والنواطير. ومن عادة أصحاب المواشي أن يسرحوها بالنهار ويردونها مع الليل إلى المراح فمن خالف هذه العادة كان به خارجا عن رسوم الحفظ إلى حدود التقصير والتضييع، فكان كمن ألقى متاعه في طريق شارع أو تركه في غير موضع حرز، فلا يكون على آخذه قطع. وبالتفريق بين حكم الليل والنهار قال الشافعي. وقال أصحاب الرأي: لا فرق بين الأمرين، ولم يجعلوا على أصحاب المواشي غرما، واحتجوا بقوله: «**العجماء جبار**»[4].

قال الشيخ: وحديث العجماء جبار عام، وهذا حكم خاص، والعام ينبئ على الخاص. ويرد إليه فالمصير في هذا إلى حديث البراء والله أعلم»[5].

---

(١) شرح صحيح البخاري (٨/ ٣٨٥). (٢) فتح الباري (٦/ ٥٧٥).

(٣) أخرجه: أحمد (٥/ ٤٣٦) وأبو داود (٣/ ٨٢٨-٨٣٠/ ٣٥٦٩-٣٥٧٠) وابن ماجه (٢/ ٧٨١/ ٢٣٣٢) والنسائي في الكبرى (٣/ ٤١١/ ٥٧٨٤) وصححه ابن حبان (١٣/ ٣٥٤-٣٥٥/ ٦٠٠٨).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٣٩) والبخاري (١٢/ ٣١٤/ ٦٩١٢) ومسلم (٣/ ١٣٣٤/ ١٧١٠) وأبو داود (٣/ ٤٦٢/ ٣٠٨٥) والترمذي (٣/ ٦٦١/ ١٣٧٧) والنسائي (٥/ ٤٧/ ٢٤٩٤) وابن ماجه (٢/ ٨٩١/ ٢٦٧٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٥) معالم السنن (٣/ ١٥٢).

قال ابن عبد البر: «والفرق عند أهل العلم في حديث البراء وحديث أبي هريرة في العجماء وبين ما تتلفه العجماء ليلا من الزرع والحرث وبينما تتلفه نهارا أن أهل المواشي بهم ضرورة إلى إرسال مواشيهم لترعى بالنهار. ولأهل الزرع حقوق في أن لا تتلف عليهم زروعهم. والأغلب عندهم أن من له الزرع يتعاهده بالنهار ويحفظه عمن أراده لانتشار البهائم للرعي وغيره. فجعل حفظ ذلك بالنهار على أهل الزرع، لأنه وقت التصرف في المعاش والرعي، وحفظ الأموال، وإرسال الدواب، والمواشي. وإذا أتلفت بالنهار من الزرع شيئًا فصاحب الزرع إنما أوتي من قبل نفسه حيث لم يحفظه في الوقت الذي الأغلب من الناس أنهم يحفظونه فيه ممن أراده. إذ لو منع الناس من ترك مواشيهم للرعي من أجل الزرع للحقتهم في ذلك مضرة ومشقة، فإذا جاء الليل فقد جاء الوقت الذي يرجع كل شيء إلى موضعه، ويرجع أهل الزرع إلى منازلهم، ويرد أهل الماشية ماشيتهم إلى مواضعهم ليحفظوها فيها، فإذا تركوها ليلا حتى أفسدت فالجناية من أهل المواشي، لا من أهل الزرع، لأن الأغلب أن الناس لا يحفظون زروعهم بالليل لاستغنائهم عن ذلك، وعلمهم أن المواشي بالليل ترد إلى أماكنها. فإذا فرط صاحب الماشية في ردها إلى منزله، أو فرط في ضبطها وحبسها عن الانتشار بالليل حتى أتلفت شيئا، فعليه ضمان ذلك، إلا أن تكون الماشية ضالة أو نافرة، فلا يتهيأ لصحابها ضمها ولا ردها إلى مكانها، فإذا كان كذلك لم يلزمه ضمان ما أتلفت بالليل- كما لا يلزمه ضمان ما أتلفت بالنهار. وأما السائق والراكب والقائد فإنهم يضمنون ما أصابت الدابة استدلالا بحديث البراء، لأن ذلك في معنى ما أتلفت بالليل، لأن الراكب يتهيأ له حفظ الدابة فعليه حفظها، ولا مشقة عليه في ذلك وكذلك سائقها وقائدها. والأغلب أن الناس إذا ركبوا أو ساقوا أو قادوا، منعوا الدابة مما أرادت من إتلاف أو غيره، فإذا لم يفعلوا ذلك فإنما أوتوا من قبل أنفسهم، فعليهم الضمان، إلا أن تكون الدابة قد غلبت الراكب أو القائد أو السائق، فلم يقدر عليها. فإذا كان كذلك فلا غرم عليه، ولا ضمان يلزمه، لأنه مغلوب عن حفظ ما أمر بحفظه، ولم يمكنه الدفع.

وخبر البراء بن عازب هذا في طرح الضمان عن أهل المواشي، فيما أتلفت ماشيتهم من زروع الناس نهارًا إنما معناه عند أهل العلم إذا أطلقت للرعي، ولم يكن معها صاحبها، وأما إذا كانت ترعى ومعها صاحبها فلم يمنعها من زرع غيره،

وقد أمكنه ذلك حتى أتلفته فعليه الضمان، لأنه لا مشقة عليه في منعها. وهو في معنى الراكب والسائق. وبالله العصمة والتوفيق»[١].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فأما فساد الزروع والحوائط والكروم فقال مالك والشافعي وأهل الحجاز في ذلك ما ذكرناه عنهم في هذا الباب، وحجتهم حديث البراء بن عازب المذكور فيه مع ما دل عليه القرآن في قصة ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ﴾. ولا خلاف بين أهل اللغة أن النفش لا يكون إلا بالليل، وكذلك قال جماعة العلماء بتأويل القرآن. وقال الله ﷻ لمحمد ﷺ، عند ذكر من ذكر من أنبيائه في سورة الأنعام ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾[٢]. فجاز الاقتداء بكل ما ورد به القرآن من شرائع الأنبياء، إلا أن يمنع من ذلك ما يجب التسليم له، من نسخ في الكتاب أو سنة واردة عن النبي ﷺ بخلاف ذلك تبين مراد الله.

فيعلم حينئذ أن شريعتنا مخالفة لشريعتهم، فتحمل على ما يجب الاحتمال عليه من ذلك، وبالله التوفيق»[٣].

* عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر**»[٤].

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن عبدالبر: «اختلف الفقهاء في تأويل هذا الحديث، فقال قوم: لا يؤجر من أخطأ لأن الخطأ لا يؤجر أحد عليه وحسبه أن يرفع عنه المأثم، وردوا هذا الحديث بحديث بريدة المذكور في هذا الباب[٥] وبقوله: «**تجاوز الله لأمتي عن خطئها ونسيانها**»[٦] وبقول الله: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾[٧] ونحو

(١) التمهيد (١١/ ٥٧١-٥٧٢ فتح البر).
(٢) الأنعام: الآية (٩٠).
(٣) التمهيد (١١/ ٥٦٨-٥٦٩ فتح البر).
(٤) أخرجه: أحمد (٤/ ١٩٨) والبخاري (١٣/ ٣٩٣/ ٧٣٥٢) ومسلم (٣/ ١٣٤٢/ ١٧١٦) وأبو داود (٤/ ٦-٧/ ٣٥٧٤) والنسائي في الكبرى (٣/ ٤٦١/ ٥٩١٨) وابن ماجه (٢/ ٧٧٦/ ٢٣١٤).
(٥) سيأتي تخريجه قريبًا.
(٦) أخرجه: ابن ماجه (١/ ٦٥٩/ ٢٠٤٥) وصححه الحاكم (٢/ ١٣٨) على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، وابن حبان (١٦/ ٢٠٦/ ٧٢١٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
(٧) الأحزاب: الآية (٥).

هذا، وقال آخرون: يؤجر في الخطأ أجرا واحدا على ظاهر حديث عمرو بن العاص؛ لأن رسول اللَّه ﷺ قد فرق بين أجر المخطئ والمصيب فدل أن المخطئ يؤجر، وهذا نص ليس لأحد أن يرده. وقال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ ومن قال بقوله: يؤجر ولكنه لا يؤجر على الخطأ؛ لأن الخطأ في الدين لم يؤمر به أحد، وإنما يؤجر لإرادته الحق الذي أخطأه، قال المزني: فقد أثبت الشافعي في قوله هذا أن المجتهد المخطئ أحدث في الدين ما لم يؤمر به ولم يكلفه، وإنما أجر في نيته لا في خطئه»[1].

قال ابن بطال: «قال ابن المنذر: وإنما يكون الأجر للحاكم المخطئ إذا كان عالما بالاجتهاد والسنن، وأما من لم يعلم ذلك فلا يدخل في معنى الحديث، يدل على ذلك ما رواه الأعمش، عن سعيد ابن عبيدة، عن ابن بريدة، عن أبيه قال: قال رسول اللَّه -ﷺ-: «**القضاة ثلاثة: قاضيان في النار، وقاض في الجنة، فقاض قضى بغير الحق وهو يعلم، فذلك في النار، وقاض قضى وهو لا يعلم فأهلك حقوق الناس فذلك في النار، وقاض قضى بالحق، فذلك في الجنة**»[2].

قال ابن المنذر: إنما يؤجر على اجتهاده في طلب الصواب لا على الخطأ، ومما يؤيد هذا قوله تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ﴾ الآية»[3].

وقال أيضا: «قال أبو بكر ابن الطيب: اختلفت الروايات عن أئمة الفتوى في هذا الباب كمالك وأبي حنيفة والشافعي:

فأما مالك، فالمروي عنه منعه المهدي من حمله الناس على العمل والفتيا بما في الموطأ، وقال له: دع الناس يجتهدون. وظاهر هذا إيجابه على كل مجتهد القول بما يؤديه الاجتهاد إليه، ولو رأى أن الحق في قوله فقط، أو قطع عليه لكان الواجب عليه المشورة على السلطان بالعمل به، ويبعد أن يعتقد مالك أن كل مجتهد مأمور بالحكم والفتيا باجتهاده، وإن كان مخطئا في ذلك، وذكر عن أبي حنيفة والشافعي القولين جميعا.

---

(١) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٨٨٣-٨٨٤).

(٢) سيأتي تخريجه.

(٣) شرح صحيح البخاري (١٠/ ٣٨١).

واحتج من قال: إن الحق في واحد من أقاويل المجتهدين بقوله -ﷺ-: «**إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر**». قالوا: وهذا نص على أن في المجتهدين وفي الحاكمين مخطئا ومصيبا، قالوا: والقول بأن كل مجتهد مصيب يؤدي إلى كون الشيء حلالا حراما وواجبا ندبا، ويلزم الحاكم اعتقاد كونه حلالا إذا رأى ذلك بعض أهل الاجتهاد، وحراما إذا رأى ذلك غيره، وأن تكون الزوجة محللة محرمة، والمال ملك الإنسان وغير ملك له إذا اختلف في ذلك أهل الاجتهاد.

واحتج كل من قال: كل مجتهد مصيب، فقالوا: اتفق الكل من الفقهاء على أن فرض كل عالم الحكم والفتيا بما أداه الاجتهاد إليه، وما هو الحق عنده وفي غالب ظنه، وأنه حرام عليه أن يفتي ويحكم بقول مخالفه، ولو كان في الأقاويل المختلف فيها ما هو خطأ وخلاف دين اللَّه لم يجز أن تجمع الأمة على أن فرض القائل به؛ لأن إجماعها على ذلك إجماع على خطأ، وقد نهى اللَّه عنه وشرع خلافه.

ولو جاز أن يكون أحدهما مخطئا لأدى ذلك إلى أن اللَّه تعالى أمر أحدهما بإصابة عين الباطل، وفي هذا القول بأن اللَّه أمر بالباطل، وإذا فسد هذا مع كونه مأمورا بالاجتهاد وجب كونه بفتياه ممتثلًا أمر ربه وطائعًا له ومصيبًا عند اللَّه، فثبت أن الحق مع كل واحد منهما بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾[1]، ومع قيام الدليل على أن طاعة الباري إنما كانت طاعة لأمره بها كما أن المعصية كانت معصية لنهيه عنها.

وقد أجاب الشافعي عن هذا الحديث في الرسالة بنحو هذا فقال: لو كان في الاجتهاد خطأ وصواب في الحقيقة لم يجز أن يثاب على أحدهما أكثر من الآخر؛ لأن الثواب لا يجوز فيما لا يسوغ ولا في الخطأ الموضوع إثمه عنا.

وقال ابن الطيب: هذا الخبر يدل على أن كل مجتهد مصيب أولى وأقرب؛ لأن المخطئ لحكم اللَّه والحاكم بغيره مع الأمر له به لا يجوز أن يكون مأجورا على الحكم بالخطأ بل أقصى حالاته أن يكون إثمه موضوعا عنه فأما أن يكون بمخالفة حكم اللَّه مأجورا فإنه باطل باتفاق، والنبي -ﷺ- قد جعله مأجورا، فدل ذلك على

---

(١) الأعراف: الآية (٢٨).

أن هذا ليس بخطأ في شيء من الأحكام وجب عليه ولزمه الحكم به.

ويحتمل أن يكون معناه إذا اجتهد في البحث والطلب للنص فأصابه وحكم بموجبه فله أجران: أحدهما على البحث والطلب، والآخر على الحكم بموجبه، وأراد بقوله: «**إن حكم فأخطأ**» أي: أخطأ الخبر، بأن لم يبلغه مع الاجتهاد في طلبه، ثم حكم باجتهاده المخالف لحكم النص كان مخطئا للنص ومصيبه لا محالة في الحكم؛ لأن الحكم بالاجتهاد عند ذلك هو فرضه.

ولهذا كان يقول عمر عندما كان يبلغه الخبر: لولا هذا لقضينا فيه برأينا، ولم يقل له أحد من الصحابة: لو قضيت فيه برأيك ولم يبلغك الخبر لكنت بذلك عاصيا، ولم أردت أن تقضي بالرأي وهذا الخبر كان موجودا، فدل إمساك الكل عن ذلك أن فرض الحاكم والمجتهد الحكم والفتيا برأيه، وإن خالف موجب الخبر، فإذا بلغه تغير عند ذلك فرضه ولزمه الحكم بموجبه.

ولا نقول: إن كل مجتهد مصيب إلا في الفروع ومسائل الاجتهاد التي يجوز للعامي فيها التقليد، وأما القول بوجوب الصلوات الخمس والصيام والحج وكل فرض يثبت العمل به بالتواتر والاتفاق فأصل من أصول الدين الذي يحرم خلافه كالتوحيد والنبوة وما يتصل بها»[1].

قال ابن عبدالبر: «وذكر عبيد الله بن عمر بن أحمد الشافعي البغدادي في كتابه في القياس جملا مما ذكر الشافعي رحمه الله في كتابه في الرسالة البغدادية وفي الرسالة المصرية وفي كتاب جماع العلم وفي كتاب اختلاف الحديث في القياس وفي الاجتهاد قال: وفي هذا من قول الشافعي دليل على ترك تخطئة المجتهدين بعضهم لبعض إذ كل واحد منهم قد أدى ما كلف باجتهاده، إذا كان ممن اجتمعت فيه آلة القياس، وكان ممن له أن يجتهد ويقيس. قال: وقد اختلف أصحابنا في ذلك فذكر مذهب المزني، قال: وقد خالفه غيره من أصحابنا قال: ولا أعلم اختلافا بين الحذاق من شيوخ المالكيين ونظرائهم من البغداديين مثل إسماعيل بن إسحاق القاضي وابن بكير وأبي العباس الطيالسي ومن دونهم مثل شيخنا عمر بن محمد بن أبي الفرج المالكي، وأبي الطيب محمد بن محمد بن إسحاق بن راهويه، وأبي

(١) شرح صحيح البخاري (١٠/ ٣٨١-٣٨٤).

الحسن بن المنتاب وغيرهم من الشيوخ البغداديين والمصريين المالكيين، كل يحكي أن مذهب مالك رحمه الله في اجتهاد المجتهدين والقياسيين إذا اختلفوا فيما يجوز فيه التأويل من نوازل الأحكام أن الحق من ذلك عند الله واحد من أقوالهم واختلافهم، إلا أن كل مجتهد إذا اجتهد كما أمر وبالغ ولم يأل وكان من أهل الصناعة ومعه آلة الاجتهاد فقد أدى ما عليه، وليس عليه غير ذلك، وهو مأجور على قصده الصواب، وإن كان الحق عند الله من ذلك واحدا، قال: وهذا القول هو الذي عليه عمل أكثر أصحاب الشافعي رحمه الله قال: وهو المشهور من قول أبي حنيفة رحمه الله فيما حكاه محمد بن الحسن، وأبو يوسف وفيما حكاه الحذاق من أصحابهم مثل عيسى بن أبان، ومحمد بن شجاع البلخي، ومن تأخر عنهم مثل أبي سعيد البرذعي، ويحيى بن سعيد الجرجاني وشيخنا أبي الحسن الكرخي، وأبي بكر البخاري المعروف بحد الجسم وغيرهم ممن رأينا وشاهدنا وبالله التوفيق. قال أبو عمر: قد اختلف أصحاب مالك فيما وصفنا، واختلف فيه قول الشافعي، وكذلك اختلف فيه أصحابه، والذي أقول به: إن المجتهد المخطئ لا يأثم إذا قصد الحق وكان ممن له الاجتهاد، وأرجو أن يكون له في قصده الصواب وأراد به، له أجر واحد إذا صحت نيته في ذلك، والله أعلم»[1].

قال القرطبي: «قوله: «**فأصاب**» أي حكم فأصاب وجه الحكم. وهو أن يحكم بالحق لمستحقه في نفس الأمر عند الله تعالى. فهذا يكون له أجر بحسب اجتهاده، وأجر بسبب إصابة ما هو المقصود لنفسه. والخطأ الذي يناقض هذا هو أن يجتهد في حجج الخصمين، فيظن أن الحق لأحدهما، وذلك بحسب ما سمع من كلامه وحجته فيقضي له، وليس كذلك عند الله تعالى. فهذا له أجر اجتهاده خاصة إذ لا إصابة. وهذا المعنى هو الذي أراده النبي ﷺ بقوله: «**فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له على حسب ما أسمع**» وفي الأخرى: «**فأحسب أنه صادق فأقضي له**»[2]. وهذا في الحاكم بين الخصوم واضح؛ لأن هنالك حقا معينا

---

(١) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٨٨٥-٨٨٦).

(٢) أخرجه: أحمد (٦/ ٣٠٧) والبخاري (٥/ ٣٦١/ ٢٦٨٠) ومسلم (٣/ ١٣٣٧/ ١٧١٣) وأبو داود (٤/ ١٢-١٤/ ٣٥٨٣) والترمذي (٣/ ٦٢٤/ ١٣٣٩) والنسائي (٨/ ٦٢٥/ ٥٤١٦) وابن ماجه (٢/ ٧٧٧/ ٢٣١٧) عن أم سلمة رضي الله عنها.

عند اللَّه تعالى تنازعه الخصمان، لأن أحد الخصمين مبطل قطعًا، لأنهما تقاسما الصدق والكذب، فمتى صدق أحدهما كذب الآخر. والحاكم إنما يجتهد في تعيين الحق، فقد يصيبه وقد يخطئه. وعلى هذا فلا ينبغي أن يختلف هنا في أن المصيب واحد، وأن الحق في طرف واحد. وإنما ينبغي أن يختص الخلاف بالمجتهد في استخراج الأحكام من أدلة الشريعة بناء على الخلاف في أن النوازل غير المنصوص عليها، هل لله تعالى فيها أحكام معينة أم لا؟ وللمسألة غور، وفيها أبحاث استوفيناها في كتابنا في الأصول.

وأعظم فوائد هذا الحديث أن الحاكم لا بد أن يكون من أهل الاجتهاد، فإذا اجتهد وحكم فلا بد له من الأجر، فإما ضعفان مع الإصابة، وإما ضعف واحد مع الخطأ. فأما لو كان جاهلا أو مقصرا في اجتهاده فهو عاص آثم في كل ما يحكم به. أما الجاهل فلعدم أهليته. وأما المقصر فلعدم استيفاء شرطه. وكلاهما حكم بغير حكم اللَّه، بل بالباطل، والاختلاق على الله»[١].

قال أبو بكر ابن العربي: «اعلموا وفقكم اللَّه أن الأجر على العمل القاصر على العامل واحد، وأن الأجر على العمل المتعدى إلى الغير أجران فإنه يؤجر في نفسه، ويجري له ما تعلق بغيره من جنسه فإذا قضى بالحق وأعطاه لمستحقه ثبت له أجر اجتهاده، وجرى له أجر الاستحقاق في عود الحق إلى مكانه، وإذا كان أحد الخصمين ألحن بحجته من الآخر فقضى لغير صاحبه بالمدعى فيه كان له أجر الاجتهاد خاصة، وقد حاموا عليه فما أسفوا، واللَّه المؤمن بفضله ورحمته»[٢].

* عن بريدة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**القضاة ثلاثة: واحد في الجنة، واثنان في النار، فأما الذي في الجنة فرجل عرف الحق فقضى به، ورجل عرف الحق فجار في الحكم فهو في النار، ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار**»[٣].

---

(١) المفهم (٥/ ١٦٧-١٦٨). (٢) عارضة الأحوذي (٦/ ٧٢).

(٣) أخرجه: أبو داود (٤/ ٥/ ٣٥٧٣) وقال: «وهذا أصح شيء فيه، يعني حديث ابن بريدة»، والترمذي (٣/ ٦١٣/ ١٣٢٢) وابن ماجه (٢/ ٧٧٦/ ٢٣١٥) والنسائي في الكبرى (٣/ ٤٦١-٤٦٢/ ٥٩٢٢) والحاكم (٤/ ٩٠) وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وله شاهد بإسناد صحيح على شرط مسلم» وتعقبه الذهبي: «ابن بكير الغنوي منكر الحديث. وله شاهد صحيح». والحديث صححه الشيخ الألباني رحمه الله في صحيح سنن أبي داود (٢/ ٦٨٢).

★ **فوائد الحديث:**

قال أبو بكر ابن العربي: «الذي يقضي بالجور قد أتى كبيرة من أعظم الكبائر في ظلم العباد ونقض عهد اللّه من بعد ميثاقه، وما أبعده من المغفرة المطلقة، والذي يقضي بالجهل جائر لا تقصر مرتبته عنه. ومثال الأول: مثال من يقتل من لا يحل قتله، أو يزني بمن لا يحل وطؤه. ومثال الثاني: من يتعرض للقتل ولا يبالي أصاب قتله من يستحقه أو لا يستحقه، وكذلك من يسترسل على وطء من وجد من النساء ولا يبالي كانت ممن تحل له أو لا تحل، فالأول منتهك للحرمة عمدا، والثاني مستهين بها نية وعقدا، والثالث من خلفاء اللّه في أرضه، وممن قال فيه النبي ﷺ: **«المقسطون يوم القيامة على منابر من نور على يمين الرحمن وكلتا يديه يمين»**[1] والآثار في ذلك كثيرة. هذا الذي قضى بالحق إن كان عن علم، فهو الذي تقدم وإن كان عن تقليد فلا يجوز أن يتخذ قاضيا إلا عند الضرورة، فيقضي حينئذ في النازلة بفتوى عالم رآه ورواه بنص النازلة، فإن قاس على قوله أو قال يحيى من هذا كذا أو نحوه فهو معتد، ولا يحل تولية مقلد في موضع يوجد فيه عالم، فإذا تقلد فهو جائر متعد لأنه قعد في مقعد غيره ولبس خلعة سواه من غير استحقاق واللّه أعلم»[2].

قال أبو الطيب محمد آبادي: «والحديث دليل على أنه لا ينجو من النار من القضاة إلا من عرف الحق وعمل به، والعمدة العمل، فإن من عرف الحق ولم يعمل فهو ومن حكم بجهل سواء في النار، وظاهره أن من حكم بجهل وإن وافق حكمه الحق فإنه في النار لأنه أطلقه وقال فقضى للناس على جهل، فإنه يصدق على من وافق الحق وهو جاهل في قضائه أنه قضى على جهل، وفيه التحذير من الحكم بجهل أو بخلاف الحق مع معرفته به»[3].

* * *

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ١٦٠) ومسلم (٣/ ١٤٥٨/ ١٨٢٧) والنسائي (٨/ ٦١٢-٦١٣/ ٥٣٩٤) من حديث عبدالله ابن عمرو بن العاص ﷺ.

(٢) عارضة الأحوذي (٦/ ٦٧-٦٨).

(٣) عون المعبود (٩/ ٤٨٨).

قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «ذكر ما خص به كلا منهما فقال: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ﴾ وذلك أنه كان من أعبد الناس وأكثرهم لله ذكرا وتسبيحا وتمجيدا، وكان قد أعطاه اللَّه من حسن الصوت ورقته ورخامته، ما لم يؤته أحدا من الخلق، فكان إذا سبح وأثنى على اللَّه، جاوبته الجبال الصم والطيور البهم، وهذا فضل اللَّه عليه وإحسانه، فلهذا قال: ﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾»[1].

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أنه سخر الجبال أي ذللها، وسخر الطير تسبح مع داود. وما ذكره -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: من تسخيره الطير، والجبال تسبح مع نبيه داود بينه في غير هذا الموضع. كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾[2] الآية. وقوله: ﴿أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾ أي رجعي معه التسبيح. ﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ أي ونادينا الطير بمثل ذلك من ترجيع التسبيح معه. وقول من قال: ﴿أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾: أي سيري معه، وأن التأويب سير النهار ساقط كما ترى. وكقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾[3].

والتحقيق: أن تسبيح الجبال والطير مع داود المذكور تسبيح حقيقي. لأن اللَّه -جل وعلا- يجعل لها إدراكات تسبح بها، يعلمها هو -جل وعلا- ونحن لا نعلمها. كما قال: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٥٠).
(٢) سبأ: الآية (١٠).
(٣) ص: الآيات (١٧-١٩).
(٤) الإسراء: الآية (٤٤).

مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾[١] الآية، وقال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾[٢] الآية. وقد ثبت في صحيح البخاري: أن الجذع الذي كان يخطب عليه النبي ﷺ لما انتقل عنه بالخطبة إلى المنبر سمع له حنين[٣].

وقد ثبت في صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال: «**إني لأعرف حجرا كان يسلم علي في مكة قبل أن أبعث. إني لأعرفه الآن**»[٤]، وأمثال هذا كثيرة، والقاعدة المقررة عند العلماء: أن نصوص الكتاب والسنة لا يجوز صرفها عن ظاهرها المتبادر منها إلا بدليل يجب الرجوع إليه. والتسبيح في اللغة: الإبعاد عن السوء، وفي اصطلاح الشرع: تنزيه الله -جل وعلا- عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله.

وقال القرطبي في تفسير هذه الآية: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ﴾ أي: جعلناها بحيث تطيعه إذا أمرها بالتسبيح والظاهر أن قوله: ﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ مؤكد لقوله: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾ والموجب لهذا التأكيد: أن تسخير الجبال وتسبيحها أمر عجب خارق للعادة، مظنة لأن يكذب به الكفرة الجهلة.

وقال الزمخشري: ﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ أي قادرين على أن نفعل هذا. وقيل: كنا نفعل بالأنبياء مثل ذلك. وكلا القولين اللذين قال ظاهر السقوط. لأن تأويل ﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ بمعنى كنا قادرين بعيد، ولا دليل عليه كما لا دليل على الآخر كما ترى.

وقال أبو حيان: ﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ أي فاعلين هذه الأعاجيب من تسخير الجبال وتسبيحهن، والطير لمن نخصه بكرامتنا اهـ، وأظهرها عندي هو ما تقدم، والعلم عند الله تعالى»[٥].

---

(١) البقرة: الآية (٧٤).
(٢) الأحزاب: الآية (٧٢).
(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ١٠٩) والبخاري (٦/ ٧٤٦/ ٣٥٨٣) وأبو داود (١/ ٦٥٣/ ١٠٨١) والترمذي (٢/ ٣٧٩/ ٥٠٥) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. وفي الباب عن جابر وأنس وسهل بن سعد وغيرهم رضي الله عنهم.
(٤) أخرجه: أحمد (٥/ ٨٩) ومسلم (٤/ ١٧٨٢/ ٢٢٧٧) من حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه.
(٥) أضواء البيان (٤/ ٦٧٢-٦٧٣).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضائل داود عليه السلام ومقدار عمره

* عن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «لما خلق اللَّه آدم ونفخ فيه الروح عطس فقال الحمد لله، فحمد اللَّه بإذنه، فقال له ربه: رحمك اللَّه يا آدم، اذهب إلى أولئك الملائكة، إلى ملإ منهم جلوس فقل السلام عليكم، قالوا: وعليك السلام ورحمة اللَّه، ثم رجع إلى ربه، فقال إن هذه تحيتك وتحية بنيك بينهم، فقال اللَّه له ويداه مقبوضتان: اختر أيهما شئت، قال: اخترت يمين ربي وكلتا يدي ربي يمين مباركة ثم بسطها فإذا فيها آدم وذريته، فقال: أي رب ما هؤلاء؟ فقال: هؤلاء ذريتك، فإذا كل إنسان مكتوب عمره بين عينيه، فإذا فيهم رجل أضوؤهم أو من أضوئهم. قال: يا رب من هذا؟ قال: هذا ابنك داود قد كتبت له عمر أربعين سنة. قال: يا رب زده في عمره قال: ذاك الذي كتبت له. قال: أي رب فإني قد جعلت له من عمري ستين سنة قال: أنت وذاك. قال: ثم أسكن الجنة ما شاء اللَّه، ثم أهبط منها، فكان آدم يعد لنفسه. قال: فأتاه ملك الموت، فقال له آدم: قد عجلت، قد كتب لي ألف سنة. قال: بلى ولكنك جعلت لابنك داود ستين سنة، فجحد فجحدت ذريته ونسي فنسيت ذريته. قال: فمن يومئذ أمر بالكتاب والشهود»[1].

* عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال له: «يا أبا موسى، لقد أوتيت مزمارا من مزامير آل داود»[2].

⋆ فوائد الحديثين:

قال الخطابي: «أراد بآل داود، نفس داود خاصة لأنه لم يذكر أن أحدا من آل داود كان أعطي من حسن الصوت ما أعطي داود»[3].

قال ابن الأثير: «شبه حُسنَ صوته وحلاوة نَغْمَته بصوت المزمار. وداود هو النبي عليه السلام وإليه المنتهى في حسن الصوت بالقراءة»[4].

---

(١) أخرجه: الترمذي (٥/ ٤٢٢-٤٢٣/ ٣٣٦٨) وقال: «هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه»، والنسائي في الكبرى (٦/ ٦٣/ ١٠٠٤٦) مختصرا، وصححه ابن حبان (الإحسان ١٤/ ٤٠-٤١/ ٦١٦٧) والحاكم (١/ ٦٤) وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم». ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه: البخاري (٩/ ١١٣/ ٥٠٤٨) ومسلم (١/ ٥٤٦/ ٧٩٣[٢٣٦]) والترمذي (٥/ ٦٥٠/ ٣٨٥٥).

(٣) معالم السنن (٣/ ١٩٥١). (٤) النهاية (٢/ ٣١٢).

قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ۝٨٠﴾

★ **غريب الآية:**

لَبُوسٍ: اللبوس: الدرع. وقيل: اسم للسلاح كله عند العرب درعًا أو سيفًا أو رمحًا. قال الهذلي يصف رمحًا:

ومعي لبوس للبئيس كأنه   روق بجبهة ذي نعاج مجفل

تحصنكم: تحميكم. وأصل الإحصان: المنع. ومنه سمي الحصن لمنعه الأعداء.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عطية: «عدد اللَّه تعالى على البشر أن علم داود ﴿صَنْعَةَ﴾ الدروع فكان يصنعها أحكم صنعة لتكون وقاية من الحرب وسبب نجاة من العدو، و(اللبوس) في اللغة السلاح، فمنه الدرع والسيف والرمح وغير ذلك»[1].

قال الرازي: «فيه دلالة على أن أول من عمل الدرع داود ثم تعلم الناس منه، فتوارث الناس عنه ذلك. فعمت النعمة بها كل المحاربين من الخلق إلى آخر الدهر، فلزمهم شكر اللَّه تعالى على النعمة فقال: ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾ أي اشكروا اللَّه على ما يسر عليكم من هذه الصنعة»[2].

قال السعدي: «أي: علم اللَّه داود ﷺ صنعة الدروع، فهو أول من صنعها وعلمها وسرت صناعته إلى من بعده، فألان اللَّه له الحديد، وعلمه كيف يسردها والفائدة فيها كبيرة، ﴿لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ﴾ أي: هي وقاية لكم، وحفظ عند الحرب، واشتداد البأس.

---

(١) المحرر الوجيز (٤/ ٩٣).

(٢) التفسير الكبير (٢٢/ ٢٠٢).

﴿فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ﴾ نعمة اللَّه عليكم، حيث أجراها على يد عبده داود، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ﴾[1].

يحتمل أن تعليم اللَّه لداود صنعة الدروع وإلانتها أمر خارق للعادة، وأن يكون -كما قاله المفسرون-: إن اللَّه ألان له الحديد، حتى كان يعمله كالعجين والطين، من دون إذابة له على النار، ويحتمل أن تعليم اللَّه له على جاري العادة، وأن إلانة الحديد له، بما علمه اللَّه من الأسباب المعروفة الآن لإذابتها، وهذا هو الظاهر، لأن اللَّه امتن بذلك على العباد وأمرهم بشكرها، ولولا أن صنعته من الأمور التي جعلها اللَّه مقدورة للعباد، لم يمتن عليهم بذلك، ويذكر فائدتها، لأن الدروع التي صنع داود عليه السلام متعذر أن يكون المراد أعيانها، وإنما المنة بالجنس، والاحتمال الذي ذكره المفسرون، لا دليل عليه إلا قوله: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ﴾ وليس فيه أن الإلانة من دون سبب، واللَّه أعلم بذلك»[2].

قال الشنقيطي: «الضمير في قوله: ﴿عَلَّمۡنَٰهُ﴾ راجع إلى داود، والمراد بصنعة اللبوس: صنعة الدروع ونسجها. والدليل على أن المراد باللبوس في الآية الدروع: أنه أتبعه بقوله: ﴿لِتُحۡصِنَكُم مِّنۢ بَأۡسِكُمۡۖ﴾ أي لتحرز وتقي بعضكم من بأس بعض، لأن الدرع تقيه ضرر الضرب بالسيف، والرمي بالرمح والسهم، كما هو معروف. وقد أوضح هذا المعنى بقوله: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ * أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِۖ﴾[3] فقوله: ﴿أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ﴾ أي أن اصنع دروعا سابغات من الحديد الذي ألناه لك. والسرد: نسج الدرع. ويقال فيه الزرد، ومن الأول قول أبي ذؤيب الهذلي:

وعليهما مسرودتان قضاهما ... داود أو اصنع السوابغ تبع

ومن الثاني قول الآخر:

نقريهم لهذميات نقد بها ... ما كان خاط عليهم كل زراد

(١) النحل: الآية (٨١).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٥٠-٢٥١).

(٣) سبأ: الآيتان (١٠و١١).

ومراده بالزراد: ناسج الدرع. وقوله: ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ أي اجعل الحلق والمسامير في نسجك للدرع بأقدار متناسبة. فلا تجعل المسمار دقيقا لئلا ينكسر، ولا يشد بعض الحلق ببعض، ولا تجعله غليظا غلظا زائدا فيفصم الحلقة. وإذا عرفت أن اللبوس في الآية الدروع فاعلم أن العرب تطلق اللبوس على الدروع كما في الآية. ومنه قول الشاعر:

عليها أسود ضاويات لبوسهم سوابغ بيض لا يخرقها النبل

فقوله: (سوابغ) أي دروع سوابغ، وقول كعب بن زهير:

شم العرانيين أبطال لبوسهم من نسج داود في الهيجا سرابيل

ومراده باللبوس التي عبر عنها بالسرابيل: الدروع. والعرب تطلق اللبوس أيضًا على جميع السلاح درعا كان أو جوشنا أو سيفا أو رمحا. ومن إطلاقه على الرمح قول أبي كبير الهذلي يصف رمحا:

ومعي لبوس للبئيس كأنه روق بجبهة ذي نعاج مجفل

وتطلق اللبوس أيضًا على كل ما يلبس. ومنه قول بيهس:

البس كل حالة لبوسها إما نعيمها وإما بوسها

وما ذكره هنا من الامتنان على الخلق بتعليمه صنعة الدروع ليقيهم بها من بأس السلاح تقدم إيضاحه في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾[1] الآية.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾ الظاهر فيه أن صيغة الاستفهام هنا يراد بها الأمر، ومن إطلاق الاستفهام بمعنى الأمر في القرآن قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾[2] أي انتهوا. ولذا قال عمر رضي الله عنه: انتهينا يا رب. وقوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ﴾[3] الآية، أي أسلموا. وقد

(١) النحل: الآية (٨١).
(٢) المائدة: الآية (٩١).
(٣) آل عمران: الآية (٢٠).

تقرر في فن المعاني: أن من المعاني التي تؤدي بصيغة الاستفهام: الأمر، كما ذكرنا.

وقوله: ﴿شَٰكِرُونَ﴾ شكر العبد لربه: هو أن يستعين بنعمه على طاعته، وشكر الرب لعبده: هو أن يثيبه الثواب الجزيل من عمله القليل. ومادة (شكر) لا تتعدى غالبا إلا باللام، وتعديتها بنفسها دون اللام قليلة، ومنه قول أبي نخيلة:

شكرتك إن الشكر حبل من التقى وما كل من أوليته نعمة يقضى»[1].

* * *

(١) أضواء البيان (٤/ ٦٧٣-٦٧٥).

قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾﴾

★ غريب الآية:

الريح: الهواء المتحرك.

عاصفة: أي شديدة الهبوب. يقال: عصفت الريح واعتصفت، فهي عاصف وعاصفة.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿وَ﴾ سخرنا ﴿لِسُلَيْمَٰنَ﴾ بن داود ﴿ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً﴾ وعصوفها: شدة هبوبها ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَاۚ﴾ يقول: تجري الريح بأمر سليمان إلى الأرض التي باركنا فيها يعني: إلى الشام وذلك أنها كانت تجري بسليمان وأصحابه إلى حيث شاء سليمان، ثم تعود به إلى منزله بالشام، فلذلك قيل: ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾..

يقول -تعالى ذكره-: وسخرنا أيضًا لسليمان من الشياطين من يغوصون له في البحر، ويعملون عملا دون ذلك من البنيان والتماثيل والمحاريب ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ﴾ يقول: وكنا لأعمالهم ولأعدادهم حافظين، لا يئودنا حفظ ذلك كله»[1].

قال السعدي: «﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾ أي: سخرناها ﴿عَاصِفَةً﴾ أي: سريعة في مرورها، ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ﴾ حيث دبرت امتثلت أمره، غدوها شهر ورواحها شهر ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ وهي أرض الشام، حيث كان مقره، فيذهب على الريح شرقا وغربا، ويكون مأواها ورجوعها إلى الأرض المباركة، ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ﴾

(١) جامع البيان (١٧/ ٥٥-٥٦).

قد أحاط علمنا بجميع الأشياء، وعلمنا من داود وسليمان، ما أوصلناهما به إلى ما ذكرنا.

﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ﴾ وهذا أيضًا من خصائص سليمان ﷺ، أن اللَّه سخر له الشياطين والعفاريت، وسلطه على تسخيرهم في الأعمال، التي لا يقدر على كثير منها غيرهم، فكان منهم من يغوص له في البحر، ويستخرج الدر، واللؤلؤ وغير ذلك، ومنهم من يعمل له ﴿مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ﴾ وسخر طائفة منهم لبناء بيت المقدس، ومات وهم على عمله، وبقوا بعده سنة، حتى علموا موته، كما سيأتي إن شاء اللَّه تعالى.

﴿وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ﴾ أي: لا يقدرون على الامتناع منه وعصيانه، بل حفظهم اللَّه له، بقوته وعزته وسلطانه»[1].

قال الشنقيطي: «قوله: ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾ معطوف على معمول (سخرنا)، في قوله: ﴿وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ﴾[2] أي وسخرنا لسليمان الريح في حال كونها عاصفة؛ أي: شديدة الهبوب. يقال عصفت الريح أي اشتدت، فهي ريح عاصف وعصوف، وفي لغة بني أسد (أعصفت) فهي معصف ومعصفة، وقد قدمنا بعض شواهده العربية في سورة الإسراء.

وقوله: ﴿تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ﴾ أي تطيعه وتجري إلى المحل الذي يأمرها به، وما ذكره في هذه الآية: من تسخير الريح لسليمان، وأنها تجري بأمره بينه في غير هذا الموضع وزاد بيان قدر سرعتها، وذلك في قوله: ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞۖ﴾[3]، وقوله: ﴿فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ ٣٦﴾[4].

تنبيه:

اعلم أن في هذه الآيات التي ذكرنا سؤالين معروفين:

الأول أن يقال: إن اللَّه وصف الريح المذكورة هنا في سورة الأنبياء بأنها

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٥١-٢٥٢).

(٢) الأنبياء: الآية (٧٩).

(٣) سبأ: الآية (١٢).

(٤) ص: الآية (٣٦).

عاصفة. أي شديدة الهبوب، ووصفها في سورة ص بأنها تجري بأمره رخاء. والعاصفة غير التي تجري رخاء.

والسؤال الثاني هو أنه هنا في سورة الأنبياء خص جريها به بكونه إلى الأرض التي بارك فيها للعالمين، وفي سورة ص قال: ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾، وقوله: ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ أي حيث أراد. قاله مجاهد. وقال ابن الأعرابي: العرب تقول: أصاب الصواب، وأخطأ الجواب: أي أراد الصواب وأخطأ الجواب. ومنه قول الشاعر:

أصاب الكلام فلم يستطع فأخطأ الجواب لدى المفصل

قاله القرطبي. وعن رؤبة: أن رجلين من أهل اللغة قصداه ليسألاه عن معنى (أصاب). فخرج إليهما فقال: أين تصيبان؟ فقالا: هذه طلبتنا. ورجعا.

أما الجواب عن السؤال الأول فمن وجهين: الأول أنها عاصفة في بعض الأوقات، ولينة رخاء في بعضها بحسب الحاجة. كأن تعصف ويشتد هبوبها في أول الأمر حتى ترفع البساط الذي عليه سليمان وجنوده، فإذا ارتفع سارت به رخاء حيث أصاب.

الجواب الثاني هو ما ذكره الزمخشري قال: فإن قلت: وصفت هذه الريح بالعصف تارة وبالرخاء أخرى، فما التوفيق بينهما؟ قلت: كانت في نفسها رخية طيبة كالنسيم، فإذا مرت بكرسيه أبعدت به في مدة يسيرة، على ما قال: ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾. فكان جمعها بين الأمرين: أن تكون رخاء في نفسها، وعاصفة في عملها مع طاعتها لسليمان، وهبوبها على حسب ما يريد ويحتكم انتهى محل الغرض منه.

وأما الجواب عن السؤال الثاني فهو أن قوله: ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ يدل على أنها تجري بأمره حيث أراد من أقطار الأرض. وقوله: ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ لأن مسكنه فيها وهي الشام، فترده إلى الشام. وعليه فقوله: ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ في حالة الذهاب. وقوله: ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ في حالة الإياب إلى محل السكنى. فانفكت الجهة فزال الإشكال. وقد قال نابغة ذبيان:

إلا سليمان إذ قال الإله له قم في البرية فاحددها عن الفند

وخيس الجن إني قد أذنت لهم يبنون تدمر بالصفاح والعمد

وتدمر: بلد بالشام. وذلك مما يدل على أن الشام هو محل سكناه كما هو معروف.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ ٨٢﴾.

الأظهر في قوله: ﴿مَن يَغُوصُونَ﴾ أنه في محل نصب عطفا على معمول (سخرنا) أي وسخرنا له من يغوصون له من الشياطين. وقيل: (من) مبتدأ، والجار والمجرور قبله خبره.

وقد ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أنه سخر لسليمان من يغوصون له من الشياطين، أي يغوصون له في البحار فيستخرجون له منها الجواهر النفيسة كاللؤلؤ، والمرجان. والغوص: النزول تحت الماء. والغواص: الذي يغوص البحر ليستخرج منه اللؤلؤ ونحوه، ومنه قول نابغة ذبيان:

أو درة صدفية غواصها بهج متى يراها يهل ويسجد

وقد ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة أيضًا أن الشياطين المسخرين له يعملون له عملا دون ذلك، أي سوى ذلك الغوص المذكور، أي كبناء المدائن والقصور، وعمل المحاريب والتماثيل، والجفان والقدور الراسيات، وغير ذلك من اختراع الصنائع العجيبة.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ﴾ أي من أن يزيغوا عن أمره، أو يبدلوا أو يغيروا، أو يوجد منهم فساد فيما هم مسخرون فيه. وهذه المسائل الثلاث التي تضمنتها هذه الآية الكريمة جاءت مبينة في غير هذا الموضع، كقوله في الغوص والعمل سواء: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ٣٧﴾[1] الآية، وقوله في العمل غير الغوص: ﴿وَمِنَ ٱلۡجِنِّ مَن يَعۡمَلُ بَيۡنَ يَدَيۡهِ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ﴾[2] وقوله: ﴿يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ﴾[3]، وكقوله في حفظهم من أن

(١) ص: الآية (٣٧). (٢) سبأ: الآية (١٢).
(٣) سبأ: الآية (١٣).

يزيغوا عن أمره: ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾[١]، وقوله: ﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ۝٣٨﴾[٢].

وصفة البساط، وصفة حمل الريح له، وصفة جنود سليمان من الجن والإنس والطير كل ذلك مذكور بكثرة في كتب التفسير، ونحن لم نطل به الكلام في هذا الكتاب المبارك»[٣].

* * *

(١) سبأ: الآية (١٢).

(٢) ص: الآية (٣٨).

(٣) أضواء البيان (٤/ ٦٧٥-٦٧٨).

قوله تعالى: ﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: واذكر أيوب يا محمد إذ نادى ربه وقد مسه الضر والبلاء رب ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ يقول -تعالى ذكره-: فاستجبنا لأيوب دعاءه إذ نادانا، فكشفنا ما كان به من ضر وبلاء وجهد، وكان الضر الذي أصابه والبلاء الذي نزل به امتحانا من اللَّه له واختبارا»[1].

قال ابن القيم: «جمع في هذا الدعاء بين حقيقة التوحيد وإظهار الفقر والفاقة إلى ربه ووجود طعم المحبة في المتملق له، والإقرار له بصفة الرحمة وأنه أرحم الراحمين، والتوسل إليه بصفاته سبحانه وشدة حاجته وهو فقره، ومتى وجد المبتلى هذا كشفت عنه بلواه»[2].

قال السعدي: «أي: واذكر عبدنا ورسولنا، أيوب -مثنيا معظما له، رافعا لقدره- حين ابتلاه، ببلاء شديد، فوجده صابرا راضيا عنه، وذلك أن الشيطان سلط على جسده، ابتلاء من اللَّه، وامتحانا فنفخ في جسده، فتقرح قروحا عظيمة ومكث مدة طويلة، واشتد به البلاء، ومات أهله، وذهب ماله، فنادى ربه: رب ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ فتوسل إلى اللَّه بالإخبار عن حال نفسه، وأنه بلغ الضر منه كل مبلغ، وبرحمة ربه الواسعة العامة، فاستجاب اللَّه له، وقال له: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾﴾[3] فيركض برجله فخرجت من ركضته عين ماء باردة،

---

(١) جامع البيان (١٧/ ٥٧).

(٢) الفوائد (ص٢٥٩).

(٣) ص: الآية (٤٢).

فاغتسل منها وشرب، فأذهب اللَّه عنه ما به من الأذى، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ﴾ أي: رددنا عليه أهله وماله.

﴿وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ بأن منحه اللَّه العافية من الأهل والمال شيئًا كثيرا، ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ به، حيث صبر ورضي، فأثابه اللَّه ثوابا عاجلا قبل ثواب الآخرة.

﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ أي: جعلناه عبرة للعابدين، الذين ينتفعون بالعبر، فإذا رأوا ما أصابه من البلاء، ثم ما أثابه اللَّه بعد زواله، ونظروا السبب، وجدوه الصبر، ولهذا أثنى اللَّه عليه به في قوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾[1] فجعلوه أسوة وقدوة عندما يصيبهم الضر»[2].

قال الشنقيطي: «الظاهر أن قوله: ﴿وَأَيُّوبَ﴾ منصوب بـ(اذْكُرْ) مقدرًا، ويدل على ذلك قوله تعالى في ص: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾﴾[3].

وقد أمر -جل وعلا- في هاتين الآيتين الكريمتين نبيه ﷺ: أن يذكر أيوب حين نادى ربه قائلا: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ وأن ربه استجاب له فكشف عنه جميع ما به من الضر، وأنه آتاه أهله، وآتاه مثلهم معهم رحمة منه -جل وعلا- به، وتذكيرا للعابدين أي الذين يعبدون اللَّه لأنهم هم المنتفعون بالذكرى.

وهذا المعنى الذي ذكره هنا ذكره أيضًا في سورة ص في قوله: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾﴾ إلى قوله: ﴿لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[4] والضر الذي مس أيوب، ونادى ربه ليكشفه عنه كان بلاء أصابه في بدنه وأهله وماله. ولما أراد اللَّه إذهاب الضر عنه أمره أن يركض برجله ففعل، فنبعت له عين ماء فاغتسل منها فزال كل ما بظاهر بدنه من الضر، وشرب منها فزال كل ما بباطنه. كما أشار تعالى إلى ذلك في قوله: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾﴾[5].

وما ذكره في الأنبياء: من أنه آتاه أهله ومثلهم رحمة منه وذكرى لمن يعبده بينه في ص في قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[6]، وقوله في الأنبياء:

---

(١) ص: الآية (٤٤).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٥٣-٢٥٤).
(٣) ص: الآية (٤١).
(٤) ص: الآيات (٤١-٤٣).
(٥) ص: الآية (٤٢).
(٦) ص: الآية (٤٣).

﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ مع قوله في ص: ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ فيه الدلالة الواضحة على أن أصحاب العقول السليمة من شوائب الاختلال، هم الذين يعبدون اللَّه وحده ويطيعونه. وهذا يؤيد قول من قال من أهل العلم، إن من أوصى بشيء من ماله لأعقل الناس أن تلك الوصية تصرف لأتقى الناس وأشدهم طاعة لله تعالى؛ لأنهم هم أولو الألباب. أي العقول الصحيحة السالمة من الاختلال.

تنبيه:

في هذه الآيات المذكورة سؤال معروف، وهو أن يقال: إن قول أيوب المذكور في الأنبياء في قوله: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾[1] وفي ص في قوله: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾[2] يدل على أنه ضجر من المرض فشكا منه. مع أن قوله تعالى عنه: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾[3] يدل على كمال صبره؟

والجواب أن ما صدر من أيوب دعاء وإظهار فقر وحاجة إلى ربه، لا شكوى ولا جزع.

قال أبو عبداللَّه القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير هذه الآية الكريمة: ولم يكن قوله: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ جزعا. لأن اللَّه تعالى، قال: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾[4] بل كان ذلك دعاء منه. والجزع في الشكوى إلى الخلق لا إلى اللَّه تعالى، والدعاء لا ينافي الرضا.

قال الثعلبي: سمعت أستاذنا أبا القاسم بن حبيب يقول: حضرت مجلسا غاصا بالفقهاء والأدباء في دار السلطان. فسئلت عن هذه الآية الكريمة بعد اجتماعهم على أن قول أيوب كان شكاية وقد قال اللَّه تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾[5] فقلت: ليس هذا شكاية، وإنما كان دعاء. بيانه ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ والإجابة تتعقب الدعاء لا الاشتكاء، فاستحسنوه وارتضوه. وسئل الجنيد عن هذه الآية الكريمة فقال: عرفه فاقة السؤال ليمن عليه بكرم النوال. انتهى منه.

ودعاء أيوب المذكور ذكره اللَّه في سورة الأنبياء من غير أن يسند مس الضر

---

(١) الأنبياء: الآية (٨٣).
(٢) ص: الآية (٤١).
(٣) ص: الآية (٤٤).
(٤) ص: الآية (٤٤).
(٥) ص: الآية (٤٤).

أيوب إلى الشيطان في قوله: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ وذكره في سورة (صٓ) وأسند ذلك للشيطان في قوله: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾[1] والنصب على جميع القراءات معناه: التعب والمشقة، والعذاب: الألم. وفي نسبة ما أصابه من المشقة والألم إلى الشيطان في آية ص هذه إشكال قوي معروف؛ لأن اللَّه ذكر في آيات من كتابه: أن الشيطان ليس له سلطان على مثل أيوب من الأنبياء الكرام، كقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾[3] الآية، وقوله تعالى عنه مقررا له: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾[5].

وللعلماء عن هذا الإشكال أجوبة، منها ما ذكره الزمخشري قال: فإن قلت: لم نسبه إلى الشيطان، ولا يجوز أن يسلطه على أنبيائه ليقضي من إتعابهم وتعذيبهم وطره، ولو قدر على ذلك لم يدع صالحا إلا وقد نكبه وأهلكه، وقد تكرر في القرآن أنه لا سلطان له إلا الوسوسة فحسب؟

قلت: لما كانت وسوسته إليه، وطاعته له فيما وسوس سببا فيما مسه اللَّه به من النصب والعذاب نسبه إليه، وقد راعى الأدب في ذلك حيث لم ينسبه إلى اللَّه في دعائه، مع أنه فاعله ولا يقدر عليه إلا هو. وقيل: أراد ما كان يوسوس به إليه في مرضه من تعظيم ما نزل به من البلاء، ويغريه على الكراهة والجزع، فالتجأ إلى اللَّه تعالى في أن يكفيه ذلك بكشف البلاء، أو بالتوفيق في دفعه ورده بالصبر الجميل.

وروي أنه كان يعوده ثلاثة من المؤمنين. فارتد أحدهم فسأل عنه، فقيل: ألقى إليه الشيطان أن اللَّه لا يبتلي الأنبياء الصالحين. وذكر في سبب بلائه: أن رجلا استغاثه على ظالم فلم يغثه. وقيل: كانت مواشيه في ناحية ملك كافر فداهنه ولم يغزه. وقيل. أعجب بكثرة ماله. انتهى منه.

ومنه ما ذكره جماعة من المفسرين: أن اللَّه سلط الشيطان على ماله وأهله ابتلاء

---

(١) ص: الآية (٤١).
(٢) النحل: الآية (٩٩).
(٣) سبأ: الآية (٢١).
(٤) إبراهيم: الآية (٢٢).
(٥) الحجر: الآية (٤٢).

لأيوب. فأهلك الشيطان ماله وولده، ثم سلطه على بدنه ابتلاء له فنفخ في جسده نفخة اشتعل منها، فصار في جسده ثآليل، فحكها بأظافره حتى دميت، ثم بالفخار حتى تساقط لحمه، وعصم اللَّه قلبه ولسانه.

(وغالب ذلك من الإسرائيليات) وتسليطه للابتلاء على جسده، وماله وأهله ممكن، وهو أقرب من تسليطه عليه بحمله على أن يفعل ما لا ينبغي. كمداهنة الملك المذكور، وعدم إغاثة الملهوف، إلى غير ذلك من الأشياء التي يذكرها المفسرون. وقد ذكروا هنا قصة طويلة تتضمن البلاء الذي وقع فيه، وقدر مدته (وكل ذلك من الإسرائيليات) وقد ذكرنا هنا قليلا.

وغاية ما دل عليه القرآن: أن اللَّه ابتلى نبيه أيوب عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، وأنه ناداه فاستجاب له وكشف عنه كل ضر، ووهبه أهله ومثلهم معهم، وأن أيوب نسب ذلك في ص إلى الشيطان. ويمكن أن يكون سلطه اللَّه على جسده وماله وأهله. ابتلاء ليظهر صبره الجميل، وتكون له العاقبة الحميدة في الدنيا والآخرة، ويرجع له كل ما أصيب فيه، والعلم عند اللَّه تعالى، وهذا لا ينافي أن الشيطان لا سلطان له على مثل أيوب، لأن التسليط على الأهل والمال والجسد من جنس الأسباب التي تنشأ عنها الأعراض البشرية كالمرض، وذلك يقع للأنبياء، فإنهم يصيبهم المرض، وموت الأهل، وهلاك المال لأسباب متنوعة. ولا مانع من أن يكون جملة تلك الأسباب تسليط الشيطان على ذلك للابتلاء. وقد أوضحنا جواز وقوع الأمراض والتأثيرات البشرية على الأنبياء في سورة (طه) وقول اللَّه لنبيه أيوب في سورة ص: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾[1] الآية، قال المفسرون فيه: إنه حلف في مرضه ليضربن زوجه مائة سوط، فأمره اللَّه أن يأخذ ضغثا فيضربها به ليخرج من يمينه، والضغث: الحزمة الصغيرة من حشيش أو ريحان أو نحو ذلك. والمعنى: أنه يأخذ حزمة فيها مائة عود فيضربها بها ضربة واحدة، فيخرج بذلك من يمينه. وقد قدمنا في سورة الكهف الاستدلال بآية ﴿وَلَا تَحْنَثْ﴾ على أن الاستثناء المتأخر لا يفيد؛ إذ لو كان يفيد لقال اللَّه لأيوب قل إن شاء اللَّه. ليكون ذلك استثناء في يمينك»[2].

---

(١) ص: الآية (٤٤).
(٢) أضواء البيان (٤/ ٦٧٨-٦٨٢).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضائل أيوب عليه السلام وما أصابه من الضر

* عن أنس بن مالك أن رسول اللَّه ﷺ قال: «إن أيوب نبي اللَّه ﷺ لبث في بلائه ثمان عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه كانا من أخص إخوانه، كانا يغدوان إليه ويروحان، فقال أحدهما لصاحبه: تعلم واللَّه لقد أذنب أيوب ذنبا ما أذنبه أحد من العالمين، قال له صاحبه: وما ذاك؟ قال: منذ ثمان عشرة سنة لم يرحمه اللَّه، فيكشف ما به، فلما راح إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له، فقال أيوب: لا أدري ما تقول غير أن اللَّه يعلم أني كنت أمر على الرجلين يتنازعان فيذكران اللَّه، فأرجع إلى بيتي فأكفر عنهما كراهية أن يذكر اللَّه إلا في حق. قال: وكان يخرج إلى حاجته، فإذا قضى حاجته أمسكت امرأته بيده، فلما كان ذات يوم، أبطأ عليها، فأوحى اللَّه إلى أيوب في مكانه ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ۝٤٢﴾[1] فاستبطأته فبلغته، فأقبل عليها قد أذهب اللَّه ما به من البلاء فهو أحسن ما كان فلما رأته قالت: أي بارك اللَّه فيك، هل رأيت نبي اللَّه هذا المبتلى، واللَّه على ذلك ما رأيت أحدا كان أشبه به منك إذ كان صحيحا، قال: فإني أنا هو، وكان له أندران: أندر القمح، وأندر الشعير، فبعث اللَّه سحابتين، فلما كانت إحداهما على أندر القمح، أفرغت فيه الذهب حتى فاضت، وأفرغت الأخرى على أندر الشعير الورق حتى فاضت»[2].

★ غريب الحديث:

أندران: الأندر: البيدر، وهو الموضع الذي يداس فيه الطعام.

★ فوائد الحديث:

قال ابن كثير: «ولم يزد هذا كله أيوب عليه السلام إلا صبرًا واحتسابًا، وحمدًا

---

(١) ص: الآية (٤٢).

(٢) أخرجه: أبو يعلى (٦/ ٢٩٩-٣٠٠/ ٣٦١٧) والبزار (كشف الأستار ٣/ ١٠٧-١٠٨/ ٢٣٥٧)، وصححه ابن حبان (الإحسان ٧/ ١٥٧-١٥٩/ ٢٨٩٨) والحاكم (٢/ ٥٨١-٥٨٢) على شرط الشيخين ووافقه الذهبي. وذكره الهيثمي في المجمع (٨/ ٢٠٨) وقال: «رواه أبو يعلى والبزار، ورجال البزار رجال الصحيح». وصححه الألباني (الصحيحة ١٧).

وشكرًا، حتى إن المثل ليضرب بصبره -عَلَيْهِ السَّلَامُ- ويضرب المثل أيضًا بما حصل له من أنواع البلايا»[١].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**بينما أيوب يغتسل عريانا خر عليه رجل جراد من ذهب، فجعل يحثي في ثوبه فنادى ربه: يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى؟ قال: بلى، يا رب، ولكن لا غنى لي عن بركتك**»[٢].

★ **غريب الحديث:**

خر عليه: أي سقط عليه من فوق.

رجل جراد: السرب من الجراد أي جماعة من الجراد.

يحثي: بالمثلثة أي يأخذ بيديه جميعا.

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ: «وفي الحديث جواز الحرص على الاستكثار من الحلال في حق من وثق من نفسه بالشكر عليه، وفيه تسمية المال الذي يكون من هذه الجهة بركة، وفيه فضل الغني الشاكر»[٣].

وقال أيضا: «واستنبط منه الخطابي جواز أخذ النثار في الأملاك، وتعقبه ابن التين فقال: هو شيء خص اللَّه به نبيه أيوب، وهو بخلاف النثار[٤] فإنه من فعل الآدمي فيكره لما فيه من السرف، ورد عليه بأنه أذن فيه من قبل الشارع إن ثبت الخبر ويستأنس فيه بهذه القصة، واللَّه أعلم»[٥].

* عن سعد رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله! أي الناس أشد بلاء؟ قال: «**الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، فيبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان دينه صلبا اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي**

---

(١) البداية والنهاية (١/ ٢٠٧).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٣١٤) والبخاري (٦/ ٥١٨/ ٣٣٩١) والنسائي (١/ ٢٠٠-٢٠١/ ٤٠٧).

(٣) الفتح (٦/ ٥١٩-٥٢٠).

(٤) النثار: هو نثر الدراهم والسكر وغيرهما في عقد النكاح وغيره.

(٥) الفتح (٦/ ٥٢٠).

على الأرض ما عليه خطيئة»[١].

★ **غريب الحديث:**

بلاء: «أي محنة ومصيبة، ويطلق على المنحة، لكن المراد هنا بقرينة السياق المحنة، فإن أصله الاختبار، لكن لما كان اختبار اللَّه تعالى لعباده تارة بالمحنة، وتارة بالمنحة، أطلق عليهما»[٢].

ثم الأمثل فالأمثل: أي الأشرف فالأشرف، والأعلى فالأعلى رتبة ومنزلة.

صلبا: بضم الصاد المهملة، أي قويا شديدا.

رقة: أي ذا رقة، ويحتمل أن يكون رقة اسم كان أي ضعف ولين.

فما يبرح: أي ما يفارق أو ما يزال.

★ **فوائد الحديث:**

قال المناوي: ««الأنبياء» المراد بهم ما شمل الرسل، وذلك لتتضاعف أجورهم، وتتكامل فضائلهم، ويظهر للناس صبرهم ورضاهم فيقتدى بهم، ولئلا يفتتن الناس بدوام صحتهم فيعبدوهم. . ومن ظن أن شدة البلاء هوان بالعبد، فقد ذهب لبه وعمي قلبه، فقد ابتلي من الأكابر ما لا يحصى، ألا ترى إلى ذبح نبي اللَّه يحيى بن زكريا وقتل الخلفاء الثلاثة والحسين وابن الزبير وابن جبير، وقد ضرب أبو حنيفة وحبس ومات بالسجن. وجرد مالك وضرب بالسياط وجذبت يده حتى انخلعت من كتفه. وضرب أحمد حتى أغمي عليه وقطع من لحمه وهو حي، وأمر بصلب سفيان فاختفى، ومات البويطي مسجونًا في قيوده، ونفي البخاري من بلده، إلى غير ذلك مما يطول»[٣].

* * *

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ١٧٢) والترمذي (٤/ ٥٢٠/ ٢٣٩٨) وقال: «حديث حسن صحيح»، ابن ماجه (٢/ ١٣٣٤/ ٤٠٢٣) وصححه ابن حبان (الإحسان ٧/ ١٦١/ ٢٩٠١) والحاكم (١/ ٤١).

(٢) الفيض (١/ ٥١٨).

(٣) الفيض (١/ ٥١٨-٥١٩).

قوله تعالى: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني -تعالى ذكره- بإسماعيل: إسماعيل بن إبراهيم صادق الوعد، وبإدريس: أخنوخ وبذي الكفل: رجلا تكفل من بعض الناس، إما من نبي وإما من ملك من صالحي الملوك بعمل من الأعمال، فقام به من بعده، فأثنى اللّه عليه حسن وفائه بما تكفل به، وجعله من المعدودين في عباده، مع من حمد صبره على طاعة الله»[١].

قال الرازي: «قال أبو موسى الأشعري ﷺ ومجاهد: ذو الكفل لم يكن نبيا ولكن كان عبدا صالحا، وقال الحسن والأكثرون: إنه من الأنبياء عليهم السلام، وهذا أولى لوجوه:

أحدها: أن ذا الكفل يحتمل أن يكون لقبا وأن يكون اسما، والأقرب أن يكون مفيدا، لأن الاسم إذا أمكن حمله على ما يفيد فهو أولى من اللقب. إذا ثبت هذا فنقول الكفل هو النصيب، والظاهر أن اللّه تعالى إنما سماه بذلك على سبيل التعظيم، فوجب أن يكون ذلك الكفل هو كفل الثواب فهو إنما سمي بذلك لأن عمله وثواب عمله كان ضعف عمل غيره وضعف ثواب غيره، ولقد كان في زمنه أنبياء على ما روي ومن ليس بنبي لا يكون أفضل من الأنبياء.

وثانيها: أنه تعالى قرن ذكره بذكر إسمعيل وإدريس، والغرض ذكر الفضلاء من عباده ليتأسى بهم، وذلك يدل على نبوته.

وثالثها: أن السورة ملقبة بسورة الأنبياء فكل من ذكره اللّه تعالى فيها فهو نبي»[٢].

---

(١) جامع البيان (١٧/ ٧٣).

(٢) التفسير الكبير (٢٢/ ٢١٢).

قال ابن كثير: «وأما إسماعيل فالمراد به ابن إبراهيم الخليل عليهما السلام، وقد تقدم ذكره في سورة مريم، وكذا إدريس ﷺ، وأما ذو الكفل فالظاهر من السياق أنه ما قرن مع الأنبياء إلا وهو نبي. وقال آخرون: إنما كان رجلا صالحا، وكان ملكا عادلا وحكما مقسطا»[1].

قال السعدي: «أي: واذكر عبادنا المصطفين، وأنبياءنا المرسلين بأحسن الذكر، وأثن عليهم أبلغ الثناء، إسماعيل بن إبراهيم، وإدريس، وذا الكفل، نبيين من أنبياء بني إسرائيل ﴿كُلٌّ﴾ من هؤلاء المذكورين ﴿مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾. والصبر: هو حبس النفس ومنعها، مما تميل بطبعها إليه، وهذا يشمل أنواع الصبر الثلاثة: الصبر على طاعة اللّٰه والصبر عن معصية اللّٰه، والصبر على أقدار اللّٰه المؤلمة، فلا يستحق العبد اسم الصبر التام، حتى يوفي هذه الثلاثة حقها. فهؤلاء الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، قد وصفهم اللّٰه بالصبر، فدل أنهم وفوها حقها، وقاموا بها كما ينبغي، ووصفهم أيضًا بالصلاح، وهو يشمل صلاح القلب، بمعرفة اللّٰه ومحبته، والإنابة إليه كل وقت، وصلاح اللسان بأن يكون رطبا من ذكر اللّٰه، وصلاح الجوارح، باشتغالها بطاعة اللّٰه وكفها عن المعاصي. فبصبرهم وصلاحهم، أدخلهم اللّٰه برحمته، وجعلهم مع إخوانهم من المرسلين، وأثابهم الثواب العاجل والآجل، ولو لم يكن من ثوابهم، إلا أن اللّٰه تعالى نوه بذكرهم في العالمين، وجعل لهم لسان صدق في الآخرين، لكفى بذلك شرفا وفضلا»[2].

* * *

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣٥٧).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٥٥).

قوله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾

★ غريب الآية:

ذا النون: النون: الحوت. والمراد به نبي اللَّه يونس بن متَّى ﷺ، لابتلاعه إياه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «أي: واذكر عبدنا ورسولنا ذا النون وهو: يونس، أي: صاحب النون، وهي الحوت، بالذكر الجميل، والثناء الحسن، فإن اللَّه تعالى أرسله إلى قومه فدعاهم، فلم يؤمنوا فوعدهم بنزول العذاب بأمد سماه لهم.

فجاءهم العذاب ورأوه عيانا، فعجوا إلى اللَّه، وضجوا وتابوا، فرفع اللَّه عنهم العذاب، كما قال تعالى: ﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٩٨﴾﴾[1] وقال: ﴿وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ﴿١٤٨﴾﴾[2] وهذه الأمة العظيمة، الذين آمنوا بدعوة يونس، من أكبر فضائله. ولكنه -عليه الصلاة والسلام-، ذهب مغاضبا، وأبق عن ربه لذنب من الذنوب، التي لم يذكرها اللَّه لنا في كتابه، ولا حاجة لنا إلى تعيينها لقوله: ﴿إِذۡ أَبَقَ إِلَى ٱلۡفُلۡكِ ... وَهُوَ مُلِيمٞ﴾[3] أي: فاعل ما يلام عليه، والظاهر أن عجلته ومغاضبته لقومه وخروجه من بين أظهرهم قبل أن يأمره اللَّه بذلك، ظن أن اللَّه لا يقدر عليه، أي: يضيق عليه في بطن الحوت أو ظن أنه سيفوت اللَّه تعالى، ولا مانع من عروض هذا الظن للكمل من الخلق على وجه لا يستقر، ولا يستمر عليه، فركب في السفينة مع أناس، فاقترعوا، من يلقون منهم في البحر؟ لما خافوا

---

(١) يونس: الآية (٩٨).
(٢) الصافات: الآيتان (١٤٧و١٤٨).
(٣) الصافات: الآيات (١٤٠-١٤٢).

الغرق إن بقوا كلهم، فأصابت القرعة يونس، فالتقمه الحوت، وذهب به إلى ظلمات البحار، فنادى في تلك الظلمات: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فأقر لله تعالى بكمال الألوهية، ونزهه عن كل نقص، وعيب وآفة، واعترف بظلم نفسه وجنايته.

قال اللَّه تعالى: ﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ١٤٣ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٤٤﴾[1] ولهذا قال هنا: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ﴾ أي الشدة التي وقع فيها.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ وهذا وعد وبشارة لكل مؤمن وقع في شدة وغم أن اللَّه تعالى سينجيه منها، ويكشف عنه ويخفف لإيمانه كما فعل بـ «يونس» عليه السلام»[2].

قال الشنقيطي: «أي واذكر ذان النون. والنون: الحوت. ﴿وَذَا﴾ بمعنى صاحب. فقوله: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾ معناه صاحب الحوت. كما صرح اللَّه بذلك في القلم في قوله: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ﴾[3] الآية. وإنما أضافه إلى الحوت لأنه التقمه كما قال تعالى: ﴿فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ١٤٢﴾[4].

وقوله: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾ فيه وجهان من التفسير لا يكذب أحدهما الآخر:

الأول أن المعنى ﴿لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾ أي لن نضيق عليه في بطن الحوت. ومن إطلاق (قدر) بمعنى (ضيق) في القرآن قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُۚ﴾[5] أي ويضيق الرزق على من يشاء، وقوله تعالى: ﴿لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ﴾[6] الآية. فقوله: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ﴾ أي ومن ضيق عليه رزقه.

الوجه الثاني أن معنى ﴿لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾ لن نقضي عليه ذلك. وعليه فهو من القدر والقضاء. (وقدر) بالتخفيف تأتي بمعنى (قدر) المضعفة: ومنه قوله تعالى: ﴿فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ﴾[7] أي قدره اللَّه. ومنه قول الشاعر وأنشده ثعلب شاهدا لذلك:

---

(١) الصافات: الآيتان (١٤٣و١٤٤).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٥٦-٢٥٧).

(٣) القلم: الآية (٤٨).

(٤) الصافات: الآية (١٤٢).

(٥) الرعد: الآية (٢٦).

(٦) الطلاق: الآية (٧).

(٧) القمر: الآية (١٢).

فليست عشيات الحمى برواجع لنا أبدا ما أورق السلم النضر
ولا عائد ذاك الزمان الذي مضى تباركت ما تقدر يقع ولك الشكر

والعرب تقول: قدر اللَّه لك الخير يقدره قدرا، وكضرب يضرب، ونصر ينصر، بمعنى قدره لك تقديرا. ومنه على أصح القولين (ليلة القدر) لأن اللَّه يقدر فيها الأشياء. كما قال تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝﴾[1] والقدر بالفتح، والقدر بالسكون: ما يقدره اللَّه من القضاء. ومنه قول هدبة ابن الخشرم:

ألا يا لقومي للنوائب والقدر وللأمر يأتي المرء من حيث لا يدري

أما قول من قال: إن ﴿أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ من القدرة فهو قول باطل بلا شك. لأن نبي اللَّه يونس لا يشك في قدرة اللَّه على كل شيء، كما لا يخفى.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿مُغَاضِبًا﴾ أي في حال كونه مغاضبا لقومه. ومعنى المفاعلة فيه: أنه أغضبهم بمفارقته وتخوفهم حلول العذاب بهم، وأغضبوه حين دعاهم إلى اللَّه مدة فلم يجيبوه، فأوعدهم بالعذاب. ثم خرج من بينهم على عادة الأنبياء عند نزول العذاب قبل أن يأذن اللَّه له في الخروج. قاله أبو حيان في البحر. وقال أيضا: وقيل معنى ﴿مُغَاضِبًا﴾ غضبان، وهو من المفاعلة التي لا تقتضي اشتراكا. نحو عاقبت اللص، وسافرت اهـ.

واعلم أن قول من قال: ﴿مُغَاضِبًا﴾ أي مغاضبا لربه كما روي عن ابن مسعود، وبه قال الحسن والشعبي وسعيد بن جبير، واختاره الطبري والقتبي، واستحسنه المهدوي يجب حمله على معنى القول الأول.

أي مغاضبا من أجل ربه. قال القرطبي بعد أن ذكر هذا القول عمن ذكرنا: وقال النحاس: وربما أنكر هذا من لا يعرف اللغة، وهو قول صحيح، والمعنى: مغاضبا من أجل ربه، كما تقول: غضبت لك أي من أجلك، والمؤمن يغضب لله ﷻ إذا عُصِي. انتهى منه. والمعنى على ما ذكر: مغاضبا قومه من أجل ربه، أي من أجل كفرهم به، وعصيانهم له. وغير هذا لا يصح في الآية.

وقوله تعالى: ﴿فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ أي ظلمة البحر، وظلمة الليل، وظلمة

(١) الدخان: الآية (٤).

بطن الحوت. و(أن) في قوله: ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ مفسرة، وقد أوضحنا فيما تقدم معنى ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ﴾، ومعنى ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾، ومعنى الظلم، فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

وقوله: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ﴾ أي أجبناه ونجيناه من الغم الذي هو فيه في بطن الحوت، وإطلاق استجاب بمعنى أجاب معروف في اللغة، ومنه قول كعب بن سعد الغنوي:

وداع دعا يا من يجيب إلى الندى فلم يستجبه عند ذاك مجيب

وما ذكره الله -جل وعلا- في هذه الآية: من نداء نبيه يونس في تلك الظلمات هذا النداء العظيم، وأن الله استجاب له ونجاه من الغم أوضحه في غير هذا الموضع.

وبين في بعض المواضع: أنه لو لم يسبح هذا التسبيح العظيم للبث في بطن الحوت إلى يوم البعث ولم يخرج منه. وبين في بعضها أنه طرحه بالعراء وهو سقيم.

وبين في بعضها: أنه خرج بغير إذن كخروج العبد الآبق، وأنهم اقترعوا على من يلقى في البحر فوقعت القرعة على يونس أنه هو الذي يلقى فيه.

وبين في بعضها: أن الله تداركه برحمته. ولو لم يتداركه بها لنبذ بالعراء في حال كونه مذموما، ولكنه تداركه بها فنبذ غير مذموم، قال تعالى في الصافات: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٣٩ إِذۡ أَبَقَ إِلَى ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ١٤٠ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُدۡحَضِينَ ١٤١ فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٞ ١٤٢ فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ١٤٣ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٤٤ ۞ فَنَبَذۡنَٰهُ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٞ ١٤٥ وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ ١٤٦ وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ ١٤٧ فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ١٤٨﴾[1]. فقوله في آيات الصافات المذكورة ﴿إِذۡ أَبَقَ﴾ أي: حين أبق، وهو من قول العرب: عبد آبق، لأن يونس خرج قبل أن يأذن له ربه، ولذلك أطلق عليه اسم الإباق. واستحقاق الملامة في قوله: ﴿وَهُوَ مُلِيمٞ﴾ لأن المليم اسم فاعل ألام إذا فعل ما يستوجب الملام. وقوله: ﴿فَسَاهَمَ﴾ أي قارع بمعنى أنه وضع مع أصحاب السفينة سهام القرعة. لأنه خرج له السهم الذي يلقى صاحبه في البحر. ومن ذلك قول الشاعر:

(١) الصافات: الآيات (١٣٩-١٤٨).

قتلنا المدحضين بكل فج فقد قرت بقتلهم العيون

وقوله: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ﴾ أي طرحناه، بأن أمرنا الحوت أن يلقيه بالساحل. والعراء: الصحراء. وقول من قال: العراء الفضاء أو المتسع من الأرض، أو المكان الخالي أو وجه الأرض راجع إلى ذلك، ومنه قول الشاعر وهو رجل من خزاعة:

ورفعت رجلا لا أخاف عثارها ونبذت بالبلد العراء ثيابي

وشجرة اليقطين: هي الدباء. وقوله: ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ أي مريض لما أصابه من التقام الحوت إياه، وقال تعالى في القلم: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ * لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾[1] فقوله في آية القلم هذه: ﴿إِذْ نَادَىٰ﴾ أي نادى أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، وقوله: ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ أي مملوء غما، كما قال تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ وهو قول ابن عباس ومجاهد. وعن عطاء وأبي مالك ﴿مَكْظُومٌ﴾: مملوء كربا. قال الماوردي: والفرق بين الغم والكرب: أن الغم في القلب. والكرب في الأنفاس. وقيل: ﴿مَكْظُومٌ﴾ محبوس. والكظم: الحبس. ومنه قولهم: كظم غيظه، أي حبس غضبه، قاله ابن بحر. وقيل: المكظوم المأخوذ بكظمه، وهو مجرى النفس، قاله المبرد، انتهى من القرطبي.

وآية القلم المذكورة تدل على أن نبي الله يونس عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام عجل بالذهاب ومغاضبة قومه، ولم يصبر الصبر اللازم بدليل قوله مخاطبا نبينا ﷺ فيها: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾[2] الآية. فإن أمره لنبينا ﷺ بالصبر ونهيه إياه أن يكون كصاحب الحوت دليل على أن صاحب الحوت لم يصبر كما ينبغي. وقصة يونس، وسبب ذهابه ومغاضبته قومه مشهورة مذكورة في كتب التفسير. وقد بين تعالى في سورة يونس: أن قوم يونس آمنوا فنفعهم إيمانهم دون غيرهم من سائر القرى التي بعثت إليهم الرسل، وذلك في قوله: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾[3].

---

(١) القلم: الآيات (٤٨-٥٠). (٢) القلم: الآية (٤٨).

(٣) يونس: الآية (٩٨).

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يدل على أنه ما من مؤمن يصيبه الكرب والغم فيبتهل إلى اللَّه داعيا بإخلاص ، إلا نجاه اللَّه من ذلك الغم ، ولا سيما إذا دعا بدعاء يونس هذا . وقد جاء في حديث مرفوع عن سعد بن أبي وقاص ﵁ : أن النبي ﷺ قال في دعاء يونس المذكور : «**لم يدع به مسلم ربه في شيء قط إلا استجاب له**»[1] رواه أحمد والترمذي وابن أبي حاتم وابن جرير وغيرهم .

والآية الكريمة شاهدة لهذا الحديث شهادة قوية كما ترى ، لأنه لما ذكر أنه أنجى يونس شبه بذلك إنجاءه المؤمنين .

وقوله : ﴿نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ صيغة عامة في كل مؤمن كما ترى»[2] .

قال ابن القيم : «وأما دعوة ذي النون ، فإن فيها من كمال التوحيد والتنزيه للرب تعالى ، واعتراف العبد بظلمه وذنبه ما هو من أبلغ أدوية الكرب والهم والغم ، وأبلغ الوسائل إلى اللَّه -سبحانه- في قضاء الحوائج فإن التوحيد والتنزيه يتضمنان إثبات كل كمال لله ، وسلب كل نقص وعيب وتمثيل عنه والاعتراف بالظلم يتضمن إيمان العبد بالشرع والثواب والعقاب ، ويوجب انكساره ورجوعه إلى اللَّه واستقالته عثرته ، والاعتراف بعبوديته ، وافتقاره إلى ربه ، فهاهنا أربعة أمور قد وقع التوسل بها : التوحيد والتنزيه والعبودية والاعتراف»[3] .

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في مناقب يونس وما اتصف به من الدعاء المستجاب وما ورد في المفاضلة بين الأنبياء

* عن سعد بن أبي وقاص ﵁ ، عن النبي ﷺ قال : «**دعوة ذي النون إذ دعا وهو في بطن الحوت ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فإنه لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب اللَّه له**»[4] .

★ **فوائد الحديث:**

قال العيني : «ومن الأنبياء جماعة لهم اسمان مثل : عيسى والمسيح وذو الكفل

---

(١) سيأتي تخريجه. (٢) أضواء البيان (٤/ ٦٨٢-٦٨٦).

(٣) زاد المعاد (٤/ ٢٠٨).

(٤) أخرجه : أحمد (١/ ١٧٠) والترمذي (٥/ ٤٩٥/ ٣٥٠٥) والنسائي في الكبرى (٦/ ١٦٨/ ١٠٤٩١-١٠٤٩٢) وصححه الحاكم (١/ ٥٠٥) ووافقه الذهبي.

واليسع ويونس وذو النون وإبراهيم والخليل ومحمد وأحمد»(١).

«قوله: ﴿سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾: تصريحا بالعجز والانكسار وإظهار الذلة والافتقار»(٢).

«قوله: «في شيء» أي: من الحاجات والتقدير: فعليك أن تدعو بهذه الدعوة، فإنه لم يدع بها الخ»(٣).

قال القرطبي: «فيه شرط الله لمن دعاه أن يجيبه كما أجابه، وينجيه كما أنجاه، وهو قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾، وليس هاهنا صريح دعاء، وإنما هو مضمون قوله: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فاعترف بالظلم فكان تلويحا»(٤).

* عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «ما ينبغي لعبد أن يقول إني خير من يونس بن متى ونسبه إلى أبيه»(٥).

★ **فوائد الحديث:**

قال الخطابي: «وإنما خص يونس بالذكر فيما نرى والله أعلم لما قصه الله تعالى علينا من شأنه، وما كان من قلة صبره على أذى قومه، فخرج مغاضبا ولم يصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل»(٦).

قوله: «ونسبه إلى أبيه»: قال الحافظ: «فيه إشارة على الرد إلى من زعم أن (متى) اسم أمه، وهو محكي عن وهب بن منبه في المبتدأ، وذكره الطبري وتبعه ابن الأثير في الكامل، والذي في الصحيح أصح»(٧).

* * *

---

(١) العلم الهيب (ص٣٤١).
(٢) فيض القدير (٣/ ٥٢٦).
(٣) تحفة الأحوذي (٩/ ٣٣٦).
(٤) الجامع لأحكام القرآن (١١/ ٢٢١).
(٥) أخرجه: أحمد (١/ ٢٤٢و٣٤٢) والبخاري (٦/ ٥٥٧/ ٣٤١٣) ومسلم (٤/ ١٨٤٦/ ٢٣٧٧) وأبو داود (٥/ ٥١/ ٤٦٦٩).
(٦) معالم السنن (٤/ ٢٨٧).
(٧) الفتح (٦/ ٥٥٨).

قوله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٨٩ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ٩٠﴾

★ **غريب الآية:**

رغبًا ورهبًا: أي رجاء وخوفًا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: واذكر يا محمد زكريا حين نادى ربه ﴿رَبِّ لَا تَذَرۡنِي﴾ وحيدا ﴿فَرۡدٗا﴾ لا ولد لي ولا عقب ﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾ يقول: فارزقني وارثا من آل يعقوب يرثني، ثم رد الأمر إلى اللّه فقال: وأنت خير الوارثين يقول اللّه -جل ثناؤه-: فاستجبنا لزكريا دعاءه ووهبنا له يحيى ولدا ووارثا يرثه، وأصلحنا له زوجه.

واختلف أهل التأويل في معنى الصلاح الذي عناه اللّه -جل ثناؤه- بقوله: ﴿وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ﴾ فقال بعضهم: كانت عقيما فأصلحها بأن جعلها ولودا.. وقال آخرون: كانت سيئة الخلق فأصلحها اللّه له بأن رزقها حسن الخلق.

قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن اللّه أصلح لزكريا زوجه كما أخبر -تعالى ذكره- بأن جعلها ولودا حسنة الخلق؛ لأن كل ذلك من معاني إصلاحه إياها، ولم يخصص اللّه -جل ثناؤه- بذلك بعضا دون بعض في كتابه، ولا على لسان رسوله، ولا وضع على خصوص ذلك دلالة، فهو على العموم ما لم يأت ما يجب التسليم له بأن ذلك مراد به بعض دون بعض.

وقوله: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ يقول الله: إن الذين سميناهم يعني زكريا وزوجه ويحيى كانوا يسارعون في الخيرات في طاعتنا، والعمل بما

يقربهم إلينا وقوله: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ يقول -تعالى ذكره-: وكانوا يعبدوننا رغبا ورهبا، وعنى بالدعاء في هذا الموضع: العبادة كما قال: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ۝﴾[(١)] ويعني بقوله: ﴿رَغَبًا﴾ أنهم كانوا يعبدونه رغبة منهم فيما يرجون منه من رحمته وفضله ﴿وَرَهَبًا﴾ يعني رهبة منهم من عذابه وعقابه بتركهم عبادته وركوبهم معصيته»[(٢)].

قال الرازي: «وفي تفسير قوله: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾ ثلاثة أقوال:

أحدها: أصلحها للولادة بأن أزال عنها المانع بالعادة، وهذا أليق بالقصة.

والثاني: أنه أصلحها في أخلاقها، وقد كانت على طريقة من سوء الخلق وسلاطة اللسان تؤذيه، وجعل ذلك من نعمه عليه.

والثالث: أنه سبحانه جعلها مصلحة في الدين، فإن صلاحها في الدين من أكبر أعوانه في كونه داعيا إلى اللَّه تعالى، فكأنه ﷺ سأل ربه المعونة على الدين والدنيا بالولد والأهل جميعًا. وهذا كأنه أقرب إلى الظاهر لأنه إذا قيل: أصلح اللَّه فلانا فالأظهر فيه ما يتصل بالدين، واعلم أن قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾ يدل على أن الواو لا تفيد الترتيب لأن إصلاح الزوج مقدم على هبة الولد مع أنه تعالى أخره في اللفظ وبين تعالى مصداق ما ذكرناه فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ وأراد بذلك زكريا وولده وأهله فبين أنه آتاهم ما طلبوه وعضد بعضهم ببعض من حيث كانت طريقتهم أنهم يسارعون في الخيرات، والمسارعة في طاعة اللَّه تعالى من أكبر ما يمدح المرء به لأنه يدل على حرص عظيم على الطاعة.

أما قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ قرئ رغبا ورهبا وهو كقوله: ﴿يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾[(٣)] والمعنى أنهم ضموا إلى فعل الطاعات والمسارعة فيها أمرين: أحدهما: الفزع إلى اللَّه تعالى لمكان الرغبة في ثوابه والرهبة من عقابه. والثاني: الخشوع وهو المخافة الثابتة في القلب، فيكون الخاشع هو الحذر الذي لا ينبسط في الأمور خوفا من الإثم»[(٤)].

---

(١) مريم: الآية (٤٨).
(٢) جامع البيان (١٧/ ٨٣).
(٣) الزمر: الآية (٩).
(٤) التفسير الكبير (٢٢/ ٢١٨-٢١٩).

قال ابن عطية: «تقدم أمر زكرياء عليه السلام في سورة مريم، وإصلاح الزوجة، قيل بأن جعلها ممن تحمل وهي عاقر قاعد فحاضت وحملت، وهذا هو الذي يشبه الآية، وقيل بأن أزيل بذاء كان في لسانها وهذا ضعيف، وعموم اللفظ يتناول جميع وجوه الإصلاح»[1].

قال السعدي: «أي: واذكر عبدنا ورسولنا زكريا، منوها بذكره، ناشرا لمناقبه وفضائله، التي من جملتها هذه المنقبة العظيمة المتضمنة لنصحه للخلق، ورحمة اللّه إياه، وأنه ﴿نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ أي: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝﴾»[2].

من هذه الآيات علمنا أن قوله: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ أنه لما تقارب أجله، خاف أن لا يقوم أحد بعده مقامه في الدعوة إلى اللّه، والنصح لعباد اللّه، وأن يكون في وقته فردا، ولا يخلف من يشفعه ويعينه على ما قام به، ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ أي: خير الباقين، وخير من خلفني بخير، وأنت أرحم بعبادك مني، ولكني أريد ما يطمئن به قلبي، وتسكن له نفسي، ويجري في موازيني ثوابه.

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ﴾ النبي الكريم، الذي لم يجعل اللّه له من قبل سميا.

﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾ بعدما كانت عاقرا، لا يصلح رحمها للولادة فأصلح اللّه رحمها للحمل، لأجل نبيه زكريا، وهذا من فوائد الجليس، والقرين الصالح، أنه مبارك على قرينه، فصار يحيى مشتركا بين الوالدين.

ولما ذكر هؤلاء الأنبياء والمرسلين، كلا على انفراده، أثنى عليهم عموما فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ أي: يبادرون إليها ويفعلونها في أوقاتها الفاضلة، ويكملونها على الوجه اللائق الذي ينبغي ولا يتركون فضيلة يقدرون عليها، إلا انتهزوا الفرصة فيها، ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ أي: يسألوننا الأمور المرغوب فيها من مصالح الدنيا والآخرة، ويتعوذون بنا من الأمور

---

(١) المحرر الوجيز (٤/٩٨).
(٢) مريم: الآيات (٤-٦).

المرهوب منها، من مضار الدارين، وهم راغبون راهبون لا غافلون، لاهون ولا مدلون، ﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ أي: خاضعين متذللين متضرعين، وهذا لكمال معرفتهم بربهم»[١].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٥٨-٢٥٩).

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝٩١﴾

★ غريب الآية:

أحصنت: الإحصان: العفة. يقال: رجل محصن وامرأة محصنة: أي عفيفة. وأصله المنع: أي منعت فرجها عن القبيح. قال حسان في حق عائشة ﵂:

حصان رزان ما تزنُّ بريبة   وتُصْبِحُ غَرْثَى من لحوم الغوافل

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: واذكر التي أحصنت فرجها، يعني مريم بنت عمران ويعني بقوله: ﴿أَحۡصَنَتۡ﴾: حفظت ومنعت فرجها مما حرم اللَّه عليها إباحته فيه.

واختلف في الفرج الذي عنى اللَّه -جل ثناؤه- أنها أحصنته، فقال بعضهم: عنى بذلك فرج نفسها أنها حفظته من الفاحشة.

وقال آخرون: عنى بذلك جيب درعها أنها منعت جبرئيل منه قبل أن تعلم أنه رسول ربها وقبل أن تثبته معرفة. قالوا: والذي يدل على قوله: ﴿فَنَفَخۡنَا فِيهَا﴾ ويعقب ذلك قوله: ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا﴾ قالوا: وكان معلوما بذلك أن معنى الكلام: والتي أحصنت جيبها ﴿فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾.

قال أبو جعفر: والذي هو أولى القولين عندنا بتأويل ذلك قول من قال: أحصنت فرجها من الفاحشة؛ لأن ذلك هو الأغلب من معنييه عليه، والأظهر في ظاهر الكلام ﴿فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ يقول: فنفخنا في جيب درعها من روحنا وقد ذكرنا اختلاف المختلفين في معنى قوله: ﴿فَنَفَخۡنَا فِيهَا﴾ في غير هذا الموضع، والأولى بالصواب من القول في ذلك فيما مضى بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَـٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ يقول: وجعلنا مريم وابنها عبرة لعالمي زمانهما يعتبرون بهما ويتفكرون في أمرهما، فيعلمون عظيم سلطاننا وقدرتنا على ما نشاء. وقيل آية ولم يقل آيتين، وقد ذكر آيتين؛ لأن معنى الكلام: جعلناهما علما لنا وحجة، فكل واحدة منهما في معنى الدلالة على الله وعلى عظيم قدرته، يقوم مقام الآخر إذ كان أمرهما في الدلالة على الله واحدا»[١].

قال ابن كثير: «هكذا يذكر تعالى قصة مريم وابنها عيسى عليه السلام مقرونة بقصة زكريا وابنه يحيى عليه السلام، فيذكر أولا قصة زكريا، ثم يتبعها بقصة مريم؛ لأن تلك مربوطة بهذه، فإنها إيجاد ولد من شيخ كبير قد طعن في السن، ومن امرأة عجوز عاقر لم تكن تلد في حال شبابها، ثم يذكر قصة مريم وهي أعجب، فإنها إيجاد ولد من أنثى بلا ذكر. هكذا وقع في سورة آل عمران وفي سورة مريم، وههنا ذكر قصة زكريا ثم أتبعها بقصة مريم بقوله: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ يعني مريم عليها السلام كما قال في سورة التحريم: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾[٢].

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَـٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ أي دلالة على أن الله على كل شيء قدير، وأنه يخلق ما يشاء و ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[٣] وهذا كقوله: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾[٤]»[٥].

قال السعدي: «أي: واذكر مريم عليها السلام، مثنيا عليها مبينا لقدرها، شاهرا لشرفها فقال: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ أي: حفظته من الحرام وقربانه، بل ومن الحلال، فلم تتزوج لاشتغالها بالعبادة، واستغراق وقتها بالخدمة لربها.

وحين جاءها جبريل في صورة بشر سوي تام الخلق والحسن ﴿قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾[٦] فجازاها الله من جنس عملها، ورزقها ولدا من غير أب، بل نفخ فيها جبريل عليه السلام، فحملت بإذن الله.

﴿وَجَعَلْنَـٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ حيث حملت به، ووضعته من دون مسيس أحد،

(١) جامع البيان (١٧/ ٨٤).
(٢) التحريم: الآية (١٢).
(٣) يس: الآية (٨٢).
(٤) مريم: الآية (٢١).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣٦٥).
(٦) مريم: الآية (١٨).

وحيث تكلم في المهد، وبرأها مما ظن بها المتهمون وأخبر عن نفسه في تلك الحالة، وأجرى اللَّه على يديه من الخوارق والمعجزات ما هو معلوم، فكانت وابنها آية للعالمين، يتحدث بها جيلا بعد جيل، ويعتبر بها المعتبرون»[١].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٦٠).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ۝٩٢ وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ ۝٩٣﴾

★ **غريب الآية:**

تقطعوا أمرهم: تفرقوا وتحزبوا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «لما ذكر الأنبياء ﷺ، قال مخاطبا للناس: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ أي: هؤلاء الرسل المذكورون هم أمتكم وأئمتكم الذين بهم تأتمون، وبهديهم تقتدون، كلهم على دين واحد، وصراط واحد، والرب أيضًا واحد.

ولهذا قال: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ﴾ الذي خلقتكم، وربيتكم بنعمتي، في الدين والدنيا، فإذا كان الرب واحدا، والنبي واحدا، والدين واحدا، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، بجميع أنواع العبادة كان وظيفتكم والواجب عليكم القيام بها، ولهذا قال: ﴿فَٱعۡبُدُونِ﴾ فرتب العبادة على ما سبق بالفاء، ترتيب المسبب على سببه.

وكان اللائق الاجتماع على هذا الأمر، وعدم التفرق فيه، ولكن البغي والاعتداء أبيا إلا الافتراق والتقطع. ولهذا قال: ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ﴾ أي: تفرق الأحزاب المنتسبون لأتباع الأنبياء فرقا، وتشتتوا، كل يدعي أن الحق معه، والباطل مع الفريق الآخر و ﴿كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ﴾.

وقد علم أن المصيب منهم من كان سالكا للدين القويم، والصراط المستقيم، مؤتما بالأنبياء وسيظهر هذا، إذا انكشف الغطاء، وبرح الخفاء، وحشر الله الناس لفصل القضاء، فحينئذ يتبين الصادق من الكاذب، ولهذا قال: ﴿كُلٌّ﴾ من الفرق المتفرقة وغيرهم ﴿إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ﴾ أي: فنجازيهم أتم الجزاء»[1].

قال الشنقيطي: «المراد بالأمة هنا: الشريعة والملة. والمعنى: وأن هذه

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٦٠-٢٦١).

شريعتكم شريعة واحدة، وهي توحيد اللَّه على الوجه الأكمل من جميع الجهات، وامتثال أمره، واجتناب نهيه بإخلاص في ذلك، على حسب ما شرعه لخلقه ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ أي وحدي. والمعنى دينكم واحد وربكم واحد، فلم تختلفون ﴿وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ أي: تفرقوا في الدين وكانوا شيعا، فمنهم يهودي ومنهم نصراني ومنهم عابد وثن إلى غير ذلك من الفرق المختلفة. ثم بين قوله: ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ﴾ أنهم جميعهم راجعون إليه يوم القيامة، وسيجازيهم بما فعلوا. وقال الزمخشري في تفسير الآية الكريمة ﴿وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ المعنى: جعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعا كما يتوزع الجماعة الشيء ويقتسمونه، فيصير لهذا نصيب ولذلك نصيب، تمثيلا لاختلافهم فيه، وصيرورتهم فرقا شتى، اهـ.

وما ذكره -جل وعلا- في هاتين الآيتين الكريمتين: من أن الدين واحد والرب واحد فلا داعي للاختلاف، وأنهم مع ذلك اختلفوا وصاروا فرقا أوضحه في سورة ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ وزاد أن كل حزب من الأحزاب المختلفة فرحون بما عندهم. وذلك في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝٥١ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ۝٥٢ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۝٥٣ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۝٥٤﴾[1]. وقوله في هذه الآية ﴿زُبُرًا﴾ أي قطعا كزبر الحديد والفضة، أي قطعها. وقوله: ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ أي كل فرقة من هؤلاء الفرق الضالين المختلفين المتقطعين دينهم قطعا فرحون بباطلهم، مطمئنون إليه، معتقدون أنه هو الحق.

وقد بين -جل وعلا- في غير هذا الموضع: أن ما فرحوا به، واطمأنوا إليه باطل، كما قال تعالى في سورة المؤمن: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٨٣ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ۝٨٤﴾[2]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ۝١٥٩﴾[3]»[4].

---

(١) المؤمنون: الآيات (٥١-٥٤).

(٢) غافر: الآيتان (٨٣و٨٤).

(٣) الأنعام: الآية (١٥٩).

(٤) أضواء البيان (٤/ ٦٨٩-٦٩٠).

قال المكي الناصري: «قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾ منبها بذلك إلى أن جميع أنبياء اللّه ورسله مجمعون على التوحيد مجتمعون عليه، لا يعرفون لهم دينا سواه، منذ بدأت النبوات والرسالات إلى أن ختمت، وكذلك الأمر بالنسبة لكافة المؤمنين الموحدين من أتباع الأنبياء والرسل جميعا، في أي عصر كانوا، وفي أي مكان وجدوا، فإنهم يكونون أمة واحدة على اختلاف أزمانهم وبقاعهم، وسلسلة واحدة على تعدد طبقاتهم وحلقاتهم، فأمة التوحيد هي بحق الأمة الوحيدة التي لا تعدد فيها ولا افتراق، لأنها اتحدت بأجمعها في عبادة اللّه الواحد الأحد، والتقت على الإيمان به خير تلاق. وعلى العكس من ذلك من أشركوا باللّه أو شوهوا عقيدة التوحيد، فانحرفوا عن الصراط السوي والقول السديد ﴿وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾﴾»[1].

* * *

(١) التيسير في أحاديث التفسير (٤/ ١٤٧-١٤٨).

قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾﴾

★ غريب الآية:

كفران: الكفران والكفر: الجحود. وأصله التغطية والستر. ومنه الكافر لستره الحق وتغطيته.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: فمن عمل من هؤلاء الذين تفرقوا في دينهم بما أمره اللَّه به من العمل الصالح وأطاعه في أمره ونهيه، وهو مقر بوحدانية اللَّه، مصدق بوعده ووعيده، متبرئ من الأنداد والآلهة ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ﴾ يقول: فإن اللَّه يشكر عمله الذي عمل له مطيعا له، وهو به مؤمن، فيثيبه في الآخرة ثوابه الذي وعد أهل طاعته أن يثيبهموه، ولا يكفر ذلك له فيجحده، ويحرمه ثوابه على عمله الصالح ﴿وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾ يقول: ونحن نكتب أعماله الصالحة كلها، فلا نترك منها شيئًا لنجزيه على صغير ذلك وكبيره وقليله وكثيره»[1].

قال الرازي: «اعلم أنه سبحانه لما ذكر أمر الأمة من قبل وذكر تفرقهم وأنهم أجمع راجعون إلى حيث لا أمر إلا له أتبع ذلك بقوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ﴾ بين أن من جمع بين أن يكون مؤمنا وبين أن يعمل الصالحات فيدخل في الأول العلم والتصديق باللَّه ورسوله، وفي الثاني فعل الواجبات وترك المحظورات: ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ﴾ أي لا بطلان لثواب عمله وهو كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾[2] فالكفران مثل في حرمان الثواب والشكر مثل في إعطائه وقوله:

---

(١) جامع البيان (١٧/ ٨٥-٨٦).
(٢) الإسراء: الآية (١٩).

﴿فَلَا كُفْرَانَ﴾ المراد نفي الجنس ليكون في نهاية المبالغة لأن نفي الماهية يستلزم نفي جميع أفرادها.

وأما قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾ فالمراد وإنا لسعيه كاتبون، فقيل: المراد حافظون لنجازي عليه، وقيل: كاتبون إما في أم الكتاب أو في الصحف التي تعرض يوم القيامة، والمراد بذلك ترغيب العباد في التمسك بطاعة اللّٰه تعالى»[1].

قال السعدي: «فصل جزاءه فيهم، منطوقا ومفهوما، فقال: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: الأعمال التي شرعتها الرسل وحثت عليها الكتب ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ باللّٰه وبرسله، وما جاءوا به ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ﴾ أي: لا نضيع سعيه ولا نبطله، بل نضاعفه له أضعافا كثيرة.

﴿وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾ أي: مثبتون له في اللوح المحفوظ، وفي الصحف التي مع الحفظة. أي: ومن لم يعمل من الصالحات، أو عملها وهو ليس بمؤمن، فإنه محروم، خاسر في دينه ودنياه»[2].

* * *

---

(١) التفسير الكبير (٢٢/ ٢٢١).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٦٢).

قوله تعالى: ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «أخبر عن تفريق الناس دينهم الذي بعث به إليهم الرسل ثم أخبر عن صنيعه بمن عمل بما دعته إليه رسله من الإيمان به والعمل بطاعته ثم أتبع ذلك قوله: ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾﴾ فلأن يكون ذلك خبرًا عن صنيعه بمن أبى إجابة رسله وعمل بمعصيته وكفر به، أحرى ليكون بيانا عن حال القرية الأخرى التي لم تعمل الصالحات وكفرت به.

فإذا كان ذلك كذلك، فتأويل الكلام: حرام على أهل قرية أهلكناهم بطبعنا على قلوبهم وختمنا على أسماعهم وأبصارهم، إذ صدوا عن سبيلنا وكفروا بآياتنا، أن يتوبوا ويراجعوا الإيمان بنا واتباع أمرنا والعمل بطاعتنا، وإذ كان ذلك تأويل قوله الله ﴿وَحَرَامٌ﴾ وعزم، على ما قال سعيد، لم تكن «لا» في قوله: ﴿أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ صلة، بل تكون بمعنى النفي، ويكون معنى الكلام: وعزم منا على قرية أهلكناها أن لا يرجعوا عن كفرهم، وكذلك إذا كان معنى قوله: ﴿وَحَرَامٌ﴾. نوجبه، وقد زعم بعضهم أنها في هذا الموضع صلة، فإن معنى الكلام: وحرام على قرية أهلكناها أن يرجعوا، وأهل التأويل الذين ذكرناهم كانوا أعلم بمعنى ذلك منه»[1].

قال ابن عطية: «ويتجه في الآية معنى ضمنه وعيد بين، وذلك أنه ذكر من عمل صالحا وهو مؤمن، ثم عاد إلى ذكر الكفرة الذين من كفرهم ومعتقدهم أنهم لا يحشرون إلى رب ولا يرجعون إلى معاد، فهم يظنون بذلك أنه لا عقاب ينالهم، فجاءت الآية مكذبة لظن هؤلاء، أي: وممتنع على الكفرة المهلكين أن لا يرجعون بل هم راجعون إلى عقاب الله وأليم عذابه»[2].

---

(١) جامع البيان (١٧/ ٨٧).

(٢) المحرر الوجيز (٤/ ٩٩).

قال ابن عاشور: «والرجوع: العود إلى ما كان فيه المرء؛ فيحتمل أن المراد رجوعهم عن الكفر، فيتعين أن تكون (لا) في قوله تعالى: ﴿لَا يَرْجِعُونَ﴾ زائدة للتوكيد لأن (حرام) في معنى النفي و(لا) نافية ونفي النفي إثبات، فيصير المعنى منع عدم رجوعهم إلى الإيمان، فيؤول إلى أنهم راجعون إلى الإيمان وليس هذا بمراد. فتعين أن المعنى: منع على قرية قدرنا هلاكها أن يرجعوا عن ضلالهم لأنه قد سبق تقدير هلاكها. وهذا إعلام بسنة اللّٰه تعالى في تصرفه في الأمم الخالية مقصود منه التعريض بتأييس فريق من المشركين من المصير إلى الإيمان وتهديدهم بالهلاك. وهؤلاء هم الذين قدر اللّٰه هلاكهم يوم بدر بسيوف المؤمنين.

ويجوز أن يراد رجوعهم إلى الآخرة بالبعث، وهو المناسب لتفريعه على قوله تعالى: ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾[1] فتكون (لا) نافية. والمعنى: ممنوع عدم رجوعهم إلى الآخرة الذي يزعمونه، أي دعواهم باطلة أي فهم راجعون إلينا فمجازون على كفرهم، فيكون إثباتا للبعث بنفي ضده، وهو أبلغ من صريح الإثبات لأنه إثبات بطريق الملازمة فكأنه إثبات الشيء بحجة. ويفيد تأكيدا لقوله تعالى: ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾»[2].

قال السعدي: «أي: يمتنع على القرى المهلكة المعذبة الرجوع إلى الدنيا، ليستدركوا ما فرطوا فيه فلا سبيل إلى الرجوع لمن أهلك وعذب، فليحذر المخاطبون أن يستمروا على ما يوجب الإهلاك فيقع بهم، فلا يمكن رفعه، وليقلعوا وقت الإمكان والإدراك»[3].

* * *

(١) الأنبياء: الآية (٩٣).

(٢) التحرير والتنوير (١٧/ ١٤٥).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٦٢).

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ٩٦﴾

★ غريب الآية:

حدب: الحدب: ما ارتفع من الأرض كالآكام. ومنه حدبة الظهر. قال عنترة:

فما رَعِشَتْ يداي ولا ازدهاني　　تواترهم إِلَيَّ من الحِدَاب

ينسلون: يسرعون. من قولهم: نَسَلَ الثَّعْلَبُ، أي: أسرع في ذهابه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «هذا تحذير من اللَّه للناس أن يقيموا على الكفر والمعاصي، وأنه قد قرب انفتاح يأجوج ومأجوج، وهما قبيلتان عظيمتان من بني آدم، وقد سد عليهم ذو القرنين، لما شكي إليه إفسادهم في الأرض، وفي آخر الزمان، ينفتح السد عنهم، فيخرجون إلى الناس في هذه الحالة، والوصف الذي ذكره اللَّه من كل مكان مرتفع، وهو الحدب ينسلون أي: يسرعون. وفي هذا دلالة على كثرتهم الباهرة، وإسراعهم في الأرض، إما بذواتهم، وإما بما خلق اللَّه لهم من الأسباب التي تقرب لهم البعيد، وتسهل عليهم الصعب، وأنهم يقهرون الناس، ويعلون عليهم في الدنيا، وأنه لا يد لأحد بقتالهم»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في قصة يأجوج ومأجوج

* عن زينب بنت جحش رضي الله عنها: أن النبي ﷺ دخل عليها فزعا يقول: «**لا إله إلا اللَّه، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه** -وحلق بإصبعه الإبهام والتي تليها فقالت زينب بنت جحش: فقلت: يا رسول اللَّه

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٦٣).

أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم، إذا كثر الخبث»[(١)].

* عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**فتح الله من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه، وعقد بيده تسعين**»[(٢)].

★ **غريب الحديثين:**

ردم: الردم السد، وردمت الثلمة ردما إذا سددتها.

يأجوج ومأجوج: اختلف في اشتقاقها فقيل من أجيج النار وهو التهابها وقيل من الأجة بالتشديد وهي الاختلاط أو شدة الحر وقيل من الأج وهو شدة العدو، وقيل من الأجاج وهو الماء الشديد الملوحة.. وقيل مأجوج من ماج إذا اضطرب.. وجميع ما ذكر من الاشتقاق مناسب لحالهم[(٣)].

الخبث: الفسق والفجور.

عقد بيده تسعين: وهي أن يجعل طرف السبابة اليمنى في أصلها -أي أصل الإبهام- ويضمها ضما محكما بحيث تنطوي عقداتها حتى تصير مثل الحية المطوقة[(٤)].

★ **فوائد الحديثين:**

قال الحافظ: «قال ابن العربي: في الإشارة المذكورة دلالة على أنه ﷺ كان يعلم عقد الحساب حتى أشار بذلك لمن يعرفه وليس في ذلك ما يعارض قوله في الحديث الآخر: «**إنا أمة لا نحسب ولا نكتب**»[(٥)] فإن هذا إنما جاء لبيان صورة معينة خاصة. قلت: والأولى أن يقال المراد بنفي الحساب ما يتعاناه أهل صناعته من الجمع والفذلكة والضرب ونحو ذلك، ومن ثم قال: «**ولا نكتب**» وأما عقد

---

(١) أخرجه: أحمد (٦/ ٤٢٨) والبخاري (٦/ ٤٧٠/ ٣٣٤٦) ومسلم (٤/ ٢٢٠٧/ ٢٨٨٠) والترمذي (٤/ ٤١٦-٤١٨/ ٢١٨٧) والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٩١-٣٩٢/ ١١٣١١) وابن ماجه (٢/ ١٣٠٥/ ٣٩٥٣).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٤١) والبخاري (٦/ ٤٧٠/ ٣٣٤٧) ومسلم (٤/ ٢٢٠٨/ ٢٨٨١٣).

(٣) الفتح (١٣/ ١٣٢).

(٤) الفتح (١٣/ ١٣٤).

(٥) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٣) والبخاري (٤/ ١٥٩/ ١٩١٣) ومسلم (٢/ ٧٦١/ ١٠٨٠(١٥)) وأبو داود (٢/ ٧٣٩-٧٤٠/ ٢٣١٩) والنسائي (٤/ ٤٤٦/ ٢١٣٩) من حديث ابن عمر ﷺ.

الحساب فإنه اصطلاح للعرب تواضعوه بينهم ليستغنوا به عن التلفظ، وكان أكثر استعمالهم له عند المساومة في البيع، فيضع أحدهما يده في يد الآخر فيفهمان المراد من غير تلفظ لقصد ستر ذلك عن غيرهما ممن يحضرهما، فشبه ﷺ قدر ما فتح من السد بصفة معروفة عندهم، وقد أكثر الشعراء التشبيه بهذه العقود ومن ظريف ما وقفت عليه من النظم في ذلك قول بعض الأدباء:

رب برغوث ليلة بت منه   وفؤادي في قبضة التسعين
أسرته يد الثلاثين حتى   ذاق طعم الحمام في السبعين

وعقد الثلاثين أن يضم طرف الإبهام إلى طرف السبابة مثل من يمسك شيئًا لطيفا كالإبرة وكذلك البرغوث، وعقد السبعين أن يجعل طرف ظفر الإبهام بين عقدتي السبابة من باطنها ويلوي طرف السبابة عليها مثل ناقد الدينار عند النقد»[1].

قال ابن العربي: «وفائدة قوله نعم في هلاك الصالح مع الطالح البيان بأن الخير يهلك بهلاك الشرير، وفيه وجهان: أحدهما: أنه إذا لم يغير عليه خبثه أو إذا غير، لكنه لم ينفع التغيير بل كثر المكر بعد النكير، فيهلك حينئذ القليل والكثير، ويحشر كل واحد على نيته، عدل الله في حكمه بحكمته»[2].

قال الحافظ: «وكأنها فهمت من فتح القدر المذكور من الردم أن الأمر إن تمادى على ذلك اتسع الخرق بحيث يخرجون، وكان عندها علم أن في خروجهم على الناس إهلاكا عاما لهم»[3].

* عن أبي سعيد الخدري ﷺ عن النبي ﷺ قال: **«يقول الله تعالى: يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك، والخير في يديك، فيقول: أخرج بعث النار، قال: وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين، فعنده يشيب الصغير، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى، ولكن عذاب الله شديد، قالوا: يا رسول الله، وأينا ذلك الواحد؟ قال: أبشروا فإن منكم رجلا ومن يأجوج ومأجوج ألف، ثم قال: والذي نفسي بيده إني أرجو أن تكونوا ربع**

---

(١) الفتح (١٣/ ١٣٤) وانظر عارضة الأحوذي (٩/ ٣٥-٣٦).
(٢) عارضة الأحوذي (٩/ ٣٦).
(٣) الفتح (١٣/ ١٣٦).

أهل الجنة، فكبرنا، فقال: أرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة، فكبرنا فقال: أرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة، فكبرنا فقال: ما أنتم في الناس إلا كالشعرة السوداء في جلد ثور أبيض، أو كشعرة بيضاء في جلد ثور أسود»[١].

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «الغرض منه هنا ذكر يأجوج ومأجوج والإشارة إلى كثرتهم، وأن هذه الأمة بالنسبة إليهم نحو عشر عشر العشر، وأنهم من ذرية آدم ردا على من قال خلاف ذلك»[٢].

قال القرطبي: «لما سمع أصحاب النبي ﷺ أن ألفا إلا واحدا للنار، وواحدا للجنة، اشتد خوفهم لذلك، واستقلوا عدد أهل الجنة منهم، واستبعد كل واحد منهم أن يكون هو ذلك الواحد، فسكن النبي ﷺ خوفهم، وطيب قلوبهم فقال: «**أبشروا فإن من يأجوج ومأجوج ألفا ومنكم رجل**» ويعني بالألف هنا التسعمائة والتسعة والتسعين المتقدمة الذكر. ويأجوج ومأجوج خلق كفار وراء سد ذي القرنين. والمراد بهم في هذا الحديث: هم ومن كان على كفرهم، كما أن المراد بقوله: «منكم» أصحابه ومن كان على إيمانهم؛ لأن مقصود هذا الحديث الإخبار بقلة أهل الجنة من هذه الأمة بالنسبة إلى كثرة أهل النار من غيرها من الأمم. ألا ترى أن قوله -عليه الصلاة والسلام-: «**إن مثلكم في الأمم كمثل الشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود، أو كالرقمة في ذراع الحمار**» يدل على ذلك المقصود؟

وأما نسبة هذه الأمة إلى من يدخل الجنة من الأمم فهذه الأمة شطر أهل الجنة كما نص عليه»[٣].

قال الطيبي: «**«أبشروا فإن منكم رجلا ومن يأجوج ومأجوج ألف»** تنبيه على أن يأجوج ومأجوج داخلون في هذا الوعيد، وبقوله: «**أرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة**» أن غير يأجوج ومأجوج من الأمم السالفة الفائقة للحصر أيضًا داخلون في

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٢-٣٣) والبخاري (٦/ ٤٧١/ ٣٣٤٨) ومسلم (١/ ٢٠١/ ٢٢٢) والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٠٩/ ١١٣٣٩).

(٢) الفتح (٦/ ٤٧٦).

(٣) المفهم (١/ ٤٧٠-٤٧١).

الوعيد، فإذا وزع نصف أمة محمد ﷺ مع مثله من الأمم السالفة على هؤلاء يكون كالواحد من الألف، يدل عليه قوله ﷺ: «ما أنتم في الناس إلا كالشعرة السوداء في جلد ثور أبيض» وقولهم: «الله أكبر مرارا» متعجبين، استبشارا منهم واستعظاما لهذه النعمة العظمى والمنحة الكبرى، فيكون هذا الاستعظام بعد ذلك الاستعظام إشارة إلى فوزهم بالبغية بعد اليأس منها، والله أعلم»[1].

* عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «**تفتح يأجوج ومأجوج فيخرجون كما قال الله تعالى: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ فيعمون الأرض، وينحاز منهم المسلمون، حتى تصير بقية المسلمين في مدائنهم وحصونهم ويضمون إليهم مواشيهم، حتى أنهم ليمرون بالنهر فيشربونه، حتى ما يذرون فيه شيئا، فيمر آخرهم على أثرهم، فيقول قائلهم: لقد كان بهذا المكان مرة ماء. ويظهرون على الأرض، فيقول قائلهم: هؤلاء أهل الأرض، قد فرغنا منهم، ولننازلن أهل السماء، حتى إن أحدهم ليهز حربته إلى السماء، فترجع مخضبة بالدم، فيقولون: قد قتلنا أهل السماء، فبينما هم كذلك، إذ بعث الله دواب كنغف الجراد، فتأخذ بأعناقهم فيموتون موت الجراد، يركب بعضهم بعضا، فيصبح المسلمون لا يسمعون لهم حسا، فيقولون: من رجل يشري نفسه، وينظر ما فعلوا؟ فينزل منهم رجل قد وطن نفسه على أن يقتلوه، فيجدهم موتى، فيناديهم: ألا أبشروا فقد هلك عدوكم، فيخرج الناس ويخلون سبيل مواشيهم، فما يكون لهم رعي إلا لحومهم، فتشكر عليها، كأحسن ما شكرت من نبات أصابته قط**»[2].

* عن النواس بن سمعان قال: ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة، فخفض فيه ورفع، حتى ظننا أنه في طائفة النخل، فلما رحنا إليه عرف ذلك فينا، فقال: «**ما شأنكم؟ قلنا: يا رسول الله ذكرت الدجال غداة، فخفضت فيه ورفعت، حتى ظنناه في طائفة النخل، فقال: غير الدجال أخوفني عليكم، إن يخرج، وأنا فيكم فأنا**

---

(١) شرح الطيبي (١١/ ٣٥٠٢).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ٧٧) وابن ماجه (٢/ ١٣٦٣-١٣٦٤/ ٤٠٧٩) وصححه ابن حبان (الإحسان ١٥/ ٢٤٤-٢٤٥/ ٦٨٣٠) والحاكم (٤/ ٤٨٩-٤٩٠) على شرط مسلم ووافقه الذهبي. وتعقبهما الألباني في الصحيحة (١٧٩٣) بقوله: «وهو من أوهامهما أو تساهلهما. فإن ابن إسحاق إنما أخرج له مسلم في المتابعات ولم يحتج به، وفي حفظه ضعف، فالحديث حسن فقط».

حجيجه دونكم، وإن يخرج، ولست فيكم، فامرؤ حجيج نفسه، واللَّه خليفتي على كل مسلم، إنه شاب قطط، عينه طافية كأني أشبهه بعبد العزى بن قطن، فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف، إنه خارج خلة بين الشأم والعراق، فعاث يمينا وعاث شمالا، يا عباد اللَّه فاثبتوا. قلنا: يا رسول اللَّه وما لبثه في الأرض؟ قال: أربعون يوما، يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم. قلنا: يا رسول اللَّه فذلك اليوم الذي كسنة، أتكفينا فيه صلاة يوم؟ قال: لا، اقدروا له قدره. قلنا: يا رسول اللَّه وما إسراعه في الأرض؟ قال: كالغيث استدبرته الريح، فيأتي على القوم فيدعوهم، فيؤمنون به ويستجيبون له، فيأمر السماء فتمطر، والأرض فتنبت، فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذرا، وأسبغه ضروعا، وأمده خواصر، ثم يأتي القوم، فيدعوهم فيردون عليه قوله، فينصرف عنهم، فيصبحون ممحلين ليس بأيديهم شيء من أموالهم، ويمر بالخربة فيقول لها: أخرجي كنوزك، فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل، ثم يدعو رجلا ممتلئًا شبابًا، فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض، ثم يدعوه فيقبل ويتهلل وجهه، يضحك، فبينما هو كذلك إذ بعث اللَّه المسيح ابن مريم، فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق، بين مهرودتين، واضعا كفيه على أجنحة ملكين، إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ، فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات، ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه، فيطلبه حتى يدركه بباب لد، فيقتله ثم يأتي عيسى ابن مريم قوم قد عصمهم اللَّه منه، فيمسح عن وجوههم، ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة، فبينما هو كذلك إذ أوحى اللَّه إلى عيسى: إني قد أخرجت عبادًا لي، لا يدان لأحد بقتالهم، فحرز عبادي إلى الطور ويبعث اللَّه يأجوج ومأجوج، وهم من كل حدب ينسلون، فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية، فيشربون ما فيها، ويمر آخرهم فيقولون: لقد كان بهذه مرة ماء. ويحصر نبي اللَّه عيسى وأصحابه، حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيرا من مائة دينار لأحدكم اليوم، فيرغب نبي اللَّه عيسى وأصحابه، فيرسل اللَّه عليهم النغف في رقابهم، فيصبحون فرسى كموت نفس واحدة، ثم يهبط نبي اللَّه عيسى وأصحابه إلى الأرض، فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملأه زهمهم ونتنهم، فيرغب نبي اللَّه عيسى وأصحابه إلى اللَّه، فيرسل اللَّه طيرا كأعناق البخت، فتحملهم فتطرحهم حيث شاء اللَّه، ثم يرسل اللَّه

مطرا لا يكن منه بيت مدر ولا وبر، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلفة، ثم يقال للأرض: أنبتي ثمرتك، وردي بركتك، فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة، ويستظلون بقحفها، ويبارك في الرسل، حتى أن اللقحة من الإبل لتكفي الفئام من الناس، واللقحة من البقر لتكفي القبيلة من الناس، واللقحة من الغنم لتكفي الفخذ من الناس، فبينما هم كذلك إذ بعث اللّه ريحا طيبة، فتأخذهم تحت آباطهم، فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم، ويبقى شرار الناس، يتهارجون فيها تهارج الحمر، فعليهم تقوم الساعة»[1].

* وعن النواس بن سمعان قال: قال رسول اللّه ﷺ: **«سيوقد المسلمون من قسي يأجوج ومأجوج ونشابهم وأترسهم سبع سنين»**[2].

⋆ غريب الأحاديث:

نغف: النغف بالتحريك دود يكون في أنوف الإبل والغنم واحدتها نغفة.

فتشكر عليها: أي تسمن وتمتلئ شحما، يقال شكرت الشاة بالكسر تشكر شكرا إذا سمنت وامتلأ ضرعها لبنا.

فخفض فيه ورفع: بتخفيف الفاء أي كثر الكلام في شأنه، فتارة ليسمع وتارة يخفض ليستريح من تعب الإعلان. وقيل: معناه تارة صغره وحقره وتارة عظم أمره. وروي بتشديد الفاء.

حجيجه: أي محاجه ومبطل أمره دونكم.

القطط: شديد جعودة الشعر.

خلة بين الشام والعراق: بفتح الخاء المعجمة وتشديد اللام، أي في طريق بينهما.

ممحلين: المحل في الأصل انقطاع المطر.

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ١٨١-١٨٢) ومسلم (٤/ ٢٢٥٠-٢٢٥٥/ ٢٩٣٧) وأبو داود (٤/ ٤٩٦-٤٩٧/ ٤٣٢١) والترمذي (٤/ ٤٤٢-٤٤٥/ ٢٢٤٠) وابن ماجه (٢/ ١٣٥٦-١٣٥٩/ ٤٠٧٥) والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٣٥/ ١٠٧٨٣).

(٢) أخرجه: ابن ماجه (٢/ ١٣٥٩/ ٤٠٧٦) وصححه الشيخ الألباني في الصحيحة (١٩٤٠).

أسبغه: أي أطوله لكثرة اللين.

يعاسيب النحل: ذكور النحل. وذكر أهل اللغة أن يعسوب النحل أميرها، والمراد به ههنا جماعة النحل لا الأمير خاصة.

جزلتين: أي قطعتين.

رمية الغرض: أي يجعل بين الجزلتين قدر رمية الغرض والأصل فيضربه بالسيف فيقسمه فيصيبه إصابة الغرض فيقطعه جزلتين.

مهرودتين: مصبوغتين بالصفرة. قال شمر: العرب تصبغ الثوب بالورس ثم الزعفران فيجيء لونه مثل زهرة الخرذانة فذلك الثوب المهرود.

طأطأ: أي خفض.

جمان: حبوب من فضة صنعت على مثل الجوهر. وقد يسمى اللؤلؤ جمانا شبه قطرات العرق بمستدير الجوهر.

لا يدان لأحد: أي لا قدرة وعبر باليد لأن الدفاع لا يكون إلا بها.

فرسى: واحده فريسة مثل قتلى وقتيل وهو من فرس الذئب الشاة إذا قتلها.

زهمهم: أي دسمهم.

كالزلفة: قيل كالمرآة في صفائها ونظافتها. وقيل معناه: كمصانع الماء أي يستنقع الماء فيها كما يستنقع في المصانع التي يجتمع فيها الماء.

قحفها: أصل القحف أعلى الجمجمة وهو المحتوي على الدماغ وقحف الرمانة مقعر قشورها.

الرسل: بكسر الراء وسكون السين المهملة أي اللبن.

اللقحة: بكسر اللام: التي تحلب من الإبل واستعمل ههنا في البقر والغنم.

الفئام: الجماعة.

الفخذ: دون القبيلة وفوق البطن.

قسي: جمع قوس.

نشابهم: هي السهام.

أترسهم: جمع ترس، وهو ما يتوقى به في الحرب.

★ فوائد الأحاديث:

قال ابن العربي: «وأما خروج يأجوج ومأجوج فإنه يكون بعد نزول عيسى ﷺ وهما أمتان مضرتان مفسدتان كافرتان، قيل إنهما من ولد يافث بن نوح وهما مشتقان من تأجج النار. يقال: يولد للرجل منهم ألف ولد لصلبه، أمر اللَّه ذا القرنين أن يجعل بين الناس وبينهم سدا حسبما نص اللَّه في كتابه»[١].

قال ابن كثير: «وهم من ذرية نوح ﷺ، من سلالة يافث أي الترك، وقد كانوا يعبثون في الأرض يؤذون أهلها، فحصرهم ذو القرنين في مكانهم داخل السد، حتى يأذن اللَّه تعالى في خروجهم على الناس، فيكون من أمرهم ما ذكرنا في الأحاديث، وهم يشبهون الناس كأبناء جنسهم من الترك، الغتم المغول، المخرزمة عيونهم، الذلف أنوفهم، الصهب شعورهم على أشكالهم وألوانهم، ومن زعم أن منهم الطويل الذي كالنخلة السحوق أو أطول، ومنهم القصير الذي هو كالشيء الحقير، ومنهم من له أذنان يتغطى بإحداهما، ويتوطى بالأخرى، فقد تكلف ما لا علم له به، وقال ما لا دليل عليه، وقد ورد في حديث أن أحدهم لا يموت حتى يرى من نسله ألف إنسان[٢]، فاللَّه أعلم بصحته»[٣].

قال ابن العربي: «قوله: «ويوقدون من قسيهم وآلتهم سبع سنين» يعني الأعوام السبعة التي تدوم فيها حاله كأنهم لا يحتاجون لكثرتها إلى سواها»[٤].

* عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**ليحجن البيت وليعتمرن بعد خروج يأجوج ومأجوج**»[٥].

★ فوائد الحديث:

قال البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في صحيحه: وقال عبدالرحمن عن شعبة قال: لا تقوم الساعة حتى لا يحج البيت[٦].

---

(١) عارضة الأحوذي (٩/ ٣٤).

(٢) أخرجه: أبو داود الطيالسي (٢٢٨٢) وابن جرير (١٧/ ٨٩) وابن حبان (١٥/ ٢٤٠/ ٦٨٢٨)، لكنه منكر كما بين الشيخ الألباني في الضعيفة رقم (٤١٤٢).

(٣) النهاية في الفتن والملاحم (١/ ١٥٣).

(٤) عارضة الأحوذي (٩/ ٩١).

(٥) أخرجه: أحمد (٣/ ٢٧-٢٨) والبخاري (٣/ ٥٨٠/ ١٥٩٣).

(٦) أخرجه البخاري (٣/ ٥٨٠).

قال الحافظ: «قوله: «**لا تقوم الساعة حتى لا يحج البيت**» وصله الحاكم[١] من طريق أحمد بن حنبل عنه قال البخاري: والأول أكثر، أي لاتفاق من تقدم ذكره على هذا اللفظ وانفراد شعبة بما يخالفهم، وإنما قال ذلك لأن ظاهرهما التعارض؛ لأن المفهوم من الأول أن البيت يحج بعد أشراط الساعة ومن الثاني أنه لا يحج بعدها، ولكن يمكن الجمع بين الحديثين، فإنه لا يلزم من حج الناس بعد خروج يأجوج ومأجوج أن يمتنع الحج في وقت ما عند قرب ظهور الساعة، ويظهر والله أعلم أن المراد بقوله: «**ليحجن البيت**» أي مكان البيت»[٢].

* * *

(١) (٤/ ٤٥٣) وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. ورواه أيضًا ابن حبان (١٥/ ١٥١/ ٦٧٥٠ الإحسان) وصححه الشيخ الألباني رحمه الله في الصحيحة (٢٤٣٠).

(٢) الفتح (٣/ ٥٨١).

قوله تعالى: ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ (٩٧)﴾

★ **غريب الآية:**

شاخصة: يقال: شخص من بلده إذا خرج منها. وشخص بَصَرُه: إذا ارتفع بلا تحريك.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج اقترب الوعد الحق، وذلك وعد الله الذي وعد عباده أنه يبعثهم من قبورهم للجزاء والثواب والعقاب، وهو لا شك حق كما قال -جل ثناؤه-. وقوله: ﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ففي (هي) التي في قوله: ﴿فَإِذَا هِيَ﴾ وجهان:

أحدهما: أن تكون كناية عن الأبصار، وتكون الأبصار الظاهرة بيانا عنها كما قال الشاعر:

لعمرو أبيها لا تقول ظعينتي ألا فر عني مالك بن أبي كعب

فكنى عن الظعينة في: (لعمرو أبيها) ثم أظهرها، فيكون تأويل الكلام حينئذ: فإذا الأبصار شاخصة أبصار الذين كفروا.

والثاني: أن تكون عمادًا كما قال -جل ثناؤه-: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ﴾[1] وكقول الشاعر:

فهل هو مرفوع بما ههنا رأس

وقوله: ﴿يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا﴾ يقول -تعالى ذكره-: فإذا أبصار الذين كفروا قد شخصت عند مجيء الوعد الحق بأهواله، وقيام الساعة بحقائقها، وهم يقولون: يا ويلنا قد كنا قبل هذا الوقت في الدنيا في غفلة من هذا الذي نرى ونعاين، ونزل بنا من عظيم البلاء. وفي الكلام متروك ترك ذكره استغناء بدلالة ما

(١) الحج: الآية (٤٦).

ذكر عليه عنه، وذلك يقولون من قوله: ﴿فَإِذَا هِىَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يقولون: يا ويلنا وقوله: ﴿بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ يقول مخبرا عن قيل الذين كفروا بالله يومئذ: ما كنا نعمل لهذا اليوم ما ينجينا من شدائده، بل كنا ظالمين بمعصيتنا ربنا، وطاعتنا إبليس وجنده في عبادة غير الله ﷻ»[1].

قال السعدي: «﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: يوم القيامة الذي وعد الله بإتيانه، ووعده حق وصدق، ففي ذلك اليوم ترى أبصار الكفار شاخصة، من شدة الأفزاع والأهوال المزعجة، والقلاقل المفظعة، وما كانوا يعرفون من جناياتهم وذنوبهم، وأنهم يدعون بالويل والثبور، والندم والحسرة، على ما فات ويقولون لـَ: ﴿قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ اليوم العظيم، فلم نزل فيها مستغرقين، وفي لهو الدنيا متمتعين، حتى أتانا اليقين، ووردنا القيامة، فلو كان يموت أحد من الندم والحسرة، لماتوا. ﴿بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ اعترفوا بظلمهم، وعدل الله فيهم»[2].

* * *

---

(١) جامع البيان (١٧/ ٩٢-٩٣).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٦٣-٢٦٤).

قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾

★ **غريب الآية:**

حصب: الحصب: ما توقد به النار كالحطب وغيره.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «الحكمة في أنهم قرنوا بآلهتهم أمور:

أحدها: أنهم لا يزالون لمقارنتهم في زيادة غم وحسرة؛ لأنهم ما وقعوا في ذلك العذاب إلا بسببهم والنظر إلى وجه العدو باب من العذاب.

وثانيها: أن القوم قدروا أنهم يشفعون لهم في الآخرة في دفع العذاب، فإذا وجدوا الأمر على عكس ما قدروا لم يكن شيء أبغض إليهم منهم.

وثالثها: أن إلقاءها في النار يجري مجرى الاستهزاء بعبادها.

ورابعها: قيل ما كان منها حجرا أو حديدا يحمى ويلزق بعبادها، وما كان خشبا يجعل جمرة يعذب بها صاحبها.

أما قوله تعالى: ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ فالمراد يقذفون في نار جهنم فشبههم بالحصباء التي يرمى بها الشيء فلما رمى بها كرمي الحصباء، جعلهم حصب جهنم تشبيها»[1].

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ أي فيها داخلون، والخطاب للمشركين عبدة الأصنام أي أنتم واردوها مع الأصنام، ويجوز أن يقال: الخطاب للأصنام وعبدتها؛ لأن الأصنام وإن كانت جمادات فقد يخبر عنها بكنايات الآدميين، وقال العلماء: لا يدخل في هذا عيسى ولا عزير ولا الملائكة

---

(١) التفسير الكبير (٢٢/ ٢٢٥).

صلوات اللَّه عليهم لأن (ما) لغير الآدميين، فلو أراد ذلك لقال: (ومن)»[١].

قال ابن عاشور: «وهو ارتقاء في ثبورهم فهم قالوا: ﴿يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ فأخبروا بأن آلهتهم وهم أعز عليهم من أنفسهم وأبعد في أنظارهم عن أن يلحقهم سوء صائرون إلى مصيرهم من الخزي والهوان، ولذلك أكد الخبر بحرف التأكيد لأنهم كانوا بحيث ينكرون ذلك.

و(ما) موصولة وأكثر استعمالها فيما يكون فيه صاحب الصلة غير عاقل. وأطلقت هنا على معبوداتهم من الأصنام والجن والشياطين تغليبًا على أن (ما) تستعمل فيما هو أعم من العاقل وغيره استعمالا كثيرا في كلام العرب. وكانت أصنامهم ومعبوداتهم حاضرة في ذلك المشهد»[٢].

* * *

---

(١) جامع أحكام القرآن (١١/ ٣٤٤).

(٢) التحرير والتنوير (١٧/ ١٥٢-١٥٣).

قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

★غريب الآية:

زفير: أي نفس شديد، من شدة حرها.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لهؤلاء المشركين الذين وصف صفتهم أنهم ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون، وهم مشركو قريش: أنتم أيها المشركون وما تعبدون من دوني واردو جهنم، ولو كان ما تعبدون من دون اللّه آلهة ما وردوها، بل كانت تمنع من أراد أن يوردكموها إذ كنتم لها في الدنيا عابدين، ولكنها إذ كانت لا نفع عندها لأنفسها، ولا عندها دفع ضر عنها، فهي من أن يكون ذلك عندها لغيرها أبعد، ومن كان كذلك كان بينا بعده من الألوهة، وإن الإله هو الذي يقدر على ما يشاء، ولا يقدر عليه شيء، فأما من كان مقدورا عليه فغير جائز أن يكون إلها، وقوله: ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ يعني الآلهة ومن عبدها أنهم ماكثون في النار أبدا بغير نهاية، وإنما معنى الكلام: كلكم فيها خالدون»[1].

قال السعدي: «هذا كقوله تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾﴾[2] وكل من العابدين والمعبودين فيها خالدون، لا يخرجون منها، ولا ينتقلون عنها.

﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ من شدة العذاب ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ صم بكم عمي، أو لا يسمعون من الأصوات غير صوتها، لشدة غليانها، واشتداد زفيرها وتغيظها.

ودخول آلهة المشركين النار، إنما هو الأصنام، أو من عبد وهو راض بعبادته.

---

(١) جامع البيان (١٧/ ٩٥).

(٢) النحل: الآية (٣٩).

وأما المسيح وعزير والملائكة ونحوهم، ممن عبد من الأولياء، فإنهم لا يعذبون فيها، ويدخلون في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾[1]»[2].

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أن أهل النار لهم فيها زفير والعياذ بالله تعالى. وأظهر الأقوال في الزفير: أنه كأول صوت الحمار، وأن الشهيق كآخره، وقد بين تعالى أن أهل النار لهم فيها زفير في غير هذا الموضع، وزاد على ذلك الشهيق والخلود، كقوله في هود: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾[3] الآية.

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أن أهل النار لا يسمعون فيها. وبين في غير هذا الموضع: أنهم لا يتكلمون ولا يبصرون، كقوله في الإسراء: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾[4] الآية، وقوله: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾[5]، وقوله: ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾﴾[6] مع أنه جلا وعلا ذكر في آيات أخر ما يدل على أنهم يسمعون ويبصرون ويتكلمون، كقوله تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾[7] الآية، وقوله: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾[8] الآية، وقوله: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ﴾[9] الآية»[10].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الجواب عن هذا الإشكال من ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: واستظهره أبو حيان أن المراد بما ذكر من العمى والصمم والبكم حقيقته. ويكون ذلك في مبدأ الأمر ثم يرد اللّه تعالى إليهم أبصارهم ونطقهم وسمعهم فيرون النار ويسمعون زفيرها، وينطقون بما حكى اللّه تعالى عنهم في غير موضع.

الوجه الثاني: أنهم لا يرون شيئًا يسرهم، ولا يسمعون كذلك، ولا ينطقون

---

(١) الأنبياء: الآية (١٠١).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٦٤-٢٦٥).
(٣) هود: الآيتان (١٠٦و١٠٧).
(٤) الإسراء: الآية (٩٧).
(٥) طه: الآية (١٢٤).
(٦) النمل: الآية (٨٥).
(٧) مريم: الآية (٣٨).
(٨) السجدة: الآية (١٢).
(٩) الكهف: الآية (٥٣).
(١٠) أضواء البيان (٤/ ٦٩٠-٦٩١).

بحجة، كما أنهم كانوا في الدنيا لا يستبصرون ولا ينطقون بالحق ولا يسمعونه. وأخرج ذلك ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس وروي أيضًا عن الحسن كما ذكره الألوسي وغيره. وعلى هذا القول فقد نزل ما يقولونه ويسمعونه ويبصرونه منزلة العدم لعدم الانتفاع به. كما أوضحناه في غير هذا الموضع. ومن المعلوم أن العرب تطلق لا شيء على ما لا نفع فيه. ألا ترى أن اللَّه يقول في المنافقين: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾[1] الآية، مع أنه يقول فيهم: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾[2]، ويقول فيهم: ﴿وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾[3] أي لفصاحتهم وحلاوة ألسنتهم. ويقول فيهم: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾[4] وما ذلك إلا لأن الكلام ونحوه الذي لا فائدة فيه كلا شيء: فيصدق على صاحبه أنه أعمى وأصم وأبكم، ومن ذلك قول قعنب ابن أم صاحب:

صم إذا سمعوا خيرا ذكرت به   وإن ذكرت بسوء عندهم أذنوا

وقول الآخر:

أصم عن الأمر الذي لا أريده   وأسمع خلق اللَّه حين أريد

وقول الآخر:

قل ما بدا لك من زور ومن كذب   حلمي أصم وأذني غير صماء

ونظائر هذا كثيرة في كلام العرب من إطلاق الصمم على السماع الذي لا فائدة فيه. وكذلك الكلام الذي لا فائدة فيه، والرؤية التي لا فائدة فيها.

الوجه الثالث: أن اللَّه إذا قال لهم: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾[5] وقع بهم ذلك العمى والصمم والبكم من شدة الكرب واليأس من الفرج قال تعالى: ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾﴾[6] وعلى هذا القول تكون الأحوال الخمسة مقدرة: أعني قوله في طه: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾[7]، وقوله فيها: ﴿لِمَ

(١) البقرة: الآية (١٨).
(٢) الأحزاب: الآية (١٩).
(٣) المنافقون: الآية (٤).
(٤) البقرة: الآية (٢٠).
(٥) المؤمنون: الآية (١٠٨).
(٦) النمل: الآية (٨٥).
(٧) طه: الآية (١٢٤).

حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ﴾[١]، وقوله في الإسراء: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾[٢]، وأظهرها عندي الأول: والله تعالى أعلم»[٣].

* * *

(١) طه: الآية (١٢٥).
(٢) الإسراء: الآية (٩٧).
(٣) أضواء البيان (٤/ ٥٤٩-٥٥٠).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ١٠١﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «إن أهل التأويل اختلفوا في المعني به، فقال بعضهم: عني به كل من سبقت له من اللَّه السعادة من خلقه أنه عن النار مبعد.. وقال آخرون: بل عني: من عبد من دون اللَّه وهو لله طائع ولعبادة من يعبد كاره.. وأولى الأقوال في تأويل ذلك بالصواب: قول من قال: عنى بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ١٠١﴾ ما كان من معبود كان المشركون يعبدونه والمعبود لله مطيع، وعابدوه بعبادتهم إياه باللَّه كفار؛ لأن قوله -تعالى ذكره-: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾: ابتداء كلام محقق لأمر كان ينكره قوم، على نحو الذي ذكرنا في الخبر عن ابن عباس، فكأن المشركين قالوا لنبي اللَّه ﷺ إذ قال لهم: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾[1] ما الأمر كما تقول، لأنا نعبد الملائكة، ويعبد آخرون المسيح وعزيرا، فقال ﷻ ردا عليهم قولهم: بل ذلك كذلك، وليس الذين سبقت لهم منا الحسنى هم عنها مبعدون؛ لأنهم غير معنيين بقولنا: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ فأما قول الذين قالوا ذلك استثناء من قوله: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ فقول لا معنى له؛ لأن الاستثناء إنما هو إخراج المستثنى من المستثنى منه ولا شك أن الذين سبقت لهم منا الحسنى إنما هم إما ملائكة، وإما إنس أو جان، وكل هؤلاء إذا ذكرتها العرب فإن أكثر ما تذكرها بمن لا بما، واللَّه -تعالى ذكره- إنما ذكر المعبودين الذين أخبر أنهم حصب جهنم بما قال: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ إنما أريد به ما كانوا يعبدونه من الأصنام والآلهة من الحجارة والخشب، لا من كان من الملائكة والإنس، فإذا كان ذلك كذلك لما وصفنا فقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾ جواب من اللَّه للقائلين ما ذكرنا من

---

(١) الأنبياء: الآية (٩٨).

المشركين مبتدأ، وأما الحسنى فإنه الفعلى من الحسن، وإنما عني بها السعادة السابقة من اللَّه لهم»[١].

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة أن الذين سبقت لهم منه في علمه الحسنى وهي تأنيث الأحسن، وهي الجنة أو السعادة مبعدون يوم القيامة عن النار. وقد أشار إلى نحو ذلك في غير هذا الموضع، كقوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[٢]، وقوله: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ ﴿٦٠﴾﴾[٣]، ونحو ذلك من الآيات»[٤].

قال السعدي: «أي: سبقت لهم سابقة السعادة في علم اللَّه، وفي اللوح المحفوظ وفي تيسيرهم في الدنيا لليسرى والأعمال الصالحة.

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ عَنْهَا﴾ أي: عن النار ﴿مُبْعَدُونَ﴾ فلا يدخلونها، ولا يكونون قريبا منها، بل يبعدون عنها، غاية البعد»[٥].

* * *

(١) جامع البيان (١٧/ ٩٦-٩٨).
(٢) يونس: الآية (٢٦).
(٣) الرحمن: الآية (٦٠).
(٤) أضواء البيان (٤/ ٦٩١).
(٥) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٦٥).

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ۝١٠٢﴾

★ **غريب الآية:**

حَسِيسَهَا: أي حركة لَهَبِهَا. والحسيس: الصوت.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: لا يسمع هؤلاء الذين سبقت لهم منا الحسنى حسيس النار ويعني بالحسيس: الصوت والحس.

فإن قال قائل: فكيف لا يسمعون حسيسها، وقد علمت ما روي من أن جهنم يؤتى بها يوم القيامة فتزفر زفرة لا يبقى مقرب ولا نبي مرسل إلا جثا على ركبتيه خوفا منها؟ قيل: إن الحال التي يسمعون فيها حسيسها هي غير تلك الحال، بل هي الحال التي:

حدثني محمد بن سعد قال: ثني أبي قال: ثني عمي قال: ثني أبي عن أبيه عن ابن عباس قوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ۝١٠٢﴾ يقول: لا يسمع أهل الجنة حسيس النار إذا نزلوا منزلهم من الجنة.

وقوله: ﴿وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ يقول: وهم فيما تشتهيه نفوسهم من نعيمها ولذاتها ماكثون فيها لا يخافون زوالا عنها ولا انتقالا عنها»[1].

قال ابن عاشور: «﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ بيان لمعنى مبعدون، أي مبعدون عنها بعدا شديدا بحيث لا يلفحهم حرها ولا يروعهم منظرها ولا يسمعون صوتها، والصوت يبلغ إلى السمع من أبعد ما يبلغ منه المرئي.

والحسيس: الصوت الذي يبلغ الحس، أي الصوت الذي يسمع من بعيد أي

(١) جامع البيان (١٧/ ٩٨).

لا يقربون من النار ولا تبلغ أسماعهم أصواتها، فهم سالمون من الفزع من أصواتها، فلا يقرع أسماعهم ما يؤلمها.

وعقب ذلك بما هو أخص من السلامة وهو النعيم الملائم، وجيء فيه بما يدل على العموم وهو ﴿فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ﴾ وما يدل على الدوام وهو ﴿خَٰلِدُونَ﴾»[1].

قال السعدي: «حتى لا يسمعوا حسيسها، ولا يروا شخصها. ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾.

﴿وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ﴾ من المآكل، والمشارب، والمناكح والمناظر، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، مستمر لهم ذلك، يزداد حسنه على الأحقاب»[2].

* * *

(١) التحرير والتنوير (١٧/ ١٥٦).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٦٥).

قوله تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «اختلف أهل التأويل في الفزع الأكبر: أي الفزع هو؟ فقال بعضهم: ذلك النار إذا أطبقت على أهلها.. وقال آخرون: بل ذلك النفخة الآخرة.. وقال آخرون: بل ذلك حين يؤمر بالعبد إلى النار.. وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: ذلك عند النفخة الآخرة، وذلك أن من لم يحزنه ذلك الفزع الأكبر، وأمن منه فهو مما بعده أحرى أن لا يفزع، وأن من أفزعه ذلك فغير مأمون عليه الفزع مما بعده.

وقوله: ﴿وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ يقول: وتستقبلهم الملائكة، يهنئونهم يقولون: ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ فيه الكرامة من اللّٰه والحباء، والجزيل من الثواب على ما كنتم تنصبون في الدنيا لله في طاعته»[١].

قال الرازي: «فيه وجوه: أحدها: أنها النفخة الأخيرة لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾[٢]. وثانيها: أنه الموت قالوا: إذا استقر أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار بعث اللّٰه تعالى جبريل ﷺ ومعه الموت في صورة كبش أملح فيقول لأهل الدارين أتعرفون هذا فيقولون: لا فيقول هذا الموت ثم يذبحه ثم ينادي يا أهل الجنة خلود ولا موت أبدا، وكذلك لأهل النار، واحتج هذا القائل بأن قوله: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ إنما ذكر بعد قوله: ﴿وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾[٣] فلا بد وأن يكون لأحدهما تعلق بالآخر، والفزع الأكبر الذي هو ينافي الخلود هو الموت. وثالثها: قال سعيد بن جبير: هو إطباق

---

(١) جامع البيان (١٧/ ٩٨-٩٩).

(٢) النمل: الآية (٨٧).

(٣) الأنبياء: الآية (١٠٢).

النار على أهلها، فيفزعون لذلك فزعة عظيمة»[١].

قال السعدي: «أي: لا يقلقهم إذا فزع الناس أكبر فزع، وذلك يوم القيامة، حين تقرب النار، تتغيظ على الكافرين والعاصين فيفزع الناس لذلك الأمر وهؤلاء لا يحزنهم، لعلمهم بما يقدمون عليه وأن اللّه قد أمنهم مما يخافون»[٢].

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أن عباده المؤمنين الذين سبقت لهم منه الحسنى ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي تستقبلهم بالبشارة، وتقول لهم: ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ أي توعدون فيه أنواع الكرامة والنعيم. قيل: تستقبلهم على أبواب الجنة بذلك. وقيل: عند الخروج من القبور كما تقدم.

وما ذكره -جل وعلا- من استقبال الملائكة لهم بذلك بينه في غير هذا الموضع، كقوله في فصلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾[٣] وقوله في النحل: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾[٤] إلى غير ذلك من الآيات»[٥].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفة أولياء اللّه ﷻ

* عن أبي مالك الأشعري أن رسول اللّه ﷺ لما قضى صلاته أقبل على الناس بوجهه قال: «**يا أيها الناس اسمعوا واعقلوا واعلموا أن لله عبادا ليسوا بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء على مجالسهم وقربهم أو قربتهم** -شك ابن صاعد- **من اللّه تعالى ﷻ**. فجثا رجل من الأعراب من قاصية الناس وألوى بيده إلى نبي اللّه ﷺ، فقال: يا نبي اللّه، ناس من الناس ليسوا بأنبياء ولا شهداء، تغبطهم الأنبياء والشهداء على مجالسهم وقربهم من اللّه تعالى انعتهم لنا، حلهم

(١) التفسير الكبير (٢٢/ ٢٢٨).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٦٥).
(٣) فصلت: الآيات (٣٠-٣٢).
(٤) النحل: الآية (٣٢).
(٥) أضواء البيان (٤/ ٦٩١-٦٩٢).

لنا، وشكلهم لنا. قال: فسر وجه رسول اللَّه ﷺ بسؤال الأعرابي. فقال رسول اللَّه ﷺ: **هم ناس من أفناء الناس، ونوازع القبائل، لم تصل بينهم أرحام متقاربة، تحابوا في اللَّه وتصافوا فيه، يضع اللَّه لهم يوم القيامة منابر من نور، فيجلسهم عليها ويجعل وجوههم نورا، وثيابهم نورا يفزع الناس يوم القيامة ولا يفزعون، وهم أولياء اللَّه الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون»**[١].

* * *

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٤٣) وعبدالرزاق (١١/ ٢٠١-٢٠٢/ ٢٠٣٢٤) وابن المبارك في الزهد (١/ ٥٦١-٥٦٢/ ٦٦٤) واللفظ له، والطبراني (٣/ ٣٢٩/ ٣٤٣٣) والبغوي في شرح السنة (١٣/ ٥٠-٥١) وحسن إسناده المنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ٤٨/ ٢٢) وانظر الصحيحة (٣٤٦٤).

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾

★ غريب الآية:

السجل: الصحيفة التي يسجل فيها المطلوب.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «يخبر تعالى أنه يوم القيامة يطوي السموات -على عظمها واتساعها- كما يطوي الكاتب للسجل أي: الورقة المكتوب فيها، فتنتثر نجومها، ويكور شمسها وقمرها، وتزول عن أماكنها ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ أي: إعادتنا للخلق، مثل ابتدائنا لخلقهم، فكما ابتدأنا خلقهم، ولم يكونوا شيئا، كذلك نعيدهم بعد موتهم.

﴿وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ ننفذ ما وعدنا، لكمال قدرته، وأنه لا تمتنع منه الأشياء»[١].

قال الشنقيطي: «قوله: ﴿يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ﴾ منصوب بقوله: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾، أو بقوله: ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ﴾. وقد ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة أنه يوم القيامة يطوي السماء كطي السجل للكتب. وصرح في الزمر بأن الأرض جميعا قبضته يوم القيامة، وأن السموات مطويات بيمينه، وذلك في قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾[٢]. وما ذكره من كون السموات مطويات بيمينه في هذه الآية جاء في الصحيح أيضًا عن النبي ﷺ، وقد قدمنا مرارا أن الواجب في ذلك إمراره كما جاء، والتصديق به مع اعتقاد أن صفة الخالق أعظم من أن تماثل صفة

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/٢٦٦).

(٢) الزمر: الآية (٦٧).

المخلوق»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في طي اللَّه السماء وأن طيها يكون بيده اليمنى

* عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«يطوي اللَّه عز وجل السموات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين بشماله، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟»**[٢].

★ فوائد الحديث:

قال ابن القيم: «ورد لفظ اليد في القرآن والسنة وكلام الصحابة والتابعين في أكثر من مائة موضع، ورودا متنوعا متصرفا فيه مقرونا بما يدل على أنها يد حقيقة من الإمساك والطي والقبض والبسط والمصافحة والحثيات والنضح باليد، والخلق باليدين والمباشرة بهما، وكتب التوراة بيده، وغرس جنة عدن بيده، وتخمير طينة آدم بيده، ووقوف العبد بين يديه، وكون المقسطين عن يمينه، وقيام رسول اللَّه ﷺ يوم القيامة عن يمينه، وتخيير آدم بين ما في يديه، فقال: اخترت يمين ربي، وأخذ الصدقة بيمينه يربيها لصاحبها، وكتابه بيده على نفسه أن رحمته تغلب غضبه، وأنه مسح ظهر آدم بيده، ثم قال له ويداه مفتوحتان: اختر. فقال: اخترت يمين ربي وكلتا يديه يمين مباركة، وأن يمينه ملأى لا يغيضها نفقة سحاء الليل والنهار، وبيده الأخرى القسط يرفع ويخفض، وأنه خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، وأنه يطوي السموات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يطوي الأرض باليد الأخرى، وأنه خط الألواح التي كتبها لموسى بيده»[٣].

وقد تقدم ما يتعلق بصفة اليمين في سورة التوبة الآية (١٠٤) وسيأتي في سورة

---

(١) أضواء البيان (٤/ ٦٩٢).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٧٢) والبخاري (١٣/ ٤٨٤/ ٧٤١٢) ومسلم (٤/ ٢١٤٨/ ٢٧٨٨) وأبو داود (٥/ ١٠٠/ ٤٧٣٢) والنسائي في الكبرى (٤/ ٤٠٠-٤٠١/ ٧٦٨٩) وابن ماجه (٢/ ١٤٢٩/ ٤٢٧٥).

(٣) مختصر الصواعق (ص٣٨٤).

الزمر عند قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ الآية (٦٧).

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خطب النبي ﷺ فقال: «**إنكم محشورون إلى الله حفاة عراة غرلا** ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ **ثم إن أول من يكسى يوم القيامة إبراهيم، ثم يجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال، فأقول يا رب أصحابي، فيقال لا تدري ما أحدثوا بعدك. فأقول كما قال العبد الصالح:** ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ **إلى قوله:** ﴿شَهِيدٌ﴾[1] **فيقال: إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم**»[2].

★ **فوائد الحديث:**

قال المباركفوري: «﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ الكاف متعلق بمحذوف دل عليه (نعيده) أي نعيد الخلق إعادة مثل الأول. والمعنى بدأناهم في بطون أمهاتهم حفاة عراة غرلا كذا نعيدهم يوم القيامة»[3].

قال ابن القيم: «لما وعد الله سبحانه وهو صادق الوعد الذي لا يخلف وعده أنه يعيد الخلق كما بدأهم أول مرة كان من صدق وعده أن يعيده على الحالة التي بدأه عليها من تمام أعضائه وكمالها قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ وقال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾[4]. وأيضا فإن الختان إنما شرع في الدنيا لتكميل الطهارة والتنزه من البول، وأهل الجنة لا يبولون ولا يتغوطون فليس هناك نجاسة تصيب الغرلة فيحتاج إلى التحرز منها، والقلفة لا تمنع لذة الجماع ولا تعوقه، هذا إن قدر استمرارهم على تلك الحالة التي بعثوا عليها، وإلا فلا يلزم من كونهم يبعثون كذلك أن يستمروا على تلك الحالة التي بعثوا عليها، فإنهم يبعثون حفاة عراة بهما، ثم يكسون ويمد خلقهم ويزاد فيه بعد ذلك، يزاد في خلق أهل الجنة والنار، وإلا

(١) المائدة: الآية (١١٧).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٢٢٣و٢٢٩) والبخاري (٨/ ٥٥٩-٥٦٠/ ٤٧٤٠) ومسلم (٤/ ٢١٩٤-٢١٩٥/ ٢٨٦٠٥٨) والترمذي (٤/ ٥٣٢/ ٢٤٢٣) والنسائي (٤/ ٤٢٣/ ٢٠٨٦).

(٣) تحفة الأحوذي (٧/ ٩٢).

(٤) الأعراف: الآية (٢٩).

فوقت قيامهم من القبور يكونون على صورتهم التي كانوا عليها في الدنيا، وعلى صفاتهم وهيئاتهم وأحوالهم، فيبعث كل عبد على ما مات عليه، ثم ينشئهم اللَّه سبحانه كما يشاء وهل تبقى تلك الغرلة التي كملت خلقهم في القبور أو تزول يمكن هذا وهذا، ولا يعلم إلا بخبر يجب المصير إليه، واللَّه ﷻ أعلم»[1].

* * *

(١) تحفة المودود (ص٣٨٧-٣٨٨).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرا عما حتمه وقضاه لعباده الصالحين من السعادة في الدنيا والآخرة، ووراثة الأرض في الدنيا والآخرة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1] وقال: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾[2] وقال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾[3] وأخبر تعالى أن هذا مسطور في الكتب الشرعية والقدرية وهو كائن لا محالة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾»[4].

قال الرازي: «أما قوله تعالى: ﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ ففيه وجوه:

أحدها: الأرض أرض الجنة والعباد الصالحون هم المؤمنون العاملون بطاعة اللَّه تعالى، فالمعنى أن اللَّه تعالى كتب في كتب الأنبياء عليهم السلام وفي اللوح المحفوظ أنه سيورث الجنة من كان صالحا من عباده، وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة والسدي وأبي العالية وهؤلاء أكدوا هذا القول بأمور: أما أولا: فقوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾[5]، وأما ثانيا: فلأنها الأرض التي يختص بها الصالحون لأنها لهم خلقت، وغيرهم إذا حصل معهم في الجنة فعلى وجه التبع، فأما أرض الدنيا فلأنها

---

(١) الأعراف: الآية (١٢٨).
(٢) غافر: الآية (٥١).
(٣) النور: الآية (٥٥).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣٧٩).
(٥) الزمر: الآية (٧٤).

للصالح وغير الصالح.

وأما ثالثا: فلأن هذه الأرض مذكورة عقيب الإعادة وبعد الإعادة الأرض التي هذا وصفها لا تكون إلا الجنة. وأما رابعا: فقد روي في الخبر أنها أرض الجنة فإنها بيضاء نقية.

وثانيها: أن المراد من الأرض أرض الدنيا فإنه ﷺ سيورثها المؤمنين في الدنيا وهو قول الكلبي وابن عباس في بعض الروايات ودليل هذا القول قوله سبحانه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ إلى قوله: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾[١] وقوله تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾[٢]. وثالثها: هي الأرض المقدسة يرثها الصالحون، ودليله قوله تعالى؛ ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾[٣] ثم بالآخرة يورثها أمة محمد ﷺ عند نزول عيسى ابن مريم ﷺ»[٤].

قال ابن القيم: «فالزبور هنا جميع الكتب المنزلة من السماء لا تختص بزبور داود، والذكر أم الكتاب الذي عند الله، والأرض الدنيا، وعباده الصالحون أمة محمد ﷺ. هذا أصح الأقوال في هذه الآية، وهي علم من أعلام نبوة رسول الله ﷺ، فإنه أخبر بذلك بمكة وأهل الأرض كلهم كفار أعداء له ولأصحابه، والمشركون قد أخرجوهم من ديارهم ومساكنهم وشتتوهم في أطراف الأرض، فأخبرهم ربهم -تبارك وتعالى- أنه كتب في الذكر الأول أنهم يرثون الأرض من الكفار، ثم كتب ذلك في الكتب التي أنزلها على رسله.

والكتاب قد أطلق عليه الذكر في قول النبي ﷺ في الحديث المتفق على صحته: **«كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء»**[٥]. فهذا هو الذكر الذي كتب فيه أن الدنيا تصير لأمة محمد ﷺ.

---

(١) النور: الآية (٥٥).
(٢) الأعراف: الآية (١٢٨).
(٣) الأعراف: الآية (١٣٧).
(٤) التفسير الكبير (٢٢/ ٢٣٠-٢٣١).
(٥) أخرجه: أحمد (٤/ ٤٣١-٤٣٢) والبخاري (٦/ ٣٥١-٣٥٢/ ٣١٩١) والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٦٣/ ١١٢٤٠). وأخرجه: الترمذي مختصرا ودون ذكر موضع الشاهد (٥/ ٦٨٨-٦٨٩/ ٣٩٥١) كلهم من حديث عمران بن حصين ﷺ.

والكتب المنزلة قد أطلق عليها الزبر في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾[١] أي: أرسلناهم بالآيات الواضحات والكتب التي فيها الهدى والنور. والذكر هنا الكتابان اللذان أنزلا قبل رسول الله ﷺ وهما التوراة والإنجيل»[٢].

وقال أيضا: «وقد اختلف الناس في الأرض المذكورة هنا فقال سعيد بن جبير عن ابن عباس: هي أرض الجنة، وهذا قول أكثر المفسرين، وعن ابن عباس قول آخر أنها الدنيا التي فتحها الله على أمة محمد، وهذا القول هو الصحيح، ونظيره قوله تعالى في سورة النور: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ وفي الصحيح عن النبي ﷺ قال: «**زويت لي الأرض مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتي ما زوى لي منها**»[٣].

وقالت طائفة من المفسرين المراد بذلك أرض بيت المقدس وهي من الأرض التي أورثها الله عباده الصالحين، وليست الآية مختصة بها»[٤].

قال الشنقيطي: «أظهر الأقوال عندي في هذه الآية الكريمة: أن الزبور الذي هو الكتاب يراد به جنس الكتاب فيشمل الكتب المنزلة، كالتوراة والإنجيل، وزبور داود، وغير ذلك. وأن المراد بالذكر: أم الكتاب، وعليه فالمعنى: ولقد كتبنا في الكتب المنزلة على الأنبياء أن الأرض يرثها عبادي الصالحون بعد أن كتبنا ذلك في أم الكتاب. وهذا المعنى واضح لا إشكال فيه. وقيل الزبور في الآية: زبور داود، والذكر: التوراة. وقيل غير ذلك. وأظهرها هو ما ذكرنا واختاره غير واحد.

واعلم أنا قد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك: أن الآية قد يكون فيها قولان للعلماء، وكلاهما حق ويشهد له قرآن فنذكر الجميع؛ لأنه كله حق داخل في الآية، ومن ذلك هذه الآية الكريمة، لأن المراد بالأرض في قوله هنا: ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ فيه للعلماء وجهان:

---

(١) النحل: الآيتان (٤٣و٤٤).

(٢) شفاء العليل (ص١١٥-١١٦).

(٣) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٧٨) ومسلم (٤/ ٢٢١٥/ ٢٨٨٩) وأبو داود (٤/ ٤٥٠-٤٥٢/ ٤٢٥٢) والترمذي (٤/ ٤١٠/ ٢١٧٦) وابن ماجه (٢/ ١٣٠٤/ ٣٩٥٢).

(٤) الروح (١/ ٤١٤-٤١٥).

الأول: أنها أرض الجنة يورثها الله يوم القيامة عباده الصالحين. وهذا القول يدل له قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾[1] وقد قدمنا معنى إيراثهم الجنة مستوفى في سورة مريم.

الثاني: أن المراد بالأرض: أرض العدو يورثها الله المؤمنين في الدنيا: ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾[2]، وقوله: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا﴾[3] الآية، وقوله تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾[5] الآية، وقوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ﴾[6] إلى غير ذلك من الآيات»[7].

* * *

(١) الزمر: الآية (٧٤).

(٢) الأحزاب: الآية (٢٧).

(٣) الأعراف: الآية (١٣٧).

(٤) الأعراف: الآية (١٢٨).

(٥) النور: الآية (٥٥).

(٦) إبراهيم: الآيتان (١٣و١٤).

(٧) أضواء البيان (٤/ ٦٩٣-٦٩٤).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوۡمٍ عَٰبِدِينَ ١٠٦﴾

★ **غريب الآية:**

بلاغا: كفاية.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: إن في هذا القرآن الذي أنزلناه على نبينا محمد ﷺ لبلاغا لمن عبدالله بما فيه من الفرائض التي فرضها الله إلى رضوانه وإدراك الطلبة عنده»[1].

قال الرازي: «فقوله هذا إشارة إلى المذكور في هذه السورة من الأخبار، والوعد والوعيد، والمواعظ البالغة والبلاغ الكفاية، وما تبلغ به البغية، وقيل في العابدين إنهم العالمون، وقيل بل العاملون، والأولى أنهم الجامعون بين الأمرين، لأن العلم كالشجر والعمل كالثمر، والشجر بدون الثمر غير مفيد، والثمر بدون الشجر غير كائن»[2].

قال الشنقيطي: «الإشارة في قوله: ﴿هَٰذَا﴾ للقرآن العظيم، الذي منه هذه السورة الكريمة. والبلاغ: الكفاية، وما تبلغ به البغية. وما ذكره هنا من أن هذا القرآن فيه الكفاية للعابدين، وما يبلغون به بغيتهم، أي من خير الدنيا والآخرة، ذكره في غير هذا الموضع. كقوله: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٥٢﴾[3] وخص القوم العابدين بذلك لأنهم هم المنتفعون به»[4].

قال السعدي: «يثني الله تعالى على كتابه العزيز «القرآن» ويبين كفايته التامة عن

---

(١) جامع البيان (١٧/ ١٠٥).

(٢) التفسير الكبير (٢٢/ ٢٣١).

(٣) إبراهيم: الآية (٥٢).

(٤) أضواء البيان (٤/ ٦٩٤).

كل شيء، وأنه لا يستغنى عنه فقال: ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ۝١٠٦﴾ أي: يتبلغون به في الوصول إلى ربهم، وإلى دار كرامته، فوصلهم إلى أجل المطالب، وأفضل الرغائب، وليس للعابدين، الذين هم أشرف الخلق، وراءه غاية، لأنه الكفيل بمعرفة ربهم، بأسمائه، وصفاته، وأفعاله، وبالإخبار بالغيوب الصادقة، وبالدعوة لحقائق الإيمان، وشواهد الإيقان، المبين للمأمورات كلها، والمنهيات جميعا، المعرف بعيوب النفس والعمل، والطرق التي ينبغي سلوكها في دقيق الدين وجليله، والتحذير من طرق الشيطان، وبيان مداخله على الإنسان، فمن لم يغنه القرآن، فلا أغناه الله، ومن لا يكفيه، فلا كفاه الله»[1].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٦٧-٢٦٨).

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ۝١٠٧﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: وما أرسلناك يا محمد إلى خلقنا إلا رحمة لمن أرسلناك إليه من خلقي

ثم اختلف أهل التأويل في معنى هذه الآية، أجميع العالم الذي أرسل إليهم محمد أريد بها مؤمنهم وكافرهم؟ أم أريد بها أهل الإيمان خاصة دون أهل الكفر؟ فقال بعضهم: عني بها جميع العالم المؤمن والكافر.. وقال آخرون: بل أريد بها أهل الإيمان دون أهل الكفر.. وأولى القولين في ذلك بالصواب: القول الذي روي عن ابن عباس، وهو أن اللّٰه أرسل نبيه محمدا ﷺ رحمة لجميع العالم، مؤمنهم وكافرهم، فأما مؤمنهم فإن اللّٰه هداه به وأدخله بالإيمان به، وبالعمل بما جاء من عند اللّٰه الجنة، وأما كافرهم فإنه دفع به عنه عاجل البلاء، الذي كان ينزل بالأمم المكذبة رسلها من قبله»[1].

قال الرازي: «إنه عليه السلام كان رحمة في الدين وفي الدنيا، أما في الدين فلأنه عليه السلام بعث والناس في جاهلية وضلالة، وأهل الكتابين كانوا في حيرة من أمر دينهم لطول مكثهم، وانقطاع تواترهم ووقوع الاختلاف في كتبهم، فبعث اللّٰه تعالى محمدا ﷺ حين لم يكن لطالب الحق سبيل إلى الفوز والثواب، فدعاهم إلى الحق وبين لهم سبيل الثواب، وشرع لهم الأحكام وميز الحلال من الحرام، ثم إنما ينتفع بهذه الرحمة من كانت همته طلب الحق، فلا يركن إلى التقليد ولا إلى العناد والاستكبار، وكان التوفيق قرينا له قال اللّٰه تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾[2] وأما في الدنيا فلأنهم تخلصوا بسببه من كثير من الذل والقتال والحروب، ونصروا ببركة دينه. فإن قيل: كيف كان رحمة،

---

(١) جامع البيان (١٧/ ١٠٦).

(٢) فصلت: الآية (٤٤).

وقد جاء بالسيف واستباحة الأموال؟ قلنا: الجواب من وجوه:

أحدها: إنما جاء بالسيف لمن استكبر وعاند ولم يتفكر ولم يتدبر، ومن أوصاف اللَّه الرحمن الرحيم، ثم هو منتقم من العصاة. وقال: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا﴾[1] ثم قد يكون سببا للفساد.

وثانيها: أن كل نبي قبل نبينا كان إذا كذبه قومه أهلك اللَّه المكذبين بالخسف والمسخ والغرق، وأنه تعالى أخر عذاب من كذب رسولنا إلى الموت أو إلى القيامة قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾[2] لا يقال: أليس أنه تعالى قال: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾[3] وقال تعالى: ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ﴾[4] لأنا نقول تخصيص العام لا يقدح فيه.

وثالثها: أنه ﷺ كان في نهاية حسن الخلق قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾[5] وقال أبو هريرة ﷺ: «**قيل لرسول اللَّه ﷺ أدع على المشركين، قال: «إنما بعثت رحمة ولم أبعث عذابا»**[6] وقال في رواية حذيفة: «**إنما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر، فأيما رجل سببته أو لعنته فاجعلها اللهم عليه صلاة يوم القيامة**»[7].

ورابعها: قال عبدالرحمن بن زيد: ﴿إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[8] يعني المؤمنين خاصة، قال الإمام أبو القاسم الأنصاري: والقولان يرجعان إلى معنى واحد، لما بينا أنه كان رحمة للكل لو تدبروا في آيات اللَّه وآيات رسوله، فأما من أعرض واستكبر، فإنما وقع في المحنة من قبل نفسه كما قال: ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾»[9].

قال ابن القيم: «أصح القولين في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ أنه على عمومه، وفيه على هذا التقدير وجهان:

أحدهما: أن عموم العالمين حصل لهم النفع برسالته، أما أتباعه فنالوا به كرامة

---

(١) ق: الآية (٩).
(٢) الأنفال: الآية (٣٣).
(٣) التوبة: الآية (١٤).
(٤) الأحزاب: الآية (٧٣).
(٥) القلم: الآية (٤).
(٦) سيأتي تخريجه.
(٧) سيأتي تخريجه.
(٨) الأنبياء: الآية (١٠٧).
(٩) التفسير الكبير (٢٢/ ٢٣١-٢٣٢).

الدنيا والآخرة، وأما أعداؤه فالمحاربون له عجل قتلهم، وموتهم خير لهم من حياتهم؛ لأن حياتهم زيادة لهم في تغليظ العذاب عليهم في الدار الآخرة، وهم قد كتب عليهم الشقاء، فتعجيل موتهم خير لهم من طول أعمارهم في الكفر، وأما المعاهدون له فعاشوا في الدنيا تحت ظله وعهده وذمته، وهم أقل شرا بذلك العهد من المحاربين له، وأما المنافقون فحصل لهم بإظهار الإيمان به حقن دمائهم وأموالهم وأهلهم، واحترامها، وجريان أحكام المسلمين عليهم في التوارث وغيره، وأما الأمم النائية عنه فإن اللّه سبحانه رفع برسالته العذاب العام عن أهل الأرض فأصاب كل العالمين النفع برسالته.

الوجه الثاني: أنه رحمة لكل أحد لكن المؤمنون قبلوا هذه الرحمة فانتفعوا بها دنيا وأخرى، والكفار ردوها فلم يخرج بذلك عن أن يكون رحمة لهم، لكن لم يقبلوها كما يقال هذا دواء لهذا المرض، فإذا لم يستعمله المريض لم يخرج عن أن يكون دواء لذلك المرض»[1].

قال ابن عاشور: «أقيمت هذه السورة على عماد إثبات الرسالة لمحمد ﷺ وتصديق دعوته. فافتتحت بإنذار المعاندين باقتراب حسابهم ووشك حلول وعد اللّه فيهم وإثبات رسالة محمد ﷺ، وأنه لم يكن بدعا من الرسل، وذكروا إجمالا، ثم ذكرت طائفة منهم على التفصيل. وتخلل ذلك بمواعظ ودلائل.

وعطفت هذه الجملة على جميع ما تقدم من ذكر الأنبياء الذين أوتوا حكما وعلما وذكر ما أوتوه من الكرامات، فجاءت هذه الآية مشتملة على وصف جامع لبعثة محمد ﷺ. ومزيتها على سائر الشرائع مزية تناسب عمومها ودوامها وذلك كونها رحمة للعالمين. فهذه الجملة عطف على جملة ﴿وَجَعَلْنَـٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾[2] ختاما لمناقب الأنبياء وما بينهما اعتراض واستطراد. ولهذه الجملة اتصال بآية ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾[3].

(١) جلاء الأفهام (ص٢٨٨–٢٨٩).
(٢) الأنبياء: الآية (٩١).
(٣) الأنبياء: الآية (٣).

ووزانها في وصف شريعة محمد ﷺ وزان آية ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ﴾[١] وآية ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ﴾[٢] والآيات التي بعدها في وصف ما أوتيه الرسل السابقون.

وصيغت بأبلغ نظم إذ اشتملت هاته الآية بوجازة ألفاظها على مدح الرسول ﷺ، ومدح مرسله تعالى، ومدح رسالته بأن كانت مظهر رحمة اللّه تعالى للناس كافة وبأنها رحمة اللّه تعالى بخلقه.

فهي تشتمل على أربعة وعشرين حرفا بدون حرف العطف الذي عطفت به. وذكر فيها الرسول ومرسله، والمرسل إليهم، والرسالة، وأوصاف هؤلاء الأربعة مع إفادة عموم الأحوال، واستغراق المرسل إليهم، وخصوصية الحصر، وتنكير (رحمة) للتعظيم؛ إذ لا مقتضي لإيثار التنكير في هذا المقام غير إرادة التعظيم وإلا لقيل: إلا لنرحم العالمين، أو إلا أنك الرحمة للعالمين. وليس التنكير للإفراد قطعا لظهور أن المراد جنس الرحمة، وتنكير الجنس هو الذي يعرض له قصد إرادة التعظيم. فهذه اثنا عشر معنى خصوصيا، فقد فاقت أجمع كلمة لبلغاء العرب وهي: قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

إذ تلك الكلمة قصاراها كما قالوا: «أنه وقف واستوقف وبكى واستبكى وذكر الحبيب والمنزل» دون خصوصية أزيد من ذلك، فجمع ستة معان لا غير، وهي غير خصوصية إنما هي وفرة معان. وليس تنكير «حبيب ومنزل» إلا للوحدة لأنه أراد فردا معينا من جنس الأحباب، وفردا معينا من جنس المنازل، وهما حبيبه صاحب ذلك المنزل ومنزله..

وتفصيل ذلك يظهر في مظهرين: الأول تخلق نفسه الزكية بخلق الرحمة والثاني إحاطة الرحمة بتصاريف شريعته.

فأما المظهر الأول فقد قال فيه أبو بكر محمد بن طاهر القيسي الإشبيلي أحد تلامذة أبي علي الغساني وممن أجاز لهم أبو الوليد الباجي من رجال القرن الخامس: (زين اللّه محمدا ﷺ بزينة الرحمة فكان كونه رحمة، وجميع شمائله

---

(١) الأنبياء: الآية (٤٨).

(٢) الأنبياء: الآية (٥١).

رحمة وصفاته رحمة على الخلق) اهـ. ذكره عنه عياض في الشفاء. قلت: يعني أن محمدا ﷺ فطر على خلق الرحمة في جميع أحوال معاملته الأمة لتتكون مناسبة بين روحه الزكية وبين ما يلقى إليه من الوحي بشريعته التي هي رحمة حتى يكون تلقيه الشريعة عن انشراح نفس أن يجد ما يوحى به إليه ملائما رغبته وخلقه. قالت عائشة: «**كان خلقه القرآن**»[1]. ولهذا خص اللّه محمدا ﷺ في هذه السورة بوصف الرحمة، ولم يصف به غيره من الأنبياء، وكذلك في القرآن كله قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾[2] وقال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾[3] أي برحمة جبلك عليها وفطرك بها فكنت لهم لينا. وفي حديث مسلم: أن رسول اللّه لما شج وجهه يوم أحد شق ذلك على أصحابه فقالوا: لو دعوت عليهم فقال: «**إني لم أبعث لعانا وإنما بعثت رحمة**»[4].

وأما المظهر الثاني: من مظاهر كونه رحمة للعالمين فهو مظهر تصاريف شريعته، أي ما فيها من مقومات الرحمة العامة للخلق كلهم لأن قوله تعالى: (للعالمين) متعلق بقوله: (رحمة).

والتعريف في (العالمين) لاستغراق كل ما يصدق عليه اسم العالم. والعالم: الصنف من أصناف ذوي العلم أي الإنسان أو النوع من أنواع المخلوقات ذات الحياة كما تقدم من احتمال المعنيين في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾. فإن أريد أصناف ذوي العلم فمعنى كون الشريعة المحمدية منحصرة في الرحمة أنها أوسع الشرائع رحمة بالناس، فإن الشرائع السالفة وإن كانت مملوءة برحمة إلا أن الرحمة فيها غير عامة، إما لأنها لا تتعلق بجميع أحوال المكلفين، فالحنيفية شريعة إبراهيم عليه السلام كانت رحمة خاصة بحالة الشخص في نفسه وليس فيها تشريع عام، وشريعة عيسى عليه السلام قريبة منها في ذلك، وإما لأنها قد تشتمل في غير القليل من أحكامها على شدة اقتضتها حكمة اللّه في سياسة الأمم المشروعة هي لها

---

(١) أخرجه: أحمد (٦/ ٥٤) ومسلم (١/ ٥١٢-٥١٤/ ٧٤٦) وأبو داود (٢/ ٨٧-٨٨/ ١٣٤٢) والنسائي (٣/ ٢٢١-٢٢٢/ ١٦٠٠) وابن ماجه (١/ ٣٧٦/ ١١٩١) مختصرا.

(٢) التوبة: الآية (١٢٨).

(٣) آل عمران: الآية (١٥٩).

(٤) سيأتي تخريجه.

مثل شريعة التوراة فإنها أوسع الشرائع السالفة لتعلقها بأكثر أحوال الأفراد والجماعات، وهي رحمة كما وصفها اللّه بذلك في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِيٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾[1] فإن كثيرا من عقوبات أمتها جعلت في فرض أعمال شاقة على الأمة بفروض شاقة مستمرة قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾[2] وقال: ﴿فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾[3] إلى آيات كثيرة.

لا جرم أن اللّه تعالى خص الشريعة الإسلامية بوصف الرحمة الكاملة. وقد أشار إلى ذلك قوله تعالى فيما حكاه خطابا منه لموسى عليه السلام: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ﴾[4] الآية. ففي قوله تعالى: ﴿وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ إشارة إلى أن المراد رحمة هي عامة فامتازت شريعة الإسلام بأن الرحمة ملازمة للناس بها في سائر أحوالهم، وأنها حاصلة بها لجميع الناس لا لأمة خاصة.

وحكمة تمييز شريعة الإسلام بهذه المزية أن أحوال النفوس البشرية مضت عليها عصور وأطوار تهيأت بتطوراتها لأن تساس بالرحمة وأن تدفع عنها المشقة إلا بمقادير ضرورية لا تقام المصالح بدونها، فما في الشرائع السالفة من اختلاط الرحمة بالشدة، وما في شريعة الإسلام من تمحض الرحمة لم يجر في زمن من الأزمان إلا على مقتضى الحكمة، ولكن اللّه أسعد هذه الشريعة والذي جاء بها والأمة المتبعة لها بمصادفتها للزمن والطور الذي اقتضت حكمة اللّه في سياسة البشر أن يكون التشريع لهم تشريع رحمة إلى انقضاء العالم.

فأقيمت شريعة الإسلام على دعائم الرحمة والرفق واليسر. قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[5] وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[6] وقال النبي ﷺ: «**بعثت بالحنيفية السمحة**»[7].

---

(١) الأنعام: الآية (١٥٤).
(٢) النساء: الآية (١٦٠).
(٣) البقرة: الآية (٥٤).
(٤) الأعراف: الآيتان (١٥٦و١٥٧).
(٥) الحج: الآية (٧٨).
(٦) البقرة: الآية (١٨٥).
(٧) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٦٦) والطبراني (٨/ ٢٥٧/ ٧٨٦٨). وأورده الهيثمي في المجمع (٥/ ٢٧٩) وقال: «رواه أحمد والطبراني وفيه علي بن يزيد الألهاني وهو ضعيف»، وصححه بشواهده الشيخ الألباني في الصحيحة (٢٩٢٤).

وما يتخيل من شدة في نحو القصاص والحدود فإنما هو لمراعاة تعارض الرحمة والمشقة، كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾[١]. فالقصاص والحدود شدة على الجناة ورحمة ببقية الناس.

وأما رحمة الإسلام بالأمم غير المسلمين، فإنما نعني به رحمته بالأمم الداخلة تحت سلطانه، وهم أهل الذمة. ورحمته بهم عدم إكراههم على مفارقة أديانهم، وإجراء العدل بينهم في الأحكام بحيث لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم في الحقوق العامة.

هذا وإن أريد بـ(العالمين) في قوله تعالى: ﴿إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ النوع من أنواع المخلوقات ذات الحياة فإن الشريعة تتعلق بأحوال الحيوان في معاملة الإنسان إياه وانتفاعه به. إذ هو مخلوق لأجل الإنسان، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[٢] وقال تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧﴾[٣].

وقد أذنت الشريعة الإسلامية للناس في الانتفاع بما ينتفع به من الحيوان، ولم تأذن في غير ذلك. ولذلك كره صيد اللهو وحرم تعذيب الحيوان لغير أكله، وعد فقهاؤنا سباق الخيل رخصة للحاجة في الغزو ونحوه»[٤].

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أنه ما أرسل هذا النبي الكريم -صلوات الله وسلامه عليه- إلى الخلائق إلا رحمة لهم؛ لأنه جاءهم بما يسعدهم وينالون به كل خير من خير الدنيا والآخرة إن اتبعوه. ومن خالف ولم يتبع فهو الذي ضيع على نفسه نصيبه من تلك الرحمة العظمى. وضرب بعض أهل العلم لهذا مثلا قال: لو فجر الله عينا للخلق غزيرة الماء، سهلة التناول، فسقى الناس زروعهم ومواشيهم بمائها، فتتابعت عليهم النعم بذلك، وبقي أناس مفرطون كسالى عن العمل، فضيعوا نصيبهم من تلك العين، فالعين المفجرة في نفسها رحمة

(١) البقرة: الآية (١٧٩). (٢) البقرة: الآية (٢٩).
(٣) النحل: الآيات (٥-٧).
(٤) التحرير والتنوير (١٧/ ١٦٤-١٦٩).

من اللَّه، ونعمة للفريقين. ولكن الكسلان محنة على نفسه حيث حرمها ما ينفعها. ويوضح ذلك قوله تعالى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾﴾[1]. وقيل: كونه رحمة للكفار من حيث إن عقوبتهم أخرت بسببه، وأمنوا به عذاب الاستئصال. والأول أظهر.

وما ذكره -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: من أنه ما أرسله إلا رحمة للعالمين يدل على أنه جاء بالرحمة للخلق فيما تضمنه هذا القرآن العظيم. وهذا المعنى جاء موضحا في مواضع من كتاب اللَّه، كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾[2]، وقوله: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾[3] الآية»[4].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في كمال شفقته ﷺ على أمته

* عن أبي هريرة ﷺ قال: قيل يا رسول اللَّه، ادع على المشركين. قال: «**إني لم أبعث لعانا وإنما بعثت رحمة**»[5].

★ فوائد الحديث:

قال القرطبي: «قوله: «**إنما بعثت رحمة**» هذا كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾، أي: بالرسالة العامة، والإرشاد للهداية، والاجتهاد في التبليغ، والمبالغة في النصح، والحرص على إيمان الجميع، وبالصبر على جفائهم، وترك الدعاء عليهم، إذ لو دعا عليهم لهلكوا. وهذه الرحمة يشترك فيها المؤمن والكافر، أما رحمته الخاصة فلمن هداه اللَّه تعالى، ونور قلبه بالإيمان، وزين جوارحه بالطاعة، كما قال تعالى: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[6]، فهذا هو المغمور برحمة اللَّه، المعدود في زمرة الكائنين معه في مستقر كرامته، جعلنا اللَّه منهم، ولا حال بيننا وبينهم»[7].

---

(١) إبراهيم: الآية (٢٨).
(٢) العنكبوت: الآية (٥١).
(٣) القصص: الآية (٨٦).
(٤) أضواء البيان (٤/ ٦٩٤-٦٩٥).
(٥) أخرجه: البخاري في الأدب المفرد (٣٢١) ومسلم (٤/ ٢٠٠٧/ ٢٥٩٩).
(٦) التوبة: الآية (١٢٨).
(٧) المفهم (٦/ ٥٨٢-٥٨٣).

قال المناوي: «**«إني لم أبعث لعانا وإنما بعثت رحمة»** لمن أراد اللَّه إخراجه من الكفر إلى الإيمان، أو لأقرب الناس إلى اللَّه وإلى رحمته لا لأبعدهم عنها، فاللعن مناف لحالي فكيف ألعن»[١].

* عن عمرو بن أبي قرة قال: كان حذيفة بالمدائن فكان يذكر أشياء قالها رسول اللَّه ﷺ فجاء حذيفة إلى سلمان فيقول سلمان يا حذيفة إن رسول اللَّه ﷺ كان يغضب فيقول ويرضى ويقول لقد علمت أن رسول اللَّه ﷺ خطب فقال: «**أيما رجل من أمتي سببته سبة في غضبي أو لعنته لعنة فإنما أنا من ولد آدم أغضب كما يغضبون وإنما بعثني رحمة للعالمين فاجعلها صلاة عليه يوم القيامة**»[٢].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**اللهم فأيما مؤمن سببته فاجعل ذلك له قربة إليك يوم القيامة**»[٣].

★ فوائد الحديثين:

قوله ﷺ: «**اللهم فأيما مؤمن سببته فاجعل ذلك له قربة إليك يوم القيامة**».

قال النووي: «وفي رواية «**أو جلدته فاجعلها له زكاة ورحمة**» وفي رواية «**فأي المؤمنين أذيته شتمته لعنته جلدته فاجعلها له صلاة وزكاة وقربة تقربه بها إليك يوم القيامة**» وفي رواية «**إنما محمد بشر يغضب كما يغضب البشر وإني قد اتخذت عندك عهدا لن تخلفنيه، فأيما مؤمن أذيته أو سببته أو جلدته فاجعلها له كفارة وقربة**» وفي رواية «**إني اشترطت على ربي فقلت إنما أنا بشر أرضى كما يرضى البشر وأغضب كما يغضب البشر فأيما أحد دعوت عليه من أمتي بدعوة ليس لها بأهل أن تجعلها له طهورا وزكاة وقربة**» هذه الأحاديث مبينة ما كان عليه ﷺ من الشفقة على أمته والاعتناء بمصالحهم، والاحتياط لهم، والرغبة في كل ما ينفعهم. وهذه الرواية المذكورة آخرا تبين المراد بباقي الروايات المطلقة، وإنه إنما يكون دعاؤه عليه رحمة وكفارة وزكاة ونحو ذلك إذا لم يكن أهلا للدعاء عليه والسب واللعن ونحوه

---

(١) فيض القدير (٣/ ١٣).

(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ٤٣٧) والبخاري في الأدب المفرد (٢٣٤ وأبو داود (٥/ ٤٥-٤٦/ ٤٦٥٩) وصححه الألباني في الصحيحة (١٧٥٨).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٤٣) والبخاري (١١/ ٢٠٥/ ٦٣٦١) واللفظ له، ومسلم (٤/ ٢٠٠٩/ ٢٦٠١٩٢).

وكان مسلما وإلا فقد دعا ﷺ على الكفار والمنافقين ولم يكن ذلك لهم رحمة»[١].

قال المازري: «إن قيل: كيف يدعو ﷺ بدعوة على من ليس لها بأهل، وهذا مما لا يليق به ﷺ؟ قيل: المراد بقوله: «**ليس لها بأهل**» عندك في باطن أمره لا على ما يظهر إليه ﷺ مما تقتضيه حالته وجنايته حين دعائه عليه فكأنه ﷺ يقول: من كان باطن أمره عندك أنه ممن ترضى عنه فاجعل دعوتي عليه التي اقتضاها ما ظهر إلي من مقتضى حاله حينئذ طهورا وزكاة. وهذا معنى صحيح لا إحالة فيه وهو ﷺ متعبد بالظواهر، وحساب الناس في البواطن على اللّٰه تعالى»[٢].

قال الحافظ: «وهذا مبني على قول من قال: إنه كان يجتهد في الأحكام، ويحكم بما أدى إليه اجتهاده، وأما من قال: كان لا يحكم إلا بالوحي، فلا يتأتى منه هذا الجواب»[٣].

قال المازري: «فإن قيل: ما معنى قوله: «**وأغضب كما يغضب البشر**» وهذا يشير إلى أن تلك الدعوة وقعت بحكم سورة الغضب لا على أنها من مقتضى الشرع، فبقي السؤال على حاله. قيل: يحتمل أن يكون ﷺ أراد أن دعوته عليه أو سبه أو جلده كان مما خير بين فعله له عقوبة للجاني أو تركه والزجر له بما سوى ذلك، فيكون الغضب لله سبحانه بعثه على لعنته أو جلده، ولا يكون ذلك خارجا عن شرعه، ولا موقعا له فيما لا يجوز. ويحتمل أن يكون خرج هذا مخرج الإشفاق منه ﷺ وتعليم أمته الخوف من تعدي حدود اللّٰه تعالى، فكأنه ﷺ يظهر الإشفاق من أن يكون الغضب يحمله على زيادة يسيرة في عقوبة الجاني لولا الغضب ما زادها ولا أوقعها، ويكون ذلك من الصغائر على القول بجواز وقوعها من الأنبياء عليهم السلام أو إشفاقا منه ﷺ وإن لم يقع فيه، وقد يقع اللعن والسباب من غير قصد إليه فلا يكون في ذلك نازلا منزلة اللعنة الواقعة رغبة إلى اللّٰه سبحانه وطلبا للاستجابة فمثل هذه الطرائق ينبغي أن يسلك في مثل هذا الحديث»[٤].

قال الحافظ: «وأشار عياض إلى ترجيح هذا الاحتمال الأخير فقال: يحتمل أن

---

(١) شرح مسلم (١٦/ ١٢٤).
(٢) المعلم (٣/ ١٦٨).
(٣) الفتح (١١/ ٢٠٦).
(٤) المعلم (٣/ ١٦٨).

يكون ما ذكره من سب ودعاء غير مقصود ولا منوي، لكن جرى على عادة العرب في دعم كلامها وصلة خطابها عند الحرج والتأكيد للعتب لا على نية وقوع ذلك، كقولهم عقرى حلقى، وتربت يمينك، فأشفق من موافقة أمثالها القدر، فعاهد ربه ورغب إليه أن يجعل ذلك القول رحمة وقربة انتهى. وهذا الاحتمال حسن إلا أنه يرد عليه قوله: «**جلدته**» فإن هذا الجواب لا يتمشى فيه، إذ لا يقع الجلد عن غير قصد، وقد ساق الجميع مساقا واحدا إلا من حمل على الجلدة الواحد فيتجه. ثم أبدى القاضي احتمالا آخر فقال: كان لا يقول ولا يفعل ﷺ في حال غضبه إلا الحق، ولكن غضبه لله قد يحمله على تعجيل معاقبة مخالفه وترك الإغضاء والصفح، ويؤيده حديث عائشة «**ما انتقم لنفسه قط إلا أن تنتهك حرمات الله**»[1] وهو في الصحيح. قلت: فعلى هذا فمعنى قوله: «**ليس لها بأهل**» أي من جهة تعين التعجيل»[2].

قال القرطبي: «ظاهر هذا: أنه خاف أن يصدر عنه في حال غضبه شيء من تلك الأمور فيتعلق به حق مسلم، فدعا اللّٰه تعالى، ورغب إليه في أنه: إن وقع منه شيء من ذلك لغير مستحق في ألا يفعل بالمدعو عليه مقتضى ظاهر ذلك الدعاء، وأن يعوضه من ذلك مغفرة لذنوبه، ورفعة في درجاته، فأجاب اللّٰه تعالى طلبة نبيه ﷺ ووعده بذلك، فلزم ذلك بوعده الصدق، وقوله الحق، وعن هذا عبر النبي ﷺ بقوله: «**شارطت ربي**»، و«**شرط علي ربي**»، و«**اتخذت عنده عهدا لن يخلفنيه**» لا أن اللّٰه تعالى يشترط عليه شرط، ولا يجب عليه لأحد حق، بل: ذلك كله بمقتضى فضله، وكرمه على حسب ما سبق في علمه. فإن قيل: فكيف يجوز أن يصدر من النبي ﷺ لعن، أو سب، أو جلد لغير مستحقه، وهو معصوم من مثل ذلك في الغضب، والرضا؛ لأن كل ذلك محرم وكبيرة، والأنبياء معصومون عن الكبائر، إما بدليل العقل، أو بدليل الإجماع كما تقدم؟

قلت: قد أشكل هذا على العلماء، وراموا التخلص من ذلك بأوجه متعددة، أوضحها وجه واحد، وهو: أن النبي ﷺ إنما يغضب لما يرى من المغضوب عليه من مخالفة الشرع، فغضبه لله تعالى لا لنفسه؛ فإنه ما كان يغضب لنفسه، ولا ينتقم

---

(١) أخرجه: أحمد (٦/ ١١٤) والبخاري (٦/ ٧٠٢/ ٣٥٦٠) ومسلم (٤/ ١٨١٣/ ٢٣٢٧[٧٧]) وأبو داود (٥/ ١٤٢/ ٤٧٨٥) والترمذي في الشمائل (٣٠٠).

(٢) الفتح (١١/ ٢٠٦).

لها، وقد قررنا في الأصول: أن الظاهر من غضبه تحريم الفعل المغضوب من أجله. وعلى هذا فيجوز له: أن يؤدب المخالف له باللعن والسب والجلد والدعاء عليه بالمكروه، وذلك بحسب مخالفة المخالف، غير أن ذلك المخالف قد يكون ما صدر منه فلتة أوجبتها غفلة، أو غلبة نفس، أو شيطان، وله فيما بينه وبين اللَّه تعالى عمل خالص، وحال صادق يدفع اللَّه عنه بسبب ذلك أثر ما صدر عن النبي ﷺ له من ذلك القول، أو الفعل. وعن هذا عبر النبي ﷺ بقوله: «**فأيما أحد دعوت عليه من أمتي بدعوة ليس لها بأهل أن تجعلها له طهورا، وزكاة، وقربة تقربه بها يوم القيامة**» أي: عوضه من تلك الدعوة بذلك، واللَّه تعالى أعلم.

قلت: وقد يدخل في قوله: «**أيما أحد من أمتي دعوت عليه**»: الدعوات الجارية على اللسان من غير قصد للوقوع، كقوله: «**تربت يمينك**» و«**عقرى حلقى**». ومن هذا النوع قوله لليتيمة: «**لا كبر سنك**»؛ فإن هذه لم تكن عن غضب، وهذه عادة غالبة في العرب يصلون كلامهم بهذه الدعوات، ويجعلونها دعاما لكلامهم من غير قصد منهم لمعانيها»[١].

قال ابن بطال: «هذا الحديث يصدقه ما ذكره اللَّه تعالى في كتابه من صفة رسوله ﷺ في قوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾[٢]. وهو ﷺ لا يسب أحدا ولا يؤذيه ظلما له، وإنما يفعل من ذلك الواجب في شريعته، وقد يدع الانتقام لنفسه، لما جبله اللَّه عليه من العفو وكريم الخلق ﷺ، ومعنى هذا الحديث واللَّه أعلم، التأنيس للمسبوب لئلا يستولي عليه الشيطان، ويقنطه ويوقع بنفسه أن سيلحقه من ضرر سبه ما يحبط به عمله إذا سبه ﷺ هو دعاء على المسبوب، ودعاؤه مجاب، فسأل اللَّه أن يجعل سبه للمؤمنين قربة عنده يوم القيامة وصلاة ورحمة، ولا يجعله نقمة ولا عذابا»[٣].

وقال الحافظ: «وفي هذا الحديث كمال شفقته ﷺ على أمته وجميل خلقه،

(١) المفهم (٦/ ٥٨٣-٥٨٥).
(٢) التوبة: الآية (١٢٨).
(٣) شرح صحيح البخاري (١٠/ ١١٥-١١٦).

وكرم ذاته حيث قصد مقابلة ما وقع منه بالجبر والتكريم، وهذا كله في حق معين وفي زمن واضح، وأما ما وقع منه بطريق التعميم لغير معين حتى يتناول من لم يدرك زمنه ﷺ فما أظنه يشمله، والله أعلم»[1].

* * *

---

(١) الفتح (١١/٢٠٦).

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد: ما يوحي إلي ربي إلا أنه لا إله لكم يجوز أن يعبد إلا إله واحد، لا تصلح العبادة إلا له، ولا ينبغي ذلك لغيره ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ يقول: فهل أنتم مذعنون له أيها المشركون العابدون الأوثان والأصنام بالخضوع لذلك، ومتبرئون من عبادة ما دونه من آلهتكم»[1].

قال ابن عاشور: «عقب الوصف الجامع لرسالة محمد ﷺ من حيث ما لها من الأثر في أحوال البشر بوصف جامع لأصل الدعوة الإسلامية في ذاتها الواجب على كل متبع لها، وهو الإيمان بوحدانية اللَّه تعالى، وإبطال إلهية ما سواه، لنبذ الشرك المبثوث بين الأمم يومئذ. وللاهتمام بذلك صدرت جملته بالأمر بأن يقول لهم لاستصغاء أسماعهم.

وصيغت الجملة في صيغة حصر الوحي إليه في مضمونها لأن مضمونها هو أصل الشريعة الأعظم، وكل ما تشتمل عليه الشريعة متفرع عليه، فالدعوة إليه هي مقادة الاجتلاب إلى الشريعة كلها، إذ كان أصل الخلاف يومئذ بين الرسول ومعانديه هو قضية الوحدانية ولذلك قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾[2].

وما كان إنكارهم البعث إلا لأنهم لم يجدوه في دين شركهم إذ كان الذين وضعوا لهم الشرك لا يحدثونهم إلا عن حالهم في الدنيا فما كان تصلبهم في إنكار البعث إلا شعبة من شعب الشرك. فلا جرم كان الاهتمام بتقرير الوحدانية تضييقا لشقة الخلاف بين النبي وبين المشركين المعرضين الذين افتتحت السورة بوصف

(١) جامع البيان (١٧/ ١٠٧).

(٢) ص: الآية (٥).

حالهم بقوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾»[1].

* * *

(١) التحرير والتنوير (١٧/ ١٧٠-١٧١).

قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ١٠٩﴾

★ **غريب الآية:**

آذنتكم على سواء: أعلمتكم حتى صرت أنا وأنتم في العلم به سواء.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: فإن أدبر هؤلاء المشركون يا محمد عن الإقرار بالإيمان بأن لا إله لهم إلا إله واحد فأعرضوا عنه وأبوا الإجابة إليه فقل لهم قد ﴿ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ يقول: أعلمهم أنك وهم على علم من أن بعضكم لبعض حرب، لا صلح بينكم ولا سلم.

وإنما عني بذلك قوم رسول اللّه ﷺ من قريش كما حدثنا القاسم قال: ثنا الحسين قال: ثني حجاج عن ابن جريج قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ فإن تولوا: يعني قريشًا.

وقوله: ﴿وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ يقول -تعالى ذكره- لنبيه: قل وما أدري متى الوقت الذي يحل بكم عقاب اللّه الذي وعدكم فينتقم به منكم أقريب نزوله بكم أم بعيد؟»[1].

قال ابن كثير: «﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ أي تركوا ما دعوتهم إليه ﴿فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أي أعلمتكم أني حرب لكم، كما أنكم حرب لي، بريء منكم كما أنتم براء مني كقوله: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾[2] وقال: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾[3] أي ليكن علمك وعلمهم بنبذ العهود على السواء، وهكذا ههنا ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أي أعلمتكم ببراءتي منكم وبراءتكم مني لعلمي بذلك.

(١) جامع البيان (١٧/ ١٠٧).

(٢) يونس: الآية (٤١).

(٣) الأنفال: الآية (٥٨).

وقوله: ﴿وَإِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ أي هو واقع لا محالة، ولكن لا علم لي بقربه ولا ببعده»[1].

قال الرازي: «أما قوله: ﴿وَإِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ ففيه وجهان:

أحدهما: ﴿أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ من يوم القيامة، ومن عذاب الدنيا ثم قيل: نسخه قوله: ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾[2] يعني منهما، فإن مثل هذا الخبر لا يجوز نسخه.

وثانيها: المراد أن الذي آذنهم فيه من الحرب لا يدري هو قريب أم بعيد لئلا يقدر أنه يتأخر كأنه تعالى أمره بأن ينذرهم بالجهاد الذي يوحى إليه أن يأتيه من بعد ولم يعرفه الوقت، فلذلك أمره أن يقول: إنه لا يعلم قربه أم بعده. تبين بذلك أن السورة مكية، وكان الأمر بالجهاد بعد الهجرة.

وثالثها: أن ما يوعدون به من غلبة المسلمين عليهم كائن لا محالة ولا بد أن يلحقهم بذلك الذل والصغار، وإن كنت لا أدري متى يكون، وذلك لأن اللّٰه تعالى لم يطلعني عليه»[3].

قال الشنقيطي: «قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ أي أعرضوا وصدوا عما تدعوهم إليه ﴿فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أي أعلمتكم أني حرب لكم كما أنكم حرب لي، بريء منكم كما أنتم برآء مني. وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية أشارت إليه آيات أخر، كقوله: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾[4] أي ليكن علمك وعلمهم بنبذ العهود على السواء. وقوله تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾[5]. وقوله: ﴿ءَاذَنتُكُمْ﴾ الأذان: الإعلام. ومنه الأذان للصلاة. وقوله تعالى: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾[6] الآية، أي إعلام منه، قوله: ﴿فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾[7] الآية، أي اعلموا. ومنه قول الحرث بن حِلِّزَة:

آذنتنا ببينها أسماء ... رب ثاو يمل منه الثواء

يعني أعلمتنا ببينها»[8].

---

(1) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣٨٢-٣٨٣).
(2) الأنبياء: الآية (٩٧).
(3) التفسير الكبير (٢٢/ ٢٣٤).
(4) الأنفال: الآية (٥٨).
(5) يونس: الآية (٤١).
(6) التوبة: الآية (٣).
(7) البقرة: الآية (٢٧٩).
(8) أضواء البيان (٤/ ٦٩٥).

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: قل لهؤلاء المشركين إن اللَّه يعلم الجهر الذي تجهرون به من القول، ويعلم ما تخفونه فلا تجهرون به سواء عنده خفيه وظاهره، وسره وعلانيته، إنه لا يخفى عليه منه شيء، فإن أخر عنكم عقابه على ما تخفون من الشرك به أو تجهرون به فما أدري ما السبب الذي من أجله يؤخر ذلك عنكم؟ لعل تأخيره ذلك عنكم مع وعده إياكم، لفتنة يريدها بكم، ولتتمتعوا بحياتكم إلى أجل قد جعله لكم تبلغونه، ثم ينزل بكم حينئذ نقمته»[١].

قال الرازي: «المقصود منه الأمر بالإخلاص وترك النفاق، لأنه تعالى إذا كان عالما بالضمائر وجب على العاقل أن يبالغ في الإخلاص.

أما قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾﴾ ففيه وجوه:

أحدها: لعل تأخير العذاب عنكم.

وثانيها: لعل إبهام الوقت الذي ينزل بكم العذاب فيه فتنة لكم أي بلية واختبار لكم ليرى صنعكم وهل تحدثون توبة ورجوعا عن كفركم أم لا.

وثالثها: قال الحسن: لعل ما أنتم فيه من الدنيا بلية لكم والفتنة البلوى والاختبار.

ورابعها: لعل تأخير الجهاد فتنة لكم إذا أنتم دمتم على كفركم، لأن ما يؤدي إلى الضرر العظيم يكون فتنة، وإنما قال لا أدري لتجويز أن يؤمنوا فلا يكون تبقيتهم فتنة بل ينكشف عن نعمة ورحمة.

وخامسها: أن يكون المراد وإن أدري لعل ما بينت وأعلمت وأوعدت فتنة لكم،

---

(١) جامع البيان (١٧/ ١٠٧-١٠٨).

لأنه زيادة في عذابكم إن لم تؤمنوا لأن المعرض عن الإيمان مع البيان حالا بعد حال يكون عذابه أشد، وإذا متعه اللَّه تعالى بالدنيا يكون ذلك كالحجة عليه»[١].

قال ابن كثير: «﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ۝١١٠﴾ أي إن اللَّه يعلم الغيب جميعه، ويعلم ما يظهره العباد وما يسرون، يعلم الظواهر والضمائر، ويعلم السر وأخفى، ويعلم ما العباد عاملون في أجهارهم وأسرارهم، وسيجزيهم على ذلك القليل والجليل وقوله: ﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ۝١١١﴾ أي: وما أدري لعل هذا فتنة لكم ومتاع إلى حين»[٢].

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أنه يعلم ما يجهر به خلقه من القول، ويعلم ما يكتمونه. وقد أوضح هذا المعنى في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝١٣﴾[٣]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾[٤] في الموضعين، وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾[٥]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ۝١٦﴾[٦]، وقوله: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧﴾[٧] إلى غير ذلك من الآيات»[٨].

* * *

(١) التفسير الكبير (٢٢/ ٢٣٤).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣٨٣).
(٣) الملك: الآية (١٣).
(٤) المائدة: الآية (٩٩).
(٥) البقرة: الآية (٣٣).
(٦) ق: الآية (١٦).
(٧) طه: الآية (٧).
(٨) أضواء البيان (٤/ ٦٩٦).

قوله تعالى: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: قل يا محمد: يا رب افصل بيني وبين من كذبني من مشركي قومي وكفر بك، وعبد غيرك بإحلال عذابك ونقمتك بهم، وذلك هو الحق الذي أمر اللَّه تعالى نبيه أن يسأل ربه الحكم به، وهو نظير قوله -جل ثناؤه-: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾[١]. . وقوله: ﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ يقول -جل ثناؤه-: وقل يا محمد: وربنا الذي يرحم عباده ويعمهم بنعمته الذي أستعينه عليكم فيما تقولون وتصفون من قولكم لي فيما أتيتكم به من عند اللَّه ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾[٢] وقولكم: ﴿بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾[٣] وفي كذبكم على اللَّه -جل ثناؤه- وقيلكم ﴿ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾[٤] فإنه هين عليه تغيير ذلك، وفصل ما بيني وبينكم بتعجيل العقوبة لكم، على ما تصفون من ذلك»[٥].

قال الرازي: «فيه وجوه:

أحدها: أي: ربي اقض بيني وبين قومي بالحق أي بالعذاب. كأنه قال: اقض بيني وبين من كذبني بالعذاب، وقال قتادة: أمره اللَّه تعالى أن يقتدي بالأنبياء في هذه الدعوة وكانوا يقولون: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾[٦] فلا جرم حكم اللَّه تعالى عليهم بالقتل يوم بدر.

وثانيها: افصل بيني وبينهم بما يظهر الحق للجميع وهو أن تنصرني عليهم.

أما قوله تعالى: ﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ ففيه وجهان:

أحدهما: أي من الشرك والكفر وما تعارضون به دعوتي من الأباطيل والتكذيب

---

(١) الأعراف: الآية (٨٩).
(٢) الأنبياء: الآية (٣).
(٣) الأنبياء: الآية (٥).
(٤) مريم: الآية (٨٨) والأنبياء: الآية (٢٦).
(٥) جامع البيان (١٧/ ١٠٨-١٠٩).
(٦) الأعراف: الآية (٨٩).

كأنه سبحانه قال: قل داعيا لي: ﴿رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ وقل متوعدا للكفار: ﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ قرأ ابن عامر بالياء المنقوطة من تحت، أي قل لأصحابك المؤمنين، وربنا الرحمن المستعان على ما يصف الكفار من الأباطيل، أي من العون على دفع أباطيلهم.

وثانيها: كانوا يطمعون أن تكون لهم الشوكة والغلبة فكذب اللَّه ظنونهم وخيب آمالهم ونصر رسوله ﷺ والمؤمنين وخذلهم»[1].

قال السعدي: «﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بيننا وبين القوم الكافرين، فاستجاب اللَّه هذا الدعاء، وحكم بينهم في الدنيا قبل الآخرة، بما عاقب اللَّه به الكافرين من وقعة «بدر» وغيرها.

﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ أي: نسأل ربنا الرحمن، ونستعين به على ما تصفون، من قولكم سنظهر عليكم، وسيضمحل دينكم، فنحن في هذا، لا نعجب بأنفسنا، ولا نتكل على حولنا وقوتنا، وإنما نستعين بالرحمن، الذي ناصية كل مخلوق بيده، ونرجوه أن يتم ما استعناه به من رحمته، وقد فعل، ولله الحمد»[2].

قال ابن عاشور: «استئناف ابتدائي بعدما مضى من وصف رسالة محمد ﷺ وإجمال أصلها وأمره بإنذارهم وتسجيل التبليغ. قصد من هذا الاستئناف التلويح إلى عاقبة أمر هذا الدين المرجوة المستقبلة لتكون قصة هذا الدين وصاحبه مستوفاة المبدأ والعاقبة على وزان ما ذكر قبلها من قصص الرسل السابقين من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً﴾[3] إلى هنا.

وفي أمر اللَّه تعالى نبيه ﷺ بالالتجاء إليه والاستعانة به بعد ما قال له: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ رمز إلى أنهم متولون لا محالة، وأن اللَّه سيحكم فيهم بجزاء جرمهم لأن الحكم بالحق لا يغادرهم، وإن اللَّه في إعانته لأن اللَّه إذا لقن عباده دعاء فقد ضمن لهم إجابته كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾[4] ونحو ذلك، وقد صدق اللَّه وعده، واستجاب لعبده، فحكم في هؤلاء

---

(١) التفسير الكبير (٢٢/ ٢٣٤-٢٣٥).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٢٦٩).
(٣) الأنبياء: الآية (٤٨).
(٤) البقرة: الآية (٢٨٦).

المعاندين بالحق يوم بدر.

والمعنى: قل ذلك بمسمع منهم إظهارا لتحديه إياهم بأنه فوض أمره إلى ربه ليحكم فيهم بالحق الذي هو خَضْدُ شوكتهم وإبطال دينهم؛ لأن اللَّه يقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق»[١].

قال الشنقيطي: «ما أمره أن يقوله هنا قاله نبي اللَّه شعيب كما ذكره اللَّه عنه في قوله: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾[٢]. وقوله: ﴿ٱفْتَحْ﴾ أي احكم كما تقدم. وقوله: ﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ أي تصفونه بألسنتكم من أنواع الكذب بادعاء الشركاء والأولاد وغير ذلك. كما قال تعالى: ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ﴾[٣] الآية، وقال: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ﴾[٤] الآية. وما قاله النبي ﷺ في هذه الآية قاله يعقوب لما علم أن أولاده فعلوا بأخيهم يوسف شيئًا غير ما أخبروه به. وذلك في قوله: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[٥] والمستعان: المطلوب منه العون. والعلم عند اللَّه تعالى»[٦].

قال الرازي: «قال القاضي: إنما ختم اللَّه هذه السورة بقوله: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ لأنه ﷺ كان قد بلغ في البيان الغاية لهم، وبلغوا النهاية في أذيته وتكذيبه، فكان قصارى أمره تعالى بذلك تسلية له وتعريفا أن المقصود مصلحتهم، فإذا أبوا إلا التمادي في كفرهم، فعليك بالانقطاع إلى ربك ليحكم بينك وبينهم بالحق، إما بتعجيل العقاب بالجهاد أو بغيره، وإما بتأخير ذلك فإن أمرهم وإن تأخر فما هو كائن قريب، وما روي أنه ﷺ كان يقول ذلك في حروبه كالدلالة على أنه تعالى أمره أن يقول هذا القول كالاستعجال للأمر بمجاهدتهم. وباللَّه التوفيق»[٧].

* * *

(١) التحرير والتنوير (١٧/ ١٧٥).
(٢) الأعراف: الآية (٨٩).
(٣) النحل: الآية (٦٢).
(٤) النحل: الآية (١١٦).
(٥) يوسف: الآية (١٨).
(٦) أضواء البيان (٤/ ٦٩٦).
(٧) التفسير الكبير (٢٢/ ٢٣٥).

فهرس الموضوعات

سورة طه

سورة الأنبياء

* * *